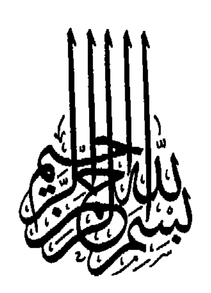


الأحلام وقواها الخفية

تأليف : الدكتورة أن فاراداي

ترجمة وتعليق وتقديم
الدكتور عبد العلّي الجسماني

الأحــــلام
وقــواها الخفيــة



الطبعة الأولى

1415 هـ - 1995 م



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

بناية الريم - شارع ساقية الجنزير - عين التينة
هاتف 861311 - 860138 - 811385
ص ب 13/5574 بيروت - لبنان
هاتف وفاكس دولي 4782486 (212) 001



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/٨
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الأحلام وقواها الخفية

تأليف
الدكتورة آن فراداي

ترجمة وتعليق وتقديم
الدكتور عبد العليّ الجسماني





محتويات الكتاب

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

القسم الثاني : رواد في مجال الأحلام

الفصل السادس :

الفصل السابع :

القسم الثالث : الأوجه الثلاثة للحلم

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

الفصل العاشر :

القسم الرابع : التطلع الى المستقبل

الفصل الحادي عشر :

الفصل الثاني عشر :

ملاحق ......

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

(قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) سورة يوسف / الآية ٥.

كان هذا جواب يعقوب، وهو النبي، لأبنه يوسف الفتى اذ قص على أبيه حلمه وهو: (إذ قال يوسف لأبيه يا أبتي إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) سورة يوسف / الآية ٤ . قدمنا الجواب على مدلول الرؤيا للبرهان المستبان. فلو أنزل يعقوب رؤيا ابنه منزلة الحدث العابر لما نصحه بعدم إفشاء متضمنات ذلك الحلم المنبيء عن شيء خطير في مستقبل إبنه الفتى وإخوته الكبار. إذ عرف الأب بشفافية النبوة وفطرة الأبوة إن غيرة الأخوة الكبار ستثار لو عرفوا بمستقبل آخر تكون فيه اليد العليا لأخ لهم ما فتيء يافعاً. ولكن لا محيص من المقدور، والقصة كاملة لا تخلو من عبرة. وما حلم الفرعون بالحلم التنسى عبره وعظاته.

في الآية (٤٣) من سورة الأنفال نقرأ قوله تعالى : (إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور.) عندما نتابع دلالة الآية الكريمة هذه في التفاسير نجدها كلها تجمع على أن الله سبحانه صور للرسول الكريم ﷺ، في منامه جيش الأعداء في قلة لتطمئن قلوب المؤمنين، وبذلك ترتفع الروح المعنوية للمسلمين من شك في أن العزم والصبر يصنعان النصر المبين. وفي رؤيا ابراهيم (عليه السلام) بأن يذبح إبنه اسماعيل بعد إتمام بناء الكعبة وإقدام الأب على تنفيذ أمر جاءه في المنام، تكريس لمكانة الأحلام في حياة البشر. ولأهمية الأحلام في حياة الانسان، انه أثر عن الرسول ﷺ ، قوله :

(ذهبت النبوة وبقيت المبشرات) ولما سئل عليه الصلاة والسلام، عن المبشرات قال (الأحلام)، وعدها درجة من ست وأربعين درجة من النبوءة. وتراثنا زاخر بأمثلة عن الأحلام ومدى اهتمام أجدادنا بها لعلمهم الراسخ انها جزء من شخصية الانسان وحياته غير الظاهرة للعيان. وهذا ما أماط عنه اللثام العلم الحديث وبخاصة التحليل النفسي والأحلام وأن التحليل النفسي ليعول كثيراً على الأحلام في الكشف عما أستبهم من دخيلة الانسان.

فأبن سيرين، مثلاً، (ت ٧٢٨م)، أحد رواة الحديث بالبصرة، اشتهر بالورع، كان حجة في تعبير الرؤيا، وله فيه كتاب. وعبدالغني النابلسي (ت ١١٤٣م) كان معروفاً بالتقوى والاجتهاد في العلم، أخذ الكثير عن ابن سيرين وأضاف اليه من جهده الذاتي، لما رأى ان الأحلام حياة أخرى للانسان لا ينبغي اغفالها. ولابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) باع في اقرار قيمة الأحلام ومكانتها من سلوكية الفرد اليومية. وهذا ابن خلدون (ت ١٤٠٦م) يذهب الى ما ينطبق على أحدث النظريات في الأحلام، اذ يقول:

(أما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات...) ويستطرد في بيان أسباب حدوث الحلم وبأي الوقائع يأتي وكيف بها ينبىء. ويؤكد ابن خلدون: (الرؤيا موجودة في صنف البشر على الاطلاق ولا بد من تعبيرها).

على مدى العصور جميعها، كانت الأحلام وما زالت، تخلب لب الانسان وتثير فيه مختلف الانفعالات سلباً او ايجاباً بل انها كثيراً ما أوحت وأدت الى اكتشافات واختراعات، ومن يقرأ عن الأحلام وبعض قصص المخترعين يجد امثلة كثيرة تدلل على ذلك. فجالينوس، مثلاً ،كان قد قال: (عمدت الى فصد العروق الضوارب لأني أمرت بذلك مرتين في منامي).

فالأحلام على اختلاف نظرياتها وتعددها، يكاد ينعقد الاجماع بين المعنيين بها والمتتبعين لها من المحدثين، على انها (رسائل نابعة من الذات

وموجهة الى الذات). وان ما يذهب اليه المثل السائر بين هنود اميركا : (احترم أحلام إخوانك) لا ينأى بعيداً عن القول المألوف : (الليل يأتينا بالنصيحة)، وهو مثل ينطوي على ما في الأحلام من جوانب تتيح للفرد المكروب مثلاً متنفساً يخفف عنه الضيق النفسي عندما يكون الحلم ساراً أو كيف يحس المرء بالضيق بعد حلم لا تروقه أحداثه.

وتذهب مؤلفة هذا الكتاب لتقول قول الواثق بعد طول البحث والتمحيص في علم الأحلام : (وكلما تقدم الآباء والمعلمون في تعلم سطوة الحلم وقواه في حياتهم الخاصة، فسيكون بمقدورهم الأخذ بأيدي أبنائهم ليتفهموا ما يجلو لهم الألغاز التي تحصل لهم خلال النوم في الليل..) وتذكر المؤلفة في ثنايا كتابها كيف تحول قبيلة (السينوي) ما يطرأ من أحلام قلق وفزع لدى أطفالها الى عناصر قوة وعوامل تربوية والى جوانب متعة وبهجة. والتفصيلات ممتعة حقاً. والمؤلفة تنصح الحالم بأن يعامل الحلم وكأنه مرآة يرى خلالها ما هناك من متناقضات في أعماق شخصيته.

وهذا الكتاب يضم بين دفتيه ما جمعت فيه مؤلفته، الدكتورة آن فاراداي، بين التجريب العلمي وأحداث خبرات الحياة الانسانية، وبه أحرزت درجة الدكتوراه الجامعية، وان قارئه سيلمس بنفسه المتعة وسيحس الدهش سيرى كم سبر العلم أغوارا من شخصية الانسان، ومع هذا فهو لما يزل واقفاً منها على مقربة من شواطئها ومن ورائها انفساح الأفق البعيد ومن مفاتيح الكشف عن الشخصية الانسانية هذه هي الأحلام.

وقد أحسنت المؤلفة صنعاً في توظيف علم الأحلام علمياً وتجريبياً في حياة الفرد والمجتمع على حد سواء، وان الربط المحكم هذا، والمشفوع بالبراهين والاقناع، قد أكسب الكتاب ميزة تقترن بخصيصة سيلمسها القارىء الكريم بنفسه. فلا غرو ان يظفر بتقريظ واسع، كما هو مثبت في مطالع صفحاته، فلا عجب بعد أن طبعت منه في طبعته الأولى أكثر من نصف مليون نسخة. وقد ترجمته الى العربية وكل وكدي ازجاء المنفعة

العلميـة والله المستعان، وهو علام الغيوب، فلا يحده زمان ولا مكان.

عبد العليّ الجسماني

قالوا في هذا الكتاب تقريظاً

هـذه آراء صـدرت عن كـتـاب مـرمـوقين وصـحـافـة مـعـروفـة واسـعـة الانتـشـار، كلهـا أشـادة بأهميـة هذا الكتـاب في حـيـاة الانسـان الوجـدانيـة والاجتماعية .

[تعلم كيف تستعمل المعرفة الذاتية الفعالة الكامنة هناك في أحلامك .]

[اذا أنت شئت أن تدرك أو تفـهم على نحـو جـيـد المعـرفة أو المعلومات التي تعـاود حـيـاتك العـقلية الشعورية وتلح عليها، فما عليك الا أن تتفهم أحلامك، فهي تنبؤك عن :

* احـاسـيسك الواقعية ومشاعرك الحقيقية والمثيرة عن الآخرين.

* عما أنت راغب فـيـه حـقـاً ومـا أنت فـيـه من مـوقف مـضطرب، وما يحتمل أن ينجم مما توصل اليه وما قد تحصل عليه.

* بل انها احـيـاناً تنبـؤك عما سـيحدث وعما سيقع ـ وذلك حين يستعمل حلمك مـعلومات كان عقلك الواعي قد أهملها وكان قد اغفلها.

* فـاللاشـعـور عندك، وحياتك غير الواعية لديك، يعرف اشياء انت لم تكتـشـفـهـا ولم تعـرف بعد عنها شيئاً. فحياتك الواعية تحاول ان تقول لك شـيئاً مـعـيناً وذلك عندمـا تعـاودك كل ليلة من ليـالي نومك. والدكـتورة آن فـاراداي، وهـي واحـدة مـن رواد الـعـلاج النفسي بواسطة استكناه مـعـاني الأحـلام، توضح ذلك كـيف يمكنك ان تتـذكـر وأن تدون، وأن تفـيد من هذه الرسـائل والاشـارات التي كانت في يوم ما محيرة للألباب .]

***

[أسـتطيع القـول على وجـه التأكيد تقريباً بأن مجمل حياتك كلها سيكون مختلفـاً تمامـاً لو أنك قـرأت ودرست هذا الكتـاب ـ أحـلامنا ترجمة لحـيـاتنا الواعـيـة ولعلك تسألني : لماذا أوصي بقـراءته بوصفه واحداً من أهم الكتب التي تنطوي حـتى الآن على نصـائح التثقيف الذاتي؟ ذلك لأن هذا الكتاب قد غير مجرى حياتي .]

***

[انه لكتاب يشبع رغبة هواة الأحلام ويرضي مطامح المولعين بمعنى الحلم، انه يعطيك أفكاراً أشبه بجولة الطباخ الماهر، مثيراً للجدل والنقاش عن حياتنا العقلية ليلا.]

***

[انه لكتاب مثير وباعث على التحفيز، فهو مشجع على سبر أغوار أحلامنا وشخصياتنا. وهو يمثل المرحلة الأولى في استكشاف مثير. انه لمؤلف بسيط يمكنك من تفسير أحلامك بنفسك.]

***

[إن أحلامنا، عندما تحلل تحليلاً ذكياً، يصبح بوسعها أن تمنحنا التبصر بحقيقة علاقاتنا بالآخرين. فهذا الكتاب يقدم عملية ذات مراحل ثلاث تمكن الحالم من فحص أحلامه وتأملها على عدة أوجه وبعدة معانٍ فثمة رسائل واشارات بالغة الأهمية يمكن ان تظهر بشكلها الموضوعي على ذلك المستوى. يا لها من أمثلة مشهودة ومثيرة للدهشة.]

***

[انها لطريقة أخاذة باتجاه الطرق على أبواب ما للحلم من قوة تكمن فينا جميعاً. مثير للاعجاب وأنت تقرؤه، وهو في الغالب مشوق تماما ـ مع اشارات بارعة الى احلام المؤلفة نفسها. ونظريتها المتضمنة في كتابها هذا، هي مزيج متميز لآراء مشاهير علماء النفس المعنيين بالأحلام، أمثال كارل يونج، كالفن هول، وفريدريك بيرلز، المتمرس بنظرية الجشتالت.]

***

[انه لكتاب فائق الجودة عن الأحلام وأهميتها البالغة في حياة الفرد. وإني لأرجو أن أرى عدداً كبيراً من الناس يقرأون هذا المؤلف المكتوب باسلوب رشيق.]

***

[بتفصيل واضح وبعدد من الأمثلة كبير، نجد الدكتورة فاراداي تفسر وتشرح أساليب فنية كالتداعي الحر - وهو أن تقول كل ما يطرأ على ذهنك وأنت تعيد ما رأيت في الحلم - وأن تمثل دور كل شخص أو شيء شاهدته في حلمك، أو حمل الحالم على أن يقوم بالحوار يدور بين شخصين اثنين من شخصيات الحلم.]

***

[انه لكتاب ممتع وشامل. ويبدو واضحاً أن الدكتورة فاراداي قد استخلصت من أحلامها الخاصة معرفة ذاتية ساعدتها على فهم الأحلام مساعدة كبرى.]

***

[تلك كانت بعض الآراء التي عبرت عنها كبريات الصحف المعروفة كاالواشنطن بوست وسواها، وبعض تقريظات مشاهير علماء الناس أمثال كالفن هول، والفن توفلر مؤلف كتاب : صدمة المستقبل، وكتاب : الموجة الثالثة.]

[آن فراداي تنظر الى ظاهرة الأحلام من خلال عدسات لامة جامعة. وللسيدة فراداي من خلفيتها العلمية ما يمكنها من بحث الموضوع على نحو يبعث على الاعجاب. فهي تؤمن بأنه ينبغي بألا ندع البحث في الأحلام أو نكله للمعالج النفساني وحده، وانما يترتب بل يتعين على كل واحد منا أن يعمق معرفته الذاتية بظاهرة الأحلام عن طريق تحليل أحلامنا، وأن يعكف كل منا على تحليل أحلامه تحليلاً ذاتيا.. انه لكتاب مرموق.]

الفن توفلر : مؤلف كتاب : صدمة المستقبل

فضلاً عن ذلك، فان المؤلفة صدرت كتابها هذا بقول إقتبسته من قول سدني جورارد مؤلف كتاب «الشخصية السوية أو السليمة Healthy Personalaity (١) يذكر :

---

(١) نقلة إلى اللغة العربية الدكتور حمد الكربولي (المترجم).

[نبـدأ رحلة حيـاتنا في هذا العـالم فـيـبدي لنا نفسه على حقيقته كما هو. فيتفق أن يعرض في حياتنا شخص معين آخر ـ كالأبوين، أو المعلمين، أو المحللين النفـسـانيين ـ فيروح يوحي الينا ايحاء بأن نرى عـالمنا هذا وننظر اليه نظرة صـحـيـحـة حسب تفسيرهم هم. وهؤلاء الآخرون يسمون العالم بسمة خـاصـة، ويلصـقـون به من الأسماء وينسبون أصواتاً الى ما فيه من كائنات واحـداث، فـيترتب على ذلك في مـا بعـد، اننا لا نستطيع ان نقرأ معالم هذا العـالم في أية لغـة أخـرى ولا نسـمعـه يفضي أو يقـول الينا أشـيـاء أخـرى مغايرة].

والمهـمة هي أن نكسر طوق هذا الانحسار، لنتمكن من استعادة سمعنا، ولـنـعـود مبصرين، وبعـدة لغـات متكلمين، وبهذا ندع العـالم هذا يحدثنا بأصـوات جـديدة ونمكنه من أن يدون في سفر الوجود جميع معانيه الممكنة.

فـاحترس في اخـتيارك لأولئك الذين يوحون اليك.]

تنهي المؤلفـة تلك الأقـوال بمـثل يتمثل به هنود أميركا وهو:

أحترم أحلام إخوانك

توطئة

كـانت تعـاودني أحلام، حين كنت طفلة صغيرة، أرى نفسي فيها يطاردني كريمرز Creamers ـ رجـال يـرتـدون مـريـلات طويلة بيـضـاء ورؤوسـهم مطربشـة بقـبـعـات مديدة عالية بيضاء أيضاً. وكان يتزعمهم شخص اسمه بيزلي Basley . وأتذكـر انني كنت يومـذاك أسأل أمي عن مـعنى كـريمـرز هـؤلاء، فكانت تجـيـبني، [اعـتـقـد أنها نوع من الشـيكولاته، يا عـزيزتي.] لكنني كنت أعـرف أنهم ليـسـوا كما قـالتـه لي أمي. اذ كـانوا رجالاً يرتدون بيـاضـاً يطاردونني طوال الليل. ثم عرفت أن بيزلي هذا كان الحارس الصغير المسـؤول عن حـراسـة نادي التنس عبر الشارع، بيد أن ما له من مظهر ينم عـن أهميـتـه ووداعـتـه لا يجـعـل أي تـشـابـه هـنـاك يربط بينه وبين زعـيم الكريمـرز، وكـان يعـاودني كذلك في نفس الوقت حلم آخر. ذاك هو [بائع الحلوى] Candied Seller ـ رجـل يرتدي بدلة مـهـرج، بشرة أحـد جـانبي وجـهـه يعلوها مـرض جلدي ـ كنت أراه منزوياً في إحـدى بوابات الحـانوت او مختـبئاً خلف الأسـيـجـة. فـيـحـاول اعتراض طريقي وتقبيلي عندما أكون مـارة من هناك. فلم يسـتطيع أحـد من والدي، ولا المعلمـون اسـتطاعـوا، تسليط الضـوء على الكريمـرز أو على بيـزلي أو رجل الحلوى. وكل ما فعلوه انهـم اسـتـبـعـدوا ذلك بقـولهم: [لا شيء يهمك سـوى أنها مجرد أحـلام]، وكـانوا في الوقت ذاته يحضـونني حـضاً على أن أطرد الفكرة كلها من دماغي وأن استبعدها من ساحة عقلي.

بعـد مـرور عام على ذلك أو عامين، توقفت هذه الأحلام، لكنني صرت أرى في المنام غيرها، هي الأخـرى كـانت مـبـهـمـة وغير واضـحة لي لكنها كـانت تقلقني. فلم أجـد هناك من كـان يسـاعدني على فهمها. وبعد مضي سـنوات كـثيرة أحـرزت شـهـادة في علم النفس، وكـان الأمل يحدوني الى أن أتـعـلم عن جـوانب اللاشـعـور ـ اللاوعي ـ للخبرة ، بما في هذا الأحـلام،

لكن إحباطاً أصابني تارة أخرى، اذ وجدتني قد تعلمت الكثير عن الفئران، وعن زمن رد الفعل في التجارب النفسية، وعن الاحصاء النفسي، لكنني ما تعلمت شيئاً يذكر عن خوالج نفسي. رغبت بعد التخرج في مواصلة البحث باتجاه تحقيق رغبتي، غير ان الاحباط مرة أخرى تصدى لي اذ لم أجد اية تخصيصات مالية ترصد لتمويل دراسة معنى الأحلام، ذلك أن المؤسسات الأكاديمية اعتبرتها موضوعاً ليس من العلم في شيء. أيا كان الأمر، عكفت بعد هذا على البحث عن عملية الحلم وقد حصلت على درجة الدكتوراه في رسالة تقدمت بها بعنوان [العوامل المؤثرة في الاسترجاع التجريبي للأحلام].

Factors Affecting Experimental Recall of Dreams

وكان أملي عريضاً في أن شيئاً معينا ما يهم الانسان يمكن ان ينجم كنتيجة عارضة من هذا البحث، وقد تحقق هذا حقاً، وان لم أكن قد ذكرت في تقارير سابقة من قبل الملامح الممتعة لعملي.

شملت تجاربي متطوعين كانوا يأتون الى بيتي أو الى المستشفى، وكنت أصل بإحساسهم أجهزة تسجيل وكنت أوقظهم عدة مرات خلال الليل ليذكروا لي أحلامهم. وقد أفهمتهم مقدماً بثبات وبحزم بأن لا ينتظروا مني تفسيراً لأحلامهم، وألا يتوقعوا أية مساعدة تخص مشكلاتهم، طالما ان اهتمامي كان منصباً بالدرجة الأولى على قياس مقدار استرجاعهم لأحلامهم وتذكرهم اياها. وقد تقبلوا جميعهم هذا الشرط دونما تلكؤ، معربين عن مدى مسرتهم في تقديم نتائج خطراتهم الليلية الى العلم. على ان أحلامهم تلك علمتني أمراً مختلفاً. فمن حين الى آخر، كان أولئك المتطوعون الخاضعون لتلك التجارب، يحلمون بي على أنني معالجة نفسانية، وبأنني طبيبة، أو أنني أم لهم، أو معلمة يأتونها بأحلامهم أملاً في حل مشكلاتهم والتغلب عليها. وقد اتضح لي أن كل واحد من أولئك المتطوعين، دونما استثناء تقريباً، كان في قرارة نفسه يتوقع نوعاً من

المساعدات الشخصية لدى افضائه بأحلامه والكشف عنها الي.

ان هذا الموقف منهم لم يدهشني قط، ذلك لأن الانسان كان وما فتيء يسعى الى أن يرى ما تنطوي عليه أحلامه من مغزى. كان الناس فيما مضى من عصور قديمة يستشيرون الكهنة والقساوسة، أو غيرهم من ذوي الحكمة ملتمسين عندهم تفسيراً لأحلامهم. وفي الآونة الأخيرة، انتقل هذا الدور الى المعالجين النفسانيين ولكل منهم مدرسته النفسية في العلاج وفي النظرية التي يتبعها في تفسير معنى الأحلام. لكن المتطوعين الذين جاؤني بأحلامهم لم يكونوا (مرضى)، اكثر مما كانت عليه حالتي أيام كنت طفلة وكنت أرى فيها تلك الأحلام. فهم كانوا فقط مستغربين والى حد ما مضطربين بشأن احلامهم التي أحسوا أنها يمكن أن تسهم في حل بعض مشكلاتهم في الحياة، ولكن ما كانت لديهم أية أسباب، أيا كانت، تدعوهم الى التماس مساعدة ما علاجية نفسية مهنية ومتخصصة. وانني في الوقت نفسه، عكفت على التدريب في التحليل النفسي وفق المنهجية الفرويدية غير أنني وجدت أن الطريقة هذه لا تخلو من نزعة تحكمية ساعدتني بعض الشيء على فهم أحلامي الخاصة أكثر مما ساعدني ما كنت قائمة به من بحث. والحق، انني خلصت الى نتيجة مؤداها أنني كنت أقدر على تفسير أحلامي مما كان عليه المحلل الذي كنت استشيره. وفي ضوء ما أوضحته البحوث التجريبية للأحلام والتي تؤكد بأننا جميعاً نحلم بانتظام ، لهذا رحت أتساءل ما اذا كان في المستطاع نقل هذه العملية خطوة أبعد الى امام وذلك عن طريق ما يتعلمه شخص ذكي بشكل مقبول استرجاع أحلامه، وكيفية تفسيره لها، واستعماله ما يرى من أحلام لمعرفته الذاتية الى حد بعيد دونما حاجة تدعوه في هذا الى خبير بها. ومن هنا ابتدأت دراساتي التي انتظمها هذا الكتاب.

ينقسم هذا الكتاب أقساماً أربعة. القسم الأول منها [مادة الأحلام] The Stuff of Dreams ، يوفر عرضا عاماً لأكثر الجوانب المهمة للبحوث

التجريبية الحديثة الخاصة بالحلم، وهو جوانب أحسبها جوهرية في التوجه الشامل في تفسير الحلم. ففي الوقت الذي يكون فيه جزء من هذا العمل قد انتشر ابان السنوات المنصرمة على نطاق واسع وأن كثيراً من القراء هم بهذا على معرفة مسبقة قبل الآن ، فانني من جهتي قد وجدت من خبرتي الشخصية أن كثيراً من الخرافات القديمة المتعلقة بالأحلام ما زالت سائدة وقائمة وأنها في الواقع قد اقترنت بها أساطير أخرى جديدة. ولدى الناس ميل الى أن يلتقطوا من نتائج البحث الحديث عن الأحلام ما يناسب وجهات نظرهم وما يوافق أهواءهم الخاصة بشأنها، وأن ينسوا كل ما يتعارض ومواقفهم منها. وقد وجدت ايضاً أن كثيراً مما تجمع من تأملات مثيرة وتجارب مبكرة عن الأحلام ابان الخمسينات، كانت قد تم قبولها على أنها حقائق راسخة، علماً بأن البحوث التالية قد أخفقت في اثبات صدق التجارب المبكرة تلك.

أما الآن فأن الأدبيات التي تبحث في الأحلام هي من السعة والكثرة بحيث يتعذر علي أن أحيط بجوانبها كافة، ولهذا فانني اقترحت بعض الكتب والمراجع في نهاية الكتاب من أجل المطالعة الاضافية. والفصل الأول من هذا الكتاب يتناول خلفية عامة للموضوع ومن لديه معرفة وافية به يمكنهم تجاوزه. وتضم الفصول الأربعة التالية نتائج مادة علمية لم يسبق نشرها من قبل، متضمنة نتائج من بحثي التجريبي الخاص بالأحلام. وما توصلت اليه من نتائج قد تمخضت عنها خمسة أعوام من البحث أجريتها في جامعة لندن على حوالي مائة متطوع خضعوا لمعاناة طويلة كل تلك المدة، وهم الذين أرجو لهم أن ينالوا الآن العون الذي كانوا قد حرموا منه في أعوام اجراء التجارب. الفصل الثالث، وهو الفصل الخاص بنسيان الأحلام، هو وثيق الصلة تماماً بالتطبيق العملي للأحلام على فهم الذات. ويعرض الفصل الخامس استخلاصات تتعلق بطبيعة عملية الحلم. والخلاصات هذه، مضافة اليها حقائق عن الأحلام تم بحثها في القسم

الأول من هذا الكتـاب، انما ترتكز الى ما هو متوافر من معرفة حاضرة وهي خـاضـعـة للتنقـيح فـيما بعد في ضوء ما يستجد من نتائج علمية جديدة عن الموضوع.

يسـتـعـرض القسم الثاني النظريات والطرائق التي ينتهجها أربعة مشاهير من الرواد في مجال تفسير الأحـلام في ضـوء النتـائج التـجـريبـيـة الحـديثة. والاسـتـعـراض هذا ليس بالنظري المحض، انما هو يستمد مقوماته من واقع خبراتي الشـخـصـية كلها. فأنا مثلاً أصف عدداً من الأحداث مما عرض لي خـلال تـدريـبـي عـلى التـحليل وفق المنهج الفـرويدي، ومـا طرأ ابان هذا الـتـدريـب بـشـقـيـه الفـردي والجـمـعي، ومن ثم أوضح كـيـف اضطرتني التـحكمـيـة الفـرويدية هذه الى هجـرها والتنكب عنها بعد مضي فترة ثلاث سنوات، واني كـذلك اسـتـقي مما تجمع لدي من خبرة كونتها في غضون فترة قـصـيرة وفق منهـجـيـة كـارل يونج في التـحليل ومما أعـقب هذا من تدريب ومـران في العلاج على الطريقة الجشتالتية كما هي متبعة من جانب فريدريك بيرلز Perls، وهذه هي الطريقـة التي أركن اليـهـا الآن في اسلوبي التـحليلي في المجـالين الفـردي والجـمعي، وقد عكفت في الأعوام خمسة العشر الماضية على جمع أحـلامي الخـاصـة بي، التي رأيتـهـا في رحـاب بيـتي ومـضـيت في تفسيرها وفق ما اقترحه كالفن هول Hall من اسلوب في كتابه الرائد: معنى الأحلام The Meaning of Dreams المنشور عام ١٩٥٣.

يعـرض القسم الثالث ما اتبعته من منحى شامل ومبسط في كيفية الافادة من الأحـلام في البـيت، متـنـفـعـة في هذا من الطرائق الأربع كلهـا في ضوء المعـرفـة الحديثة وأنا أسمي هذا [الأوجه الثلاثة للحلم The Three Faces of Dreams]، طالما أن الأحـلام، من وجـهـة نظري، ينبـغي النظر اليـها من جـوانب ثلاثة. فأمـا أن ننظرها من الخـارج، فهي في الغالب تضع في مجال انتبـاهنا أشـياء كنا قد اخفقنا في ملاحظتها في حياتنا الواعية، أولاً. وثانيا، بمـقـدورنا اسـتـخـدام الأحـلام كـمـرايا تعكس لنا اتجاهاتنا وانحيازاتنا. أو

ثـالـثـاً وأخـيراً، بأن ننظر الى دواخلنا فنعـامل الحلم بوصـفـه رسـالة وجـود تخـص حـالـة عـالمنا الداخلي الخـاص بنا، فـيـصـبح بمـقـدورنا في الغـالب اسـتكشـاف المصـدر الخـفي لما لدينا من مـشـاكل فنتمكن من استرداد تلك الجـوانب الدفـينة بعـيـداً من جـوانب شـخـصـياتنا. فما أن تصبح مثل هذه المعـرفـة متـاحـة بواسطة الأحـلام، حـتى يصير بوسعنا تغيير أنماط السلوك اللاعـقـلانيـة والمدمرة، تلك الأنماط التي قد تكون فيما مضى سبباً في افساد قـدرتـنا على تذوق طعم السـعـادة والهناءة وتعطيل قـوانا في تحـقـيق مـا نريد تحـقـيـقـه من عـمل بناء في حـياتنا اليومية، وثمة اقتراح بعض الطرائق، بها نتمكن من التغلب على مصاعبنا واستنجاز مهامنا.

وأسـمـيـت الـقـسم الرابع (التطلع الى الأمـام) Looking Forward وقـد ضـمنتـه شـيئاً من آمـالي وتأملاتي عن امكانات واحتمالات المستقبل بشأن ما يكون للحلم من سطوة وقـوة في حياة الانسان. فالفصل الحادي عشر يتوفر على شرح أسـاليب توضح أن اسـتـخـدام الأحـلام مستقبلاً قد يغدو مظهراً متـعـاظماً ينتظم حـياتنا الذاتية في كل من المجتمع، وفي رحاب الأسرة، وفي أكناف المعـابد، وفي مجال التـعليم، بل حـتى في ميادين العمل والادارة، كما سيكون ذلك جلياً كـذلك في كثير من ضروب علم النفس المهني الجديد. وانه لمن نافلة القـول أن نذكـر بأن الجنس البشري اليوم يقف على حافة كارثة مـا لم يتوازن لديه ما حققه من تقدم تكنولوجي مع شيء من النماء النفسي أو الروحي وبسرعـة. واني لمقـتنعة بأن قوة الحلم انما هي الطريق المعبد لمثل هذا النماء، وإني اذ أقـول هذا فـقد أبدو خيالية بعض الشيء، لكنني أحس بأنه من غير حماس ورؤى فلن يكون هناك مشروع جـديد يمكن أن ينتصب على أرض الواقع فـيكون شـاخـصـاً للعـيـان. وفي الفـصل الأخير، بحثت في ما توحي به بعض احـلامنا وتشير اليـه مما لدينا من طاقـات عقلية غريبة خافية فـتـصـبح مـتـاحة لنا إن نحن تعلمنا كيف نزيح عن طريقنا ما يعترضنا من عوائق انفعالية تفسد علينا حالياً حياتنا الاعتيادية.

أرى أن المحللين النفسانيين قد أضروا بنا اذ قرنوا تفسير الحلم بالمرض النفسي، وعندما أشاعوا فكرة مؤداها أن أي ضرب من ضروب العلاج الذاتي المنطوي على سبر الأغوار Probing depth انما هو أمر خطير. ولئن كان هناك أناس مضطربون حقاً ممن لا يستطيعون التغلب على متاعب الحياة دونما تلقي عون يسعفهم من لدن معالج خبير، فثمة كذلك ملايين من الناس الآخرين الأذكياء والذين هم أساساً من الأسوياء ممن تتوفر فيهم الكفاءة الكاملة تمكنهم من ارتياد أعماق أحلامهم بحثاً عن معرفة الذات بعمق. فأولئك الذين يجرون تجاربهم على قوة الأحلام فيجدون الموقف جد مزعج يلزمهم بطبيعة الحال أن يلتمسوا العون من لدن خبير محترف، ولكن ما توفر لي من خبرة جعلتني على قناعة، بأن قليلاً من الناس هم الذين يكونون من ضمن هذه الفئة. وحتى تلك القلة التي قد تقتضيها الحال الى مساعدة ما سيفيدون من مجرد تذكيرهم بحقيقة ما هم فيه، فكل حاجتهم اذن هي تبصيرهم بأمرهم. وأي امرىء تقلقه حقاً التجارب المقترحة في هذا الكتاب فانه في حقيقة الأمر لا يستثير [أغوال الأعماق (١)] ، وانما الصراعات المكتومة من قبل تحت سطح الوعي الشعوري هي التي يحتمل ان تنفجر في أية لحظة فتسبب الاضطراب المتوقع. واذا ما طغت هذه الصراعات على السطح وبانت خلال عملية تفسير الحلم تفسيراً ذاتياً، فانما تكون قابعة هناك ماثلة بسبب انهيار الشخص تحت وطأة ظروف أشد خطورة.

أعتقد أننا قد دخلنا الآن عصراً جديداً تكثر فيه الثقة بالنفس وتزداد المسؤولية الشخصية وأن ما كان يجري سابقاً من تكتم على ما في الحياة الداخلية للفرد قد هجر وتمت مجانبته وحل التساهل والارخاء لما كان مطلوباً من قبل من امتثال ظاهري. ان الحاجة في العصر الجديد هذا إنما

---

(١) أغوال وغيلان : جمع مفردها غول؛ وهي أفضل ما يقابل كلمة Monsters (المترجم).

تقتضينا البحث المقصود الموجه للتنقيب عن القوى الكامنة في خوافي الشخصية: القوى التي تشكل محددات سلوكنا الواعي، كما اننا بحاجة الى التواصل في استبصاراتنا من أجل التفاهم العام فيما بيننا، والموضوع الرئيسي لهذا الكتاب انما ينصب على أن معظم ما يعانيه الانسان اليوم من شقاء، انما ينشأ عن جهل بالنفس Self - ignorance أولا، وعن اخفاء ما في النفس Self - Concealment ثانياً. انه لهذا السبب قد كشفت عن كثير مما عرض لي من حياة داخلية وذلك بوصف مجازفاتي الشخصية، وما تمخضت عنه تجاربي عن الأحلام. وفي هذا أحسبني قد أتيت بشيء جديد. ثمة كتب كثيرة تم تأليفها ضمنها المعالجون النفسانيون وصفاً لأحلام مرضاهم وتواريخ حالاتهم، لكنهم أحجموا عن ذكر أحلامهم هم أو أنهم ذكروها تحت أسماء مستعارة. لعل هذا التكتم نابع من خوف يساورهم مؤداه أن الافصاح صراحة عن حياتهم الداخلية الشخصية الخاصة بهم تسلبهم سلطتهم بوصفهم معالجين وتقلل من شأنهم في نظر الآخرين ، بيد انني لعلى يقين من أن الاعتماد على مثل هذه السلطة ليس في محله الصحيح في عالمنا اليوم. وأن الأمل ليحدوني الى أن محاولاتي في الافصاح عن مكنون النفس سيشجع آخرين غيري على أن ينهجوا نفس النهج من حيث الانفتاح والأمانة في اشراك غيرهم معهم فيما لديهم من خبرات تخص سطوة الحلم في حياة الانسان.

لعل الوقت جد متأخر بالنسبة لي الآن لكي أحل ما كان يكتنف الكريمرز، وبائع الحلوى، من إبهام وغموض. إن أصدقائي من المحللين النفسانيين والمعالجين النفسانيين والذين أفضيت اليهم بتلك الأحلام قد أغرقوني بوافر من اقتراحاتهم الثرة، ولكن ما من أحد منهم من استطاع ان يمس عندي مستوى الاحساس من حياتي العقلية. والطريق الوحيد المأمون لاختراق معنى الحلم والنفاذ الى اغواره انما هو أمر متروك للحالم نفسه والمسألة في يده وذلك بأن يجوب ارجاء حلمه بأسرع ما يستطيع بعد خبرته

في رؤياه للحلم. وكلما تقدم الآباء والمعلمون في تعلم فن سطوة الحلم وقواه في حياتهم الخاصة، فسيكون بمقدورهم الأخذ بأيدي أبنائهم ليتفهموا ما يجلو لهم الألغاز التي تحصل لهم خلال النوم في الليل، ولعلي أستطيع الاعراب عما أؤمله لهذا الكتاب في أن يؤدي دوراً ولو جزئياً في تمكين الجيل القادم من أن ينمو في عالم أضحى فيه هذا البعد الاضافي من أبعاد خبرة الجنس البشري أمراً مقبولاً كحق من حقوق كل واحد منهم اكتسبه بحكم ولادته.

آن فاراداي



القسم الأول

مادة الأحلام



الفصل الأول

الحالة الثالثة للوجود

كان عام ١٩٥٣ عاماً حاسماً بالنسبة لكثير من الأوهام والخرافات التي كانت عالقة في الأذهان فترة طويلة عن الأحلام. فحتى هذا الوقت، كان الاعتقاد السائد عامة إن الحلم ما هو الا خبرة عشوائية، عابرة، وآنية، يعتمد في حدوثه على منبهات Stimuli مثل سوء الهضم، واحتقان المثانة، والقلق، أو صرير الأبواب عندما تتحرك والشخص نائم. وان نوماً عميقاً، خالياً من الأحلام، يبدؤه المرء قبل منتصف الليل، كان وصفة شائعة لجلب الصحة والسعادة، وصفة اعتقد بها حتى أولئك الذين يفتكرون أن الأحلام يمكن أن تنطوي على معنى سيكولوجي أو يرجح أن يكون لها جانب تنبؤي. وان الأدبيات العلمية المتعلقة بهذا الموضوع ما اشتملت على ما يناقض آراء كهذه، وما كان في الامكان ايضاً القاء الضوء على الظاهرة الملغزة التي تقول لماذا يستذكر بعض الناس أحلاماً يرونها كل ليلة تقريباً، بينما ينكر آخرون كل معرفة بمثل هذه الخبرة.

ان الاكتشاف الذي حدد نقطة التحول في تاريخ البحث في الأحلام، وأحل الحقيقة محل الأوهام، انما حدث في قسم الفسلجة Department of Physiology بجامعة شيكاغو، وشأنه شأن كثير من الاكتشافات العلمية، فقد تم بمحض الصدفة. اذ كان البروفيسور نثانييل كالايتمان Nathaniel Kleitman ، الخبير المعروف عالمياً في ابحاثه عن النوم ، يجري سلسلة من التجارب على نوم الأطفال، عندما اخبره أحد طلابه واسمه يوجين اسرينسكي Eugene Aserinsky ، انه لاحظ أحد عيني أحد الأطفال كانت تتحرك وهو نائم حركة سريعة وترتجف رجفاناً تحت الأجفان المغلقة المغمضة لمدد قصيرة. نقل الطالب حدث المشاهدة تلك الى

كـاليـتمان، وقـد عـزم كـلاهما على توسيـع مـدى دراسـتهما وتطبيقها على نوم الكبـار للكشف عما اذا كـانت مـثل تلك الحـركات السريعة في العين يمكن رصـدها ومـلاحظتـهـا أم لا، واذا كـان الأمـر كـذلك، فما عـسى أن يكون مـغزاها وماذا تعني.

وفي الوقت الذي تكون فيـه ملاحظة حركات العين خلال النوم ملاحظة مـبـاشرة أمـراً ممـكـناً وذلك بالوقـوف جنب النائم ورصـد حـدقـتي العـينين تتـحـركـان تحت الأجـفان المغمضة، فان مثل هذا العمل يكون مضنياً إن لم يكن مـسـتـحـيـلاً يتـعذر على المجرب أن ينهض به لأية فترة زمنية مهما كان طولها . لهذا فـان اسرينسكي وكـلايتمان قـد حـسنا طريقـة مـراقـبة حركات العـيـنـين عـنـد الأشـخـاص الـنـائمـين بـواسـطـة الـتـخـطيط الكهـربائي للمخ. Electro Encephalogramh ، وتعـرف الطريقة هذه عامة بآلة، وماكنة EEG. وهذه وسـيلة تسـتـخـدم لتـقـوم بتسجيل النشاط الكهربائي للدمـاغ بواسطة لواحب، وهي أقـراص صـغيرة يتم تثـبـيـتها على فروة رأس الشخص، فتنقل هذه اللواحب إشارات من المخ الى آلة EEG، التي تكبر تلك الاشـارات بمـقـدار مليـون مرة بحيث تترجم الى نمط تسهل على عين الانسـان قـراءته. يتم تسجيل ذلك على رقاق من الورق يعرف باسم شريط التسجيل ، ونسميه EEG اخـتـصـاراً وهو يمـثل صـورة لتـمـوجـات مخ الانسـان. وبطريقة مماثلة، فان اللواحب المثبتة حول العينين تتبع وتسجل ما يحصل من نشاط كهربائي عندما تتحرك العينان، وبهذا يحصل تسجيل ويتم لحـركـات العـينين ـ وهذه الحركات يسميها الباحثون : التسجيل الكهربائي لحركات العينين Electro - Eculogram . ويرمـزون لها اخـتـصـاراً بالحروف EOG.

لقـد أحـدث الرواد في جـامـعـة شـيكاغـو اختراقاً في قلاع المعرفة، ليس بمـراقـبـتـهم حـركات العين التي تتزامن مع تموجات المخ فحسب، بل هم كـذلك قـامـوا بتسجيلات ليلية مطولة لحركات كل من المخ والعينين، وهذه

عـمليـة مـا حـاولها أحـد قبلهم. فقد رصدوا أربعة أنواع واضحة متميزة من أنواع تموجـات الدمـاغ تـتخلل فترة النوم كلهـا، وتعـرف الآن باسم المراحل Stages ١، ٢، ٣، ٤، لحركات وتموجات الدماغ، المرحلة (١) تعد أخف مـراحل النوم ذلك لأنها وثيـقة الصلة بنوع التسجيل الذي يتم الحصول عليه حين يكون الانسـان في حـالة يقظة، في الوقت الذي تعـتبر فـيه المرحلة رقم (٤) أعـمق مـراحل النوم اذ أن مـا يتم الحـصول عليه من تسجيل له يكون تماماً مماثلاً لحالة السبات أو الغيبوبة Coma.

فـحـتى هذا الوقت، كـان الافتراض السـائد من قـبل أن النوم انما يتألف من انتـقـال تدريجي من حـالة اليـقظة الى حـالة النعـاس، مـتبوعاً بزيادة في العمق المتأتي من المرحلة (١) وانتهاء بالمرحلة (٤) ومـن ثم عـودة ثانيـة تدريجية الى المرحلة (١) فـاليـقـظة في نهاية فترة النوم. ومن خـلال اجـراء تسـجـيـلات مطولة تمتـد على مدى الليل كله. فان اسرينسكي وكلايتمان قد قـدمـا اكـتـشـافاً ملفتاً للنظر ويستأثر بالاهتمام، اذ تبين انه خلال فترة النوم الاعتيادي الذي يمتد لمدة سبع أو ثماني ساعات، كانت هناك أربع أو خمس فترات تحـصل فيها العودة من مراحل النوم العميق الى المرحلة (١) متناوبة مـستغرقة حوالي تسعين دقيقة على وجه التقريب. ففترات نوم المرحلة (١)، ويمضي هناك حـوالي خمس دقـائق تقريباً، قبل أن يستطرد في تقدمه معجلاً ماراً بالمراحل [٢، ٣، ٤] حـيث يبلغ أعـمق حالات النوم. ولعله يمكث في حالة نومه العميق ذاك في المرحلة (٤) حـوالي نصف سـاعة قبل استئناف رحلتـه صاعداً ثانية ماراً بالمراحل [٣، ٢] عـائداً الى الـفترة الأولى من فترات صـعوده الأول والذي ابتدأه من المرحلة (١) عـنـدمـا أخلد الى النوم أول الأمـر. وهو عـادة لا يلبث عند هذه المرحلة أكـثـر من دقـائق قـلائل قـبل العـودة تارة أخـرى نازلاً الى حالة النوم الأعمق.

والنائم في الدورة الثانية Second Cycle هذه قد لا يبلغ المرحلة (٤) حـتى ـ ولئن هو بلغها، فانه سيمضي هنا مدة في هذه المرة أقل مما استغرقها

خـلال الدورة الأولى. ثم يعود كرة أخرى صاعداً الى المرحلة (١)، ولعله في هـذه المـرة يمضي حـوالي عشرين دقـيـقـة أو مـا يقـرب من ذلك، قـبل استئناف الهبوط ثانية الى نوم أعـمق. وهذه الدورة من الهبوط والصـعـود تتكرر طوال الليل متخـذة شكل دورات متناوبة مستغرقة حوالي تسعين دقـيقة على وجه التقريب. ففترات نوم المرحلة (١) تـكـون أطول فأطول بصـورة اسـتطرادية، وفترات نوم المرحلتين (٣،٤) تتـقاصر أكثر فأكثر كلما إقترب الصـبـاح. والحـقـيـقة هي أن الانسان عندما يشارف على الانتهاء من فترة النوم، يكون قـد أمـضى معظم الوقت من نومه في المرحلتين (١،٢).

يجب التأكـيـد هنا على أن الذي مـر آنفـاً هو صـورة مـثالية لدورة النوم. ذلك أن الأنماط الحـقـيـقـيـة للنوم تتفاوت نوعاً ما من فرد الى آخر، بل هي تختلف بالنسبة للشخص الواحد من ليلة الى أخرى. لكن الحقيقة التي تبقى مـاثلة تلك هي أن الطبيعة الدورية للنوم عامة لم تختف اذا ما برحت وبقيت تظهـر عند آلاف الأشـخـاص الذين أسـهـمـوا في التطوع لاجـراء التـجارب الخـاصـة بالنوم عليـهم في جميع انحـاء العـالم خلال العقدين المنصرمين. من هذا يبـدو ثمـة مكنيـة ذاتيـة عند الفـرد تعـتمد على ايقاع بايولوجي من نوع معين داخل الجسم.

ان دورة النوم هذه لا تتأثر بوقت رقـادنا عندمـا نأوي الى الفراش، اذا ما بقي وقت رقـادنا هذا قليـلاً أو كـثيراً مـوصـولاً من الليل الى الليل. فـاذا ما أوينا الى فـراشنا في ليلة مـعـينة متأخرين أكثر مما هو معتاد فان فترة المرحلة الأولى (١) تبـدأ أسرع مما هي عليه في الحالات الاعتيادية لدى النوم المبكر. لهذا، فـسـواء علينا إتبـعنا النصـائح الصحية وأوينا الى فراشنا قبل منتصف الليل، أم مكثنا سـاهرين ولعـدة سـاعـات عن النوم مـتـأخـرين، فـان دورة النوم تتبع نمطهـا العـتـيد الرتيب، وفي كل مدة فان نومنا العميق يتم تقريباً خـلال السـاعـات القـلائل الأولى، ومـعظم نومنا الخـفـيـف يتم لدى اقتراب الصباح. لعل الشعار [التبكير في النوم صحة ونعمة]، خير نصيحة طبية لنا

لأسباب كثيرة، لكننا في واقع الأمر لا نستطيع زيادة حصتنا من النوم الاعتيادي العميق بمجرد امتثالنا الى هذا الشعار وطاعتنا اياه. فخلال ليلة نمضي فيها مثلاً سبع أو ثماني ساعات في نوم متواصل، فاننا نمضي حوالي ١٢٪ من وقت نومنا هذا في مرحلة النوم (٤)، ونستغرق تقريباً ٢٥٪ من نومنا هذا في المرحلة رقم (١).

لم تكن الطبيعة الدورية للنوم الاكتشاف الدرامي الوحيد الذي حققه رواد جامعة شيكاغو. اذ تبينوا عندما كانوا يلاحظون تسجيل حركة العين، ان المراحل (٢، ٣، ٤) كانت تصحبها حركات بطيئة في العين أو أنها تصل الى حد سكون العين تماما، في حين ان فترات ابتداء المرحلة (١) كانت بلا استثناء تقريبا تقترن بحركات سريعة وارتجاف في العين ويكون هذا الارتجاف على شكل اهتزازات تظهر على صورة حزم او تكتلات. يتم كل هذا في حالة الصعود من المرحلة (١) وهذه الظاهرة لا يبدو لها أثر في حالة الانحدار من المرحلة (١) نفسها عند بدء النوم. كما لاحظ الباحثون كذلك ان حركات العين السريعة هذه ـ أو REM اختصاراً كانت تحصل في كلتا العينين في وقت واحد متزامن، بمعنى آخر، ان كلتا العينين كانت تتحرك في نفس الاتجاه وكأن النائم في حالة يقظة يتابع مسرحية باستعمال كلتا عينيه، وهذه الحالة هي على النقيض من الحركات البطيئة للعين عندما لا تكون حركة العين سريعة ـ لا ـ س ـ ح ـ ع NREM اختصاراً ـ في فترات المراحل (٢، ٣، ٤) وهي الفترات التي لا تكون فيها حركات العينين متساوقة ولا يسودها انسجام. وانها يجب أن تكون لعبة مثيرة حقاً تلك التي استأثرت بانتباه الباحثين فاستوقفتهم وهم يلاحظون ذلك الشيء من نقرات قلم التسجيل الشديدة تضرب بعنف فوق رقاق الورق خلال فترات الحركات السريعة للعين في المرحلة (١) من النوم.

تمت كذلك، خلال فترات الحركات السريعة للعين REM ، ملاحظة نشاط مثلاً قد أظهر عدم انتظام واضطراب متعاظم في النبض وزيادة غير

طبيعية في معدلات التعرق، وارتفاع في ضغط الدم، كان هناك كذلك ارتفاع متزايد في كمية الأوكسجين التي يستهلكها الدماغ ، وكان يظهر عند الذكور انتعاض كلي او جزئي. ومعظم العضلات أصبحت مترهلة وفقدت قدرتها على الانعكاسات وأن امكن ملاحظة بعض حركاتها الصغيرة كالاختلاج او الالتواء أو التكشير.

كذلك لاحظ الباحثون بمزيد من الدهش والانبهار، انه في الوقت الذي يزداد فيه بوجه عام الحركات الجسمية الكبرى كالتقلب في الفراش أو التمدد، مباشرة قبل بدء سَ ـ حَ ـ غ REM وبعدها فوراً، فان الحركات الكبرى تلك تتناقص حتى تكاد تبلغ حد السكون التام خلال الفترات التي ترتفع فيها الاستثارة المخية البصرية المستقلة.

شبه أحد الباحثين النائم، وهو على وشك الدخول في فترة الحركة السريعة للعين REM، شبهه بالمشاهد في المسرح. فالمشاهد، قبل رفع الستارة، يتحرك ويتململ في مكانه. وما ان ترتفع الستارة تماماً حتى يهدأ ويشتد انتباهه. المسرحية تبدأ فيروح يتابع المشهد بعينيه: فيندهش ويستثار ـ عندما تتوضح الحبكة ألنفسية في المسرحية، فيزداد تنفسه ويسرع، وتتسارع ضربات قلبه. وكلما استمرت المسرحية، فانه تماماً ينغمس فيها، فلا يتحرك ولا يتكلم [ولنذكر هنا أن المشي أثناء النوم والكلام خلال الأحلام، انما يتمان عادة في المرحلة (٢) من النوم]. وعندما تسدل الستارة، فانه يتحرك ويتمدد ، ويستعيد وضعه الجسمي الأول. بالنسبة للباحثين القدامى، لاح التشبيه لهم انه جيد جداً وأنه تقريباً صحيح: النائم بمقدوره حقاً ان يراقب مسرحية خلال فترات نومه وهو في حالة (س ـ ح ـ ع MER) لكنها مسرحية من صنعه هو فيكون فيها هو نفسه المدير، والمخرج، ومدير المسرح المنفذ، والممثل الرئيسي وهو المشاهد، انه هو كل شيء طيلة الوقت. لا بد انه، كما يبدو، كان يحلم.

والفرضية كانت قد تم اختبارها بالطريقة الوحيدة الممكنة، وهي ايقاظ

النائمين خلال فترات REM والاستفسار عما اذا كانوا يحلمون أم لا. وقد نشرت النتائج التاريخية في مجلة علوم Science عام ١٩٥٣ وقد تبين ان ٨٠٪ من الحالمين عندما تم ايقاظهم وهم في فترات (س - ح - ع REM) قد استرجعوا أحلاماً واضحة ومفصلة، يقابل ذلك فقط ٧٪ ممن ذكروا مثل ذلك عندما أوقظوا من فترات النوم وهم في حالة لا - س - ح - ع NREM . وكانت الدهشة كبرى وما أعظمها، اذ حتى ذلك الوقت لم تكن هناك على وجه الاطلاق طريقة يهتدى بها للتعرف بدقة عن الوقت الذي يكون فيه الشخص النائم انه في حالة حلم، وكان ذلك أحد العوائق التي أدت بالبحث العلمي عن الأحلام الى طريق مسدود يومذاك. أما الآن، فبواسطة EOG و EEG وما يتم فيها من تسجيل لنوم الأشخاص، فقد أصبح في المستطاع أول مرة في تاريخ العلم الاجابة على وجه اليقين عن أسئلة تثار حول عدد المرات التي نحلم فيها، وعن طول الفترة التي يستغرقها الحلم، وعما اذا كان حقا هناك أناس لا يحلمون البتة، وأسئلة أخرى غيرها عن آلاف المسائل المثيرة عن الأحلام التي حيرت الجنس الانساني عبر العصور.

الحالة (ح)[1] The D - State

منذ أول تجربة له أجراها كاليتمان، أكدت بوضوح نتائج دراسات أخرى مستقلة قام بها باحثون آخرون، ما كان قد توصل اليه بأن فترة (س - ح - ع REM) انما هي الوقت الذي يكون الايقاظ خلاله كفيلاً باثارة ما اصطلحنا عليه تسميته حلماً. وانه لهذا اصبح يشار في الغالب الى فترة REM بأنها حالة البعد الثالث أو (ح) (١) D - State( ). بل أن كثيراً

(١) الحرف (ح) هنا يراد به حالة الحلم (المترجم)

مـن الـبـاحـثـين يذهبـون الى أبعـد من هذا فـيـدعـونها [الحـــــالة الثـالثـة لـلوجـود( )[The Third State of Exsistence، وهي حـالة تختلف في كثير من الوجوه عن حالة النوم الاعتيادي S - State ، كما هي تختلف كذلك عن حالة اليقظة.

ويدعى النوم، حينما يكون من نوع REM، نـومـاً ذا خـصـائص متناقـضـة، وذلك لجـملة من الأسباب . ففي المقام الأول، يبدو أنه نوم في حـالة استرخـاء تام بقـدر مـا يتـعلق الأمـر بالشد العضلي وحركة العضلات نفـسـهـا، ومع هذا فـهو نوم جم النشاط في نواح أخرى عديدة، ثانياً، وفي الوقت الذي يكون فيه EEG لهـذا الـنـوع مـن الـنـوم نـومـاً من الضرب الخـفـيف، المماثل أو الشبيه بحالة اليقظة، فان النائمين وهم في مرحلة النوم (١) لا توقظهم بسـهـولة منبـهات مثل الضوضاء ، أو اللمس ، كما توقظهم فـيما لو كـانوا في مختلف حالات النوم الأخرى، باستثناء أعمق حالات النوم العميق (٤) عند مرحلة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM . لذا فان عتبة اليقظة العالية خلال حالة النوم في مرحلة REM ، تشير، في أحـد جـوانبـها في الأقل، الى أنها حـالة من حـالات النوم العـمـيق. وبهذا يشـار الى أن النائم وهو في حالة نومه من نوع REM انما يكون مـستغرقاً في حلمه بحيث أن أغلب المنبهات لا بد منها لكي توقظه من نومه العميق ذاك.

وعلى النقيض مما ذكرنا سابقاً، فان النوم NREM، يشار اليه في بعض الأحيـان انه نوم قـويم أو سليم. وفي وقت لا تكون حالات الاستيقاظ منه مـصـحـوبة في العـادة بنتائج عن احلام جلية واضحة ومفصلة، فأن الذهن بعـيـد عن أن يكون خـالياً من حقائق الأحلام في هذه الأوقات. ومهما يجدر ذكره هو أن الحلم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM يجنح الى أن يكون أقصر، أقل وضـوحـاً في الصـورة، وأدنى شفافية مما تكون عليه الأحلام التي تحـدث خلال فترات النوم عندما يكون الموقف هو س ـ ح ـ ع REM، وان الأشـخـاص يحسـون في تلك الحالة انهم انما كانوا يفكرون بدلاً من أنهم

يحلمون. لهذا السبب فان كثيراً من الباحثين يشيرون الى المحتوى العقلي المتأتي من فترات NREM بأنه (تفكير) Thinking ليميزوه عن الحلم الحقيقي الصادر عن فترات النوم في حالة REM. هذه، على أية حال، نقطة فيها وجهة نظر وقابلة للنقاش، وان هناك أولئك الذين يذهبون في الرأي الى أن أي نشاط عقلي يذكر بعد الاستيقاظ من النوم يستحق ان نسميه بعلامة [عملية حلم]. هذا الموضوع هو ما سنبحثه بالتفصيل في الفصل التالي.

ولئن كان النشاط الظاهري للنائم ينطوي على ما يشير الى حقيقة خبرته الداخلية، فان هذا الاكتشاف ـ وهو ان محتوى لا ـ س ـ ح ـ ع NREM في العادة أقل وضوحاً من حيث طبيعته من محتوى لا ـ س ـ ح ـ ع NREM لا يكون مقترناً بحركات العين الموجهة السريعة التي تصاحب عادة عملية الحلم في حالة س ـ ح ـ ع REM. لذا فان الباحثين في جامعة شيكاغو كانوا مندهشين أشد الدهشة لما شاهدوه من نشاط ظاهر يتخلل فترة ـ س ـ ح ـ ع REM مما جعلهم يتساءلون عما اذا كان النائم يتتبع في الواقع بعينيه ما يرى من صور يراها في حلمه أم انه يرى احداثاً في ذلك الحلم الذي هو فيه. وقد اتضح ان بعض التجارب التي أجريت تعزز هذه الفرضية، لكن المتفق عليه عامة الآن هو ان ليس ثمة ترابط تام بين عمل او نشاط الحلم وحركة العين، وان كانت القرائن الخاصة بالطبيعة العامة لما نرى من أحلام، يمكن توكيدها في الغالب بالرجوع الى تسجيل س ـ ح ـ ع REM، ولنضرب مثلاً، لئن كانت حركات العين صغيرة ومتقطعة مجزّأة، فالاحتمال كبير أننا في حالة حلم هادىء مطمئن ولسنا في حلم سلبي مزعج ، بينما الحركات الكبيرة المستمرة في س ـ ح ـ ع REM تكون لها دلالة على أننا حالمون حلماً ناشطاً مفعماً بالانفعال . ـ (وقد دلت البحوث الحديثة على أن الحركة في الأذن الداخلية والتي تحصل خلال النوم المظنون عامة انها ترتبط بالمحتوى السمعي في حالة عملية الأحلام).

يبدو ان النوم في حالة REM انما هو من حيث الأساس عملية بيولوجية، انه نشاط حيوي وهو جزء من نمط شامل ينتظم وظيفة الجسم، يحصل خلال فترات منتظمة عند النوم، بل ان الحالات هذه قد وجدت عند الأطفال الحديثي الولادة، وكذلك عند من يولد أعمى منذ الولادة، وان كانت تتناقض عند هؤلاء الآخرين كلما اضطردوا بالنمو. ومما هو متفق عليه بين الباحثين في الأحلام بوجه عام هو أن الخبرة الذاتية المستمدة من الحلم تهيمن بشكل أو بآخر على العملية البيولوجية الأساسية هذه.

خرافات شائعة حول الأحلام

كثير من الناس مقتنعون بأنهم لا يرون أحلاماً ملونة، لكن البحوث الحديثة استطاعت أن تبرهن على خطأ ظنهم هذا. ذلك أن التجارب قد أوضحت انه اذا ما تم استنطاق الأشخاص مباشرة بعد إيقاظهم مما هم فيه من حلم في حالة س ـ ح ـ ع REM واستيضاحهم عن لون الحلم ، فان ٨٠٪ منهم قد ذكروا أنهم رأوا، في مناسبات أحلامهم تلك، احلاماً ملونة. فقد أفادوا أن الأشجار خضراء، والسماء ملبدة بالغيوم دكناء، والباب الخارجية زرقاء ـ فأحلامهم تلك كانت ملونة تماماً مثلما هي الخبرة في مجرى الحياة اليومية. على ان اللون في الأحلام يتم نسيانه بسرعة ما لم يطرأ ما يستأثر بانتباهنا بشكل خاص، ولذا فما لم يحدث استجوابنا عن اللون في الحلم بعد الايقاظ أو اليقظة مباشرة فمن المرجح أن ينسى. ولقد تم الحصول على نتائج مماثلة من أكثر أحلام NREM وضوحاً.

واحدى الحقائق المثيرة المدهشة التي تم الكشف عنها نتيجة لما أجري من دراسات مبكرة هي القدر الهائل من الأحلام التي تحصل لدى كل واحد منا في كل ليلة في حالة النوم الاعتيادي. فالشخص الكبير الاعتيادي يكون معدل ما يحصل لديه من أحلام ثلاث فترات REM في الأقل كل ليلة بل

ربما يكون أكثر من هذا، مما يدل على أنه يحدث لديه ما يقدر بحوالي ألف حلم على مدار العام الواحد مستثناة من هذا العدد جميع الأحلام التي تطرأ في حالة نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM ولا يسترجع من هذا العدد ولا يستذكر الا جزء يسير جداً. وان نسيان الأحلام كان دائما ولا يزال لغزاً كبيراً بالنسبة للانسان، ولكن، ولأول مرة في تاريخ هذا العلم، قد توصلنا الى الجواب وسيأتي ذكره في الفصل الثالث، ويكفي ان نؤكد هنا على ان الناس الذين لا يتذكرون الأحلام قط أو قلما يستذكرونها تحت الظروف الاعتيادية، بمقدورهم أن يفعلوا ذلك فيتمكنوا من تذكرها بقسط أوفر وبنسبة عالية في كثير من المناسبات عندما يجري ايقاظهم مباشرة من نومهم وهم في حالة فترات ـ س ـ ح ـ ع REM في المختبر.

واكبت فكرة : اني لا أحلم أبداً أو البتة، فكرة أخرى اشتملت على أساطير كثيرة شاعت حول عملية الأحلام، وقد تفجرت الأساطير هذه في ضوء ما جد من بحوث جديدة. فما زال هناك، مثلاً اعتقاد واسع الانتشار يذهب الى أن الأحلام تحدث على شكل ومضة خاطفة. هذه الفكرة مرتبطة بحلم المقصلة الشهير لرجل فرنسي، يدعى الفريد موريبه، وكان ذلك في التسعينات من القرن التاسع عشر. رأى موريبه في حلمه ذاك انه قد جيء به ليمثل امام هيئة الحكام أيام الثورة الفرنسية، ورأى انه كان يستجوبه روبسبير وحكم عليه بالموت، فأقتيد خلال الشوارع الى منصة الموت. وهناك وضع رأسه على العارضة فهوت عليه السكين. فأحس أن رأسه انفصل عن جسمه فاستيقظ مرعوباً وقد تولاه قلق شديد، وما أشد دهشته اذ وجد حافة السرير من جهة الرأس كانت قد سقطت فأصابت قاعدة رقبته. وكان تعليل موريبه لما حدث هو أن الضربة هي التي سببت الحلم وان صورة الحلم كلها قد ضغطت في حدود فترة جد وجيزة امتدت فقط بين أول ادراك حسي للمنبه وبين حالة الاستيقاظ بفعل وطأة الفزع.

فهذا التعليل بارع كما يبدو وكما هو، بيد أن الشواهد الحديثة تلقي

ظلالاً من الشك على جوهر خلاصته، نظراً الى أن القياسات المتكررة تبين في العادة علاقة وطيدة بين طول رواية الحلم وبين طول فترة REM قبيل يقظة الحالم. وحين يصف الحلم أحياناً نشاطاً بسيطاً كلعبة التنس مثلاً، فاننا نجد ثمة علاقة مباشرة بين ما استغرقته اللعبة من وقت وبين فترة س - ح - ع REM وما اقتضته من زمن. وفي مناسبات أخرى، قد تبدو قصة الحلم انها تستغرق ساعات، أو أيام، بل سنوات، ولكن هنا ايضاً يبدو أن ثمة ترابطاً قائماً بين ما تستغرقه فترة س - ح - ع REM من وقت وبين ما يداخل الحالم من وقت مقتضى للحلم، حين يستيقظ فيتصور النشاط كله كأنه سيناريو فلم من الأفلام. وهناك ما هو قليل من الشواهد التي تشير الى أن أحلاماً موجزة تحدث بمقدار نصف الثانية كما هي الحال في حالة ما رواه موريه من حلم. ويرى بعض الباحثين المحدثين ان خبرة موريه المرتبطة بالمقصلة ليست حلماً حقيقياً قط، بل هو وهم أو تصور استقر في أعماق عقله حتى طفا ثانية على اشباح وعيه الشعوري على شكل ومضة واحدة كاشفة سببتها وأحدثتها الضربة التي أصابت عنقه فنبهته بقوة [وهذه فكرة قد أوردها ايضاً فرويد عام ١٩٠٠].

وأيا كان التفسير، فمما لا شك فيه أن موريه كان على خطأ حين ظن أن الضربة هي التي أحدثت الحلم. ذلك لان الشواهد كلها تشير الى أن الحلم عند الكبار الأسوياء يبدأ بصورة اوتوماتيكية عندما تبدأ فترة الحركة السريعة في العين س - ح - ع REM، وينتهي بانتهائها. وأن المنبهات الخارجية، شأنها شأن صرير الباب الذي يضرب به المثل أحياناً، يمكنها أن تجد لها طريقاً فتتسرب الى الحلم وهو جار فتمتزج به وتكون جزء منه ومن قصته، لكنها ليست بأية حال مسؤولة عن حدوثه أو إحداثه. والمنبهات الخارجية هذه تتحد بالحلم الحاصل في حالة حركة العين السريعة REM في حالاتتقارب تقريباً النصف من جميع المناسبات التي تحدث فيها تلك الأحلام.

والمثل الآتي، وهو مأخوذ من دراساتي الخاصة بالأحلام، أسوقه للتمثل به كنموذج للطريقة التي يتوحد فيها المنبه مع الحلم فيصبح جزءاً منه. ثلاثون ثانية مضت قبل أن تستيقظ المرأة من فترة حلم حركة العين السريعة REM، حيث كنت أسكب ماء بارداً على يدها التي كانت ممتدة فوق ملاية سرير النوم. وعندما استيقظت وسألتها عما كانت تمر عليه بعقلها قبيل الايقاظ، ذكرت الآتي:

كنت لتوي قد قفزت لأدخل عربة قطار كان قد تحرك، فأحسست بالراحة تملأني اذ تمكنت من الصعود اليه قبيل أن يفوتني. فما أن أخذت مكاني واشعلت سيجارة حتى شعرت بماء على يدي. التفت الى مصدره فرأيت مطراً يأتيني عبر النافذة المفتوحة. نهضت من مكاني لأغلق النافذة، فسمعت باب العربة ينفتح من الطرف الآخر؛ دخل منها رجل بزي طباخ جاء فجلس. تظاهر أنه يقرأ في صحيفة كانت بيده، بيد أني شعرت انه كان يختلس النظر الي بزاوية عينه من أحد طرفي الصحيفة. غمغمت بشيء يخص الطقس لاستدراجه الى الكلام وطرد الوحشة عن نفسي؛ لكنه لم يجب. تولاني الذعر فشققت طريقي نحو الباب. لبثت هناك أراوح. بين الجلوس والوقوف، وأنا أحاول الخروج. عندما أيقظتني أنت.

المنبهات المستعملة خلال فترات النوم عندما تكون العينان في حالة لا - س - ح - ع NREM ، يمكن احياناً أن تتداخل مع النشاط العقلي الجاري. فأحد الأشخاص الخاضعين لتجاربي لم ينتبه، مثلاً، الى جرس التنبيه ولم يستيقظ من نومه خلال فترة النوم التي كان فيها في حالة NREM، لهذا دقت الجرس ثانية. فاستيقظ من حلمه وقد ذكر، [كنت قلقاً حول امتحاناتي، اذ لم أكن مهيئاً نفسي لها، وكنت لا أدري ما اذا كان باستطاعتي أداءها واجتيازها، حين رن جرس التلفون. ظننته أن الدكتور س كان يريدني أن اسلمه ما طلب مني من مقالة، فعزمت على ألا أجيبه فلم أرد على التلفون. اني لمسرور أنك قد أيقظتني].

ما تم التوصل اليه من نتائج جديدة قد نسفت كذلك اسطورة كانت شائعة حول الأحلام مفادها أن تناول الأجبان والمخللات في ساعة متأخرة من الليل تزيد من مقدار حصتنا في الحلم. فكما هي الحال في حالات المرض والقلق، فان سوء الهضم يمكن أن ينغص علينا راحتنا فيجعلنا نستيقظ مراراً خلال الليل على نحو أكثر من المألوف، مما يترتب عليه أننا نرى أحلاماً أوفر من المعتاد. ومما يبدو لنا وكأننا في حالت حلم مستمر طول الليل فان ذلك في الواقع لا يعدو كونه زيادة في استرجاع الحلم واستذكاره، وفي الحق، انه خلال الليالي التي لا نكون فيها مرتاحين أو عندما نكون مضطربين فان الحركات السريعة للعين س ـ ح ـ ع REM ـ يمكن ان تنقص هذه من عدم انتظام ومما يعتريها من تعويق، وهي لا تستأنف طبيعتها ثانية في العادة بمجرد محاولتنا معاودة النوم مرة أخرى.

إن النتيجة الأخيرة هذه قد أدت بالقائمين بالبحث الى التأمل في العواقب المحتملة في حالة حرمان الأشخاص تماماً من النوم الذي يكون من نوع س ـ ح ـ ع MER . فهم يرون أن هذه الحالة الغريبة من (النوم المتقطع) ، والتي تستمر متواصلة ليلة بعد أخرى منذ الولادة وما بعدها، فمن المؤكد أن لها وظيفة فريدة لها ضرورة كبرى لازمة للصحة ولوجود الانسان ودوام كينونته على خير وجه. لذا، فعلى الرغم مما تشتمل عليه المسألة من مشكلات أخلاقية جسيمة وما تنطوي عليه من بعض المحاذير، فقد أجريت سلسلة من التجارب المذهلة تناولت الحرمان من النوم في حالة س ـ ح ـ ع MER، شملت كلا من الانسان والحيوان، فتمخضت عن نتائج رائعة.

وظيفة النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM

أولى التجارب الشهيرة التي أجريت على الحرمان من الأحلام

DREAM DEPRIVATION ، كما سـميت في أيامـها المكررة تلك، كانت قد تمت في مستشفى ماونت سينال Mount Sinal بنيـويورك عام ١٩٦٠، أجراها الدكتور وليم ديمنت W. Dement ، الذي سـبق له أن أسـهم في البـحـوث الرائدة عن الأحـلام في جـامـعـة شـيكاغـو. وطريقـته تتلخص في ايقـاظ الأشـخـاص عدة ليال متعاقبة متواترة في كل مرة يكونون فيها في حالة فترة REM، وبهذا يتم حرمانهم من حوالي ٩٠٪ من حالات نومهم وهم في فترة REM، ولذا تمت ملاحظة نتيجتين مهمتين.

فأولاً، كـانت تبـدو لدى الأشخاص النائمين بلا استثناء فترات من س ـ ح ـ ع REM أكـثـر من المعـتاد، لذا ففي الليلة الخامسة من ليالي الحرمان كـان الأمـر يتطلب ايقـاظ بعضهم عشرين أو ثلاثين مرة. وبعد مضي عشرة أيـام بات من المتـعـذر الاسـتـمـرار في التـجـارب، وذلك من جـراء عـودة الأشخاص ثانية في حالة نوم REM في كل مـرة يتم ايقاظهم فيها. ثانياً، في ليالي الانتعاش RECOVERY بعـد انتـهـاء الأمـد المقرر للتجارب، حـينما يسـمح للأشـخـاص بالاسـتـمـرار في النوم دون تعرضهم لازعاجات الايقاظ، فان زمن س ـ ح ـ ع REM عندهم قد ازداد زيادة ملحوظة، اذ استغرقت في بعض الأحيان حوالي ٤٠٪ من وقت نومـهم الكلي. [وان كان هنا مجال كـبير للفروق الفردية بينهم] . وقد بدا هنا وكأن الأفراد الخاضعين لاجـراء البـحـوث عليـهم كـانوا يحاولون التـعويض عما فقدوه من نوم خلال فترات س ـ ح ـ ع MER يـمـيـلون الى أن يكونوا مـتـوترين وقلقين كلما اسـتـمـر أمـد التـجـارب عليـهم. فكانوا يواجهون في اليوم التالي صعوبة في التركـيـز وكـانت تبـدو واضـحـة عليـهم علامات التعب، وزيادة العصبية، وفـقـدان الذاكـرة الخـفيف البسيط. ولقد علل ديمنت ظهور هذه الأعراض بأنها لا يمكن أن تعـزى الى اضطراب النوم فـقط، طالما أن أفـراد المجموعة الضابطة كان قد تم ايقاظهم وهم في حالة نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM بنفس عـدد المرات ايضـاً ومع هذا فـقـد أظهـروا سلوكـاً سـوياً تماماً. وقد

اختـفت جميع الأعراض عندما سمح للأفراد بالتمتع بالنوم الاعتيادي ثانية. وعبر ديمنت عن قناعتـه بأن الاسـتـمـرار في الحـرمان فترة أطول وعلى نحو أقسى ينجم عنه تمزيق للشخصية خطير.

أدت التجربة الأولى هذه الى تأمل مثير أعرب عنه أناس كثيرون انتشر في الستينات مؤداه أن الكائن البشري ربما كـانت به حاجة نفسية الى الحلم، حـاجـة الى رحلة ليليـة يركب فـيها جناح الخيال ليعوض بذلك عن الروتين الرتيب الكئيب الذي يكون قـد أمـضـاه في سحابة يومه، أو لعله ينحدر الى الأعماق الابـداعيـة مـن الانـعـاش الـروحـي. ولقـد اسـتـمـسك المحللون النفـسـانيـون بهذا البـحث وتشبثوا به معتبرين إياه تأييداً محتملاً وتوثيقاً ممكناً لنظرية فـرويد عن الأحـلام بوصـفـهـا صمام أمـان، للتـعبير والتنفيس دونما ضرر عن الدوافع العـدوانيـة والنوازع الجنسية المحرم عليها التنفيس عن ذاتها في الحـيـاة الـواعـيـة. وللأسف، إن التـجـارب التي أجـريت فـيما بعـد على الحرمان من الحلم في حالة س ـ ح ـ ع REM قد خيبت ظن الذين أخذوا بتلك الآراء والنظريات، وأخـفـقت في تحـقـيق أي تعـزيز يذكـر يؤيد تلك النظريات الخلابة الخداعة.

وعندما زاد ديمنت فيما بعد فترة الحرمان في حالة س ـ ح ـ ع REM الى خمـس عشرة ليلة وذلك باسـتـخـدام العـقـاقير، تبين له أن الأشـخـاص الثـلاثة الذين كـان يجري عليـهم تجاربه، قد أظهروا اضطرابات سيكولوجية قليلة نسـبياً فقط، فواحد منهم مثلاً أصبح شكاكاً وعدوانياً، بينما صار آخر طائشـاً مـسـتـهتراً ومـتـحللاً من أية مـسـؤوليـة على نحـو يخلو من أية نزعة نمـوذجـيـة، لكن هذه الآثار يمكن ارجـاعـهـا الى تأثير العقاقير. وأياً كانت الحـال، فـان هذين الشـخـصين قـد استعادا اتزانهما الاعتيادي الطبيعي بعد الليلة الأولى من ليـالي اعـادة الانتـعاش. لكن ما قام به باحثون آخرون من تجـارب أخـرى مماثلة أجريت على الحرمان من النوم قد اخفقت باستمرار في التـوصل الى أي تطبـيق ينشأ عنه اضطراب حـقيقي خطير يصيب الشخصية

بعد الحرمان من النوم عندما يكون الحالم في حالة س ـ ح ـ ع REM.

واستطراداً في استبانة أثر الحرمان في حالت س ـ ح ـ ع REM وما يخلفه هذا الحرمان لدى الكائنات البشرية من آثار لها مشاكلها الأخلاقية، فقد وجه ديمنت عنايته الى اجراء البحث على القطط ـ ذلك لأن حالة س ـ ح ـ ع REM قد تمت ملاحظتها عند جميع الثدييات التي جرت دراستها ـ فكان يضع قططه التي يجري عليها تجاربه فوق منصة ترتفع قليلاً فوق مستوى بركة من الماء . وفي كل مرة تبدأ حالة س ـ ح ـ ع REM عند القطة، تسترخي عضلات رقبتها فيتم عندئذ غمس رأس القطة في الماء، فتستيقظ واثبة جافلة. وبعد فترة من تكرار هذه العملية على القطط تعلمت ان تستيقظ حتى قبل ان يلامس رأسها الماء. ان اسلوب بركة السباحة هذا قد أحدث حرماناً تاماً تقريباً في حالة س ـ ح ـ ع REM ، لكن مدة السبعين يوما التي أجريت فيها تجربة التعذيب تلك لم تفلح في احداث اي اعطاب ملحوظ في السلوك. لا شك كانت هناك تغيرات منظورة بدت في سلوك تلك القطط كالزيادة في البحث عن الطعام والنشاط الجنسي، لكن ديمنت كان ملزماً بالاعتراف بأن مثل تلك التغيرات انما كانت في حقيقتها تحسينات طرأت هي من وجهة نظر قطة تنشد البقاء طليقة على سجيتها البهيمية.

يمكن القول، بطبيعة الحال، ما دام ان قسطاً معينا من النشاط العقلي يحدث خارج نطاق فترات س ـ ح ـ ع REM داخلاً في حالات لا ـ س ـ ح ـ ع NREM فان الحرمان الحاصل في حالة REM لا ينجم عنه بالضرورة حرمان تام من الحلم. شيء من الدعم لهذا النوع من الحجاج انما يتأتى من تجارب تعرض فيها الأشخاص المجرب عليهم الى حرمان كامل من النوم ـ وهي حالات لم يحدث أي حلم مهما يكن ـ فترتبت على الحرمان الكامل هذا آثار جد خطيرة ترقى الى حد الكارثة. لعل ثلاثة أيام متتالية من حرمان تام من النوم ينشأ عنها اهتلاسات، أوهام الشعور بالاضطهاد،

فقدان الذاكرة وحتى الهذيان.

على انه ليس من المرجح ان تعزى الآثار المترتبة هذه جزئياً او كلياً الى فقدان الحلم لجانب الخيال المبدع حسب المفهوم السيكولوجي، نظراً الى ان هناك شواهد تشير الى أن الأطفال الخدج (٢) . يحتاجون الى النوم، وأن الحيوانات التي أزيلت المراكز العليا من دماغها قد أظهرت زيادة ملحوظة في حاجتها الى نوم من النوع الذي يتضمن س - ح - ع REM بعد أن حرمت من هذا الضرب من النوم. وعندما اذن الاشخاص الراشدون المتطوعون باجراء التجارب عليهم بأن يتم حرمانهم من النوم حرماناً تاماً يشمل فترات انتعاشهم، وجد أن أول نوع من أنواع النوم أرادوا استعادته وتعويضه هو النوم العميق جداً الذي يحصل عادة في المرحلة (٤) ، وهو النوم الذي يظهر في جميع أنواع البحوث انه قلما يقترن بنشاط عقلي أيا كان . وإن استرجاع النوم المفقود في حالة REM والذي يبدو لدى الراشدين الأسوياء شديد الارتباط بالحياة التخيلية، انما يرجيء نفسه فيتخذ له مكاناً ثانوياً ولا يهيء نفسه حتى يحين موعد ليال تالية أخرى للانتعاش.

والحق، أن الخصيصة المطردة المتواصلة لدورة النوم الكاملة تشير بقوة الى أن الرأي القائل أن لذلك علاقة بالانعاش الطبيعي الأساسي لمجمل اعضاء الجسم انما هو رأي صائب فيما ذهب اليه، بدلاً من أن تكون العلاقة هذه منصبة على الراحة الخاصة بالعمليات النفسية. ولقد وجد البحث الحديث مؤخراً دعما جماً مباشراً يعزز وجهة النظر هذه. فاحدى التجارب، مثلاً، أظهرت أن الرياضيين الذين يمارسون الألعاب الرياضية بعد الظهر كانوا ينامون في الليلة التالية نوماً عميقاً أكثر من المعتاد، وهو من نوع نوم المرحلتين (٣،٤) وأوضحت تجربة اخرى ان الناس الذين لديهم نقص في هورمون الغدة الدرقية [ولهذا الهورمون تأثير كتأثير التمارين

---

(٢) المولودون قبل أوان ولادتهم الطبيعية. (المترجم)

الرياضيـة التي تحـرق بعض الأنسـجـة الجسمية] لم تكن بهم حاجة الى نوم عميق من نوع [٣ ، ٤] ، أي انهم كـانوا يفـتـقرون الى مثل هذا النوع من النوم العـمـيق، لكنهم استعادوه بعد أن حقنوا بذلك الهورمون. وتأكيداً لهذا الرأي فقد وجد الدكتور أيان أوزوالد Ian Oswald وزمـلاؤه من جامعة أدنبرة عندمـا يكون هورمـون الدرقـيـة هذا مـوجـوداً لدى الأفـراد بكـمـيـات فـائضة زائدة ، فان مقدار النوم ونسبته في المرحلتين (٣،٤) يـزداد زيادة هـائلـة. اسـتـخلص الدكـتـور أوزوالد من هذا كله أنه حين يحترق النسـيج الجـسـمي عن طريق اجراء التمارين الرياضية وممارستها أو بواسطة أية وسيلة أخرى، فان النوم في حالة لاس ـ ح ـ ع NREM يعـمل على استعادة ذلك النسيج الى حالته الاعتيادية.

تجـد هذه النظرية، فضلاً عن ذلك، دعماً قوامه انه يحدث خلال النوم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM تدفق وانصـبـاب من النمـو الهورمـوني مـصـدره الجهاز الغدي، فيصب التدفق الهورموني هذا في الدم، ويحصل كل ذلك بخاصة خلال المرحلتين (٣،٤) من النوم. والنمـو الهورمـوني هذا يزيد في تركـيب البروتين ويسـاعـد على نمـو الجـسم والحـفـاظ عليـه وصـيـانتـه واصـلاحـه. ولئن حـرمنا من النوم، فـان كـمـيـة الهورمون تنخفض وتقل، بحـيـث أن اصـلاح الخـلايا الجـسمية وتجديدها يتضرر. ولعل هذا ينتهي الى كـثير من الآراء الضـارة بالصـحـة منها مثلاً فقدان النوم فقداناً تاماً، وهو ما يتـسـاوق والحـقـيـقة الذاهبة الى أن الكمية المطلقة من الوقت المنفق في حالة النوم لاس ـ ح ـ ع NREM في كل ليلة، وهو مـعدل ما يحتاجه الشخص الاعـتـيادي، انما يكون في أشده إبان مرحلتي الطفولة والمراهقة، حين يكون الجـسم في حـالة نمـو وفي أوج نشـاطه. ولذا فـان النظرة الشائعة القائلة أن نقص النوم الكافي عند الطفل يمكن أن يعـتـاق نمـوه تبـدو، ارتكازاً الى هذه النتـائج، نظرة راسخة ولها ما يبرروها.

فما هي اذن وظيفة النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM ، الذي يعترض

على فترات مـردود النمـو الهورمـوني؟ ازاء هذا يقـدم أوزوالد شواهد وبراهين تبـدو مـقبولة وتحمل على القناعة مؤداها أنه فكما أن للنوم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM غـرضاً هو لتجديد الأنسجة الجسمية العامة، فكذلك هي الحال بالنسبة للنوم في حالة س ـ ح ـ ع REM اذ انه بالغ الأهميـة لنمو الدمـاغ وتجـديده. وقـد كشفت الدراسات التي أجريت على الأطفال الخدج عن أن ٨٠٪ من كافة النوم انما يمضونه في حالة س ـ ح ـ ع REM وذلك خـلال الشـهـر او الشـهـرين اللذين يسبقان الولادة. ذلك لأنه قبيل الولادة فـقـط يـنمـو الدمـاغ نمـواً سريعـاً ـ والحق ان المادة السنجـابيـة من اللحـاء يتـضـاعف سـمكهـا وتنطوي على شكل تجـاويف وتلافيف متداخلة متراصة في الشـهـر الذي يسبق الولادة. والناس في عـمر الشيخوخة لا يواتيهم النوم من نوع REM الا غـراراً، ولقد تبين أن أدمغتهم تذوي فتذبل ذبولاً وذلك لأن العـمليـات الاعـتيـادية الطبـيـعية لخلايا المخ تكف عن التجديد. لهذه النتيـجـة تطبـيقاتها الممتعة منها مثلاً أن الشيخوخة من الممكن ازالتها وذلك باعطاء الأشـخـاص في تلك الأعمار عـقاقير من شأنها زيادة وقت س ـ ح ـ ع REM، بيـد أن هـذا مـا يـزال مجرد تأمل في الوقت الحـاضر ليس غير.

وكذلك الحال بالنسبة لذوي العاهات العقلية Mental Defectives فهم ليس لديهم من النوم في حالة س ـ ح ـ ع ـ REM الا قليل، مما يدل على أن هذا النوع من النوم انما هو ضرورة لازمـة للمـحـافظة على نسيج الدمـاغ في انتظام حـسن حيث يمكن أن تتم العـمليـات والوظائف العـقليـة العليا بكفـاءة كـالتـفكير والتـعلم والتـذكر. وقد كشفت التجارب عن أن العقاقير التي تحـول دون تكون البروتين يمكن أن تحـول كـذلك دون تكوين ذاكرات دائمة. وقد وجد الدكتور جي. ستويفا J. Stoyva وزمـلاؤه ـ في جـامعة كـولارادو، وكـان الأشـخـاص الذين يجربون عليـهم يلبسون عوينات خاصة تجـعلهم يرون الأشياء مقلوبة، وجدوا أن نسبة النوم من نوع REM كانت قـد ازدادت لـدى المـجـرب عـليـهـم زيادة هائلة أثناء تدريبهم على التكيف

للحالات الجديدة تلك. وهذا مما يدلل على أن للنوم من نوع REM أهمية بالغة في مجالات التعلم والتذكر.

ثمة ما يعزز الفرضية القائلة أن ألنوم من نوع REM انما هو نوعاً ما مهم للحفاظ على انتظام عمل نسيج الدماغ انتظاماً طبياً، وذلك ربما يتم بما يتولد عنه بروتين في الدماغ، يأتي التعزيز لهذه الفرضية من بحوث أوزوالد نفسه ، اذ وجد ترددات وارتدادات واسعة في كمية النوم REM لدى المرضى الذين حاولوا الانتحار. بتناولهم جرعات كبيرة من الحبوب المنومة تناولوها في دفعة واحدة ـ تلك الارتدادات أو الأصداء الدماغية تمثل أزمة مباشرة . وكان يبدو عليهم ظاهرياً أنهم قد انتعشوا تماماً من تأثير العقاقير بعد فترة أيام قلائل، ولكن كان هناك خلال الشهر الأول الذي أعقب نقاهتهم قليل من نوم المرحلتين (٣ ، ٤) يقابله كمية هائلة أو مقدار كبير من نوم حالة REM ـ وهي كمية نوم تفوق كثيراً مقدار ما فقدوه خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة التي تلت مدة الانتعاش. لهذا، وبعد تأثر الدماغ بعطب كهربائي جراء العقاقير ، فان نوم س ـ ح ـ ع REM تكون له الأرجحية على النوم من نوع لا ـ س ـ ح ـ ع NREM . أوزوالد يقول أن هذا يذكره بركلة على الظنبوب (٣)، حيث يعقب ذلك عدم قدرة على الحركة مؤقتة تستمر لمدة يوم أو يومين تكون مصحوبة بالعرج، يزول العرج هذا بعدها تدريجياً ومع ذلك فان الكدمة تستغرق حوالي شهرين حتى تختفي.

وأياً كان الأصل الذي نشأت منه دورة REM، فان هناك شكاً ضئيلاً بشأن أهليته بالنسبة لحياة الانسان، بل وربما لحياة الثدييات الأخرى، وعلاقته بعمليات البناء الكيميائي المقتضى للمحافظة على الدماغ في وضع تام من الانتظام والنظام، انما هي الآن أهمية تعكس حقيقة وظائفه

---

(٣) مقدم الساق، وهو عظم الساق الأكبر وبخاصة حافته الحادة (المترجم).

الرئيسية، هذا فضلاً عما له من علاقة كبرى تتصل بقيمته في المحافظة على ضرورة حق البقاء. ولا تناقض هناك يبرز بين وجهة النظر هذه وبين الحقيقة الذاهبة الى انه ليس ثمة خلل سلوكي مباشر يعقب الحرمان من نوم س ـ ح ـ ع REM. انها لحقيقة جد معروفة تلك التي تقول أن بمقدور الدماغ الاستمرار على النشاط ومواصلة وظيفته على نحو اعتيادي الى حد معين وذلك بعد اصابته بتلف. وان استخلاصي هو أن كثيراً من الخلايا المختلفة ذات وظيفة تمكنها من انجاز مهمة كانت تقوم بها خلايا أخرى تعرضت للتلف، بحيث اذا ما عجزت مجموعة من الخلايا عن أداء وظيفتها في أي وقت من الأوقات، فان مجموعة أخرى غيرها تتولى انجاز العمل الذي كان موكولاً الى تلك التي توقفت عنه لأي سبب من الأسباب. هذا، وان الحاسبات الالكترونية مبنية في أيامنا هذه على نفس المبدأ العلمي الفسلجي، بحيث أن الأجزاء التي يصيبها العطل أو العطب يمكن استبدالها دونما تدخل فيما هو جار من عمل.

لذا فان وظيفة النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM انما هي اتاحة الفرص للدماغ وتمكينه من مواصلة البناء الكيميائي المعقد المرتبط بمضاعفة عمل الذاكرات والبرامج Programmes، فلا يترتب على الحرمان من هذا النوع من النوم ما يتسبب في احداث خلل سلوكي ـ وليكن هذا في الأقل لفترة ليست بالقليلة. فالدماغ يستمر على أداء وظائفه كتوحيد ودمج آثار الذاكرة وتكوين معالمها خلال الحياة الواعية، لكنه يمكن أن يعمل بدون أن تتوافر لديه هوامش الأمان الاعتيادية المألوفة فيما لو كان كل شيء على ما يرام من حيث سلامة الخلايا الدماغية كافة. وابان فترة الانتعاش بعد عملية الحرمان من النوم في حالة REM، علينا أن نتوقع بأن الدماغ سيعمل بجهد مضاعف من الوقت لينجز ما هو مطلوب من مضاعفة الذاكرة وليستعيد لنفسه كامل طاقته وليسترجع تمام كفاءته.

ولنقل ثانية، بأن صدمة عنيفة تتسبب جراء جرعة أكبر مما يجب من

العقاقير، قد تؤدي الى اتلاف جزء كبير من الدماغ ومع هذا فانها لا تحطم كامل قدرته في انجاز وظيفته. وأياً كانت الحال، فان امتدادات فترات من النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM يكون أمراً مرتقباً حدوثه ولعله يستمر فترة أسابيع بعد هذا وذلك لاصلاح واستعادة النسيج الاضافي من الذاكرة والبرامج التي كانت في الخلايا التالفة، وانه فقط في نهاية هذه الفترة من الوقت يصبح بمقدور الدماغ استعادة تمام كفاءته وقوته. واذا ما فرض على الدماغ اجراء أو واجب من اعادة التعلم يتمثل فيه التزمت ويتسم بالقسوة، كما هي الحال المفروضة على الأفراد الذين يطلب منهم من البداية ولأول مرة أن يتكيفوا لرؤية الأشياء خلال نظاراتهم التي تجعل تلك الأشياء مقلوبة، فعلينا مرة أخرى أن نتوقع حدوث زيادة ملحوظة من النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM ، وذلك لكي يتمكن من مواجهة ما حصل من تغير تام في البرمجة وفي البرامج ذاتها. ولهذا ما يماثله في عالم الأطفال حديثي الولادة اذ هم يحتاجون قدراً كبيراً من النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM وذلك ليتمكنوا من مواجهة ما يتعرضون له في بيئتهم الجديدة هذه من مقدار هائل من المنبهات الجديدة كذلك.

ان المكنيات MECHANISMS التي تعمل وفق مبدأ تعدد الجوانب الوظيفية وكثرتها تستطيع بوجه عام تحقيق ما هو موكول بها من مهام حتى وأن تعطل جزء من آليتها عن العمل، لكن كفاءتها تقل فلا تتمكن من انجاز مهماتها تلك بنفس المستوى الأول من الجودة. وبتعبير آخر، فان النشاط النهائي انما هو مجرد مجهود مشترك تطبيقي يتم بين عدة أجزاء متآزرة. وفي حالة الدماغ، كذلك، علينا ان نتوقع أن التدخل في عملية طبع (نسخ متعددة) لمعلومة مكتسبة جديدة لا ينتج عنه نسيان تام، ولكن يترتب على ذلك أن تتكون ذاكرة هي أقل اكتمالاً مما كان ينتظر لها فيما لو تكونت تحت ظروف اعتيادية.

تلخيص واستنباط

أيا كانت وظيفة النوم في حالتي س - ح - ع REM ولا - س - ح - ع NREM - اللتين ما زالتا يكتنفهما شيء من الغموض ورغم ما طرحنا بشأنهما من تنظير - فانه لمن المرجح أن الخبرة الذاتية التي نسميها الحلم انما هي نتيجة جانبية لعملية فسلجية جوهرية أساسية مرتبطة بالتعلم والمعرفة والتذكر. وأن هذا لا يعني أن الأحلام لا قيمة لها أو أننا ينبغي أن نغفل شأنها. بل على العكس من ذلك، إنها يمكن أن تكون الى جانب هذا كله ذات قيمة كبرى لبقاء الجنس البشري في المرحلة الحاضرة من مراحل تطوره الاجتماعي وذلك بامداد الانسان بمعرفة تنفعه في واقع حياته وفي واقع نفسه، معرفة، لولا الأحلام، لبقيت خافية عليه. وكما هي الحال في مسألة المكونات والمصاحبات الكيميائية للأدوار الخاصة بالتعاقب المرتبط بالنوم وحالاته، وما للأدوار هذه من أهمية تشخيصية كبرى بالنسبة للطبيب، حتى وإن كانت تلك المصاحبات مجرد نواتج وافرازات بسيطة يفرزها الجسم لا وظيفة لها تقوم بها أبداً ، فكذلك هي الحال في الأحلام حيث تكمن أهميتها في توجيه اهتمامنا وانتباهنا الى كثير من الأمور الأساسية اللاعقلانية والمتناقضات القابعة بعيداً في أغوار الشخصية، والتي لا تني تهدد باستمرار بإفساد حياتنا علينا. اضف الى هذا، وكما سأوضح فيما بعد، فان الأحلام تضعنا وجها لوجه أمام جميع أنواع المواهب الخافية والطاقات الكامنة، التي نمتلكها ولكننا قد لا نعرفها في أنفسنا. وباقامة جسر بين العقل والجسم والربط بينهما، فان الأحلام يمكن أن تستخدم كمنصة انطلاق بوسع الانسان أن يقفز منها الى تخوم من الخبرة والمعرفة تقع خارج النطاق الاعتيادي من الحياة الواعية عنده، فهي بهذا توسع من آفاق رؤاه ليس بالنسبة الى نفسه فحسب، بل تمتد أيضاً لتشمل الكون الذي يحيى فيه ويحتويه.

الفصل الثاني
مــا هــو الحلــم ؟

إنها لحقـيـقة صادعة ألا يكون هناك حتى الآن تعريف مقنن للحلم رغم مضي قـرابة عشرين عـامـاً منذ ابتـداء إجراء البحوث العلمية بشأنه. وإذا ما أخـذنا بتـعريف قاموس اكسفورد للحلم بأنه [رؤيا، تمثل سلسلة من الصور أو الأحـداث، تـظهـر للشـخص النائم]، فـمن الواضح إذن أن أي نشـاط عـقـلي يـبـلـوه المرء كـخـبرة خـلال الـنوم يجب أن يكون حلماً وبالمثل، فإن قاموس (ويبستر) الجديد يعرف الحلم بأنه [تتابع من الإحساسات، والصور العـقليـة، والأفكار، وسـواها، تمر عبر عـقل الشـخص النائم.] من الناحية الأخـرى، نجـد البرفـسور كالفن هول Calvin Hall، وهو خـبير بالأحـلام أمـريكي، يفـضل أن يكون أكثر دقة. فهو يرى [أن الحلم إنما هو تواتر من الصـور العـقلية، وهي في غالبيتها صور بصرية من حث نوعيتها، تمر بالفرد كـخبرات خـلال النوم. وللحلم عادة مشهد أو مشهدان، ويشتمل على عدة أشـخـاص بالإضـافـة إلى الشـخص الحـالم، ويتـضمن سلسلة من الأنشطة والأعمال والتـفـاعـلات وهذه كلهـا عـادة تنتظم الحـالم في أحـداثهـا. فـهـو (الحلم) يشـبـه صـوراً مـتـحركة أو عرضاً دراميا يكون دور الحالم فيه مزدوجاً إذ هـو المشـارك والمشـاهد مـعـاً. ورغم أنّ الحلم هلوسـة، ذلك لأن الحلم ليس له وجـود مـادي حـقـيقي ملموس، فإن خبرة الحالم به هي أنه يكون في وضع كأنه يرى شـيئاً حـقـيـقـياً.] وحسب هذا التعريف، فإن خبرات نومنا الطويلة، الرؤية الواضحة، الفعالة، هي التي تستحق العلامة: [الحلم].

التـعـريف مهم لا ريب، ذلك لأننا إذا ما أخذنا بالتعريف الأول للحلم بـأنـه أي نشـاط عـقلي يبلوه الفـرد إبان النوم، فـهـذا يعني أنه يتـعين علينا اسـتـبـعـاد الاكـتـشـاف الشـهير الخاص بالبحث الحديث عن الأحلام وهو الاكـتـشـاف المتعلق بفترة النوم في حالة REM بوصـفـهـا [مؤشراً موضوعياً]

يدل على حدوث الحلم حقاً. وقد وضّحت التجارب إن العقل يبدو أنه يبقى باستمرار نشطاً خلا النوم وإن الشخص في حالة إيقاظه من فترات نوم لا - س - ح - ع NREM، يسترجع في الغالب صوراً images أو أفكاراً، ظاهرياً لا يمكن تمييزها أحياناً عن تلك الصور التي تحصل خلال فترات نوم REM.

ففي التجارب المبكرة مثلاً، حسب ديمنت وكلايتمان أن الأشخاص الذين كانوا يجرون عليهم تجاربهما كانوا يحلمون فقط في حالة تمكنهم من أن يقصوا ويذكروا وصفاً متماسكاً ومفصلاً لمحتوى Content الحلم: بعبارة أخرى، كانا يستخدمان تعريفاً للحلم مثيلاً لتعريف هول. فلا عجب، إذن من أن تأتي ٨٠٪ من تقارير الأحلام عندما يكون الحالمون في حالة نوم من نوع REM مقابل ٧٪ فقط عندما يكون الحالمون في حالة نوم من نوع لا - س - ح - ع NREM. في تجربة أخرى تعريف الحلم فيها مشابه لما ورد في قاموس اكسفورد حيث يذكر أن الحلم [أية فقرة من المحتوى العقلي المحدد]، وجد كذلك أن ٨٠٪ من الأحلام كانت قد ذكرت عندما كان أصحابها في حالة نوم س - ح - ع REM لكن الأحلام الناجمة عن النوم في حالة لا - س - ح - ع NREM قد ارتفعت إلى ٥٤٪. ففي الحالة التالية من المتعذر القول بأنها فترة خالية من الحلم. وأن المسألة قد اختلطت فيها الأمور أكثر في اليقظة اعتبر تعريف الحلم بأنه [أي شيء يمر عبر العقل]: إذ ذكر في هذه الحالة أن ٧٤٪ من حالات الحلم قد تمت في فترة NREM.

من الواضح أن الباحثين المذكورين لم يكونا الوحيدين فقط في اختلاط الأمر عليهما حول ماهية تكوين الحلم وماذا يكونه بالضبط. فالدكتور دونالد جوادنف Donald Goodenough الذي انضم إلى فريق البحث عن الأحلام في شيكاغو عام ١٩٥٦، اكتشف بطريق الصدفة أن بعض الأشخاص ممن كان يجري عليهم تجاربه كانوا يواجون صعوبات مماثلة. واتبع في تجاربه أنه كان يزود الأفراد الخاضعين للتجربة بتعليمات تقضي بأنه

سيوقظهم من نومهم جرس منبه وبإمكانهم إسكاته عند اليقظة وذلك برفع سماعة التلفون الموجود بجانب الفراش من فوق منصته: وكان عليهم أن يذكروا مباشرةما إذا كانوا في حالة حلم، وأن يذكروا المحتوى المفصل لأي حلم يسترجعونه ويتذكرونه. وما أشد دهشة جودانف كانت حين سأله أحدهم بعد أن تلقى قبيل توجهه إلى فراشه التعليمات المطلوبة فقال: [وكيف سأعرف ما إذا كنت قد حلمت أم لا] ولدى تأمل السؤال وجد جودانف أنه لم يكن سؤال من غير معنى إذ لم يكن ذلك الشخص قد تسنى له من قبل استرجاع حلم ما.

وجد جودانف كذلك أن كثيراً من أشخاص تجاربه، لا سيما أولئك الذين قلما كانوا يسترجعون أحلامهم الليلية تلقائياً، وجدهم يخلطون في خبرات أحلامهم. فأحد النائمين استيقظ بعد فترة نوم مؤكدة أنها من نوع REM، وذكر أنه [كان نائماً وكان يفكر]، في حين ذكر آخرون غيره أنهم لم يكونوا متأكدين عما إذ كانوا [نامين وحالمين] أو أنهم[كانوا مستيقظين ويفكرون]. وصعوبة التمييز بين [الحلم] و[التفكير] كانت صعوبة واقعية بالنسبة لكثير من الأشخاص الذين أجريت علهيم التجارب. فقد ذكر رجل مرة أنه أحس بأنه كان راكباً حصانه يمر في طريق مشجر وكان يعي البيوت والبنايات على جانبي الطريق، وأضاف: [حلم كان ذاك أم تفكير: لست أدري.] وذكر شخص آخر كان يعاني نفس الصعوبة في التمييز بين التفكير والحلم فقال: لابد أنه كان في حالة حلم وليس في حالة تفكير، طالما أن أحداث الحلم لم تكن واقعية وليست متساوية مع حقائق الحياة اليومية.

يبدو أن هناك فسحة كبرى بانتظار كلمة (حلم) لأن تكتسب لها معنى متفرداً خاصاً بها. وتبعاً لهذا فإنه لما يبعد هذه الكلمة عن معناها العلمي ولعله إجراء مجانف لروح العلم أن نسأل شخصاً ما عن حلمه. وقد علق ديمنت عام ١٩٦٥ قائلاً ، [إنه لأمر مدهش، في ضوء هذا كله، ألا نجد

ثمة من فكر في التوجه إلى متطوعيه في التجارب بسؤال يطلب إليهم فيه تعريف الحلم أو استنطاقهم عما يعنيه الحلم إليهم قبل استخدامهم متطوعين.]

وكان الدكتور ديفيد فولكس DAVID FOOLKES من جامعة وايمنج يأمل في تخطي مشكلة تعريف الحلم بواسطة تغيير أساليب المقابلة. فكان يسأل الشخص المتطوع عما إذا كان يحلم أما لا قبيل سماعه منبه الإيقاظ، فإذا كانت إجابته بأنه كان في حالة حلم فكان يقال له بأنه لا حاجة لذكر حلمه. ولئن أجاب الشخص بأنه لا يستطيع تذكر أي حلم، فالسؤال التالي الذي كان يوجه إليه هو: هل كان هناك أي شيء يمر عبر دماغه. وجد فولكس من هذا أن هناك شيئاً ما يمر عبر عقول ٨٧٪ من الأشخاص حينما يكونون في حالة نوم REM وأن ٧٤٪ منهم يمر خلال عقولهم شيء معين أيضاً عندما يكونون في حالة نوم من نوع لا - س - ح - ع - NREM. وكان استرجاع الحلم موزعاً بالتساوي تقريباً بين مراحل النوم (٢، ٣، ٤)، وينتظم في هذا أن فترة NREM كلها كانت قادرة على الحفاظ على النشاط العقلي. وكأن التقرير عن NREM النموذجي كان يبدو أشبه بالحلم نوعاً ما، وهو في هذا يكون أقل شأناً مما يكون عليه الحال في حالة س - ح - ع REM.

هذه النتائج قادت فولكس إلى أن يحاول تحليل ما يتصل بأحلام س - ح - ع ، ولا - س - ح - ع NREM من تقارير. توصل نتيجة لذلك إلى أن الأخيرة هذه كانت أقل انفعالية وانطوت على نشاط جسمي أقل مما انطوت عليه الأحلام في حالة REM: وكانت كذلك أقل مبالغة وتضخيماً، وقد احتوت مشاهدهاعلى مناظر أقل وكانت عادة أقل درامية في طبيعتها. فقد اشتملت التقارير الخاصة بالنوع لا - س - ح - ع NREM [التفكير] أو الأفكار. وانتهى إلى القول: [التقارير الخاصة بالأحلام كانت ميسورة الاستثارة واستحصالها بيسر وبنجاح في جميع فئات الاستيقاظ. إن عملية

الحلم أو أي شكل من أشكال النشاط الأدراكي يمكن أن يحدث حسبما هو متصور بصورة مستمرة لدى الكائن البشري وهو نائم، وإن فترات س - ح - ع REM إنما تكون ذات جدوى فقط في تمييز الأنواع المختلفة من الأحلام، بدلاً من الاستهداء بها كعلامات تدل على وجود الحلم وعدم وجوده.]

إني شخصياً أفضل استعمال التعبيرين (أحلام س - ح - ع REM و(أحلام لا - س - ح - ع NREM) للتمييز بين هذين الضربين من الأحلام في الحياة العقلية خلال عملية النوم. إذ أن محتوى حلم NREM إنما هو أشبه بالحلم إلى حد يكفي تسفيه الرأي الذهب إلى أنه إما (ألا يكون حلما) أو أنه (تفكير) فقط. وهو مع هذا يختلف بما يكفي عن محتوى س - ح - ع REM إذ بوسع أي فرد أن يتعلمه بأقل جهد ممكن من الممارسة، مما يمكن المرء من التمييز بين النوعين بسهولة على الدوام بل أن المسألة لتصبح أكثر يسراً وسهولة عندما تكون مرتبطة بما لدينا نحن من أحلام من نوع س - ح - ع REM و لا - س - ح - ع NREM.

وكمثال أريدك أن تحاول التجربة الآتية: متذكراً في الوقت ذاته القواعد العامة وهي أن الأحلام NREM هي على العموم أحلام أقصر Sharter:

أقل وضوحاً	Less vivid
أقل بصرية	Less visual
أقل درامية	Less dramatic
أقل تفصيلاً	Less elaborated
أقل إنفعالية	Less emotional
أكثر نشاطاً	More active
أكر قبولاً وتصديقاً	More Plausible
أكثر التصاقاً بالمشاكل الجارية	More Concerned With the current Problems

أكثر تواصلاً لفظياً	More conversational
أقرب إلى التفكير	More thoughtlike

مما هي عليه أحلام س ـ ح ـ ع REM.

والآن أريد منك أن تقرأ الأحـلام الستة التالية التي رآها أحد الأشخاص الذين كنت أجرب عليهم وهو الدكتور (Y)، وبعد ذلك حاول أن تقرر أي ثلاثة منها تأتي من أحلام REM وأي ثلاثة أخـرى تأتي من أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM. فبعد كل إيقاظ كنت أسأل الدكتور (Y) أن يذكر أي شيء طرأ على ذهنه ومر في عقله قبيل إيقاظه بفعل منبه الإيقاظ.

أحلام الدكتور (Y)

الحلم (١)

كـنـت أفكر أنه ربما حـصل نوع من الخلل بماكنتك وأنك لن تـتـمكن من إيـقـاظـي.. وقـبـيل ذلك كنت أقـدم بعض المرضى إلى الدكـتـور (ب) في عـيـادته. وكـان هناك الدكـتـور (هـ) جالساً في الخارج وقد علق بقوله: إن كل المشـهـد مزري ومدعاة للضحك. فرددت عليه: [الغيرة لن تجديك نفعاً ولن تبـغلك مأرباً.] وأظن أنك كنت واحداً من المرضى.

الحلم (٢)

كـان كله غـامـضـاً مبهماً. كنت أسير في شارع ومعي شخصان وهميان لا أرى غـير ظـلـهما، وكـنا نتـحـدث حـول شيء مـعين لا أدريه. أظن أحـد الشـخـصين كانت امرأة، وثانيهما رجل، لكنني ما استطعت استبانة وجهيهما ومـا كـانت لدي أية فكرة من عـسـاهما أن يكونا. وكنت أقـول لهما: [اذهبا من هنا، اذهاب هناك] أو شـيئاً من هذا القـبـيل: كنت أنا الموجـه لهما أين ينبغي أن يذهاب.

الحلم (٣)

كنت واقفاً خارج بناية فندق ممتاز، شاهدت هنديين اثنين انطلقا بسيارة كبيرة فارهة. كان أحدهما يبدو مريضاً جداً، وقد حاول الوقوف، وكان يبدو عليه كأنه في النزع وكأنه يحتضر، وكنت أخشى عليه أن يؤذي نفسه. كانا كليهما يرتديان الرداء الأبيض وتخيلت أني رأيتهما في مكان ما من قبل.

وقبل ذلك، كنت قد حلمت فرأيتني في المستشفى (م). وكان هناك شخص ما يقول لي: [هذا - المستشفى - كان قرب مستشفى القديس (ب)]، فأجبته: [نعم، هذا محتمل.] فقال: [ماذا يصنعون فيها هناك؟] فرددت عليه: [إنه كان وحدة لجراحة الجملة العصبية، وكان يحتوي على عدة أسّرة للعلاج النفسي.] ثم تناولنا غداءنا وبعد ذلك تمشينا.

ثم كان هناك حلم آخر. وقد حدث هنا في هذا البيت. إنه كان هنا في هذا الفراش وكان يوجد رجل مخابرات سري يفتش عن شيء ما تحت بابي. ما كان يبحث عنه يتعلق بالتجربة. إنه كان يتسمع إلى شيء معين، أو أنه كان يتجسس علي، أو يقوم بشيء من هذا القبيل.

الحلم (٤)

كنت أتناول قدحاً من الحليب هنا في فراشي. وكنت أتحدث إلى شخص ما لم أتبينه من عساه أن يكون. ذلك كان كل ما في الأمر.

الحلم (٥)

كنت قد استيقظت لتوي، مغادراً الفراش عندما انطلق جرس المنبه. سمعت جرس المنبه وأنا ما زلت في حالة حلم وأنا أهمّ بمغادرة الفراش كنت أرى وكأن الوقت صباحاً، نهاية التجربة، وكنت جالساً على حافة الفراش تأهباً لمغادرته. وجونز كان مفروضاً أن يكون هناك - كان يعدل أرض الملعب، كما تعرف.

الحلم (٦)

كنت في مستشفى أتحدث إلى شخصين أعرفهما. سألت أحدهما عند من من الناس يعمل ولحساب من من الأشخاص يقوم بالعمل. حسبته يعمل عند س من الناس لكنه نفى ذلك. ثم سألته عما إذا كان يعمل لحساب د. فأجابني، [كلا، إنه توفي منذ أمد بعيد. هل لهذا التاريخ عندك معنى!] ثم انطلقت أسير في شارع أقرأ لوحات الأسماء. وكان هذا الأمر مختلطاً علي بعض الشيء.

قبل ذلك، كنت أرى سيارة من نوع (ميني) حمراء، وكان يقودها رجل لا يحمل إجازة سوق. كنت جد قلق بشأن ذلك. ابتدأت السيارة بالانطلاق فانطلقت راكضاً وراءها بقصد إيقافها. فتشبثت بنافذتها محاولاً سحبها إلى الوراء. حسبت أنه كان علي بل من الأفضل أن أحاول قلبها على جانبها. هذا العمل بدا لي أنه يحدث فيهادماراً لكنه لاح لي أنه أقل ضرراً وأدنى إزعاجاً لهذا الشخص مما لو أنه اكتشف أمره يسوق من غير إجازة. وظننت أنه من الأفضل أن أدور حول السيارة لأكون من جهة السائق فأطرق على النافذة من جهته، لكنني أدركت إن أنا فعلت ذلك فربما تفلت السيارة مني فتنطلق. حاولت باهتياج شديد إيقاف السيارة مكانها لكني ما أفلحت.

الحلمان (٣، ٦) يمكن تشخيصهما حالاً أنهما من نوع الأحلام التي تحصل في حالة نوم س ـ ح ـ ع REM، والتشخيص هذا يرتكز إلى أسس منها: طولها، ووضوحهما، وما فيهما من رؤى، ونوعية الدراما فيهما، وحجم النشاط المتضمن في كل منهما. أما الحلم (٢) فيقيناً أنه من لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، وتشخيصه على هذا النحو إنما هو على أساس ما يكتنفه من غموض. وكذلك الحلم (٤) فإنه أيضاً هو الآخر نموذج للأحلام التي تحصل في حالة نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، وذلك نظراً لقصره بصورة

أساسية ولغموض النوعية المحادثية فيه، ولخلوه من أية مصاحبات رؤية بصرية. ولغموض الأشخاص يصفون أحلاماً كهذه بأنها [فواصل إضافية] - كما هي الحال في الفواصل التي تتخلل المسرحيات - بدلاً من اعتبارها أحلاماً حقيقية.

وبهذا يتبقى فقط الحلمان (١، ٥) ماثلين للتصنيف، أحدهما حلم من نوع س - ح - ع REM، وثنيهما حلم من صنف لا - س - ح - ع NREM. فكلاهما قصيران وكلاهما يعبران عن اهتمام لا غبار عليه يرتبط بالتجربة الجارية وماهيتها، وهذا كفيل بأن يجعل مكانهما في فئة الأحلام التي تحدث في فترات النوم لا - س - ح - ع NREM. لكن الحلم (١) ينسل من فئة التفكير المجرد في الموقف التجريبي وينضاف إلى فنطاسيا Fantasy مكان الجراحة والانشغال بموقف درامي وجيز يتمثل فيه التحدث إلى أناس معروفين لدى الحلم. أما الحلم (٥) فلم ينهض من مكانه، فالحالم مكث في فراشه مفكراً بـ(جونز). ولهذا السبب، فإن الراصد يجنح إلى تفسير الحلم (١؛ بأنه من فئة س - ح - ع REM ويفسر الحلم (٥) بأنه من نوع لا - س - ح - ع NREM ، وهذه هي الحقيقة.

طول الحلم هو محك آخر مهم من محكات تصنيف الأحلام، فأغلب ما يذكر من تقارير تتعلق بالأحلام من نوع لا - س - ح - ع NREM. وإن ما أجريته من تجاربي وجدت أن معدل طول التقارير عن أحلام REM و (٢٥٣) كلمة مقارنة بمعدل تقارير أحلام لا - س - ح - ع NREM إذ يبلغ (٥٩) كلمة فقط . فمعدلات أحلام الدكتور (Y) الآنفة هي (١٣٤) و(٤٨) على التوالي، وإن جميع ما يتصل بتقارير أحلامه من نوع REM هي أطول من تقارير أحلامه من الضرب لا - س - ح - ع NREM.

وأن أحلام الدكتور (Y) توضح فرقاً مهماً آخر يميز بين نوعي الأحلام س - ح - ع REM ولا - س - ح - ع NREM، إذ أن جميع أحلامه من نوع س - ح - ع REM إنما تنطوي على أكثر من حدث واحد. فهو في الحلم

(١)، مثلاً يلفي نفسه مستغرقاً في تفكير يمت بصلة إلى التجربة وإذا به فجأة يتحول إلى الخيال (فنطاسيا) إذ يجد نفسه في عيادة طبيب؛ أما الحلم (٣) فيشتمل على ثلاثة أحداث episodes، هي الهنود، ومنظر المستشفى، ومسرحية (دراما) رجل المخابرات. وفي جميع الحالات، يبدوعليه أنه يعيد ذكر أحداث أحلامه بصورة معكوسة - أي، أن ما ذكره أول مرة يتألف من حدث كان يمر به قبيل انطلاق جرس المنبه ومن ثم يعود أدراجه القهقرى تدريجياً مستذكراً خبرات حلم سابق من نمط الحلم الذي يقع عادة في فترات النوم من نوع س - ح - ع حلم سابق من نمط الحلم الذي يقع عادة في فترات النوم من نوع س - ح - ع REM.

فلو أمكننا ملاحظته مباشرة خلال النوم، لشاهدنا على وجه اليقين تقريباً حركات جسمية كثيرة تبدو عنده، وهذه الحركات تحصل عادة ما بين حدث وآخر وإبان كل حدث. والبحث يشير إلى أن الحركات الجسمية هذه هي المسؤولة عن قطع حلم جار والشروع بحلم آخر جديد خلال فترة س - ح - ع REM، ويتم هذا تماماً مثلما هي الحال عندما يطرأ اضطراب طارىء مفاجىء في الحياة اليومية ينبهنا مما نحن فيه من حالة استغراق أو استفكار أو حلم يقظة، فينقلنا الاضطراب هذا إلى حلم يقظة آخر أو يعيدنا إلى حياة الواقع. ففي التجارب ستة أحداث عندما كانوا في حالة حلم من نوع س - ح - ع REM، وقلما ذكروا مثل هذه الأحداث عندما يمرون بخبرات في حالة نوم لا - س - ح - ع NREM . فالحلم (٥)، مثلاً ينتقل من الدكتور (Y) فيتحول إلى [جونز] الذي يسوي أرض الملعب. ولما كانت معظم الحركات الجسمية تحدث غالباً خلال فترة نوم المرحلة (٢) وهي قلما تحصل في مرحلة نوم (٣) ، فمن المحتمل كثيراً أن ما يتم من نشاط عقلي في حالة نوم لا - س - ح - ع NREM إنما يكون مقسماً إلى أحداث عدة يكون تذكرها أقل وضوحاً وتواتراً مما يكون التذكر هذا حاصلاً في حالة نوم REM. سنبين في الفصل القادم، أن النوم يبدو أنه

يكف inhibit عملية تكوين آثار الذاكرة في الدماغ وهذا يتأدى بنا إلى نسيان ما كان يجري خلاله.

وإن العجز عن تكوين آثار للذاكرةخلال نوم لا - س - ح - ع NREM يمكن أن يكون كذلك هو السبب في عدم وضوح كثير من الأحلام التي تحصل خلال مرحلة النوم هذه. وأحلام الدكتور (Y) توضح هذا الجانب بوضوح . فهو مثلاً حتى في الحلم (١) الذي يعتبر غامضاً حسب معايير أحلام س ح ع REM كان بمقدوره أن يتعرف على زميله وكأنه الدكتور (هـ) وعلى الموقف بأنه محل جراحة الدكتور (ب)، بينما لم يتمكن في الحلم (٢) من التعرف على الشارع ولا على الناس فيه. وهو بعد لم يكن متأكداً مما كان يدور من حديث. فالخبرة كلها كانت أقرب ما تكون إلى الانطباع أو الإحساس، منها إلى حلم حقيقي.

الأرض المهجورة في حالة النوم لا - س - ح - ع NREM

هذا النوع من أحلام NREM التي يجوب فيها الحالم عبر شوارع كدراء يتحدث فيها إلى أناس غرباء ويغلب حدوثه في حالات الإيقاظات المختبرية إنما هو نوع جدير بالتأمل الزائد والشرح المستفيض، وبخاصة عندما لا نجد أحلاماً كهذه تحصل وتسترجع في الغالب تحت ظروف اعتيادية كتلك التي تسود جو البيت. هذا الضرب من الأحلام قد جاء مفاجأة تامة لدى كثيرين من الأشخاص المتطوعين. في تجاربي (إنها أحلام أشبه بالأفكار اللفظية) قال أحد المتطوعين وقال آخر: [أمن الممكن أن يحلم المرء أحلاماً كهذه؟] وأضاف: [إن الأمر يبدو وكأنه يتحدث إلى أشباح ويحس كأنه تائه تماماً.] إن بعض الأشخاص كانوا يعبرون عن قلقهم صراحة إزاء ما يجدون أنفسهم فيه في هذه الأحلام ذات الطبيعة غير المتبلرة(١)، إذ يشعرون في الغالب وهم في غمرتها أنهم مرتبكون غير موجهين فيحسون وكأن

---

(١) المتبلرة بمعنى المتبلورة : ويراد بذلك الواضحة (المترجم)

أرواحـهم هائمـة. فأحـد الأشخاص، وقد أوقظ من فترة حلم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، قد قال:

كنت أسير بل كنت عـائماً في شـارع مـا، وكـان هناك شـخص آخر عائماً باتجـاهي. ما عرفت من هو ذلك الشخص. ولم أعرف أين كنت. وأظـنني سـألـت الـشـخـص: أين أنا وفي أي مكان كنت. يالله! إنه لموقف يذكـرني بأبيـات تي. أس. أليـوت في مـقطوعـتـه الشعرية [غدنغ الصغير] ـ ولعلك تتذكرين تلك الأبيات وفيها يقول:

في الساعات الحائرات قبيل السحر.
في أعقاب الليل اللامتناهي، عند الفجر،
بين حارات حيث الدخان اعتكب،
التقيت واحداً يمشي الهوينا
يخطو نحوي وقد مني أقترب.

لقد أنسيت البقية، لكنن أظن أنه سأل الشيخ سؤالاً ـ نعم ـ سأله عن البقية. وقد كانت الآتي:

أجابني صدى لا أدريه: ها قد أتيت
وإن لم نكن، كما نحن
بيد أني كنت حقاً هناك أرنو
أدركـت ذاتي وكأنها مني تقترب
وكـان الآخر يتراءى، فبدا مني يقترب.

هـكذا كـان حلمي يمضي. وإني الآن أدرك عم كـان أليـوت يتـحـدث، وماذا هو في أغلب قصيده يعني وإلى أي شيء كان يرمي.

ذلك هو ما كان قد ذكره ذلك الحالم.

ولما كـان الاعـتـقـاد السـائد هو أن الأحـلام هي المصادر الرئيسية للتعبير الفني عن هذه المواقف، فليس من غير المعـقول، إذن، الافتراض أن أليوت

(١) متبلور (المترجم).

لم يكن يصف في حقيقة الأمر إحدى خبراته التي مر بها وهو في فترة لا - س - ح - ع NREM، ولعله كان يفعل ذلك دون وعي منه. وهذا الضرب من الحلم بالذات يمكن أن يعد أيضاً مسؤولاً عن فكرة قديمة بالية تتعلق بسرد حكايات عن أشباح تطل برؤوسها عند الغسق تطاردها أرواح الموتى وهي تلتمس لها مكاناً للراحة. والحق، أن التشبيه بمفهوم الموقف التطهيري(٢) يبدو جد ملائم وأنه لصائب في وقته وصحته، سيما أن بعض أشخاص تجاربي أعربوا عن إحساسهم بأنهم قد خبروا شيئاً من هذا القبيل. وقال شخص آخر: [كنت وحدي في الشارع تارة أخرى، وكنت أحاول إصلاح شيء أصابه خطأ.] وذكر ثالث: [كنت أتجول، وكنت أحس بوازع داخلي يقتضيني أن أشرح شيئاً ما أو أن أعبر عنه.] فكم، يا ترى، من فكرة قديمة قد بزغت من صميم الأحلام؟ إني لأتساءل.

من المؤكد أن رؤى جان كوكتو Jean Cocteau عن العالم الآخر، عبر أو خلال المرآة في فيلمه المسمى أورفيه Orphee، كان تماماً مشابهاً لحلم من نوع فترة لا - س - ح - ع NREM - عالم حيث توجد أرض غريبة، كدراء، تلفها ظلال، وفيها أناس يمشون وكأنهم في حركات بطيئة أشبه بالحركات البطيئة في الأفلام السينمائية، أو أنهم يتدحرجون تدحرجاً يرددون ترانيم الحظ العاثر وأناشيد القدر، يسيرون وكأنهم يتوارون في سديم مخيف.

في كثير من أحلام لا - س - ح - ع NREM، لا يكرث الحالم نفسه حتى بمغادرة فراشه المريح وما فيه من راحة لكي يفكر، يستشعر، يتحادث، بل يعمل وينشط حتى. ففي الحلم (٤) مثلاً، يتناول الدكتور (Y) قدحاً من الحليب ويتجاذب أطراف الحديث مع شخص ما، وهو في الحلم (٥) يحس أن الوقت صباح وأنه قد حان وقت استيقاظه. فلا عجب، إذن، أن كثيرين من أشخاص تجاربي حين تم إيقاظهم خلال فترات أحلام لا - س -

---

(٢) التطهيري: صفة من المطهر (بفتح الميم وسكون الطاء، مكان تطهر فيه نفوس الأخيار الأبرار بعد الموت، وعبر القرآن الكريم عن ذلك فسماه (الأعراف) (المترجم).

ح ـ ع NREM، أحسوا وكأنهم كانوا أيقاظاً وأنهم آنذاك كانوا يفكرون، هذا كان اعتقادهم، رغم أن ماكنة تسجيل تخطيط الدماغ EEG أظهرت أنهم كانوا يغطون في نوم عميق. ففي فترا نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، يبقى العقل عادة في حالة اتصال وثيق بالواقع تقريباً، وهذا خلاف ما يحصل في فترات نوم س ـ ح ـ ع REM، حيث ينسحب الحالم أكثر فأكثر إلى أعماق ذاته فينجذب نحو عالم مكتمل الصور. والأشخاص الذين يوقظون من فترات س ـ ح ـ ع REM، في الغالب يذكرون أنهم يحسون بأنهم تم (استدعاؤهم) أو استرجاعهم من مكان قصي ـ من نوم عميق، عميق ـ ومن المحتمل أن يكون الوهم هذا أو الخداع المرتبط ببعد المسافة فيه يكمن الجواب عن الحقيقة الذاهبة إلى أن صعوبة إيقاظ شخص ما من النوم س ـ ح ـ ع REM هي أشد من صعوبة إيقاظه وهو في إحدى المرحلتين الثانية أو الثالثة (٢، ٣) من فترات النوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM.

يبدو أن النوم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM يفتقر إلى تلك الخصائص الخاصة التي ينطوي عليها النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM والتي تعتبر ضرورية لتحويل الأفكار إلى صور واضحة Clear Pictures. فالأشخاص الذين يتم إيقاظهم من فترات نوم س ـ ح ـ ع REM يذكرون عادة أحلاماً لها كثافة الوضوح البصري، بينما نجد ما يذكر من تقارير تصدر عن الأشخاص الذين يوقظون من نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، تستثير استجابات تشير إلى التفكير وحده فقط، فهم يذكرون أنهم كانوا يفكرون أو أنهم قلقون، وتفكيرهم أو قلقهم يرتبطان عادة بأحداث المشكلات الجارية في حياتهم اليومية. وهذا هو السبب الوحيد الذي يكمن وراء تصنيف بعض الباحثين لما يصدر من خبرات تتأتى عن نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM بأنها مجرد أفكار بدلاً من وسمها بالأحلام. وأن هذا لا يعني أنه ليحصل دونها ريب، لكن الحلم في هذه الحالة يكون متركزاً عادة أو مشغولاً، بل ولعله يكون مغلفاً بما يكتنفه من خيالات. ففي الحلم (٦)

مثلاً، كان الدكتور (Y) مـشـغـولاً ومنهمكاً طيلة فترة الحلم بمشكلة تتعلق بانطلاق السـيـارة من نوع [مـيني]، وبما كـان يمر في ذهنه من حلول محتملة وممكنة لتلك المشكلة. في حين أن مـا يقابل ذلك من الحلم من نوع لا ـ س ـ ح ـ ع NREM لم يكلف نفـسه بأكثر من التفكير والقلق حول عدم حيازته على إجـازة سـوق. وقلقه هذا لم يتجاوز حدود فراش نومه.

وفي الوقت نفـسه، فإن أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM تتألف غالباً من محادثات مـبهمة [أنظر مثلاً حلمي الدكتور Y رقم ٢، ٤]، أو أنهـا لا تزيد عن كـونها كلمات منطوقـة، في حين أن هذه الأحـداث تبدو في أحلام س ـ ح ـ ع REM أنهـا لا تـزيـد عـن كـونها كلمات منطوقـة، في حين إن هذه الأحـداث تبدو في أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM أنها جـزء لا يتـجزأ من الدرامـا الجارية. فإحدى متطوعاتي مثلاً قد ذكرت لدى إيقاظها من حلم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM إنها لتـوها سـمـعت بوضوح صوتاً، وعلى نحو غير مـتـوقع، يناديها بقـوله: [يجب عليك ألا تسمحي لكلبك بتلويث الزقاق.] وسـمـع شـخص آخـر من المتطوعين مَنْ يقـول له: [يجب أن يكون لنا رمـز نتـخـذه لعصرنا الجديد New Age] فـمن المحـتـمل أننا نستيقظ من حالات أحـلام كـهـذه أحـياناً ولدينا إحساس بأننا لتونا قد تسلمنا السر الأعظم لهذا الكون. كان أحد الأشخاص المتطوعين يكافح بجهد عنيف لمدة لحظات من أجل اسـتـذكـار مـعلومة لسر رسالة شفوية تسلمها في حلمه، وهي في غاية الأهميـة كما ذكـر. تلك المعلومات كانت: [القراء الذين يعارضون أعز أماني الـرابـطـة مـعـارضـة أشـد ممـا يـسـمـح بهـا الموقف عليـهـم أن يمـلأوا هذه الاستمارة.] وشـخص آخر من أشخاص تجاربي لبث زمناً طويلاً يبحث عن عنوان ملفت للنظر لمؤلفـه الجـديد في الكيـمياء العضوية استيقظ مزهواً ذات صبـاح، ومعه الحل، وكان: [اثنتا عشرة ركيزة تبحث عن إجابة].

والأحـلام التي يرد فـيـهـا ذكـر للقراءة وفيها تكون الكلمات والحروف في الغـالب هي السـائدة إنما تطوف في عين العقل وتكثر عادة في حالات نوم لا

ـ س ـ ح ـ ع NREM. فإحدى الحالمات ذكرت أن حلمها كان [أشبه بقراءة كتاب أو كأنها كانت تفكر وهي في حالة النوم.] وقال حالم آخر: [كانت ثمة محادثة جارية ولكن لا أدري لماذا كنت أنا هناك ولست أعرف ما إذا كنت مشاركاً فيها. كان الموقف أشبه بقراءة في كتاب ممل، كما تعرف: لكنك ما أن تستيقظ حتى تجد إلا علاقة لذلك ولا رابطة له وأن كل شيء ينتهي بصورة آلية.]

وهذا ما يحصل لمعظم أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM بالضبط. فمن المعتاد أننا ننام خلالها ولا نستيقظ تلقائياً في حالة نومنا ونحن نمر بتلك الأحلام، وحتى إذا اتفق أن بقينا نتذكر حلماً من الأحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM هذه، فإن الحلم هذا عادة يكون باهتاً، عديم اللون، ولا صلة له بالموقف ككل ولذا فهو سرعان ما يلفه النسيان. وهذا ليس بالخسارة الكبرى بالنسبة لنا، إذ أن معظم أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM تبدو أنها تتيح قليلاً مما يمكننا ترجمته إلى ما يخدم أي غرض نافع، كما سأوضح هذا في ما بعد. ولكن من الأمور الأساسية للقارىء هي أن يعرف شيئاً عن أحلام [الأرض المهجورة] الغريبة هذه قبل الشروع في البحث عن حياته المتضمنة في أحلامه الخاصة به.

وأفضل طريقة للظفر بإحساس كامل لطبيعة هذه الأحلام ـ أحلام الأرض المهجورة، هي، بطبيعة الحال، عن طريق الخبرة الشخصية، ولذا فإني أقترح على القارىء الذي لم يتفق له أن مر حقاً بحلم من أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM في مسرى حياته الاعتيادية، أن يطبق على نفسه التجربة الآتية. أيقظ نفسك بواسطة ساعة تنبيه على فترات تمتد لمدة تسعين دقيقة تقريباً، واستمر على هذا المنوال طوال الليل، وكلما إستيقظت دون حالاً ما يأتي في ذهنك عما كنت قد مررت به في اللحظات التي سبقت سماعك منبه الإيقاظ. بهذه الطريقة، ولأنك قد قطعت دورة نومك عند نقاط وفترات مختلفة، فلديك فرصة مواتية أن تتجمع لك عدة أحلام من

النوعين س ـ ح ـ ع REM و لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، وإن لم يكن في المستطاع ضمان ذلك بطبيعة الحال. عد صباحاً إلى هذه الأحلام التي دونتها ليلاً، وتبين أيها يمكن أن ينسلك في عداد أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM التي تم وصفها في هذا الفصل. وبدون تخطيط للدماغ بواسطة آلة EEG لا يمكن التحقق من الموضوع بصورة موضوعية. إذ لا يمكن التأكد من تقدير الزمن اللازم للاستيقاظ لعدم وجود ضوابط تدلك على حقيقة اللحظة التي تغفو فيها مباشرة بعد حالة كل يقظة. وبعد عدة محاولات، على أية حال، ستجد الفروق بين أحلام س ـ ح ـ ع REM ولا ـ س ـ ح ـ ع NREM قد أصبحت واضحة المعالم لديك مما لا يدع ثمة مجالاً للشك في أغلب الحالات.

الفروق الفردية في الأحلام

لا معدى عن كلمة تنبيه هنا، هي أن الناس يتفاوتون كثيراً في عاداتهم الاحتلامية، ولعلك واجد أن لا شيء من أحلامك يماثل ما ذكره الدكتور (Y)، الذي كان قد وقع الخيار عليه ذلك لأنه يمثل [المعيار]. لئن كنت كثير الأحلام، كما أود تسميتك هكذا، فستجد أن لديك أحلاماً أطول، وأكثر وضوحاً، وأكثر دراماتيكية: أحلاماً من نوع س ـ ح ـ ع REM وتتسم بكل هذه الخصائص أكثر مما هي عليه عند الدكتور (Y)، مع نتيجة أخرى: تلك هي أن أحلامك من نوع لا ـ س ـ ح ـ ع NREM هي الأخرى شبيهة بالأحلام الاعتيادية وأكثر وضوحاً مما بحثناه في هذا الفصل. وأن أولئك الذين يسترجعون عادة أحلامهم بصورة تلقائية في حياتهم اليومية هم أقرب إلى أن يكونوا كثيري الأحلام، بينما أن أولئك الذين لا يستذكرون أحلامهم تلقائياً إلا قليلاً أو يعجزون عن تذكرها البتة فإنهم قليلو الأحلام.

صعوبة أخرى جديرة بالالتفات إليها هنا، تلك هي خبرات كل من

الحـلمين س ـ ح ـ ع REM ولا ـ س ـ ح ـ ع NREM تميل إلى أن تكون أطـول وتـكـتسب خـصـائص الحلم كلما اقترب الحـالم من نهاية فترة نومـه، بحيث أنه رغم مـا ستجده من اختلاف كبير بين حلم من أحلامك في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM في أواخـر ليلة نومك، وبين حلم من أحلامك في حـالـة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM في أواخـر لـيـلـة نـومك، وبين حلم من أحـلامك في حالة س ـ ح ـ ع REM في نـفـس ذلك الوقت رغم هذا كله. فـلن يكون من السـهـولة بمكان تمييـز حلم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM عن بـدايـات حلم س ـ ح ـ ع REM. من هنا تنشأ صـعـوبتنا في تقرير حقيقة تلك هي: إلى أي فئة ينتـمي الحلم الأول من أحـلام الدكـتـور (Y) والحلم الأخير من أحلامه تلك.

وأكـثر إرباكاً هي الحقيقة الذاهبة إلى أن خفيفي النوم ـ وهـم أولئك الذين توقظهم بسـهـولة المنبـهـات الخـارجـية كالضوضاء مثلاً ـ يذكرون في الغالب مـادة شـبـيـهة بالحلم مستمدة من فترات نومهم وهم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، بينما يقـتصر عـمـيـقـو النوم في ما يسردونه من أحلام كل فترات س ـ ح ـ ع REM. وأنك حـتى إذا كنت خفيف النوم فبوسعك التمييز بين أحلامك من النوعين س ـ ح ـ ع REM ولا ـ س ـ ح ـ ع NREM.

وفي نهاية النوم تـتعين الإجـابة على السـؤال: [مـا هو الحلم؟] مِنْ جانب الحـالم نفسـه. ومـا أريد أن أخلص إليـه، بوجـه عـام، هو أنه لمن المفـيـد التـحدث عن ضربين نموذجيين من ضروب الأحلام: وهما الحلم س ـ ح ـ ع REM الذي يكون بصـورة رئيـسـية عادة واضحاً وتهيمن فيه في العادة نزعة ذات طبـيـعـة بصرية، والآخـر الخفيف، لا نظير له وهو ذو طبيعة أقرب إلى التـفكير أكـثر منه حلماً خالصاً، ذلك هو الحلم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM. تم بحث هذه المسألة بإسـهـاب ذلك لأنها تـتـسـبب في إرباك القارىء الذي ليس له أي إلمام بحـقـائق الأحـلام. على أن الحقيقة الأكثر أهمية هي يتعين على أولئك الذين يرغـبـون في الغـوص أعـمق في مـا هو خـاف ومختف وراء

أحلامهم من حياة، يتعين عليهم أن يتمكنوا من التعرف على هذين النوعين من الأحلام حينما يواجهونها.

الأحلام المقتضبة (٣)

وقبل إنهاء هذا الفصل، ينبغي أن نذكر نوعاً ثالثاً من الأحلام، وهو ما يحصل في مستهل النوم، إنه الحد الفاصل بين اليقظة والنوم العميق. وهذا النوع يعرف بالحلم (النعاسي) hypnagogic. ويتخذ في الغالب صيغة أنواع غير مألوفة من الإحساسات الجسمية، والمحادثات الغريبة، والاهتلاسات المستغربة، تتخذ لها شكل وجوه منفصلة تمر من أمام عين العقل. ومثل هذه الحالات قد تفسح المجال لأحلام كتلك التي يبلوها الحالم خلال فترات REM، يحدث هذا حتى وإن لم تكن فترة بداية النوم مصحوبة بالحركات السريعة للعين. وأياً ما كان الأمر، فإن أحلام النعاس أو الوسن هي أقصر وأقل دراماتيكية مما تكون عليه أحلام فترات س ـ ح ـ ع REM. ولهذا السبب فإنها يشار إليها أحياناً بأنها [أحلام قصيرة] أو مقتضبة أو موجزة dreamslet.

وبوسع القارىء الذي يهتم بالتعرف على الأحلام الموجزة هذه أن يحاول إجراء التجربة التالية. تمدد في فراشك على قفاك، ولكن اجعل ذراعك منتصبة في وضع عمودي، متوازناً على المرفق، بحيث يبقى في وضعه هذا بأقل جهد ممكن. وبهذه الطريقة يمكنك أن تنساب بسهولة وبعمق في حالة من النعاس أو النوم. ولكن توتر عضلة الذراع تتراخى عند نقطة معينة وأنت في حالتك تلك، وبتناقص توتر عضلة اليد فإن ذراعك ترتمي وتهوي على الفراش وعندئذ تستيقظ. عندها دوِّن حالاً كل ما يعن على بالك وما يرد على خاطرك كل ما كان قد مر بعقلك قبيل يقظتك. ستجد النتائج يمكن أن تكون ممتعة بل حتى أنها في المستطاع أن تتيح مادة نافعة لتفسير يتواءم وما سأناقشه في فصول تالية.



الفصل الثالث
لماذا ننسى أحلامنا

لماذا يستيقظ بعض الناس وفي أذهانهم كل صباح يستيقظون فيه حلم ما، في حين يدعي آخرون أنهم طيلة الشهر الواحد بل على مدار العام كله لا يحلمون إلا مرة واحدة أو لا يحلمون؟ إننا مدركون أن الناس لا يختلفون من حيث عدد فترات س ـ ح ـ ع REM التي يمرون بها أو تمر بهم كل ليلة خلال ساعات نومهم الاعتيادي، وإننا نعرف أيضاً أن [غير الحالمين] أو الذين يظنون أنهم لا يحلمون يذكرون من الأحلام التجريبية، بعد إيقاظهم تحت ظروف التجربة، يذكرون من أحلامهم بقدر عدد الأحلام التي يرويها الحالمون أو كثيرو الأحلام. هذه النتيجة أدت بالباحثين إلى أن يستخلصوا من هذا كله أن ما هو شائع ومعروف ظاهرياً عن ختلافات وفروق بين الأفراد فيما يتصل بنشاط الحلم إنما تعزى إلى تفاوت بينهم في ما يبقى عندهم من أحلام تستقر في الذاكرة، وليست هذه فروق ترجع إلى مقدار تكرارات الحلم، وهذا ما حدا بالباحثين إلى أن يشيروا إلى الذين لا يستذكرون أحلامهم أكثر من مرة في الشهر الواحد بأنهم (اللاتذكريون) أو لا استرجاعيون ويشيرون إلى الذين يرون أحلاماً باستمرار بأنهم أناس (تذكريون) أو استرجاعيون.

وغالباً ما يذكر بأن لدى الذين يتم إيقاظهم ببطء وتدريجياً فرصة في استذكار أحلامهم أكثر وأكبر ممن يتم إيقاظهم بصورة مفاجئة وبمنبهات سريعة كساعة التنبيه مثلاً. هذا هو الشائع. لكن الحقيقة هي خلاف ذلك، والعكس هو الصحيح. فقد ثبت علمياً وتجريبياً أن الإيقاظات المباغتة عقب ضوضاء عالية ينجم عنها استرجاع للأحلام المترتبة على الهمس الناعم الرقيق الذي يدل على أن معظم الحلم يتبدد بسرعة فيما يمضي من وقت بين النوم والإيقاظ. ولهذا فإن ما يستخدم عادة في تجميع نتائج

تجارب الأحلام هي المنبهات الطنانة ذات الأصوات العالية وأجراس التلفونات. وأن ما استعملته كمنبه في عملي هو منبه طنان يبعث صوتاً أشبه بصوت الثور الهائج وإن هذا في بعض الأحيان يغيظ أشخاص تجاربي، فهم يعربون بحن قائلين مثلاً: [إني متأكد من أنني كان بمقدوري أن أتذكر لو أنك استخدمت منبهاً ألطف.] في النهاية حاولت الاستجابة إلى رغبتهم هذه، لكن النتائج جاءت سلبية.

إن مقدار ما لدى الأفراد عادة من خبرة أياً كان نوعها قبل الاستيقاظ من نومهم الاعتيادي، كما جرت العادة في استيقاظهم استجابة لساعة التنبيه، بدلاً من الاستيقاظ التدريجي، يمكن أن ينسب إلى ذلك، ولو بنسبة صغيرة، ما يوجد بينهم من فروق فردية في استرجاع ما يطرأ لهم من أحلام في أوقات نومهم اليومية. وأن لدى الذين يتم إيقاظهم بشكل مفاجىء فرصة في الاحتفاظ بمقدار من أحلامهم وبالتالي استرجاعا أكبر ما يمكن أن تتوفر لدى الذين يوقظون بشكل متدرج وبخاصة في الساعة الأخيرة من ساعات نومهم الليلي. عندما يكونون جميعهم في فترة REM.

وقد كشفت تجارب أخرى عن أن اللااسترجاعيين، بحكم اعتيادهم على عدم استرجاع أحلامهم، يحتاجون عادة منبهات لإيقاظهم أقوى مما يحتاجها الاسترجاعيون، مما يدل على أن النوع الأول من هؤلاء الأشخاص هم أعمق نوماً من النوع الأخير. ولعل في هذا يكمن أحد الأسباب وهو أن بعض الناس هم استرجاعيون وتذكريون ذلك لأنهم كثيراً ما يستيقظون من نومهم خلال الليل فيستبقون في ذاركتهم أحلاماً يحتفظون بها أكثر من إخوان لهم من عميقي النوم.

نسيان الأحلام والشخصية:

مهما يكن من أمر، فإن حجم ما متوفر من شواهد يشير إلى أن حقيقة ما بين الاسترجاعيين واللااسترجاعيين من اختلاف في القدرة على الاسترجاع

والتـذكر للأحلام، إنما هو اختلاف يكمن في الخصائص النفسية لشخصياتهم أكـثر مما هو اختلاف في عمق نومهم أو الطريقة التي يوقظون بها أنفسهم من النوم. منذ عـدد من السنوات خلت لاحظ البـاحـثون باندهاش بالغ ما كان يظهـر على عـيون اللااسترجاعيون خلال نومهم من حركات سريعة سجلتها الآت تسـجـيل الحـركـة السريعـة للعين، أكـثـر وأسرع مما تم تسـجيله عن حـركـات عـيـون الاسترجـاعيين مما دل على أن اللااسترجاعين كانت تمر بهم أحـلام أكـثـر وأنـشـط ممـا كـانـت تطوف بالاسترجـاعـيين. فلم إذن يذكـر اللااسترجـاعـيـون عـادة أحـلامـاً أقصر، وأخف، وأدنى وضـوحـاً مما يذكـر الاسترجاعيون؟

هذا التناقض تمت الإجـابة عليـه عندمـا استبان الباحثون نتيجة للبحث العلمي إنه في الحـيـاة الواعـيـة أن حـركـات العين حينما يكون نظرها مشتتاً بعـيـداً يتـبـدد أكـثـر مما لو كـان النظر مسدداً إلى شي معين أو منظر محدد. فـعـندمـا عـرضت صـور على مجمـوعـة من الأشـخـاص وتم خـلالها رصـد حـركـات عـيونهم وهم يلاحظون تلك الصور، تبين أن مقدار ما كان قد تم تسجيله من نظراتهم الزائغة لدى رؤيتهم مناظر كاربة للنفس أو تنطوي على التـهـديد والتـخـويف، هي أكـثـر من حـركـات عيونهم المركزة على الصور الجـذابة، وكـانت نظراتهم المركـزة على الصـور المنفرة أقل من مقدار نظرهـم إليـهـا. وفي دراسـة أخـرى، سئلت جماعة من الأشخاص أن يتصوروا حدثاً مـعيناً، تبين نتيجة لذلك أن ثمة قدراً قليلاً من حركات العين تم تسجيلها، لكن مـقـداراً أكبر من حـركـات العين تمّ رصـدها بالتـسـجيل كانوا يجيلون الـطـرف في أرجـاء المكان بلا هدف وكأنهم يحاولون صرف الأنظـار وإبعـاد الانتباه عما هم فيه من تخيلات.

عـلـل البـاحـثـون ذلك بإمكان أن اللااسترجـاعـيين يمكن أن يسلكوا في أحـلامهم بنفس طريقة تنقّل العين هذه، فهم يرون أحلامهم، ولا سيما غير الـسـارة مـنـهـا بـنـفـس الأسـلوب. ولعل في هذا يكمن تفسير السـبب أن

اللااسترجـاعـيين لا يتـذكـرون أحـلامهم لأنها لا أمتاع فيها. على أن ما هو مـتـوافـر من متراكم الشواهد تشير إلى أن اللااسترجاعيين بالتصميم يحجمون عـن تـذكـر أحـلامـهم ويترددون في تذكـرها، تماماً مـثلما هم يتـفـادون أو يتنكرون وينكرون الخبرات غير السـارة وضروب القلق الكابسـة الضـارة التي يمـرون بها في حـيـاتهم اليـومـيـة ولقد أظهرت الاختبارات النفسية على وجه العـمـوم أن اللااسترجـاعـيين أكـثـر تزمـتـاً، وأشـد التـزاماً، وأقوى تحكماً في انفـسـهم، مما يكون عليـه عـادة الاسترجـاعـيـون الذين يعـربون بجلاء عن قلقـهم إزاء مـشكلات الحـياة والذين هم أميل إلى الإعراب عن اضطراباتهم الانفـعـاليـة العـامـة، كـالقلق وعـدم الإحـسـاس بالأمـان. لعل العزم على الـتـصـدي لهذا البـعـد من الخـبرة ـ وهـو مـا يدعـوه بعـضـهـم وعي الذات Self- awareness والـذي يفـصح عن اهتمام وثيق بالحـيـاة الداخليـة الذاتيـة لـلـفـرد، لـعـل هـذا هـو مـا يـؤلـف الفـرق الأسـاسي بين الاسترجـاعـيين واللااسترجاعيين.

ولا يفـوتني أن أتذكـر هنا وأذكر بما أتى به كارل غوستاف يونج Jung من تصنيف شـهير مـعـروف للناس، إذ صنـفهم إلى نـمطين: هم الانبساطيون extroverts وهـم الذين يوجـهـون جل اهتمامـهم إلى طبـيـعة علاقاتهم بالعالم الخـارجي أكـثـر مما يوجـهونه إلى دواخل حياتهم الداخلية، والنمط الثاني هم الانطوائيـون introverts، وهـم الـذي تـتـوجـه طاقـاتهم إلى دواخلهم بصـورة رئيـسـية. ولعل البحث سيكشف مستقبلاً عن أن ما يتم من استرجاع ضئيل للحلم أو كـثير إنما يرتبط أوثق الارتبـاط بمـقاييس بعدي الانبساط والانطواء في الشخصية.

كبت الأحلام

لعل المحللين النفـسـانيين يقـولون أن اللااسترجـاعيين يكبتون أحلامهم، وبـعـبـارة أخـرى، أنهم يطردون عن قـصـد كل ذاكـرة لهم من مجال الوعي

الشعوري ذلك لأن ذواكرهم [أو ذاكراتهم] تلك تحتوي على أفكار ورغبات مزعجة لهم كاربة لحياتهم. يعتقد المحللون النفسانيون إننا جميعنا - نحن البشر - نؤي بين جوانحنا رغبان جنسية طفلية ونوازع عدوانية، كانت قد أنكر عليها التنفيس عن ذاتها والتعبير عما تريده هي إبان الحياة الواعية لأنها تتنافى والقوانين الأخلاقية السامية التي نفرضها نحن على أنفسنا، لذا فهي تلتمس لها نوعاً من الإشباع الإبدالي في الأحلام. فالمحللون النفسانيون جميعهم يذهبون في حجاجهم إلى أن أننا جميعاً بنوع أو آخر كابتون لأحلامنا، أي أن المكنية الكابتة عندنا تعمل بشكل شمولي وعلى نحو آلي لتموه فتخفي هذه الرغبات المنكورة غير المقبولة فتبدو متجلية في الأحلام، فلا نفقه لها - الرغبات المنكرة - معنى وهي بعد لا تغيظنا إذا ما انبرت وعبرت عن نفسها تزييفاً في الأحلام. على أن التمويه هذا يكون في بعض الأحيان واهياً باهتاً نلجأ معه إلى الكبت repression لكي نفتت كل ذاكرة لها صلة بالأحلام. إنه بهذا المعنى يمكن أن يقال عن اللااسترجاعيين بأنهم أكثر كبتاً من الاسترجاعيين - إنهم يشجبون حياة الاستفزاز - القلق التي تتبدى في الأحلام فيطرونها بعيداً ويلقون بها في مطاوي النسيان وهم يعملون هذا اويقدمون عليه أكثر من أخوة لهم [وهم الاسترجاعيون]، أشجع منهم ممن ينتفعون من حياة أحلامهم هذه ويستعملونها من أجل النمو ومعرفة النفس Self - knowledge.

سيتم بحث الوظيفة التمويهية المزعومة للأحلام في فصل آخر آت، لهذا فإنا لن نتابعها هنا، في هذا الفصل أكثر. وإنما يكفي أن نذكر هنا أن كثيرين من المحللين النفسانيين مقتنعون بأن اللااسترجاعيين من مرضاهم يخفقون في تذكر حتى الأحلام التمويهية لأنهم يخشون الفظائع القابعة هناك في أعماقهم من أن يكشف عنها بواسطة تفسير الأحلام فتهيج من قمقمها. وإني لأذكر هنا صديقة لي لا استرجاعية قد أصبحت شديدة الابتئاس بعدما استمر محللها النفساني في تكرار اتهامه إياها بأنها بعيدة الغور من ناحية

حـيـاتها العـقليـة اللاواعـيـة. وكـان رأي المحلل النفـسـاني يقوم على أساس تنكرها لأحـلامـها التمويهية. فعرضت عليها جلسة تجريبية نتعاون فيها معاً على أن نبـاغت اللاوعي عنوة وذلك بأن أوقظهـا من فترات نوم تكون فـيـهـا في حـالـة نوم من نوع س ـ ح ـ ع REM وأن يتم على الفـور تسجيل ما تم من أحـلام، لكن التـجـربة أخـفقت، إذ أن التسجيل لتخطيط الدماغ وإن كـان قـد أظـهـر وجـود ثـلاث فـترات مـن نوم س ـ ح ـ ع REM خـلال الـليل، مع هذا فـهي لم تتـمكن من تذكـر حلم واحـد عندمـا أوقظت من فترات نومـهـا الثلاث تلك، علماً أنها كل مرة توقظ فيها تذكر أنها تحس بأنها كـانت تحلم. عندذاك اعترفت، بانكسار نفس، إلى محللها بأنه كان محقاً فيما كـان يقـوله لها، وهكذا استـسلمت إلى وجـودها الخالي من الأحلام حسب زعـمـهـا. إلا أنني اكـتـشـفت فـيما بعـد أنها كانت خلال كل ليلة من ليالي التـجـارب تتناول حـبوبها المنومة المعتادة، حيث كانت قد اعتادت عليها من قـبل. وعندمـا شككت في الأمـر وتبـيت الحـقيقة استوضحتها عما إذا كانت راغبـة في مـعـاودة التـجـربة ثانيـة، على ألا تتناول حبوبها المنوِّمة في الجلسة الثانية هذه.

إنها وإن كـانت مـقـتنعة بأنها لا تنام بدون حبوبها المنوّمة، فإنها في النهاية وافـقت على الإقـلاع عنهـا، فأثمـرت تلك ثلاثة أحلام (كبيرة) قدمتها بزهو وانتـصـار إلى محللهـا النفـساني في اليوم التالي وهي تقول له: [حقاً إني كنت بـعـيـدة عـن حـالة الوعي عندي! إنها تلك الحـبـوب المنومـة السـيئة كـانت السـبب.] فبالنسبة إلى حالتها، قد تكون الحبوب المنومة هي التي أثرت على تعـمـيق نومـها على نحو ما مما أدى إلى بعثرة ذاكرة الأحلام وفقدانها فيما بين وقت المنبـه الخاص بالإيقاظ وبين اليقظة التامة عندها، هذا من جهة. ومن الجـهـة الأخـرى، فـمن المعـروف أن [البربيـتـوريك] ـ وهو أحـد مشتقات حـامض البربيـتـوريك ويسـتـخدم كمسكن ـ يقلل من عدد حركات العين السريعـة في فترات REM ، ممـا يؤدي إلى حـالة سلبيـة وخمول وبالتـالي إلى

تذكـر للأحـلام أقل. وإني في الحالات النادرة التي أتناول فيها حبوباً منوّمة، لاحظت أنني قلما كنت أتمكن من تذكر أي حلم.

هذا، وقـد ذكـرت من قـبل، أنه يبـدو أن بعض الناس هم حـقاً [خارج نطاق مـلامسـة حـيـاتهم العـقليـة الواعـيـة] ـ أي أنهم تماماً على غير وعي بالأجـزاء الخـفـية من شخصياتهم ـ وإن فقدان استرجاع الأحلام عندهم إنما هو ظاهرة عـرضـيـة ـ من عـرض ـ Symptomatic ـ لهذا الجـانب. ويتفق أحـيـاناً أن يتـصل بي محللون نفـسـانيـون ومعالجون نفسانيون، يطلبون مني إعطاء بعض مـرضـاهم من اللااسترجـاعـيين زخماً تذكـرياً لأحـلامهم داخل المخـتبر، وذلك لتـمكينهم من تذكـر قليل من أحلامهم لاستخدامها لغرض التـحليل. في الوقت الذي يمكن فـيـه للمحلل النفساني أن يمضي في عمله مع مـرضـاه دونما حاجة تدعوه إلى اللجوء إلى الأحلام، لكن مهمتهم تكون أكـثـر يسراً وأكثر سهولة لو أنهم استطاعوا استبانة بعض أحلام مرضاهم من وقت لآخـر. وفي الوقت الذي تفلح فـيـه الأسـاليب المخـتبرية في اسـتمداد أحـلام مـن اللااسترجـاعـيين المزمنين، يجب في نفس الوقت ألا يغـرب عن البـال بأنه مجرد إيقـاظ الشخص المقاوم والرافض حقاً للتعاون في هذا المجال والطلب إليـه أن يتـصل بدواخل ذاته الخفية وهو يأبى ذلك، فلا جدوى من محاولة كهذه.

فليس من غير المألوف، مـثـلاً، أن نجـد شـخصاً أحياناً يأتي إلى المختبر كـان معروفاً عنه أنه لا يتذكر تلقائياً أحلاماً يراها في منامه في بيته فنتوقع منه أن يذكـر أحلاماً لدى إيقاظه مرتين مثلاً خلال نومه في المختبر، ثم لا نتوقع منه أن يذكـر حلماً مـا بعد تينك المحاولتين. ففي ما تبقى من الليل لابد أنه سيرى حلماً ولعله سـيـتـذكره. أو لعله ينجح في تذكر أحلام يراها في الليلة التـجـريبـية الأولى ويخفق في ليال أخرى تالية، حيث يذكر لنا في الغالب أنه كـان يحلم لكن الحلم كـان يبـدو له أنه يفلت من ذاكـرته فـلا يسـتطيع أن يسترجـعـه. فإحـدى أشـخـاص التجربة، مثلاً، كانت تبدو ممتعضة، حين

قالت: [في كل مرة توقظيني، أعرف أنني كنت في حالة حلم من الأحلام، لكنني لا أستطيع استرجاعها. أتحسبين أنها حالة دفاعية؟] مما لا امتراء فيه أنها كانت على حق فيما ذهبت إليه، وإني لعلى يقين من أن أي محلل نفساني يكون محقاً لو أنه ذهب إلى عقلها اللاواعي، وقد أخذ على حين غرة في ليالي النوم الأولى فاسترقت منه أحلامه، قد عاودته حكمته فانتبه وأدرك مغزى اللعبة التي انطلت بادىء ذي بدء عليه فراح يكافح ويتصدى لتلك الألاعيب مما تسبب في كبت الأحلام.

إن كبت الحلم قد يحدث قبيل اليقظة أو حتى في لحظة اليقظة نفسها، بحيث أن الحلم أما أن ينسى تماماً أو شذرات أساسية منه تُنسى. وإن نظرية كبت الحلم لممتعة وبخاصة لأولئك من بيننا ممن أخفقوا في استرجاع أحلامهم رغم ما بذلوه من محاولات غير ناجحة. وإن هذه ليست هي القصة الكاملة فيما يتعلق بكبت الأحلام ونسيانها، كما ستتبين ذلك مؤخراً.

اتضح أن حتى الأشخاص المتطوعين الاعتياديين الذين اعتادوا بانتظام تذكر أحلامهم التي يرونها في بيوتهم في الغالب لديهم مقاومة [لا شعورية] لتذكر أحلامهم في المختبر. فإحدى المتطوعات والتي كانت متحمسة للتجربة قد ذكرت عدة أحلام لطيفة ومثيرة خلال فترات إيقاظها من نومها في حالة REM في ليالي التجارب المبكرة. فهذه المتطوعة لم تستطع في يقظاتها التاليات أن تتذكر من أحلامها الماضية سوى أنها كانت في وسط حلم طويل درامي، ذكرت هذا عندما أيقظتها من حالة حلم. ولقد عبرت عن قدر غير قليل من الجزع وفقدان الصبر لعدم استطاعتها تذكر أي من أحلامها. وقد خاطبتني هاتفياً في عصر اليوم التالي لتقول لي أنها تذكرت الحلم لكنه شخصي خالص مما لا يمكن ذكره. إذ ذكرت [حتى لو أنني تذكرته آنذاك في المختبر، لما أمكنني الكشف والإفصاح عنه. وإني لا شك أنني أستطيع سرده لك. وفوق كل شيء، فإن الأحلام أمور خاصة تهم

أصحابها وحدهم، أليس كذلك؟] إنها لأمور خاصة حقاً، وإن كثيرين ممن يتحمسون للإسهام في تجارب الأحلام وهم غير مدكرين تماماً لما عندهم من قلق دفين بشأن الإفصاح أكثر مما ينبغي عن أحلامهم سواء كان الإفصاح هذا موجهاً إلى أنفسهم ذاتها أم أسروها إلى القائم بالتجربة.

ويعبر أشخاص آخرون في التجارب عن مخاوفهم اللاشعورية وعن مدى امتعاضهم بشأن ما يجري من تجارب عن الأحلام. فأحد الأشخاص الواضح في تعاونه أعرب بما لا يدع مجالاً للشك، بعد أول حلم تجريبي له، عن أننا متورطون بجهد مضن. وكان هذا الشخص قد رأى حلماً شاهد فيه طبيباً في الممر الموصل بين غرفة التجربة التي كان نائماً فيها وبين غرفتي حيث كنت أجالسه لتسجيل أحلامه على مسجل. وكان هذا الطبيب الذي يبدو مظهره شريراً يحاول قطع الأسلاك بين الغرفتين أو إيقاف التجربة. وكان الشخص الحالم هذا على وشك تحذيري، كما ذكر، ولكن المنبه أيقظه، ولما كان الشخص الحالم هذا هو نفسه طبيباً، فقد كان لدي شك قليل في ما يتعلق بهوية المخرب العابث Sabotur المزعوم، وقد أدركت حقيقة تشككي ومخاوفي حينما حصل عند منتصف الليل خلال التجربة، أن الحالم قد أصيب بالصداع النصفي [الشقيقة] مما ألزم بإنهاء التجربة وإيقافها عند ذاك الحد.

لذا فإن المعالج النفساني الذي يتحرى الأحلام ليفسرها وصولاً لبغيته، لن يجد في التقنيات المختبرية الجديدة دواءً ناجعاً لجميع الأدواء. ورغم هذا، فإنها ـ التقنيات ـ يمكن أن تكون جد نافعة وذات جدوى في مساعدة اللااسترجاعيين المزمنين لأن يكونوا واعين لما يمر بهم مما يشابه الأحلام، وإن هذا له قيمته ليس بالنسبة لأولئك ممن يمتهنون العلاج النفسي فحسب، بل أيضاً إنها ذات قيمة كبرى لنا جميعاً، كما ستوضح ذلك لنا فصول تالية من هذا الكتاب مصممة لهذا الغرض.

أما مع الاسترجاعيين، فإن الطرائق الجديدة هذه لا تقدم لهم إلا

القليل، طالما أن عـدداً محدوداً فـقط من الأحلام هذه يمكن الاستهداء به في سياق العلاج ـ من هذه الأحلام، حلمان أو ثلاثة منها عادة يتم الانتفاع بها خـلال الأسـبوع، وذلـك في الأعم الأغلب. والحق، فـفي العـلاج النفسي المهني نجد أحياناً أنه حتى هذا العدد القليل يكون مدعاة للاحراج. فعندما ابتـدأت بالتـحليل أول مـرة، احـتفظت لنفسي بمفكرة أحلام سجلت فيها خلال العام الأول فقط ما يربو على (٢٠٠) حلم . وقـد توقـفت في آخـر الأمـر عـن هـذا، نـظـراً إلى أنـه لا المـحلل المشرف على تحليلي ولا أنا نفسي اسـتطعنا مـواجـهـة هذا السيل الغامر من مواد الحلم. وقد قرأت أخيراً، مع اهتمام بالغ وبوافـر الاسـتـمـتاع، أن فرويد في خاتمة المطاف قد مزق مفكرة أحـلامـه الخـاصة، وتعليله كان: [ببساطة أن المادة قد أغرقتني وبي أحدقت من كل جانب كما أحدقت بأبي الهول كثبان الرمال.]

كـذلك، وكما يعرف كل معالج نفساني، فإن كثرة الأحلام أكثر مما ينبغي يمكن أن تكون ذات دلالة من دلالات الأعـراض الراميـة إلى الرفض، كما هي الحـال في قلتها أدنى مما يجب. وإني لأذكر هنا أنني أعتدت على حضور جلسـات مجمـوعـة تحليليـة، فكان بعـضـهـم يغـرقنا بتفصيلات من الأحلام وتفسيرها إلى حـد يبـعث على الملل، ويدعـو إلى الضـجر، وأخيراً ذكر قائد المجـمـوعـة التـحليلية تلك أنه عليهم أن يكفوا عن الذهاب إلى التفصيلات المملة وعـدم الغوص في مسائل لا حاجة للكشف عن مواجهتها.

لا جـرم أن الطرائق المختبرية لها جدواها للمعالج النفساني. وإن كثيرين من المعـالجين قـد انتـفـعـوا بها أيما انتفاع، وبخاصة في ما يتصل بمحاولات اسـتـشكاف الكيفية التي يؤدي فيها الكبت إلى نسيان ما كنا يوماً ما نتذكره من أحلام. هذا، وكان فرويد، في عام (١٩٠٠) قد كتب يقول:

[كـثـيراً مـا كـان يحـدث لي، كما كـان يحدث لغيري آخـرين من المحللين النفـسانيين، وإلى مرضى تحت العلاج، أنه عندما استيقظ في إحدى الليالي من أحـداث حلم يوقظني، كما يمكن أن يقـال، فإنني أباشر على الفور بعد

ذلك، وأنا متملك كامل قواي العقلية، أباشر بتفسيره. وفي حالات كهذه، فإنني في الغالب أقاوم إغراء الإخلاد إلى الراحة حتى أصل إلى فهم تام للحلم الذي رأيت: ومع هذا، فقد توالت لدي خبرة تلك هي أنني عندما أستيقظ في النهاية صباحاً، أجدني تماماً قد نسيت كلاً من نشاطي التفسيري ومحتوى الحلم، علماً أنني على علم بأنني كنت قد حلمت وكنت قد فسرت الحلم. وكثيراً ما يحصل عندي أن يسحب الحلم معه إلى مطاوي النسيان نتائج نشاطي التفسيري فينساب بها إلى هناك. وهذا ما كان يحدث لي أكثر مما كانت فعاليتي العقلية تفلح في الإبقاء على الحلم حياً ماثلاً في ثنايا الذاكرة.]

فرويد كذلك كان قد لاحظ أن كثيراً من مرضاه، عندما كانوا يسردون وقائع أحلامهم في غرفة الاستشارة الطبية، يتوقفون فجأة فيتذكرون ويسترجعون جزءاً من حلم سابق كانوا قد نسوه. فاعتبر الشذرات المنسية هذه أكثر أهمية من أقسام الحلم التي تم تذكرها من قبل. فهو قد كتب يقول: [يحدث غالباً أنه عندما يروي مريض ما حلماً رآه، فإن جزءاً منه يكون قد نسيه نسياناً تاماً. وأن القسم المنسي هو ما يمكن أن يتيح أفضل تفهم وفهم وتوجه جاهز يفضي إلى التقاط أطراف ما يراد من الحلم وما يرمي إليه ذلك الحلم. ولعل هذا هو السبب في غوص شذرات من الحلم في مهاوي النسيان.]

وقد توافر مؤخراً لدى برفسور روي ويتمن Roy Whitman وزملائه من كلية الطب، جامعة سنسناتي Cincinnati بولاية أوهايو، توافر لديهم من الشواهد ما يشير إلى أن فرويد قد يكون على صواب فيما ذهب إليه من وجهة نظر تقول أن جزءاً مما كان قد تم نسيانه من الحلم هو أكثر دلالة وأبين مغزى من القسم الذي يتم تذكره. ولنذكر هنا مثلاً له مغزاه. كان هناك شخصان يخضعان للعلاج النفسي، وقد تم إيقاظهما عدة ليال من حالة نوم كانا فيها وهي فترة REM، وكان يطلب منهما ذكر أحلامهما إلى

القائم على التجربة. وفي اليوم التالي تكون لهما جلسة علاج مع المحلل النفساني. ومنذ الجلسات الأولى، كانت أحد الشخصين امرأة، تذكر إلى المجرب ما يتصل بأحلامها المتعلقة بالجنس ولكنها لا تذكرها إلى المحلل النفساني، في حين كانت تذكر إلى المحلل النفساني أحلامها المنطوية على النزعتين الجنسية والعدوانية الموجهة نحو المجرب، وتحجبها على المجرب نفسه. فهي كانت تروي من أحلامها إلى المجرب ما يتلاءم ووجهة نظرها وما ترغب فقط في الإفصاح عنه. أما الشخص الآخر، وهو رجل، فقد أفضى إلى المحلل بكل أحلامه التي تسلط الضوء على قابلياته بوصفه رجلاً، لكنه حذف قسماً منها إذ هو لم يذكر قط تلك الأحلام التي كانت تكشف عن ميوله في الجنسية المثلية ـ وهو الانحراف الجنسي المعروف ـ Homosexuality. ولما لم تكن معاني هذه الأحلام مما يستكنه مرماها مباشرة وبصورة ظاهرة، فقد استخلص ويتمن أن هذين الشخصين قد أدركا بصورة شبه شعورية في الأقل معنى ما تعنيه أحلامهما، ولذا فهما قد عمدا إلى إخفاء مالا يريدان أي فرد النفاذ إلى شخصهما من خلال تلك الأحلام. وفي هذا الضرب من السلوك قد تمكن ذانك الشخصان من التغلب عليها أما بواسطة الكبح Suppression الواعي الشعوري أو عن طريق الكبت اللاواعي، أي اللاشعوري حسبما كنا قد بحثناه.

يكتب ويتمن بهذا الصدد فيقول: [مما يؤخذ على أنه من المسلم به عادة هو أن كل ما يذكر من أحلام خلال الجلسة العلاجية أنها أحلام تنطوي على صراعات رئيسية يعاني منها المريض في وقتها. أن مثل هذه المواقف يجدر أن تحمل المعالج النفساني على أن ينظر إليها بشيء من الشك، ذلك لأن واحداً أو أكثر من واحد من الصراعات النفسية الشخصية الرئيسية المتداخلة، إنما تكمن في ما لم يتذكره المريض من أحلامه.] فهو ـ ويتمن ـ يعتقد أن تقنيات اكتشاف الحلم الحديثة وأساليب تبيانه يمكن أن تكون ذات فائدة إكلينيكية إن هي تم استعمالها وفق منهجية تجاربه في جعل

الأحـلام المنسـيـة حاضر تذكرها ليستخدمها المعالج النفساني في سبيل زيادة مـعـرفـتـه، بما هو دفين لدى الشخص من مخاوف وعوامل مقاوم. وإني لعلى قناعـة بأن المريض الكابت حـقـاً لأحـلامه وأوهامه، سرعان ما يتعلم نسيان أحـلامـه مـن أسـاس مـصـادرهـا وذلـك بـالـلجـوء إلى بعض الطرائق التي لاحظت الأشـخاص في تجاربي كانوا قد استخدموها.

وفي الـوقـت الـذي لا يخالجني فـيـه شك أن قـدراً مـعـيناً من الكبت هو المسؤول عما ينسى من أحـلام، لكن هذه لـيـست هي كل القصة، كما ظن فـرويد، طالما أن حـتى أكـثـر الناس انفـتـاحـاً ووعـيـاً بما يجري حولهم من أحـداث الحـيـاة هم كـذلك عـرضـة لنسـيـان الأحـلام. وحتى أكثر الناس أحـلاماً لا يتذكرون أكثر من أربعة أو خمسة أحلام من أحلامهم عند اليقظة في الصـبـاح، علماً أن الدلائل العلمـية، ومنها REM ،تـشير إلى أننا جمعنا تقـريبـاً نحلم مـثل هذا العـدد كل ليلة خـلال نوم يسـتـغـرقنا سبع أو ثماني سـاعـات. والحق أن الدلائل لتـدل على أن مـعظم الأحـلام لا يتم تذكرها البتة، في حين أن أحلاماً أخرى لا تستبقى منها إلا شظايا متناثرات. ولكن لماذا ننسى كثيراً من أحلامنا؟

الميل الشامل لنسيان الأحلام

يـذكـر كـلايتمان أن الاسترجـاع الضـعـيف يمكن أن يعـزى إلى الكفـاءة الضـعيفة في الدماغ خلال النوم، وهو يشبه حالة النائم بحالة الطفل الصغير جـداً، والشـيخ الكبير جـداً، والشـخص الثـمل جداً! ونجد أوزوالد يوافقه عـلى رأيـه هـذا إذ يذكـر: [أن نسـيـان الأحـلام جـد سريع، وأنه ليس من الضروري اسـتـثـارة الكبت ليـفضي إلى الإخـفـاق في استرجـاع مـعظم مادة الحلم، أكـثر مما تؤدي إلى النسيان هذا حالات النسيان المرضية النفسية التي تعقب الصدمات Post - Traumatic، أو النسيان المتأتي عن حلة الثمل، أو الصدمة الكهربائية ELECTROPLEXY أو أية حـالة من الحـالات الأخـرى

يصـاب فـيها نشاط الدماغ بعطب مؤقت.] بعبارة أخرى، فإن حالة الدماغ خـلال النوم قد يفقد كفاءته في إرساء آثار للذاكرة.

أظهـرت التـجـارب التي أجـريت أن الحلم يتطوح بعيداً عن الذاكرة، إذ هو يتـشظـى شظايا مـتناثرة، ثم يتـلاشى مـتبخراً تماماً، ثانياً. فحينما يوقظ شـخص ما من حالة نوم REM ، فإنه يذكـر دائماً تقـريباً أنه رأى حلماً جلياً واضـحـاً. وهذا مـا تم إيقـاظه بعد خمسة دقائق من رؤيته حلم وهوفي حالة نوم REM فإنه لا يتـذكـر أكـثر من شذرات مما رأى من حلمه ذاك، وإذا ما أوقظ بعـد مضي عشر دقـائق على الحلم في حالة REM ، فإنه لا يتـذكـر من حلمـه ذاك شـيئاً. فـعلى أسـاس عدد الكلمات التي تذكر عن كل حلم بعد انقـضـاء فترات الدقـائق عـقب كل حلم نجـد انحـداراً درامـاتيكيـاً في تذكر الأحلام.

فـمن الواضح إذن أنه مـا لم يتم إيقـاظ الحـالم مـباشرة بعـد حلم وهو في حالة نوم REM ، فـمن المرجح أنه ينسى المحـتـوى العقلي للخبرة التي كان قـد مـر بها خلال نومه. ومن القيم الكبرى التي أتاحتها الأساليب والتقنيات التـجـريبيـة الجـديدة الخاصة بالأحلام هي أن كثيراً من هذه الأحلام يمكن الإبقـاء عليـهـا وتسـجـيل محتواها، ولولا التقنيات الجديدة هذه لكانت تلك الأحلام قد طواها النسيان.

تكشف التـجـارب المكثـفـة والكثيرة على أن العـدو الرئيسي المسـؤول عن أحـداث النسـيان للأحلام هو النوم الخامل أو النوم الفاتر في حالة NREM. فـقـد تبين أن الأشخاص الذين يوقظون كل ساعة بعد ساعة من نومهم أنهم يبـقـون يتـذكـرونها فـقط في حـالة الاسـتـمـرار على التحديق فيها لمدة عشر دقـائق. أما إذا تعرفا عليها فقط دون الاستمرارية في التحديق فإنهم ينسونها عند الصبـاح. فـقـد ثبت بالتجربة العلمية أن إبقاء الشخص مستيقظاً لمدة عشر دقائق يمكنه من تكوين آثار للذاكرة وتقويتها بحيث أنه يستمر طويلاً في مستقبل أيامه يتذكر الحدث الذي كان قد مر به.

فـمن المألوف، إذن، أن مـا يحتـمل أن نتـذكره من أحلام، إنما هي فقط تلك التي نوقظ خـلالها أو حـال الانتهاء منها مباشرة وأن نبقى في حالة يقظة بعـد اسـتيقاظنا لفترة، ون يتم مثل هذا الإجراء أما عند منتصف الليل، أو في الصـبـاح. وفي سـيـاق الأحـداث الاعـتـيـادي، فإن النائم يستيقظ فقط لفترات جـد وجـيـزة إبان نومـه الطبـيـعي ليـلاً، ولذا فـهـو لا يتذكر معظم أحـلامـه. لـعلنا جميـعنا مـررنا بتلك الخبرة القـريبـة، المزعـجـة المصـحـوبة بإحـسـاس يبـعث على الانتـعـاش أحـسست فيها أننا يتوزعنا في وقت واحد عـالمنا، وغـالبـاً مـا يحصل هذا لنا في ليال قلقة مضطربة نمضيها بعد تناولنا وجبة نتخم فيها المعدة إلى حد الكظة (١) أو حـيـنما تلفنا حمى ، فـتكون يقظاتنا عند ذاك قـصيرة يترتب عليـهـا أننا نسترجع خـلالها نتـفـاً من أحلام رأيناها ونحن في حـالتنا تلك، فـيبدو لنا معظم تلك الأحلام تافهة أو تلوح لنا أنها ليـست بأكـثر من هراء وأننا سرعان ما ننساها تماماً في الصباح. ففي حـالات كـهذه، لا تكون يقظاتنا طويلة إلى حد يكفي لتكوين آثار للذاكرة نحـتـفظ فيها بما شاهدناه في منامنا من أحلام، لذا فإننا لا نتذكرها إلا لماماً ومن ثم تمضي يلفـهـا النسـيان إلى الأبد. وهذا أحد الأسباب من بين أسباب أخـرى عـندمـا يعترض من الناس أنهم يرون أحـلامـاً كـثيرة خـلال نومـهم عندمـا يمـضـون ليلة غير مريحة لهم يعايشون فيها القلق: وحقيقة الأمر هي أن مـا يحصل لهم أنهم بحكم اسـتيقاظاتهم الكثيرة وبقائهم مستيقظين فترات أطـول يـنـجـم عـن ذلك أنهم يسترجـعـون من أحـلامـهم أكـثـر ويبـقـون يتـذكـرونها، وأنهم لم يروا أحلاماً أكثر مما ينبغي كما يتوهمون.

إن مـعظمنا، شأننا في هذا شأن فرويد، كان قد مر بخبرة استيقظ خلالها من حلم واضح جلي في منتـصف الليل وحـسـبنا أننا ستـذكره في الصباح. ولـعـلـنـا نـكون قـد كـررناه في أذهاننا مـرات ومـرات بل ولعلنا، كما فـعل فـرويد، حـاولنا تفـسيره، ولكننا مـا أن نخلد إلى النوم بعـد عشر دقائق من

---

(١) الكظة : إمتلاء المعدة بالطعام أكثر مما ينبغي (الترجم) .

وقت الاستيقاظ تقريباً، فإننا نجد أن الحلم برمته قد توارى من ساحة الوعي العقلي في الصباح. فأنا لا أظن فرويد كان ينوي كبت ذاكرة أحلامه وما يرتبط بها من تفسير ـ وإن هو حاول ذلك، فإنه لم يقصد إليه في جميع الأوقات ولا في كل المناسبات. بل إنني لأشك في شيء واحد ألا وهو أنه لم يدع فترة كافية تمضي بين يقظته من الحلم وبين إخلاده ثانية إلى نوم من نوع NREM، إذ أن مرور فترة كافية ضروري لتكوين آثار ذاكرة وافية بالمرام للخبرة ككل.

لهذا السبب فإنني أنصح أولئك الذين يعتزمون الإبقاء على أحلامهم حية في أذهانهم أن يعمدوا إلى تدوينها حالما يستيقظون بعدها حتى وإن كان هذا في منتصف الليل. فالجهد المبذول في الاستعداد للجلوس وإسراج الضياء وإحضار مستلزمات الكتابة وتدوين وقائع الحلم ـ هذه كلها من شأنها أن تساعد في تهيئة الذهن لليقظة اللازمة للإبقاء على معظم ما نريد من تفصيلات حديثة. كان فرويد ينصح مرضاه بأن لا يدونوا أحلامهم، ظناً منه أن هذا الإجراء يبدأ من مقدار كبتهم. فهو قد حسب أن الأحلام تقاوم كل الجهود المبذولة على طريق إصلاح بناء الذات وإعادة تنظيمها، وإن تدوين الأحلام، كما توهم، سبيل يؤكد مخاوف المرضى. ولكن هذا رأي منه غير أكيد. أياً كان الأمر، فقد توصلنا إلى أن الأحلام تختفي من ساحة الوعي بسبب ضعف الذاكرة وتكوين الآثار هذه أكثر مما يعزى السبب إلى رداءة محتوى الحلم نفسه، ولذا فإننا لا نتردد في إهمال نصيحة فرويد والضرب عنها كشحاً في هذا الشأن وفي هذه النقطة بالذات.

فمعظم تذكرنا التلقائي لأحلامنا إنما يأتي من فترة نومنا في حالة REM قبيل استيقاظنا صباحاً. وأفضل طريقة لتذكرها أن ندونها مباشرة كما أشرنا إلى هذا من قبل. وهذا أسلم السبل، فبدلاً من العودة إلى النوم أو تدويرها في إذهاننا مرات، يجدر التأهب وبذل الجهد لكتابتها.

ومن المعقول أن نفترض بأن ثمة من الأسباب ما يدعونا دائماً إلى أن

نعتقد بأن أفضل سبيل إلى جعل الفرد يتذكر أحلامه هو عندما تكون الشحنة الانفعالية عند ذلك الشخص أقوى مما هي عليه في الحالات الاعتيادية، ذلك لأن قوة الانفعال وشدته، بصرف النظر عما إذا كانت تلك الشحنة الانفعاليةسارة أم غير سارة، تعتبر عاملاً قوياً في تأصيل آثار الحلم وتكوين آثار الذاكرة الخاصة به. هذا ما تمخضت عنه إحدى تجاربي التي قمت بها.

وفي تجربة أخرى، امتحنت فرضية تقول أن الأشخاص الذين يتم تحفيزهم يكونون أفضل في تذكر أحلامهم من أولئك الذين لا يكونون محفزين لذلك والذين ليس لديهم من البواعث ما يحملهم على التذكر. كانت هناك مجموعتان من الأشخاص ينامون في المختبر، وكانوا يعتقدون أن الغرض من التجربة هو فقط بقصد مراقبة حركات العينيني خلال النوم. وقبل توجههم إلى النوم، طلب إلى أفراد إحدى المجموعتين أن يعملوا جهدهم لتذكر أحلامهم في الصباح التالي، في حين ترك أفراد المجموعة الثانية بدون أية تعليمات. فكانت النتيجة أن تذكر أفراد المجموعة الأولى أحلاماً أكثر مما تذكر أفراد المجموعة الثانية، وهذا دل على أننا نميل إلى تذكر أحلامنا حينما نجد ما يحملنا على تذكرها، وهذا أفضل مما لو تركنا وشأننا من غير حافز.

أما كيف تعمل مكنية [تهيأ لتسترجع وتتذكر] فإنه أمر غير مؤكد. لكن الاحتمالات كثيرة. منها مثلاً قد يكون السبب هو تكرار عدد الاستيقاظات خلال سياق الليلة الواحدة. ولعل السبب يكمن في أننا نستيقظ مباشرة بعد حلم خلال فترة نوم في حالة REM. وربما يرجع الأمر إلى أنه ينصب مباشرة على الحلم نفسه، مما يجعل محتوى الحلم أشد وضوحاً وأكثر كثافة وبالتالي أدى إلى سهولة تذكره. وإن شيئاً محقق لا ريب، ذلك هو أن ما يوجه من إيحاءات إلى العقل قبل توجه المرء إلى النوم يتم في الغالب تنفيذها بشكل غامض. فإنني، مثلاً، يمكن أن أستيقظ دائماً تقريباً من

النـوم خـلال الـليل وفي سـاعـة مـعـينة بدون منبـه وذلك، لأوجـه إلى نفسي تعليمات ذاتيـة. وفي مجالات أوسع من هذا، فإننا نجـد أن أي واحـد يخضع لـلـعـلاج الـنـفـسي يـزداد كـثيراً عنده نشـاط تذكـر أحـلامـه حين يدرك أن استرجـاع أحـلامـه هذا مما يسـاعـد المحلل النفساني في معالجة المريض. وأن خبرات كـهـذه، منها مثـلاً ، العلاج النفسي، الإسهام في تجارب الأحلام، بل حـتى الإصـغـاء إلى المحـاضرات والاسـتماع إليـهـا أو قـراءة الكتب عن المـوضـوع، هـذه الخـبرات كـلـهـا تؤول إلى ازدياد في التنبـيـه على استرجـاع الأحـلام ومـقـاومـة العـمليـات الفـسـيـولوجية الاعتيادية التي تؤدي حتماً إلى نسيان الحلم.

على أن ما تقدم لا يعني أن العمليات النفسية الخاصة بالكبت لا دور لها تـقـوم بـه في الـتـسـبـب بالنسـيـان، وإن لم يكن هذا الجـانب على وعي تام بمـتـناقـضـات الرغـاب الشعورية واللاشعورية، ومنها الرغبة الشعورية عند المريض في انتـشال نفسه وتخليصها من الأميال العصابية neurotic التي تفسد عليـه حـيـاته، يناهض هذا في الوقت ذاته كـفاح لا شعوري ضاري للإبقاء عـلى مـا هـو فـيـه من مـوقـف نفسي، وكل هذا الاحتراب يجري أواره داخل الشـخـصـيـة. إن مـا ذكـر آنفاً من خبرات ـ ومنها العلاج النفسي، وتجارب الأحـلام، وسـواها ـ هذه كلهـا تسـعف ليس فـقط في مـقـاومـة العمليات الفسلجية التي تتسبب في نسيان الأحلام، بل لعلها تعين كذلك في التصدي لمواجـهـة القـوى السـيكولوجـيـة اللاشـعـورية المسؤولة عن عمليات الكبت هذه.

الاستذكار التلقائي للأحلام: خلاصة

١ـ العامل الرئيسي في الاسترجاع التلقائي للحلم يبدو أنه الاستيقاظ العرضي والذي يتفق أن يحصل مباشرة بعد الحلم، والذي يتم عادة إما خلال الليل أو قبيل النهوض في الصباح. وأن النائم لا يستيقظ عادةمن نومه في الغالب خلال الليل مما يعني أن معظم الأحلام لا تستحضر عند اليقظة إلى باحة الشعور، ولذا فهي لن يتم تذكرها.

٢ـ ولنسلم جدلاً، على أية حال، بأن الاستيقاظ يحصل إبان النوم خلال الليل، فما الذي يقرر كمية ونوعيةما يسترجع من أحلام أو طبيعة استرجاع الحلم؟ فهناك قبل كل شيء فرصة أكبر في استرجاع مفصل إذا ما اتفق أن استيقظنا من فترة نوم REM تفضل كثيراً مما لو كان استيقاظنا من فترة نوم REM. هذا أولاً.

٣ـ ثالثاً، وإذا ما اتفق أن استيقظنا من فترة نوم REM ، فإن ثمة جملة من العوامل تسهم في ما يمكن في النهاية استرجاعه وتذكره، أبرزها:

(أ) للأحلام الطويلة، الواضحة، الكثيفة الانفعالية نصيب في الاسترجاع والتذكر أوفر من الأحلام الغامضة، الخفيفة، الواهية، القصيرة.

(ب) الاستيقاظ المفاجيء ينشأ عنه عادة استرجاع أكثر مما يترتب على الاستيقاظ التدريجي.

(جـ) الناس المنطلقون من ذوي الوعي الذاتي يرجح أن يسترجعوا أحلاماً أكثر جاذبية مما يمكن أن يسترجع مثلها الناس الكابتون.

(د) أولئك الذين يتم تحفيزهم لتذكر الأحلام يمكن أن يكونوا أقدر على استرجاع أحلام مفصلة من أولئك الذين يتركون من غير تحفيز.

٤ـ لنفترض أن بعضاً من محتوى الحلم يتم تذكره لدى الاستيقاظ خلال الليل، فما الذي يقرر ما إذاكان تم تذكره عند فترة الاستيقاظ تلك سيبقى

حياً في الذاكرة حتى الصباح؟ إنّ العامل الجوهري هنا يبدو أنه يكمن في فرصة تكوين آثار الذاكرة. إذ يجب على الشخص أن يبقى مستيقظاً فترة طويلة وهو يدرك الحلم في ذهنه ليتيح له التماسك والتضام وليسمح له ليكون له أثر في الذاكرة [يبقى مستيقظاً فترة عشر دقائق في الأقل]، وبخلاف ذلك فإن نوم NREM سيتدخل فيمحو كل ذاكرة الحلم.

٥ـ لنسلم بأن أثراً للذاكرة الخاصة بالحلم قد تكون خلال الليل، فما الذي يقرر كمية وكيفية الاسترجاع الصباحي؟ تشير الدراسات التي قمت بها إلى أن للأحلام الأطول، الأوضح، الأشد في الشحنة الانفعالية، حظاً في الاسترجاع أوفر من تلك الأحلام الأقصر، الأكثر غموضاً، الأشد فهاهة.

كما كشفت دراساتي كذلك عن أن نصف محتوى كل حلم تقريباً كان قد تم تذكره بعد استيقاظي في ليلي، ثم تم نسيانه فاختفى عند الصباح، ولذا فيلزم القراء الذين يهمهم حقاً مواجهة نسيان أحلامهم أن يأخذوا بنصحي فيحتفظوا بقلم وورقة بجنب فراش نومهم وأن يدونوا أحلامهم حالاً حال استيقاظهم منها.

الفصل الرابع
الحلم طريق معبّد(1) إلى اللاشعور

الفكرة القائلة بأن أحلامنا يمكن أن تملي علينا معلومات تعود بالنفع على ما يتعلق بتصرفنا وسلوكنا في سياق حياتنا، فكرة ترجع في جذورها إلى عصور ما قبل التاريخ. فعلى امتداد تاريخ البشرية يجد المرء ثمة من المسلمات بالنسبة للإنسان بأن عقل النائم يكون على تماس تام واتصال عام بعالم خارق ما ورائي وأن الأحلام يمكن تفسيرها بأنها رسائل وإشارات آتية من آلهة هناك، تتضمن وظائف تنبؤية أو علاجية. لكن تفجر الثورة العلمية في القرن التاسع عشر أفضت إلى ردة فعل عارمة ضد هذا الضرب من التفكير، وقد شملت ردة الفعل هذه الأحلام فأبعدت عنها ـ الأحلام ـ فكرة كانت سائدة وكأنها مجرد خليط من الفنطاسيا ناجمة عن سوء الهضم، أو يتسبب في إحداثها صرير الأبواب، أو تستثار من ذكريات اليوم المنصرم. ومع أن شيئاً من أفكار الماضي بقيت سائدة بين كثير من الناس ممن اعتبروا الأحلام مصدراً من مصادر الإلهام الإبداعي، فإن الرأي المتفق على العموم حسب الرأي القائل بأن الأحلام لا معنى لها رأياً مسلماً به.

هذا هو كان الموقف عند مبتدأ القرن الحالي، حين تبين متخصص بعلم الأعصاب فتبينّ، هو سيجموند فرويد، أن شخصين يتعرضان لنفس ما في يومهما من أحداث أو لعلهما يخضعان لذات المنبهات وهما نائمان، فإنهما ينسجان حواليهما قصتين تماماً متباينتين تحيكان وتعكسان ما كانا قد مرا بهما من خبرات. لماذا، مثلاً، أن ضوضاء أو ضجيجاً يحصل وشخص معين نائم فيرى حلماً كأن أسداً أمامه يزأر وأن الأسد هذا كأنه على وشك

---

(1) استخدمت المؤلفة تعبير Royal road وتعني طريق ملوكي، وقد آثرت ترجمة ذلك كما في العنوان إنسجاماً مع المعنى العلمي المقصود [المترجم].

مـهـاجمتـه، في حين يحلم شـخص آخـر، وفي ظرف نفس الضـوضـاء، أنه يستحم بأشعة شخص آخر، وفي ظرف نفس الضوضاء، إنه يستحم بأشعة الشـمس على شـاطىء البـحـر الأبيض المتـوسط وأنه وهو في حـالة استرخائه تلك وفي استـدفـائه ذاك أنه يستـمع إلى أصـوات الأمواج تغازل الشواطىء تلك؟ الضـوضاء والمنبهات الأخرى ـ هذه كلها تسلمها دماغ النائم، تلقاها مع أحـداث اليـوم المنصرم، ومـا هذه كـافـة، كما يقـول فـرويد، إلا أسفار «كـتب»، نقـشت على صـفحاتها أعمق صبواتنا وأعذب أحاسيسنا، ونسجنا حـولها فنطازياً تنبعث من أعمق أغوار العقل اللاواعي عندنا.

ولذا فـهـو من هنا انطلق إلى تطوير نظرية عن عـمليـة الحلم، تمكنه من تـفـسير الإحـلام بأنها مـفـاتيح إلى مـشكلات وصراعـات محتـدمـة في طوايا الشـخصية. ولعله ليس من المبالغة في شيء القول أن النظرية التي طورها قد اضـحت، خـلال النصف الأول من هذا القـرن، من أهم المؤثرات الفـعالة الرئيـسـيـة في الثقافة الغربية، وإن الفكر الحديث بشأن الأحلام، كله تقريباً يستـمـد بعض الشيء من نظريتـه تلك، حـتى حـينما يكون ذلك الفكر في تناقض مـعـهـا. ولهذا السـبب فإن تطور نظريته عن الأحلام قد تم تقصيها بـشيء من التـفـصـيل هنا ـ وذلك لأنها كـذلك إحـدى القـصص الممـتـعـة والدرامـية في تاريخ الاكتشافات السيكولوجية.

اكتشاف فرويد (لسر الأحلام).

لاحظ فـرويد، في الأيام المبكرة من ممارسـاته الاكلينيكية، أن كثيرين من مـرضـاه كـانوا يشكون من أعـراض اتضح أنها ليس ثمـة سـبب عـضـوي جـسـمـي يكمن وراءها. وكـانت تلك الأعـراض تظهـر أحـيـاناً على شكل ظواهر فـيـزيقية جسمية منها مثلاً الصداعات، الطفح الجلدي، العمى، أو الـشـلل، وتظهـر أحـيـاناً بشكل خلل عـقلي كـالمخـاوف غير الطبـيـعـيـة، والـوسـاوس، والأوهـام، والاهتـلاسـات. فـاسـتنتج أن هذه لابد أن تكون

من حيث أساسها وفي أصلها ناجمة عن حالات انفعالية. فهو قد اقتنع بأنها انفعالية الأصل، ووجد أنه إذا أتاح لمرضاه الفرصة بالتحدث بحرية تامة عما يعانون من مشكلاتهم تلك، فإن تلك الأعراض كانت تختفي وتتوارى. ويبدو أن هذا كان يحصل حيثما اتفق أن ذكرى من الذكريات المؤلمة كانت قد طواها النسيان فبرزت إلى مجال النور مع ما يصاحبها من إحساس ملازم لها. استخلص فرويد من هذا أنه لما كانت هذه الذكريات مرتبطة في الغالب بالنزوات الجنسية والنشاطات العدوانية المتأصلة في عهد الطفولة، فإنها قد تم طردها إلى خارج حيز الوعي الشعوري، أو أنها بدت، كما عبر عن ذلك، وكأنها قد استبعدت على هذا النحو إنها مبرحة في آلامها مخجلة في أعمالها. والرغبات المكبوتة هذه، كما يعتقد فرويد، أبعد من أن تكون هاجعة في العقل، ولما كانت منكوراً عليها أن تعبر عن نفسها في السلوك الظاهري على هواها، فقد وجدت لطاقاتها متنفساً يتخذ شكل أعراض جسمية ليس لها أساس عضوي.

لاحظ فرويد أن مرضاه في الوقت الذي يستلقون فيه على الأريكة ـ وهو تكنيك يعرف باسم التداعي الحر Free association ـ فإنهم أحياناً يسترجعون حلماً برهن على أنه نقطة الانطلاق لسلسلة من الذكريات والأفكار. وإن كثيراً من هذه الأحلام قد قادت إلى نفس الدوافع المكبوتة والرغبات الحبيسة التي تسببت في الأعراض العصابية. وعن طريق التحليل الشامل والدراسة المستفيضة لأحلامه وأحلام مرضاه، اهتدى فرويد شيئاً فشيئاً إلى أن الحلم إنما هو نوع من الأعراض العصابية بمقتضى معناها.

وعلى امتداد التسعينات من القرن التاسع عشر، كان فرويد يضغط باتجاه تحليل نفسه تحليلاً ذاتياً، باحثاً ومنقباً في أغوار أعماقه تنقيباً في ثنايا أفكاره وأحاسيسه حتى توصل عام ١٨٩٥ إلى ما أعتقده بأنه سر الأحلام. كان جالساً في إحدى الأماسي في شرفة فندق (بيليفيو)، أحد فنادق فيينا، مطرقاً يفكر بحلم رآه في ليلة سابقة، يتعلق بمريضة بالهستيريا، اسمها

(أرما) ، وقد أخبرته في الحلم أنها لم تزل مريضة وقالت له أنها أبعد ما تكون عن الشفاء. بدت له في الحلم أنها جد مريضة وكان يحس بالقلق إذ ظن في منامه ذاك أنه لابد أن يكون أخطأ في التشخيص وربما كان زملاؤه في رؤياه قد توصلوا إلى نفس النتيجة التي حسبها تعاني منها وهي أصابتها بعدوى نتيجة لزرقة حقنة injection حقنها بها (أوتو) Otto ، صديق فرويد، إذ استعمل محقنة ملوثة dirty Syringe .

من الواضح أن الحلم قد ومض في ذهن فرويد بفعل حقيقة حصلت في إحدى الأمسيات السابقة، قبل الحلم، تلك الحقيقة أن (أوتو) هذا كان فعلاً قد زار فرويد وأخبره بأنه قد سبق له أن التقى بأرما خلال عطلة قضياها في نفس المكان وأنها كانت بصحة جيدة ولكن ليس على ما يرام. تراءى لفرويد أثناء حديثهما ذاك أنه استشف في ثنايا كلام صديقه ما ينم عن التأنيب له فقلق لذلك وحمل قلقه ذاك معه إلى نومه.

هذا الحلم الشهير المتصل بـ(أرما)، والذي يحتل الآن مكاناً بارزاً في تاريخ الاكتشافات الكبرى، كان في واقع الأمر أكثر تعقيداً مما رويته هنا، وقد استغرق فرويد وقتاً طويلاً يتأمله ويقلبه على وجهه، متحرياً مختلف جوانبه بإسهاب كبير. لكن الإلهام الرئيسي الذي طرق فكره أشبه بومضة من ومضات التبصر وهو في جلسته تلك في الشرفة، ذلك الإلهام الذي أصبح في ما بعد أساساً في تطبيقات وممارسات التحليل النفسي ونظرياته، كان يتلخص في ما يأتي:

إن الدافع إلى الحلم إنما كان رغبة وإن محتواه كان هو تحقيق تلك الرغبة.

هذا وقد كتب فرويد يقول:

[الحلم قد حقق رغبات محددة أوجدتها في ذهني أحداث في الأمسية السابقة.. وملخص الحلم.. كأنني لست أنا المعني بمتابعة آلام ارما أو المسؤول عما تعانيه، بل هو أوتو الذي كان يعنيه أمرها. أوتو في حقيقة الأمر كان قد أغضبني بملاحظاته عن عدم شفاء أرما شفاءً ناجزاً، وأن

حلمي مكنني من الانتقام منه وذلك برد التأنيب عليه. الحلم قد برأ ساحتي من مسؤولية حالة أرما، إذ أبان لي أن حالها تلك كانت تعزى إلى عوامل أخرى. فالحلم قد كشف عن حالة خاصة من القضايا كنت من قبل أبتغيها وأرغب في أن تكون كما أريد.]

فكأن الحلم كان رغبة لا شعورية تضافرت مع الدماغ النائم لتعيد من جديد صياغة واقع يهفو الفؤاد إليه وإلي ما فيه من صبوات تبدت كلها على صورة حلم.

يبدو لنا أن الحلم الذي تدور أحداثه حول [أرما] حلم جلي نسبياً ومستقيم في وقائعه إذا ما تمت مقارنته بكثير من أحلامنا البالغة التعقيد، تلك الأحلام الغامضة والممعنة في الفنطازيا. فلا تبدو الرغبة الكامنة، لأول وهلة، إنها مفزعة وتلتمس التعبير عن نفسها فيه بطريقة جنسية أو عدوانية.

وإن فرويد ليس بملوم إذ هو ينزع إلى تبرئة ساحته من تهمة الإهمال المهني. على أن الحلم ينطوي على ما يشير إلى أنه ـ فرويد ـ قد حقق نزعته إلى تبرئة الساحة وذلك بإلقاء اللوم على صديقه (أوتو)، إذ أرسى عليه وخامة عمل دنيء وعدواني، لا يحلم بإلقائه عليه وتوجيهه إليه وهو في حياته الواعية. بل الأدهى من هذا هو أن فرويد، وهو رجل واسع الطموح، كان يسعى في قرارة حياته اللاشعورية إلى تحطيم أي من زملائه الناجحين المحققين للشهرة وينوي تدمير منافسيه أياً كانوا. أمثلة من هذا الضرب أدت بفرويد إلى الشك بأن العقل اللاواعي يمكن أن يقترف في حالة الفنطازيا أية جريمة لكي يحقق بغية كامنة.

كثير من الأحلام، كالحلم المتعلق بأرما، يمكن تفسيرها على عدة مستويات وأنها تتضمن كثيراً من الرغبات المختلفة. فكان فرويد مثلاً، يرى، خلال إحدى نقاط الحلم، عبر بدلة أرما أن هناك مشكلة ما في صدرها تعاني منها وإن مرضاً معيناً كائن هناك في صدرها. وعندما ناقش

فرويد هذا الموضوع فيما بعد في كتابه: تفسير الأحلام Interpretation of dreams ، كان قد ذكر: [صراحة أقول بأني لم تكن تساورني في حياتي الواعية رغبة في أن أنفذ إلى ذلك الحد؛] ولعله قال ذلك على أساس يعني به المسألة من حيث متضمناتها الجنسية. إن فرويد، وإن لم يذهب إلى التفصيلات هنا، فمن المرجح جداً، وذلك تأسيساً على نظريته المتعلقة بالجذور الطفلية للرغبات اللاشعورية، إن هذا القسم من حلمه قد أزاح الستار ليس فقط عن رغبة حاضرة قائمة الآن تدعوه إلى الانغماس مع أرما في علاقات جنسية محرمة، ويحاذر من إتيانها لأسباب تنهى عنها أخلاقيات المهنة، بل أنه كذلك كشف عنده، أنه في أعمق المستويات، لديه رغبة طفلية مكبوتة تحدوه أن يفعل الشيء الجنسي ذاته في مضاجعة المحرمات. ومثل هذه الرغبة، أعتقد فرويد، تكون مفزعة أيما إفزاع، فهي ترعب العقل الواعي الأمر الذي يقتضي إخفاءها تمويهاً وتفتيتها تفتيتاً قبل أن تجرؤ على أن تطل برأسها حتى في شكل حلم.

هذا النوع الخاص من تحقيق الرغبة في الأحلام إنه هو ما استأثر باهتمام فرويد أكثر حين توافر على صياغة نظريته، وإن هذا ما دعاه، عندما أقدم على طبع كتابه في نهاية القرن التاسع عشر، إلى أن يسميه (تفسير الأحلام). ولقد اعترف صراحة بأن كثيراً من الأحلام لا تتطلب تفسيراً نظراً إلى أنها تنطوي على رغبة واضحة ومعروفة مباشرة. والأطفال بخاصة معروف عنهم أنهم يواصلون لذات يومهم في سياق أحلامهم: فطفلتي الصغيرة مثلاً ما أكثر ما تذكر أنها قد أمضت ليلتها تتأرجح في الأراجيح وتتجول في حديقة الحيوانات. وإن (فرويد) حتى أنه كان مستعداً للإقرار بأن الحيوانات هي الأخرى لديها هذا النوع من أحلام تحقيق الرغبة. فهو قد ذكر أن ما يبدو على الكلب النائم من انتفاض واستياف(٢) لعله يعكس عنده نوعاً من الراحة كان قد خبرها خلال خبراته السارة في يومه ذاك،

(٢) الأستياف: التشمم، من الفعل استاف أي تشمم أو شمَّ [المترجم].

وهو يقتبس بهذا الصدد مثلاً هنغاريا يقول: [الخنازير تحلم بالبلوط والأوز يحلم بالذرة]. وهو يستقي كذلك مثلاً يهودياً قديماً صيغ بأسلوب سؤال: [بماذا يحلم الدجاج؟] - والإجابة: [إنه يحلم بالدخن].

أمثال أخرى بسيطة ومباشرة عن تحقيق الرغبات في الأحلام نجدها في الغالب في أحلام الذين تعرضوا لعوق حديث ولدى أولئك الذين يلفون حيواتهم غير مرضية لهم أو ليس فيها ما يسرهم. فصديق لي، مثلاً، وقد أصبح تماماً أعمى منذ أعوام ثلاثة وهو في الستين من عمره، يذكر لي خلال الشهور القلائل الأولى من إصابته بالعمى كان يحلم ليلة بعد أخرى أنه كان لا يزال باستطاعته أن يبصر ويرى، حتى كان يرده إلى واقعه استيقاظه كل صباح فلا يرى غير الظلام، بقي في حاله تلك بين لذة الحلم بالرؤية ويأس الواقع بالعمى حتى استولى عليه القنوط مما دفعه تقريباً إلى محاولة الانتحار، وهو ما فتيء تعاوده أحلام رؤية بالإبصار [بكسر الهمزة]، لكنه قد ألف بعد ذلك حالة عوقه تلك فلم يعد يفزعه الخوف من الواقع. وفي إحدى المناسبات الخاصة الكئيبة من حياتي كنت أرى أحلاماً تتكرر أراني فيها في هضاب زاهية تلوح بأشكالها الجذابة الملونة. وفي إحدى المرات خلال مكوثي في المستشفى أخبرتني مهاجرة ملونة، كانت تشرف على نظام المستشفى، أنها رأت في الحلم بأن زوجها، وهو عامل، قد طوق جيدها بعقد من الذهب جميل. وقد ذكر لي أحد المعالجين النفسانيين أن جنوده خلال الحرب العالمية الأولى كانوا يذكرون له أحلاماً يرون فيها بانتظام أنهم بين أسرهم ورحاب عوائلهم في بيوتهم. والواقع هو أنهم عندما كانوا يحلمون باستمرار عن الحرب، كانوا يبعثون إلى بيوتهم، لأن أحلامهم هذه قد اعتبرت ضرباً من الأعراض المرضية ذات دفاعات ضعيفة وأنها من المرجح حداً قد تنتهي إلى الانهيار العصبي.

ملاحظات فرويد هذه بشأن الأطفال أدت به إلى الاستخلاص القائل أن أحلامهم قد تصبح بسرعة أكثر تعقيداً من هذا النوع البسيط المباشر من

أنواع تحقيق الرغبة، وفي عمر مبكر جداً يبدو أن هناك شيئاً ما يقبع تحت المحتوى الظاهر الواضح للحلم. فطفلتي البالغة ثلاث سنوات من العمر قد ابتدأت تروي لي أحلاماً ترى فيها أن [ليو]، وهي لعبة مخملية لها هيئة أسد، يعضني، أو أنها ترى نفسها ترمي بلعبتها خارج الشباك لأن اللعبة تلك قامت بشيء أغضبها. أعتقد فرويد أن أحلاماً من هذا النوع إنما تمثل تحقيقاً تمويهياً لرغبات جد ـ شريرة مما لا يمكن الاعتراف بها بصورة مباشرة ـ ففي حالة ابنتي مثلاً، فهو ممكن أن يقول، بأن (ليو) إنما هو تمويه يعبر عنها في الحلم الأول، ولعبتها في الحلم الثاني إنما هي ترمز لي، ذلك لأنها منزعجة مني وإنها تعرف إن هي عضتني أو أذتني فإن سلوكها هذا يدل على أنه، ويفسر بأنه سلوك شرير. وهي باضطرادها في النمو، فإن فرويد قد يتنبأ من أحلامها تلك بأن حلمها سيضطرد كذلك في التخفي والتمويه حتى يأتي يوم يتطلب الأمر فيه تفسيراً يرتكن فيه إلى معرفة خبير بالأحلام ليكشف عن الصبوات اللاشعورية الكامنة وراء تلك الأحلام.

أطلق فرويد على الحلم الذي يمكن تذكره، تعبير (الحلم الكامن، ومحتواه أسماه (المحتوى الكامن) . طريقته بتفاصيلها سيتم بحثها في الفصل السادس. فهو قد ربط بكل عنصر في الحلم الظاهر عملية تؤدي تدريجياً إلى المحتوى الكامن الذي أعتقد أنه هو الذي يستثير الحلم الظاهر. كان فرويد، وهو في غمرة انكبابه المضني على إحلامه الخاصة به وفق طريقته هذه، قد تأدت به بحوثه تلك إلى أن يرجع إلى كثير من ذكريات الطفولة وإحساساتها، وهي ذكريات مؤلمة وصاعقة. ولقد كتب يقول: [لأن يكون المرء صادقاً مع نفسه وأميناً مع ذاته، إنما هو أمر ما أطيبه وما أحسنه. فبعض أسرار الحياة يمكن تقصيها هناك في منابت جذورها الأولى، هناك يكشف عن الأصول الوضعية لكثير من التيه والغرور والصلف فتتبدى حقائقها عارية].

إن مادة الحلم الكامنة هذه بالنسبة إلى فرويد دائماً أكثر أهمية من الحلم

الظاهر، الذي اعتبره مجرد غطاء للمحتوى الكامن ذاك فهو قد أصر بثبات طيلة فترة حياته المهنية على وجوب هذا التمييز بين الحلم الظاهر وبين المحتوى الكامن للحلم، وإن الكثيرين من المحللين النفسانيين اليوم ما زالوا غير مقتنعين بتفسيرهم للحلم حتى يكتشفوا مصدره كامناً في مكمن ما من مكامن صراع الطفولة المكبوت.

يذهب فرويد إلى أن الوظيفة التمويهية للأحلام تخدم غرضاً مزدوجاً. فالوظيفة هذه لا تسمح بتصريف الطاقة المكبوتة في ثنايا الرغبات الممنوعة فحسب، بل هي كذلك تتستر على الطبيعة الحقيقية لهذه الرغبات مما يتيح للحالم نوماً مستقراً. لهذا فإن الحلم لا يعمل فقط كصمام أمان للتعبير عن الانفعالات التي تجد لها متنفساً في الفنطازيا، وإنما هو كذلك يعمل كحارس للنوم. على أن التمويه هذا يخفق أحياناً فيستيقظ الحالم من نومه ـ وهنا يكون ضحية كابوس Nightmare. لهذا السبب، فقد حور فرويد نظريته لتقول أن كل حلم إنما يمثل محاولة لتحقيق رغبة.

لبث كتاب فرويد: (تفسير الأحلام) أثيراً عنده طيلة حياته. فهو قد احتوى، كما كتب هو عنه، [أفضل الاكتشافات كافة: الاكتشافات التي واتاني الحظ وحالفني في التوصل إليها. وإن تبصراً كهذا لا يتأتى لما يوفق إليه المرء في الحياة إلا مرة واحدة.] فالأحلام، كما أعتقد فرويد، إنما تعكس (طريقاً معبداً) إلى الأجزاء اللاشعورية من الحياة العقلية التي بقيت حتى الآن بمنأى عن بحث الإنسان في سبيل البلوغ إلى معرفة ـ النفس. وفي رسالة كان قد بعث بها فرويد إلى صديقه (فليس) Fliess وصف فيها زيارة له ثانية إلى فندق (بيليفيو)(٣) حيث رأى في نومه حلمه المعروف عن أرما، وفي معرض كلامه في رسالته تلك سأل: [هل لك أن تفترض أو

(٣) من سلسلة رسائل في التحليل النفسي متبادلة بين فرويد وصديقه فلهلم فليس وقد ترجمتها إلى العربية وهي الآن جاهزة للنشر، فهي رسائل تكشف عن جوانب كثيرة من الاكتشافات النفسية: [المترجم].

تحسب في يوم ما أن يرصف سطح المنزل بألواح من المرمر وقد نقشت عليها الكلمات وحفرت على وجوهها الألفاظ؟ ـ في هذا البيت، في الرابع والعشرين من تموز ١٨٩٥، قد تكشف للدكتور سيجموند فرويد سر الأحلام.] وأضاف في رسالته تلك يقول: [في الوقت الراهن يبدو أن ثمة قليلاً من الأمل يلوح في الأفق].

كان فرويد محقاً فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة. كان الناشر مأخوذاً أو متأثراً بخصائص الكتاب الذي اعتبره فاتحة عهد جديد بحيث أرخه تأريخاً لاحقاً فجعله يحمل تاريخ النشر لعام (١٩٠٠)، أي مطلع القرن العشرين هذا، وإن استغرقت طبعته الأولى بأعدادها القليلة (٦٠٠) نسخة ثمانية أعوام قبل أن تنفد من الأسواق. واجهت أفكار فرويد في الواقع معارضة قوية من جانب كثير من زملائه المعالجين النفسانيين الذين أجمعوا، شأنهم شأن الرأي العام والسواد الأعظم من الناس، أجمعوا بشكل خاص على القول أننا جميعاً من حيث الأساس مخلوقات ذات نزوات جنسية مقرفة وذات نزعات عدوانية شريرة. ومنذ ذلك الوقت، فإن الكتاب قد مر بطبعات كثيرة وقد تمت ترجمته إلى لغات كثيرة، وهو الآن يحتل مكان الصدارة بين أغلب المؤلفات الكلاسيكية حالياً.

لكن إذا كان لابد الآن من تثبيت لافتة تزين بها واجهة فندق بليفيو، فيمكن تحويرها على النحو الآتي لتقرأ: [في هذا البيت في الرابع والعشرين من تموز، عام ١٨٩٥، استبصارات مهمة عديدة عن طبيعة الأحلام قد بزغت فتكشفت للدكتور سيجموند فرويد]، ذلك لأن البحث الحديث يبين أنه في الوقت الذي أصبحت فيه بعض أفكاره حقاً تمثل فاتحة عهد جديد، فإن أفكاره الأخرى إنما هي في الواقع بعيدة عن مرماها.

الحلم بوصفه حارساً للنوم

يجدر أن نضع في المقام الأول حقيقة بارزة تلك هي أن نظرية فرويد

القـائلة أن وظيـفـة الحلم إنما هي المحـافظة على النوم واسـتمراره يجب إعادة النظر فـيـهـا وتمحـيـصها في ضوء معطيات البحث الحديث. وإن القول بأن الأحـلام يمكن أن تعـمل بهذه الطريقـة، وعن طريق تضـافر ضغط المثانة، وآلام المعـدة، أو الضـوضـاء الخـارجية هذه كلها تلتحم بقصة الحلم عندما يـتفق لها أن توقظنا، يبـدو أنه قـول يكتنفـه شيء من الشك قليل، والحق، لقـد أضـاف البـحث الحديث من الدلائل ما يشير إلى أن للحلم القدرة على أن يفـعل كل هذا، بمـعنى أننا قـد توفـرت لدينا الآن قـرائن وحـالات عن أحـلام اقـترنت برذاذ خـفـيف من الماء على الجسم أو الذراع فـيكون الحلم رؤية المطر في المنام، وإن منبـهـاً كـرائحة احتراق شيء يتحول إلى حلم يرى الـنائم فـيـه حـريقـاً في غـابة، وهكذا. لكن هذا النوع من الحماية للنوم من وجـهـة نظر فـرويد إنما هي ثانوية فقط. فهو في الواقع، يتأمل جانباً واحداً فـقط أو اعـتبر جـانبـاً منفرداً من البحث الحديث ومن مستنبطاته وحسب، وذلك حين ارتأى بأن المنبـهـات الخـارجيـة إنما هي تختلط بالأحلام في حالة سيرورتها، لكن المنبهات هذه لا تبتدىء إحداث الحلم.

الأحـلام من وجـهـة نظر فـرويد دائماً تسـتـحـدثها طاقة الرغاب المكبوتة النزاعـة إلى التنفيس وإنها لا تجد لها متنفساً إلا عن طريقها. وفي الوقت الذي تتنبـه فيه هذه الرغاب وتنشط عن طريق ما يجد من أفكار في إحداث اليوم، فإن فـرويد أعـتقد أنها لا يتسنى لها ولوج سرحة الشعور خلال الحياة الواعية بسـبب مـا أسماه بـ(حاجز الكبت) barrier repression. وخـلال الـنوم فإن قـوة هذا الحـاجـز تنخـفض، حـسب رأي فـرويد، فيتاح للرغبات المكبوتة تلك أن تشق طريقـهـا إلى سـاحـة الشـعور. ونظراً إلى أن الجسم إبان النوم يكون مـشلولاً، فإن الرغـبـات تلك لا تحقق ما ترمي إليه من إشباع لنزواتها في العـالم الخـارجي [وهي نزوات حـسـبـهـا فـرويد شـهـوانيـة، وعـدوانيـة، وإجـرامية، ونزعات محرمة!] ولذا فهي تستقر بعض الشيء عن طريق إشباع مـراميـهـا بالفنطازيا التي تتـجسم على صورة حلم. لكن الرغبات المكبوتة

هذه إذا ما دخلت عقل النائم، كما يرى فرويد بشكلها المكشوف المريع، فإنه يستيقظ من نومه فزعاً منقبض النفس. لهذا فإنها قبل تسربها إلى عقل النائم تتسربل بسربال الحشمة وتتخفى في ثنايا البواقي(٤) البريئة الحميدة لذلك اليوم، والبواقي أو النوافل الطيبة هذه هي التي تمررها إلى فسحة الحلم، وهناك تتلفع وتلف نفسها فتختلط برموز وبآليات حماية أخرى إلى حد أنها تصبح من المتعذر التعرف عليها وسط كل هذا التمويه الذي أحكمته حول نفسها. فيتمكن الحالم بعد هذامن أن ينعم بنوم يتطلبه جسمه وإن ما يحتاجه من نوم كهذا إنما يتأتى بواسطة حلم يبقى معناه خافياً على العقل النائم ويمكث خافياً حتى في الحياة الواعية بعد الاستيقاظ حتى يقيِّض له محلل نفساني فيكشف عن خوافيه ويفسر معانيه.

افترض فرويد أن الرغبات المكبوتة تجعل نفسها عادة محسوسة وتكون لدى صاحبها معروفة عندما يجد مثير فيصبح ماثلاً وينبهها. ولهذا فهو ربط بين ظروف الفرد في الحياة وبين ما لديه من رغبات وأن قوة رغباته هذه تزداد كلما تراكمت، وكلما قلت متنفساتها بأي شكل من الأشكال.

وبوسع المحلل النفساني، بطبيعة الحال، أن يماري في القول بأن حتى أكثر الأحلام فتارة وبهاتة إنما هي رغبات طفلية مكبوتة اتفق إن وجدت لها سبيلاً للتزييف الفعال، ولكن لا يبدو ثمة من سبب معقول يدعو إلى إخضاع الحقائق إلى النظرية على هذا المنوال. وكما سأوضح في ما بعد، فإن المحالات التحليلية النفسية لتفسير الأحلام الواضحة الخالية من التزييف يمكن أن تفضي إلى استنتاجات مرجحة ومحتملة، وإنها يمكن أن تجعل الحالم يتجاوز ويتخطى بعض جوانب من قلق حقيقي يتعرض له في سياق شؤون حياته الحاضرة.

يضاف إلى ذلك، فإن العمل التجريبي الحديث قد أظهر أننا في الغالب نستمر نائمين نوماً رغيداً ونحن نمر بأكثر أحلامنا إصعاقاً لنا، في حين،

---

(٤) البواقي : ما تبقى من أحداث أواخر ذلك اليوم (المترجم).

حسب وجهة نظر فرويد، كان يجب أن نستيقظ فزعين مرعبين لأن وظيفة التمويه قد فشلت، كما يرى هو. فمن خلال عملي التجريبي، مثلاً، ما أكثر ما تجمعت لدي خبرات أيقظت فيها أشخاص تجاربي من نومهم وهم في حالة أحلام يمرون بها ذات طبيعة تنطوي على محرمات واقتراف جرائم قتل، وجميع الأنواع الأخرى من الممنوعات التي هي - كما يحسبها فرويد، ينبغي أن تكون تزييفية تمويهية. لكنني وجدت الحالم أحياناً يكون مسروراً إذا أيقظته ووجدت حالماً آخر، مثلاً غاضباً علي لأنني كنت قد حرمته من متعة كان ينعم بها في حلمه. وفي إحدى المرات أيقظت فيها فتاة كانت في حالة حلم وهي في فترة نوم من نوع REM، أيقظتها عندما قارب الحلم على الانتهاء فذكرت إنها كانت تدور بلا انقطاع حول مستشفى وهي في حالة من اليأس والعناء، كانت تدور بحثاً عن طبيب يمكن أن يجهضها من حمل حملت به من حيوان. وذكرت أنها لم يكن هناك من أحس بوجودها أو من مد يد العون لها. وعندما أيقظتها كانت تنشج نشيجاً في حلمها ذاك وقد أحست عند اليقظة بإحباط وبيأس، وقد انكمشت على نفسها دهشة وهي تتساءل ما عسى أن يكون ذلك الحيوان. فتذكرت أنها يوم كانت طفلة صغيرة، كانت قد أخذت في إحدى المرات فأرة صغيرة تعنى بتربيتها أخذتها معها إلى فراشها وأنامتها معها، وأنها أيام طفولتها كانت تنام أحياناً في الاصطبلات. لهذا حينما أيقظتها قالت: [يا لها من راحة إذ أستيقظ من نومي ذاك. إنها حقاً لراحة تامة حيث ما كان في الحلم ليس حقيقة واقعة.] إني لا يخالجني أدنى شك فيما لو لم أوقظها من نومها، لاستمرت فيما هي فيه من حلمها ذاك ولنسيته فلم تتذكره بعد استيقاظها من النوم عند الصباح.

وفي مناسبة أخرى، كان أحد الطلاب الذكور في حالة حلم رأى نفسه أنه نائم مع أمه في فراش واحد وأنها كانت تربت جسمه وكانت تحتضنه، وعبر عن سخطه عندما أيقظته لأنني حرمته، كما قال، من لذة الاستمتاع

مما كـان فـيـه وإني لأتذكـر، أيضـاً، عندمـا بدأت أهتم أول مـرة بتـقنيات اقـتـنـاص الأحـلام ورحـت أجـري بعض تجـاربي على نفسي، حلمت عـدة أحـلام ممـتـعـة منهـا مـثلاً حلم رأيتني فيه في موقف ومن خلفي أخي يمسد على قـفـاي ويربت على جسـمي فكنت أحس وأنا في الحلم بلذة فلما نبهني جـرس سـاعـة التـوقـيت شـعـرت بالحنق والغيظ والاستياء. لهذا فإن وظيفة التـمـويه التي يراها فرويد حتى وإن أخفقت فإننا نمضي في نومنا مستمتعين تماماً بما نراه في أحلامنا من نشاطات ممنوعة.

كنت قـد ذكـرت من قـبل، أنه ليس ثمـة سـبب يدعونا إلى أن ننكر أنّ الأحـلام بوسـعـهـا التـعـبـير عن الرغـبات، وأنه من المرجح جداً أن بعضها يمكن أن تعبر عن الرغـبـات تلك بطرق ملتـوية. فـابنتي مثلاً قد تصورت في فنطازيا حلمـهـا أن لعـبـتها المخملية وهي على هيئة أسد، تعضني، لأن عـضـة الأسـد أشد إيلاماً من عضتها هي، فليس من المستغرب إذن أن تجد فنطازيتـهـا تلك طريقـاً لها في حلم ابنتي. فهذا الحلم ما أبعده عن التزييف والتـمـويه، إنه قـد عبر عن نفـسه بهذا القصد الصارخ: إذ أنها (الطفلة) في الحـقـيـقـة قـد روت حلمها لي بابتسامة عريضة تملأ أسارير وجهها، ولم يبد عليها، وهي ترويه، أنها في شيء من الأسى أو الضيق.

وعندي أن العـلاقـة بين النوم والحلم إنما هي علاقة على العكس مما ذهب إليـه فـرويد في نظريتـه. والشـواهد العلمـيـة الحديثة قد أوضحت أنه عندما يحصل النوم ويستمر فترة طويلة كـافـيـة، فإن الأحلام دائماً تكون مصاحبة له: إن النوم، في واقع الأمـر، هو الحارس للحلم.

الحلم كصمام أمان

إن الفكرة القـائلة بأن الحلم هو صمام أمـان من الرغـبـات المكبـوتة، لا تقـوى على الصـمـود في ضـوء مـا استجد من نتائج دراسات حديثة. فأولاً، كما سبق أن رأينا، فإن أغلب أحلامنا، إنما هي تافهة وفاقدة لحيويتها فليس

إذن ثمة من سبب معقول لأن نصر على القول إنها الأحلام كلها تتفجر تحت غطاء التمويه من أجل إشباع فنطازي. وثانياً، فإن المفهوم الكلي الخاص بالتنفيس عن الدافع خلال النوم بحاجة إلى تمحيص طالما أن هناك من الشك ما يجعلنا نعتقد بأن الخيال وحده لا يتمكن من تحقيق الإشباع الدائم للكائن العضوي. حقاً، إن باحثاً أمريكياً ادعى أنه اكتشف أن الأشخاص العطشانين الذين حلموا بأنهم كانوا يشربون في أحلامهم قد شربوا لدى استيقاظهم أقل من أولئك الذين أخفقوا أن يحلموا بالعطش. وإني شخصياً ليساورني الشك في أن أبني نتائج عامة على مثل هذه الآراء، وذلك لأنه من العسير أن نتبين كيف يمكن تطبيق المبدأ العلمي في مثل هذه الحالات. إنها لخبرة في الحلم شائعة ومنتشرة، أن نجد مثلاً، أنفسنا نبحث باهتياج بالغ عن بيت للراحة عندما تكون المثانة خلال نومنا شديدة الضغط الحاد، لكن أولئك الذين يفلحون في التخفيف مما هم فيه إبان الحلم من المؤكد أنهم لا يتبولون في صباح اليوم التالي أقل من أولئك الذين أحبطت جهودهم أن يفعلوا الشيء ذاته خلال الحلم.

أما ما يخص الدوافع الجنسية والعدوانية، فليس هناك في الواقع من الشواهد ما يشير إلى أنها تجد لها انطلاقاً خلال الأحلام، هذا وإن لدي من الدلائل والخبرات ما يدل على عكس ما يذكره فرويد مثلاً. إذ ليس من المحقق أبداً أن من يحلم بأنه قد مارس الجنس أو نفس عن عدوانية خلال حلمه سيكف في اليوم التالي أو في قادم أيامه عما كان يحلم به أو عما يريد أن يشبع به دوافعه تلك. وحتى التفكير بالمحرمات وما يبدو منها في الأحلام، فإنها تبقى ماثلة في ذهن الحالم ويحاول إشباعها في دنياه الحقيقية. وإني لأذكر هذا حتى من خبراتي الشخصية. وإني لا أرى في هذا ما يدعو إلى الاضطراب طالما أن الانفعالات المستحضرة إلى ساحة الوعي الشعوري هي أقل خطورة من تلك التي تبقى حبيسة مكبوتة.

إن نظرية الحلم كصمام أمان ليست بالجديدة على فرويد، فهو كان

قد أشار عدة مرات في (تفسير الأحلام) إلى [نظرية الإفراز] Theory of secretion التي جاء بها و. روبرت W. Robert، في عام ١٨٨٦.
فروبرت هذا كان قد شدد على المواد غير المهمة نسبياً التي تكون قد مرت بالفرد في سابق يومه، بدلاً من تأكيده على الدوافع والنوازع اللاشعورية. إذ وصف الحلم بأنه [عملية إفراز جسمية] تعمل كصمام أمان وذلك بإفساح المجال للتوتر المتجمع خلال اليوم لأن يجد له متنفساً، وقد كتب بهذا الشأن يقول: [إن الإنسان المحروم من قابلية الحلم فإنه قد يأتي يوم يضطرب فيه اضطراباً عقلياً ويختل فيه عقله ذلك لأن مقداراً ضخماً من الأفكار الناقصة، الفجة والانطباعات السطحية تتراكم في دماغه]، مكونة سحابة تؤدي إلى خنق قابليته الخاصة بالعمليات الفكرية السوية.

وفي الوقت الذي اعترف فيه فرويد بوجود ذكريات تتعلق بالأفكار وبوجود أحداث من اليوم المنصرم - بواقي اليوم أو متبقيات أحداث اليوم - وإنها يمكن أن تجد طريقها إلى الأحلام فتتبدى فيها، فإنه لم يرجع إليها أو يعزو إليها وظيفة رئيسية خلال عملية نشاط الحلم، كما رأينا خلال استعراضنا لآرائه؛ بل هو رآها مجرد وسائل بواسطتها تهرب الرغبات اللاشعورية المكبوتة نفسها لتتسرب على صورة أحلام. فعند فرويد، أن شخصاً محروماً من الاحتلام معرض إلى أن ينهار لأن نوازعه اللاشعورية بقيت حبيسة فلم تجد لنفسها متنفساً، بينما بالنسبة إلى روبرت فإنَّ متبقيات اليوم الفائت هي التي تسبب الاضطراب. فرويد اختلف مع روبرت أيضاً لاستعمال هذا الأخير لمصطلح (جسمي) Somatic ليصف به عملية الحلم، ليصف به عملية الحلم، واختلاف فرويد هذا إنما ينبع من إصراره على أن الحلم من حيث الأساس ما هو إلا ظاهرة نفسية:

Psychological Phenominon

وفي ضوء معطيات البحث الحديث، يبدو أن روبرت كان أدنى إلى الحقيقة مما كان عليه فرويد. فدورة التناوب المعتادة والاعتيادية في حالتي

نوم NREM/REM إنما هي بشكل أساسي عملية فسلجية تحصل عند الكائن العضوي بفترة طويلة تسبق تكوين الخبرة الذاتية للفرد عن الحلم، فيبدو من المرجح إذن أنه في مرحلة ما من تطور النوع البشري human species فإن السلوك الحلمي قد فرض نفسه في الخلفية الفسيولوجية لعملية REM، لكن تبقى مسألة ما إذاكان هذا السلوك ضرورياً للبقاء فتلك مسألة أخرى. وكان قد مر بنا، إن الكائنات الإنسانية حين تحرم من نوم REM لمدة أكثر من أسبوعين قد أظهر أفرادها حداً أدنى من الاضطراب النفسي، ولكن من المؤكد أن حرماناً يطول أمده فترة أطول يمكن أن ينتج عنه في النهاية انهيار عصبي.

وخلاصة القول، فإن فكرة فرويد عن الوظيفة المزدوجة للحلم - بوصفه حارساً للنوم وكصمام أمان للتعبير الخيالي عن الرغبات المكبوتة - يجب تمحيصها في ضوءمعطياتالبحث الحديث إذا ما أريد لها أن تبقى كنظرية تتسم بالشمول تختص بعملية الحلم. ورغم ما هي عليه من حدود ضيقة فإنها كانت ولاشك تمثل اختراقاً رئيسياً وتقدماً أساسياً في تمكنها من استعادة الفكرة القائلة أن الأحلام يمكن أن تكون وسائل تواصل حافلة بالمعاني - فهي قد استعادت الفكرة هذه ليس من عالم الخوارق ودنيا الماورائيات، بل من صميم أعماق الإنسان وكينونته. وبافتتاحه فكرة تفسير الأحلام واعتبارها أمائر نهتدي بها إلى مشكلاتنا الانفعالية الثاوية وصراعاتنا النفسية الخافية، فإن فرويد بعمله هذا قد مهد السبيل أمام الآخرين ليتحروا كوامن الأحلام والاستهداء باستخدامها وذلك توسيعاً للوعي الإنساني في مختلف الامتدادات التي تقتضيها متطلبات حياته، كما سأصف ذلك فيما بعد. ولعلنا، بعد، ما زلنا بعيدين عن تكوين نظرية شاملة تحتوي ضمن إطارها عملية الحلم ككل، لكن هذا لن يصرفنا بحال من الأحوال عن حقيقة قائمة تلك هي أن بعض الأحلام في الأقل تتيح لنا طريقاً معبداً يوصلنا إلى اللاشعور ويبلغنا حالة الوعي من حياتنا العقلية، وتلك وسيلة تمكننا على نحو أفضل من فهم أنفسنا وإدراك دواخلنا.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس
للأحـــلام مقاصـــدها

القـول بأن مـقـدار مـا هو متوافر الآن من مادة الأحلام يبدو شيئاً مبتذلاً ولا يعـدو كونه مذقاً[1]، وإن وصلنا إلا مـزيد منه أضـحى اليوم أمراً ميسوراً أكـثـر من ذي قـبل، قـد أدى القـول هذا بكثير من الناس إلى مجانفـة فكرة الحلم بوصـفـه ظاهرة إبداعـيـة أو أنه ينطوي على الكثير مما له معنى غزير. والحق، أن السر (بيتر مـيدوار Sir Peter medawar) كـان قد لام (آرثر كويستلر Arthur koester) لأنه وصف في كـتـابه: نشـاط الخليـقـة The Art of Creation، الأحـلام بـأنهـا [انـكـفـاء إلى عصر الظلمات في أول نبـضتها، حين كنا جزءاً منها قبل أن تسلخ ذواتنا egos منهـا] ففي عبارة له أصـبـحت متواترة ومعروفة منذ أن أطلقها يومذاك، أكد السر ميدوار على أن كـثيراً من الأحـلام قـد لا تعـدو كـونها نوعاً من (الضوضاء) الهراء يمكن أن تصـدر عن أية مجزوءة من جـهـاز كهربائي شغال ـ فهو قد كتب يقول: [لا حـاجـة بنا إلى أن نؤكـد على كـثـرة مـا في عـالمنا اليـوم من أجـهـزة المذياع والأدوات الالـكـترونـيـة، وإلى أن نقـول بأن كـثيراً من الأحـلام مـا هي إلا تجميع من عناصر فكرية لا تتضمن ولا تنقل أية دلالة معرفية.]

بوسـعي أن أقـول بحكم مـا توفـر لدي من خبراتي الخاصة، بأن كثيراً من خبراتنا النعـاسـيـة التي نبلوها في مـسـتـهل إيوائنا إلى مـضـاجعنا وأن بعض أحـلامـنـا ونحن في حـالة نوم من نوع NREM تـبـدو يقـيناً من هذا النوع الـذي ألمعنا إليـه في الفـقـرة الآنفـة. فـعندمـا نسـتـسلم للنوم في اللحظات الأولى، مـثـلاً، فإن الفكر المجـرد سرعـان مـا يخلي السـبـيل إلى أحساسات بالسـقـوط، وتؤدي إلى مـا يشـعـرنا بالتـشـويهات الجـسـمـيـة والارتعاشات البـدنيـة، والضـوضاء الصامة والالتماعات الضوئية الخاطفة للأبصار. فخبرتي

(١) لا طعم له، ليس له معنى (المترجم).

النعاسية الخاصة بي التي كثيراً ما عاودتني تتمثل بنوع من الإنزلاق والسقوط وبالتالي أجفل لهذه الظاهرة فأستيقظ مرتجفة. [وهذه ظاهرة شائعة مألوفة اكتسبت اسماً فنياً تقنياً هو رجفان ارتجاجي عضلي Myo-clonic jerk] وبعض الناس يرون أجساماً تطلق باتجاههم وهم نائمون، تطلق نحوهم من الفضاء، أو يرون وجوهاً غريبة تظهر وتختفي على نحو مخيف خطير. والنشاطات المتكررة الرتيبة المملة التي نمارسها خلال النهار قد تلاحقنا عند النوم. وما أكثر ما رأيت في الغالب بعد يوم في قيادة السيارة مضن ومتعب، رأيت نفسي أشطح بالسيارة يميناً وشمالاً ونحو الزوايا في الممرات أو أراني أتسابق مع سائر السيارات الأخرى، يتم هذا في الوقت الذي أرى فيه الشاحنات والحافلات تتقدم نحوي بصفوف طويلة لا نهاية لها، وغالباًما يصاحب كل ذلك بإضاءات السيارات وأصوات منبهاتها. وأن الموسيقى التي أنصت أحياناً إليها في المساء تلاحقني في النوم. ويبدو أن ما يجري إبان النهار من استجابات إدراكية متكررة تستمر في مفعولها خلال النوم حتى في حالة غياب ما كان يصاحبها إبان النهار من تنبيه stimulation حسي ـ عضوي، وإن هذا من غير المرجح أن يمثل أي شيء آخر غير (الضوضاء) المتبقية في الدماغ من أحداث اليوم المنصرم.

بيد أن التصور imagery النعاسي يبدو غير مرتبط بأحداث اليوم السابق له. فأنا شخصياً، مثلاً، حدثت لي رؤى بصرية رأيت فيها فتاة ترتدي بدلة زرقاء تتجول في حقل من الذرة الصفراء تداعبها برقة نسائم الهواء اللطيف. كان هذا المنظر من الوضوح بحيث أنني تمكنت في اليوم التالي من رسمه في لوحة. وفي مناسبة أخرى، حدثت لي رؤى عابرة أبصرت فيها تنيناً أحمر وهو يرقص في ساحة مكشوفة. إن النظرية الفرويدية دون شك، تحاول، مثلاً، أن تستقصي هذه الرؤى في نوع من أنواع الرغبات الطفلية المكبوتة ـ وأن نظرية فرويد ـ قد تشدد بخاصة على التنين إذ تعتبره رمزاً symbol ـ لكنني أنظر إلى المسألة من زاوية أخرى، إذ أعتقد بأن الرؤى

هذه ما هي إلا مجرد استجابات عشوائية اعتباطية حدثت كرد فعل لمنبهات بيئية متناقضة حصلت في وقت يكون فيه الدماغ منحدراً من حالة اليقظة إلى حالة النوم، ولذا فهي رؤى لا معنى لها ولا دلالة فيها أياً كانت.

ثمة خبرات مماثلة تطرأ خلال النهار حينما نفسح المجال لانتباهنا بالسرحان أو عندما نستغرق في حلم اليقظة daydream، وإذن فمن المرجح إنها تمكث مستمرة كضوضاء متبقية في ثنايا الدماغ الحي. وسواء أصح أن ينطبق الأمر كذلك على أحلامنا الليلة ونحن في حالة نوم من نوع NREM/REM فتلك مسألة أخرى. يقيناً أن بعض أحلامنا من نوع NREM، ربما هي من هذه الطبيعة أو من هذا الضرب وبخاصة من تلك التي يرى الحالم فيها نفسه وهو (يتجول) أو (يزجي وقته). على أن هذه ليست هي القصة الكاملة، بالنظر إلى أن كثيراً من الأحلام إنما هي أحداث مركبة معقدة مفصلة تشير إلى وجود نوع من أنواع الانتظام والاتساق في مجمل الجهاز الجسمي كله.

أما ما يخص أحلام REM، فهي أبعد من أن تكون مجرد تجميعات غريبة لأحداث وهمية وشخصيات خيالية، إنها في معظمها وفي أغلبها، كما كشف البحث العلمي الحديث، تعكس أنماطاً من الحياة الواعية الحقيقية الاعتيادية. والحق لقد ذكر الدكتور (فردريك سنايدر) Fredeirick Snyder مؤخراً أمام اتحاد الدراسات النفسية ـ الفسلجية للنوم في أمريكا، إن [حوالي ٩٠٪ من أحلام REM أصبحت مقدراً لها بأنها موثوقة وأنها تنوي على أوصاف لمعطيات الواقع الواعي، وإنها بهذا القدر ليست درامية وإنها في ذات الوقت خالية من الخزعبلات.] ويستطرد سنايدر قائلاً:

[.. إن ما يذكره الحالمون من أحلام REM إنما هي عامة حقاً واضحة، متماسكة، محبوكة، روايات مصدقة، تحكي مواقف حقيقية واقعية، تشمل الحالم وأشخاصاً آخرين غيره في أنشطة دنيوية وفي حالات أعمال ومهمات كانوا قد مروا بها يومية. وأن ما يروى فيها من تقارير ومن روايات قد

اعتبرت بعد تمحيصها أنها تقريباً تمثل الواقع تماماً وأنها واقعية في صورتها البصرية الرؤوية، وهي بوجه عام تشتمل على موقف مألوف أو رتيب متكرر، وأنها دائماً تقريباً تنطوي على الذات - ذات الشخص الحالم - وتشملها، وتكون نفس الحالم عادة في حالة تفاعل مع أشخاص آخرين.]

ولقد ناقش باحثون آخرون مسألة نشاط الأحلام REM وعلقوا على ماهيتها وما توصلوا إليه منها في المختبرات، وذكروا أنها حالات حاصلة لا امتراء، وقد قارنوها بما يحصل للحالم من أحلام تلقائية وهو نائم في بيته، وذكروا بأنها تبدو أهميتها من خلال كشفها عما يواجهه الإنسان من مشكلات شخصية وصراعات ذاتية. هذه الملاحظات قد عززتها سلسلة من التجارب على الأحلام أجراها في جامعة كاليفورنيا البرفسور (كالفن هول) Calvin Hall، وزملاؤه، إذ قارنوا نماذج وعينات من الأحلام كانت قد تم جمعها تحت ظروف متباينة. ما توصلوا إليه من نتائج قد أظهرت أن الأحلام البيتية قد اشتملت أكثر ما اشتملت عليه: الجنس، العدوان، المحن، الفشل، النجاح، الصداقة، فهي قد انطوت على هذا النوع من العناصر أكثر مما انطوت عليه الأحلام التي تمت في ظروف مختبرية، وكانت الأحلام البيتية تلك، بشكل عام، أكثر حيوية وأوفر إثارة.

أجريت معظم تجاربي في بيتي الخاص، هيأت فيها للأشخاص المتطوعين لإجراء التجاربة عليهم، فراشاً دافئاً، مريحاً، ينطوي على جميع الظروف الاعتيادية ما أمكن ذلك. لكنهم، بطبيعة الحال، كانوا قد تم وصلهم بأسلاك ترتبط بأجهزة التسجيل، وقد أفهمتهم مسبقاً بأنهم سيوقظون عدة مرات خلال الليل من أجل أن يرووا لي أحلامهم - وهذا الظرف بعيد عن الوضع الطبيعي - لكن جهوداً قد بذلتها في سبيل التقليل إلى أدنى حد ممكن من التأثيرات التي قد يحدثها البرد، أو التي تسببها أجواء المستشفى غير الشخصية أو الظروف المختبرية. بعد أن أحكمت المواقف والظروف على النحو الموصوف، وجدت أن ٦٥٪ من أحلام REM كانت واقعية

وتعكس مجريات الحياة اليومية، بدلاً من ٩٠٪ وهي النسبة التي كان قد ذكرها سنايدر . وعندما قسمت الليل نصفين، وجدت أكثر من ٨٠٪ من أحلام النصف الأول منه كانت أحلاماً ترهات، مقارنة لها بمقدار فقط ٥٠٪ منها وهي التي حصلت في نصفه الثاني حيث كانت أحلاماً تعكس واقع الحالمين.

وهذه النتائج تعززها نتائج دراسات سابقة وبحوث أجريت من قبل وكلها تؤكد أن الأحلام تميل إلى أن تكون أكثر درامية وأبعد غرابة وأنها تحتوي على مادة حلمية طفلية كلما توالى الليل وتقدم. ولما كان اعتيادياً أننا لا نمكث مستيقظين طويلاً بعد يقظتنا في منتصف الليل لكي نسترجع أحلامنا، فمن المرجح أن معظم الأحلام المسترجعة تلقائياً إنها تنشأ من الفترة الطويلة الاستمرار من نوم REM التي تسبق يقظتنا صباحاً. فليس من غير المعقول، إذن، أن نفترض أيضاً، بأن فرويد كان كذلك يعمل بصدد ما يحدث لمرضاه من أحلام تلقائية مماثلة، مما حدا به إلى أن يرسي نظريته بصورة شمولية على أساس من الخبرات الليلية أكثر دراماتيكية وأشد انفعالية. والحق، فإن ما أبداه أصدقائي المحللون النفسانيون ممن قرأوا ما دونته من أحلام أشخاص تجاربي كانت ردود فعل تعبر عن أنها كانت في أغلبها أحلاماً باعثة على الملل الممض ـ وهي تعليقات لا تشجع كثيراً باحثة في الأحلام ما فتئت ماضية في سبيل ما هي عازمة عليه من كشف عن حقائق الأحلام، باحثة أمضت مئات الليالي دونما نوم من أجل جمع ما يمكن جمعه من مادة الأحلام.

الحلم (النموذجي)

ما تم التوصل إليه من أن أحلام المختبرات هي بكل وضوح أحلام تنقصها جوانب النشاط الجنسي والعدواني، وإنها أبعد من أن تشير إلى ما هناك من صراعات طفلية لا شعورية ـ هذه كلها قد حملت بعض المحللين

النفسانيين إلى شجب الأحلام المختبرية تلك معتبرين إياها تصرفاً تشويهياً ونتاجاً ملتوياً تم التأثير فيه على النشاط العقلي للنائم. وإن مثل هذا الرأي يستدعي ما المقصود تماماً وتحديداً بالحلم [الملتوي] أو غير النموذجي، وهو سؤال سنناقشه عما قليل، ولنسأل في هذه اللحظة، : هل بمقدور أي محلل نفساني الاعتقاد حقاً بأن ما تعكسه أحلام مرضاه من حياة يحيونها تستمر مستقرة لا تلوثها أية طوارىء في ظروفهم الخاصة من ظروف العلاقات العلاجية؟ ففي عملية التحليل، نتعلم بسرعة كيف نستأثر بانتباه المحلل أو كيف نستحوذ على استحسانه، أو على العكس من هذا، سرعان ما نتعلم كيف نعطل عمله ونوئسه، وذلك حينما ندرك ما طبيعة المعلومات التي تهمه وما هي المعلومات التي نريد إفشاءها إليه أو حجبها عنه، وإني لأذكر أنني في إحدى فترات التحليل التي مررت بها وفق الطريقة الفرويدية، لم يمض طويل وقت لأتبين أنه حينما ذكرت ونطقت بخبراتي الجنسية أحسست بحركة الكرسي الذي كان يجلس عليه المحلل خلفي والباعث على صرير كرسيه هو أنه كان كلما سمع شيئاً من الخبرات الجنسية يفيق من استذكاره فيدنو ليستمع أكثر. وكان بعدها يشجعني بعبارات التشجيع أكثر أتلقاها منه ويودعني بابتسامة عريضة. وأبان الوقت الذي كنت أخضع فيه للتحليل، وحتى كنت أضطر فيه إلى شيء من الاستحسان، كنت أجدني أمر بفترات من الأحلام كلها مفعمة بأحلام الجنس وبرموز الجنس، وعندما مررت بحالة من الحالات السلبية وحالات رد الفعل المناقضة واحتجت إلى تغيير في التحليل وفق الطريقة اليونجية (نسبة إلى يونج) وجدتني أجتاز مرحلة أحلام حافلة بالرموز السحرية القديمة ومليئة بالموضوعات الأسطورية.

الباحثون في الأحلام على وعي تام بما هناك من مصاعب تواجه الباحث عندما يريد الظفر بنموذج مناسب عن تقارير تخص الحلم (النموذجي)، نظراً لما هناك من عقبات تجبه ما يراد التوصل إليه من نتائج مجردة عن

التحيز.

والجواب لهذه المشكلات هو أن ليس ثمة شيء اسمه حلم (نموذجي). ما الأحلام إلا نتاج عمليات سيكولوجية معقدة التركيب تتأثر حتماً بما يكتنفها من ظروف حين يتم الحلم بها وتحت وطأتها وأن الأحلام (لا تشوه) بالمؤثرات المختبرية وما يحيطها من قلق وأنها لا تتأثر كذلك بالجو الخاص للوضع التحليلي الذي تتم فيه، وإنما هي - الأحلام - تتشكل بهذه العناصر وبما هناك من ظروف أخرى. إذ أننا حتى ونحن في البيت، فإننا لا نكون بمنحاة من مؤثرات كهذه تؤثر في حياة أحلامنا. فالنساء الحوامل مثلاً في الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحمل يحلمن بمرأى الأطفال أكثر من سائر النساء الأخريات، وإنني شخصياً وقت انتهاء علاقاتي الزوجية كانت كل أحلامي تتضمن موضوعات كلها تدل على الانفساح والخسران والانسلاخ. وحديثاً أوضح البرفسور (روبرت فان دي كاسل Robert Van De Castle من جامعة فرجينيا، وناقش في دراسات مسهبة، أن محتوى أحلام النساء إنما يتأثر كثيراً بدورة الطمث عندهن.

تتأثر الأحلام كذلك بما هناك من عوامل شخصية قائمة في ذهن الفرد. فقد كشفت التجارب، مثلاً، أن الأشخاص الذين يعانون من كآبة يحلمون بالأشياء الباعثة على الكآبة؛ وأن الأشخاص القلقين يحلمون بما يهدد شخصياتهم؛ وأن الشخصيات اللااجتماعية أو المريضة اجتماعياً تكون أحلامها محاقة بالمعوقات اجتماعياً وبما يحول دون نشاطها؛ ويحلم المحكومون بأحكام لإساءاتهم الجنسية المنحرفة، يحلمون بعلاقات جنسية غير مشروعة، أكثر من أي منا؛ وتكون أحلام المرضى الذهانيين مشبعة بموضوعات من الازدراء غير المبررة وإحساس بالاضطهاد والملاحقة لا أساس له؛ وإن أولئك الذين يعبرون عن نوازعهم ونزواتهم في الحياة الواعية صراحة يظهرون في أحلامهم نزعة عدوانية وجنسية أكثر مما يظهره أولئك الذين يكفون مثل هذه النزعات في حياة اليقظة.

فليس بمستغرب إذن أن تدور أحلام الأشخاص الذين تجري عليهم التجارب في المختبر، حول المختبر نفسه وبما يثيره فيهم من قلق. هذا وإن حوالي ثلث الأشخاص الذين كنت أجري عليهم تجارب تضمنت أحلامهم إشارات واضحة إلى ظروف التجربة، وأعتقد أنني قد اكتشفت إشارات رمزية لدى ثلث آخر منهم. والحلم الآتي هو حلم نموذجي يعبر تعبيراً واضحاً عن قلق ظاهري يتعلق بالتجربة:

[كنا نقوم بهذه التجربة. وكان هناك موقف ارتبط به منظر داخل المستشفى. أتذكر فيه أبواباً رمادية. كنت أراني وحيداً هنا، وكان عرضاً ثمة شخص آخر ـ وكنت أنت المجربة موجودة، وأظن شخصاً مجرباً آخر كان موجوداً هناك. وأن موقف الحلم كان يتألف أساساً منك وأنت تنادين علي، وأنا أرد عليك، لكنني كنت أراني في مكان غير المكان الذي كان يتعين علي أن أكون فيه أو كأنني كنت أجيب فيه على غير هدى، أو كأنني كنت أقوم بما يغيظك لأنني لم أستجب إليك في الوقت المناسب. استيقظت لأن أشياء غير مرضية قد طرأت أبان الحلم. كنت أحلم أنني قمت بخطأ ما. ولكن ما هو: لست أدري. وبدا لي أنني أحسست بعدم رضاك.]

فهذا الحلم يتضمن إشارات واضحة إلى الموقف التجريبي وإلي شخصياً. والحلم التالي رواه شخص آخر وهو حلم يصف نفس الموقف ولكن بصيغة أكثر تمويهاً.

[كنا في سيارة نجتاز جبالاً. وكنا ننوي صعود الجبل مباشرة دون اتباع الطريق المريح بالالتفاف حول الجبل. وكان معنا في السيارة أناس آخرون، وكان أحدهم، وهو معالج نفساني، يطل من فوق كتفي يوجه السائق إلى الطريق. وقد بدا لي أنه الموجه للرحلة ولمشروعها كلها وكان ينطق بألفاظ تنطوي على أشياء من استحسان لي. وكان عندي إحساس بأنك أنت كنت ذلك المعالج النفساني.]

وفي الوقت الذي أستطيع فيه الحدس بأن هذا الحلم يشير إلى التجربة

بشكل مباشر، وفيه رأى الحالم مواجهته رأساً إلى وجه الجبل، فأنني لم أكن متأكدة حقاً وتماماً لو لم يؤكد هو النقطة الأخيرة بأن الإشارة هي التجربة إياها. وإني في هذه التجارب لم أكن قد طلبت الربط بالحلم عناصر كان يمكن أن تسلمنا إلى ما هناك من قلق كامن يختص بالتجربة ذاتها. وأن الحلم التالي هو الآخر أشد تمويهاً، وهو بدوره أستطيع التخمين أنه يشير إلى التجربة كذلك وأن الشخص الحالم نفسه قد أكد ذلك.

ذكر الشخص الحالم:

[إنه منظر في الريف، وكان هناك عدد من الشواخص في الخلفية لذلك المنظر، وبدا لي أنه كان لدي وعاء مما يستعمل في المزرعة، وهو كبير وقد لاح لي وسخاً وكان يبدو أنه بحاجة إلى تنظيف. وقد ظهرتي أنت في الخلفية هناك وقد أرسلتي على بعض الناس ليتولوا تنظيفه. وجاء الرد من هؤلاء الناس أنهم جد مشغولين بحيث لا يتمكنون من توفير وقت وليس لديهم أي شخص فائض عن الحاجة ليقوم بالمهمة، فقلت أنا لك: لا تهتمي، أنا لها، أنا أتولى المهمة وأنجزها. وكان ثمة مجرى ماء جد كبير ينساب فيه ويتدفق ماء زلال وقد غمست فيه هذا الشيء ـ الأناء ـ ونظفته بفرشاة. ثم بدا لي، بعد ذلك، أن الليل قارب نهايته، وأنه كان يتعين علي أن أذهب إلى البيت.]

الجملة الأخيرة من حلمه تتيح لي المفتاح بأن ذلك الحلم كان حول التجربة. ومن هذا كان علي أن أنفذ ما يعنيه الوعاء بالنسبة إليه مما كان يسبب له كثيراً من الاهتمام. وكنت في الأيام المبكرة من عملي التجريبي قد طلبت إلى أشخاص تجاربي بأن أضع تحت أسرتهم آنية يستخدمونها توفر عليهم وقتاً للذهاب إلى بيت الراحة. وإن غالبيتهم العظمى قد وافقوا بكل سرور ورحبت باستجابتهم هذه فهي تغنيني عن تفكيك الأسلاك المربوطة بأجهزة التسجيل وإعادة ربطها في كل مرة تقتضيهم الحاجة الذهاب إلى الحمام، إلى جانب أنها توفر علي وعليهم وقتاً. وهذا الشخص بالذات كان

على المستوى الشعوري جد مستجيب إلى هذا الترتيب، لكنني أعتقد بأن الحلم قد كشف عما كان يساوره من قلق دفين حول المسألة هذه. فسرت الحلم بأن الأناء في المزرعة إنما يشير إلى الوعاء المتفق على استعماله بدلاً من الذهاب إلى الحمام، وخمنت أنه قد استعمله خلال الليل وأنه كان مشغول البال كيف يكون الموقف عندما أجد ذلك الوعاء ملوثاً في الصباح. ويشير الحلم كذلك إلى ما يدل على أنه كان يفكر بتنظيفه عند يقظته صباحاً قبل توجهه إلى داره. لست متأكدة عما إذا كان قد فعل كل ذلك، لكنني في اليوم التالي بعد مغادرته، وجدت ذلك الوعاء تماماً نظيفاً وفي داخله ترك قصاصة من الورق وعليها الكلمتان: [ها، ها!](٢).

وفي النهاية تجنبت فكرة استعمال الوعاء واستبعدتها نظراً إلى أن أعداداً متزايدة من أشخاص تجاربي راحوا يحلمون أكثر فأكثر بتلك الأوعية، وبمجاري المياه، وسواها، وأغلبها كانت مصحوبة بمشارع القلق. وأن خصومتي مع المحللين النفسانيين لا تنصب على قولهم بأن أحلاماً كهذه يمكن أن تهدينا إلى ما هو كامن هناك من صراعات من أيام الطفولة، طالما أن كثيراً منها من الواضح أنها هي حقاً كذلك، لكن إختصامي وإياهم يتصل بقولهم بأن التعبير الرمزي في الأحلام إنما هو تمويه يرمي إلى إخفاء مشاعر الحالم وأحاسيسه. إني بدوري أعتقد إذا كان شخص تجاربي يحلم بالمقعد وكأنه وعاء مزرعة فلديه سبب طيب أن يفعل هكذا، ففي مكان ما في خلفية ذهنه يقترن الاثنان اقتراناً لا انفصام له بعملية إرتباطية كانت قد احتلت حيزاً من عقله إبان حياته الواعية في اليقظة.

العقل الناطق (خلال الحلم)

لعل لدى الإنسان الاعتيادي فكرة ضئيلة عن النشاط العقلي الحاد المستمر والمتواصل في العقل وهو في حالة يقظته. والبحث في سيكولوجية

---

(٢) تعبير صوتي يدل على الاستخفاف والازدراء (المترجم).

الأدراك الحسي مثلاً قد أظهر أنه حتى الملاحظة الظاهرية البسيطةتكون مقدماً قد تغربلت تماماً وتم تمحيصها في حدود خبرتنا الماضية عن الموقف الذي لاحظناه، وتكون الغربلة هذه قد تمت بتأثير من خبراتنا الآنفة ومشاغلنا الحاضرة، ويكون هذا قد حصل حتى قبل إحساسنا بها. وكان الشاعر وليم بليك William Blake قد تكلم عن هذه الحقيقة حين قال [الإنسان المجنون لا يرى نفس الشجرة كما يراها الإنسان العاقل]. فإدراكي الحسي لشجرة ما مثلاً يتوقف على ما كنت قد كونته من مئات الخبرات عن أشجار سبقت لي رؤيتها في الماضي - منها مثلاً الشجرة في الحديقة الخلفية للبيت الذي أمضيت فيه طفولتي، والشجرة في الغابة حيث كنت واقفة في يوم فحاول صبي تقبيلي، والشجرة التي تسلقتها وسقطت من فوقها فأنكسرت ذراعي، وهكذا الحال. ويعتمد إدراكي كذلك على ما أنا عليه حالياً من مزاج ومن حالة وجدانية: فعندما أكون مفعمة بالمحبة وبالحب، فإن الشجرة التي اكترث لها عادة تكون حينئذ شجرة حافلة بالبهجة والحياة. إن إدراكاتنا المتباينة للشيء الواحد نفسه فيها، بطبيعة الحال، عناصر مشتركة تمكننا من أن تتواصل في أفكارنا فتلتقي أفكارنا هذه عندها، لكن إدراكاتنا هذه تتفاوت في التفصيلات وفقاً لخبراتنا الفردية الذاتية.

وفضلاً عن هذا، فما أن نرى شيئاً معيناً، أو نشهد حدثاً ما، أو تطرأ على أذهاننا فكرة محدودة، حتى تتوالى لدينا سلسلة من الأفكار تغدو تتحرك ولا يبدو ثمة رابط منطقي يصل بين حلقاتها. فحينما أنظر إلى شجرة مثلاً، واستذكر من جرائها شجرة الليلك في حديقة المنزل الذي قضيت فيه أيام طفولتي، فقد يقفز ذهني إلى صديقة لي من أيام الدراسة في المدرسة، اسمها ليلاً كارلتون، وإلى ذكريات أمضيناها أنا وإياها في مغاني يوركشاير(٣)، ولعلي أتذكر كذلك أولى نزواتي الجنسية، وهكذا. كل هذه

---

(٣) أسم مقاطعة في بريطانيا (المترجم)

الأحـداث يمكن أن تتـزامن وتتـوالى دونما معرفة واعية شعورية مني، ولعلها تظهـر فيـها بعـد على شكل تجـمعات غريبة أراها في حلم من أحلامي فتبدو ظـاهـريـا أحـداثـاً مـفككة كأنها لا رابطة تصل بين أطرافـهـا هذه. وبنفس الطريقـة يمكن أن يكون رد الفـعل عند شـخص التجربة حينما رأى في الحلم الـوعـاء الآنـف الـذكـر، إذ مـرت في عـقـله شـبـه الشـعـوري سلسلة من الارتـبـاطـات عـادت بـه إلى خـبرة المزرعـة، ولعلهـا خبرة قـد تكون وقـد لا تكون مـرتبطة مـبـاشرة بصـدمـة تدريبه إبان طفولته على كيفية الجلوس على الوعاء الخاص بقضاء حاجة الإفراغ.

ومما يجدر ذكـره هنا أيضاً، هو أن أحد أشخاص تجاربي كان قد استجاب إلى كلمـة (وعـاء) بطريقة أكثر تعقيداً نوعاً ما، مما يدل على أنها قد أثارت في ذهنه سلسلة مـتـواترة من عـدة أفكار كلهـا قـد تزامنت في عقله، ففي أحد أحـلامـه رأى، مـثـلاً، أن الشرطة قـد أغـارت على شـقـته وراحت تتحراها بحـثـاً عن مخدرات [حـشـيشة Cannabls]، وجـاء بـحـث الـشرطـة عن المخـدرات في شـقته أثر مكالمة هاتفية تلقتها بأن الحالم كان يخبيء كمية قليلة منهـا عنده. وذكـر أنه رأى أنه كـان في فـراشـه عندما اقتحمت امرأة شرطية عليـه غـرفـة نومـه، فـسحبت غطاء الفراش وألقته جانباً، ثم أعلنت بزهو وكبرياء: [ها قـد وجـدتها]. ثم مـضـت بتعنيفه بشدة وقوة، فما كان منه إزاء ذلك إلا أن يسـتـيقظ قلقاً وقد استبد به الشعور بالذنب. وأضاف الحالم بأن المرأة الشرطية بدت له أنها أنا.

أعتقد أن كلمة (وعـاء) حـالما ذكـرتها قد نشطت في ذهن شخص تجاربي ثلاث حلقـات من الأفكار في الأقل. فأولاً، ثمـة مـا كـان يسـاوره من قلق شـعـوري حـاضر بأن الوعـاء الممنوع قد تجده الشرطة؛ ثانياً، مخاوف طفولية لا شـعورية محتملة كانت في خفايا ذهنه، ومصدر مخاوفه تلك أن أمه، وهي رمـز للسلطة، قـد تعـاقبه في حالة التبول في فراشه؛ وثالثاً، هناك ما يساوره من قلق خـفي من أنني سأزعـجه بإيقاظه من نومه ولديه أحلام معماة خلال

عـملية التجربة. فالحلم يمكن أن يقال عنه بأنه تكثيف لثلاثة خطوط فكرية منفـصلة، فـيـه بدونا له ـ نحن الثـلاث ـ الشرطية وأمه وأنا، وكأننا شخص واحـد؛ وبدا له فـيـه المخـدرات، والوعـاء، والأحـلام، كلهـا بدت له شيئاً مـوضـوعـيـاً واحـداً؛ وظهـرت كـذلك غـارة الشرطة وتحرياتها، واستكشاف والدته، والتـجـربة هذه كلهـا ظهـرت له وكأنها نشـاط واحد. قد يوافق فرويد على فكرة أن سلسلة الأفكار كـانت قد بدأت خلال اليوم بكامله، فإنه في نفس الوقت قـد يصر على أن التكثـيف قـد تم أثناء النوم كـتـمويه لصبوات خبيثة بدت فظهرت في الحلم. وسنتاول هذا تفصيلاً في الفصل القادم.

بـوسـعـنا أن نتـعلم قـدراً كـبيراً عن النشـاط الارتبـاطي وذلك من خـلال إصـغـائنا إلى الأطفـال وهم يتحدثون إلى أنفسهم خلال لعبهم. فمثلاً، بينما كـان زوجي يكرر ويردد مع نفـسـه وبصـوت مـسـمـوع مـقطعاً معروفاً من مسرحـيـة هاملت Hamlet والـذي يـقـول فـيـه [وجـود أو لا وجـود..] سـمـعت طفلتي الصـغيرة في الطرف الآخـر من الغـرفـة تغـمغم مع نفسها [وجـود، وجـود النحلة، مـشـغـولة النحلة بصنع العسل.. نريد خبزاً وعسلاً وقت الشـاي.. تعـال يا دبي الصـغير تناول مـا تريد من خـبـز وعـسل مع الشـاي..] إن عـمليـات كـهـذه، وهي غـالباً ما يرددها أو تتردد في ألفاظ الأطفـال، إنما تتـوارد دائماً في أذهاننا لكنهـا يطغى عليـهـا مـا نحن مركزون عليـه وإليـه منصرفـون من مهمات في أيدينا أو ما يشغل أفكارنا من عمليات فكرية منطقـية تحاول باستمرار الإبقاء على نسق من الانتظام في مجرى حياتنا اليـومـيـة. وحين ينسـحب التنبيه الخارجي من مسرح الأحداث خلال النوم ويختـفـي المـنـطق الواعي، فإن سلسلة الأفكار المترابطة هذه يمكن أن تعلن عن نفسها جهاراً فتبدو في صيغة أحلام.

وإني لأتذكـر، مـثـلاً واحداً من أحلامي رأيت فيه صديقاً يدعى (كيكي) Kiki ناولني مـفـتـاحـاً وقال لي أنه يخص [تلك الشاحنة ذات اللون الخاكي Khaki الواقـفـة هناك]. وقـد وصف زميل لي الطريقة التي تفضي فيها مثل

هذه العمليات الارتباطية في الواقع في أحلام نراها خلال نومنا. كتب لي يقول: [بينما كنت أتحدر انسياباً مستغرقاً في نومي، رأيت تلك الكرات الملونة التي شاهدتها في فلم عصر هذا اليوم وهي تتدحرج باتجاهي. هذا المنظر ذكرني بلفائف rolls الشيكولاته وبدور role المرأة في المجتمع. والمرأة، بطبيعة الحال تهز وركها وهي تمشي، وسرعان ما وجدتني وجهاً لوجه، أمام ـ هـ ـ واقفة أمامي وإنها كانت تهز وركها بشكل يبعث على الإغواء. وهذا هو ما جعلني تواً أحلم حلماً جنسياً وأفكر بها وأنا في حلمي ذاك.] وفي مناسبة أخرى لاحظت أن ابنتي قد صفت باعتناء فوق الأرض وعاء يحتوي على الأصباغ، وتمثال (كرشنا) أحد آلهة الهندوس ـ ومكانه المعتاد على رف في غرفتها ـ وصورة لجدتها، صفت هذه الأصناف الثلاثة فوق الأرض جنباً إلى جنب. استوقفني المنظر هذا فرحت أتأمل وأتساءل: يا ترى، ما هو المنطق المحتمل وراء هذا التجميع الغريب؛ وبخاصة فإنها كانت جالسة أمام هذه الأشياء بخشوع وبانكسار وقد بدأت بكل جد ووقار تردد الترنيمة الدينية التي كانت قد تعلمتها من قبل وهي: هير [وتلفظها هاري] كرشنا ، هير كشرنا ، هير كرشنا، هير كرشنا ، هير راما، هير راما، هير راما، هير راما.

عند ذاك أدركت مقصدها، وهو أننا كل مرة كنا نغني تلك الترنيمة ونرددها سوية تومض أمام عين عقلها صورة (هاري) Harry صباغ بيتنا، وكرشنا، وتمثاله لديها، وجدتها، فتخيلتهم جميعاً جالسين في صف منتظم يرددن بوقار جاد أسماء بعضهم! ولئن مضى يوم دون أن تقوم بهذا الشيء نفسه، فإنها تتأمل وتتساءل عن غرابة الموقف. وهي إن لم تكن قد فعلت الشيء ذاته في يقظتها فما أكثر ما كانت تحدثني عن أحلام رأت نفسها فيها وهي تتولى ترتيب تجميع تلك الأشياء مكررة المهمة نفسها.

وبالمناسبة، فأي فرد حاول التأمل meditation والاستغراق، فإنه على بينة مما يكون عليه العقل من حديث في خلفيته متواصل لا يهدأ، فالعقل

يقـوم بذلك والشـخص ينوي محاولة إخـلاء عـقله مما يعكره من أفكار ضارة مـشـتـتـة وليـست منه في شيء. ثمة مثال آخر يعبر عن نوع من الارتباطات مـهـوش، يطلق عليه عادة، اسم [مدرسة الأحد] ذلك لأنه كما يبدو حدث بخـاصة عندما يتزامن غالباً مع إطلاق كلمات يتم ترديدها بشكل كلاسيكي تتضمن أسجاعاً معينة. فهي(٤)، بعـد عـودتها من الروضة عصر ذات يوم، ارتقت كـرسـاً كـان هناك، وراحت تنشـد بصـوت متهدج ترانيم عيد الميلاد ومنها:

بينا يحرس الرعاة هناك قطعانهم في بهمة الليل
وهي رابضـة في حظائرها، تتنزل ملائكة السماء

فـتـوقـفت فـجأة عن الإنشاد، والتفتت صوب حصان لها لعبة، وشرعت تخاطبـه، [مسكين يا حصاني الصغير ـ الملائكة تأتي لتأخذك إلى الله.] وبعد أن انتـهت من إنشادها الترنيمة عدة مرات، أدركت على التو أن [كل ما هو جـاثم على الأرض] قـد أصـبح يعني بالنسـبـة إليها [حصاناً ميتاً مرمياً فوق هذه الأرض]. فـمن الواضح دون ريب، إنها شهدت تلك الليلة وفي ذهنها يجول خليط غـريب جاءت به معها من مدرستها وما تعلمت فيها ذلك اليوم مـن تـرانـيم، ومـا تعلمت من تحكم في توازنها، ومـا كـانت قـد قـرأت من ترنيمات وارتبـاطات أخـرى مما نعلم وما لا نعلم، كلها مرتبطة برؤى بصرية عـن بـعـض الناس، اسـمـهم رعـاة الليل ومـلائكة الرحمة تنزلت من السماء لتـعـود حاملة معها حصانها النافق المسكين. إننا وإن كنا نطرح جانباً، كلما تقـدم بنا النمـو، مـثل هذه الإدراكـات الزائفة، لكنها تمكث ولا ريب قابعة في ظهـارة عـقـولنا لا تكف تفعل فعلها طول الوقت وهي ثاوية هناك، وإنها من المحتمل جداً أن تقوم بدور فعال في تكوين الأحلام.

وباجـتـزاء نقـول، حين تبـدأ المعـرفـة المتأتيـة من البـيئة بالتوقف وعندما يسترخي العـقل العـقـلاني فـلا يعـود مـسـيطراً وقت النوم، فإن جلبة النهار

(٤) تقـصد المؤلفة أبنتها (المترجم)

الكائنة في خلفيـة العـقل تتـصـدر فـتظهر بائنة، ولئن نحن استيقظنا، فإننا نظفـر ببـعـضها. وهي كلها تعكس ما كنا قد ألفناه خلال حياتنا الواعية من خـبرات ومـن ارتبـاطـات. وكـلـهـا تـنطوي على رغـبـات مكبـوتة وأخـرى مشروعـة لكننا مـا تسنى لنا الالتـفـات إليها وإرضاؤها. فبقيت تلح ملتمسة سبيلاً للتعبير عن نفسها فوجدت في الحلم خير متنفس لها.

التشبث بالفكرة :

هل مـا نراه يتراقص ليـلاً لذكـريات النهـار ومـا يرتبط بها، أية قـيمة لنا سـيكولوجيـة، إذ كنا غافلين عنها غير ملتفتين إليها إبان حياتنا الواعية؟ إذا كـان الأمـر بالإيجاب، فلعله من الأفضل إذن أن ندعها تأخذ سبيلها وتمضي في مـهـمـتـها دونها اعتياق، تماماً كما تفعل العفاريت في قصص الجن عندما تنظف البيـوت ليـلاً وقت الربيع، دون أن يراها أحـد وهي تؤدي مـهـمتها تلك.

هناك جماعـة من العمال تعتقد بهذا اعتقاد اليقين. فهم قد ذكروا أن الحلم يـمـكـن أن يكون مـشـابهاً لعـمليـات مـعـينة تجري عـادة في الحـاسـبـات الالكترونيـة. فـمن وقت لآخـر، هذه الآلات يحول سمارها ـ بعـبارة أخرى، تفـصل عن المهـمة التي تقوم بالتحكم فيها ـ بحيث أن ما تقوم به من برمجة يمكن تحـديثـها بين حين وآخر، ليؤخذ بنظر الاعتبار ما تم الاتفاق عليه من مـعـدل جديد للرواتب في أعمال معينة يؤدونها، أو لمواءمة ما حصل من تغير في قـوانين الضرائب.

وهـم (جماعـة العمال) مـثل هذا يقولون، إن دماغ الإنسان، كذلك والذي يعـتبر أشـد تعـقـيـداً وأكـثر حساسية من أية آلة حاسبة إلكترونية تم صنعها حـتى الآن، قـد طور (برامجه) الخـاصـةبه لمواجـهـة مـواقف الحـيـاة. وهذه تتـضـمن برامج لأعمال رتيـبـة أساسية كالمشي والأكل، وتشتمل على برامج لمعـالجة مشكلات في الحياة بسيطة مثل التهيؤ للعمل والاستعداد له، وبرامج

أخرى للتصدي لمواقف انفعالية معقدة كحالات التفاعل الاجتماعي والجنسي مع الآخرين. فالحياة اليومية إذن كل يوم تجبهنا بمشكلات جديدة تتطلب حلاً مما يضطرنا إلى أن نكيف برامجنا القديمة وأن نتعلم أساليب أخرى جديدة، وحين نلتقي بشخص له مظهر جذاب نجدنا نحور من أوقات فراغنا للتمتع بلقائه أكثر، أصحاب (نظريات الحاسبات ـ الكومبيوتر) Computer theories، في الأحلام يرون أننا نسجل المواقف الجديدة هذه خلال النهار ومن ثم، وبعد أن يستحوذ النوم على معظم الدماغ فينأى به عن النشاط، يروح عقلنا الحالم مستعرضاً ما كان حدث لنا في حياتنا الواعية فيوحد المعرفة الجديدة ويدمجها في برامج تكون جاهزة لليوم التالي. وفي ذات الوقت، فإن مقداراً كبيراً من ذكريات النهار، والتي لا علاقة لها بالأهداف البعيدة للكائن العضوي، يتم طردها واستبعادها، ولعل هذا يتم بواسطة تفريغ كهربائي يجري في الدماغ.

وتبعاً لوجهة النظر هذه، فإن الخبرات التي نسميها أحلاماً إن هي إلا ومضات لهذه المادة الجارية في أدمغتنا النائمة التي تتولى عملياتها الليلية في (غربلة المعرفة) information processing. بل إن الآراء لتتواتر مؤكدة بأن قصص أحلامنا إنما هي من مبتكرات عقلنا الواعي، الذي يحاول إضفاء نوع من المعنى والنظام على ما تنطوي عليه المعرفة التي اكتسبناها من أجزاء متناثرة فتتم غربلتها وتوحيدها في كل له معنى. وأخيراً، فما يذكر أنه حتى في حالة استيقظانا صدفة من نومنا إنما يعني اعتياق عملية فعالة كان ينبغي أن تبقى مستمرة إذا ما أريد لكفاءتنا العقلية أن تؤدي دورها كما يرتجى منها. فالحلم، يعتقد، بأنه نشاط حقيقي لغربلة المعرفة، وإن غرض النوم إنما هو إعطاء الفرصة لهذه العملية لكي تتم. فإن نحن حرمنا من فرصة (الحلم)، كما يقول أصحاب نظريات الحاسبات (الكومبيوتر)، فإننا في النهاية ننهار ذلك لأن برامج الدماغ الحالية لا يتاح لها التحديث في ضوء ما استجد من معرفة جديدة. وهذا بالضرورة يفضي إلى سوء التكيف،

والسلوك العصابي neurotic behaviour.

وفي الوقت الذي يكون فيه التشبيه بالحاسبة [الكومبيوتر] تشبيهاً مفيداً، فإنني أعتقد أنه لمن الخطأ التعويل عليه كثيراً واستنباط استنتاجات منه كثيرة. فقبل كل شيء، إن تكنولوجيا الحاسبات قد أصابت حظاً من التطور كبيراً وذلك مذ تمت صياغة النظرية هذه منذ عشرة أعوام خلت تقريباً. فالحاسبات الحديثة لم تعد بحاجة إلى أن يغير مسارها من أجل تحديث برامجها: إذ أن التحديث هذا يمكن أن يتم أثناء قيامها بأداء أغراض متعددة من مهامها. وإني لا أرى ثمة سبباً يحول دون قيام الدماغ بالشيء نفسه أيضاً، ومن الممكن أن كثيراً مما يجري في خلفية الدماغ من حديث وترديد سبق أن وصفته إنما يتألف تماماً من دمج المعرفة الجديدة بالبرامج القائمة الموجودة خلال الحياة الواعية. لهذا، ففي الوقت الذي يمكن أن يكون فيه العقل الحالم مشغولاً بتأمل عملية غربلة المعرفة، فإني ليساورني الشك عما إذا كانت هناك أية غربلة حقيقة تقوم بدور يذكر خلال النوم. إنه ليبدو من المرجح أن النائم يكون في حالة إعادة النظر واستعراض ما كان قد جرى في حياته اليومية وإن نوماً من نوع REM يتيح ظروفاً مواتية لما كان قد تمت غربلته ليزداد اندماجاً وتماسكاً ليتم الانتفاع به على نحو أكفأ. وفي الوقت الذي يكون فيه العقل، بعد الاستيقاظ من النوم، مشغولاً، في تملي المادة المسترجعة واستبانة تفاصيلها، فإني أعتقد أن معظم ما في أحلامنا من أوهام كانت قد نسجت خيوطها خلال سياق حياتنا اليومية.

وفي المقام الثاني، فإن تجارب الحرمان من نوع REM لم تتضمن من الشواهد ما يدل على أن الدماغ (غير الحالم) ينهار بسبب انعدام البرامج أو جراء برامج مخطوءة. وبطبيعة الحال، يمكن المماحكة بالقول بأن مقدار ما فرض من حرمان لم يكن كافياً لدفع الدماغ والضغط عليه إلى أقصى حدوده، لكن رأياً كهذا يجعل النظرية واهنة نوعاً ما.

من ناحية أخرى، فإن حيواتنا تتعرض إلى الأعطاب من غير شك، بصرف النظر عما ننعم به من نوم، وأن الأعطاب هذا مأتاه حقيقة أن سلوكنا إنما يستمد في الغالب ويستقى من (برامج) تم إرساؤها في عقولنا منذ أيام الطفولة وهي برامج قد عفّى عليها الزمن فأصبحت لا تتلاءم وظروف حياتنا ونحن كبار. لنضرب مثلاً فرويدياً قياسياً نوعاً ما. إن صبياً ينشأ في أحضان أم عصبية المزاج قد يتكون عنده خلال نشأته برنامج مزاجي يجعله يتحسس من خلال تعامله مع جميع النساء فيحسب بأنهن جميعاً بحاجة مستمرة إلى الاسترضاء والتهدئة، وأنّ هناك من الشواهد الشيء الكثير مما يكشف عن أن لقاءاته اللاحقة بالنساء اللواتي يختلفن تماماً عما كان قد كونه من انطباع مسبق، قلما تقلل مما سبق أن تكون لديه من برنامج يوم كان طفلاً. فهو لذلك يستمر طيلة حياته في رد الفعل الطفولي إزاء النساء فيحسب بأنهن جميعاً بحاجة مستمرة إلى الاسترضاء والتهدئة، فهو لذلك يستمر طيلة حياته في رد الفعل الطفولي إزاء النساء وتستمر استجابته نحوهن على هذا النحو. أن برامج الطفولة المبكرة كهذه يمكن تشبيهها بالبرامج الأساسية التي يتم تلقيم الحاسبة (الكومبيوتر) بها بعدما يتم تصنيعها في المصنع، فلا يكون التغيير هنا مسألة روتينية تخص الصياغة الليلية لها وإنما مجهود أساسي ورئيسي يتناول إعادة البرمجة، يمتد المجهود هذا أياماً عديدة أو أسابيع كثيرة، أو أشهراً مستمرة، بل أعواماً حتى.

والخطوة الأولى في البحث عن برامج مدثورة كهذه ترجع إلى أيام الطفولة، ومحاولة تغييرها تتطلب أن نكون على بينة منها وأن نتبين كيف هي تقرر سلوكنا. وكما سأوضح تالياً، فإن خبرتي تتيح دليلاً، يبدو لي أنه دليل لا يدحض وهو أن ما يستذكر من أحلام يمكن أن تمكننا من التحقق من هذا. وإنها ـ أحلامنا ـ أحياناً يمكن أن توحي بأنماط سلوكية جديدة أكثر مواءمة للموقف الراهن. والدور الإلهامي للأحلام هذا قد لا يعدو كونه أكثر من مواءمة للموقف الراهن. والدور الإلهامي للأحلام هذا قد لا

يعدو كونه أكثر من نتاج جانبي إذا ما نظرنا إليها من زاوية العمليات البيولوجية في الدماغ، لكنني لعلى يقين من أن قيمتها الإيجابية في حياة الإنسان ترجح كثيراً على أية مؤثرات مباشرة صغرى يحتمل أن تحصل عرضاً في يوم ما نتيجة لنوم متقطع مضطرب. بهذا الاعتبار، يبدو لي أن أصحاب نظريات الحاسبة والقائلين بتلك النظريات إنما يستمدون استنتاجات وهمية عندما يلجأون إلى التشبيه بطريقة جد محدودة من غير ما ضرورة. أنا لا أنكر ما في الحكمة الشعبية من مغزى إذ تقول أنه في الحق لما يساعدنا على حل مشكلاتنا إذ [تنام هي في أذهاننا نقلبها على وجوهها]. فمجرد إحياء مشاغلنا اليومية في عقولنا ومعايشة صداها في خلفياتنا العقلية يمكن أن يكون لهذا كله تأثير تطهيري [تنفيس] -Cathar tic effect مماثل لما يتحقق عندما تتحدث عن مشكلة تقصها على مستمع مجهول. وهنا مرة أخرى يبدو لي أنه من المرجح أننا حين نستيقظ ونحن نحس بأننا التقينا وما تتطلبه المشلكة من حل، فإن الحل هذا إنما كان مسبقاً في ظهار عقولنا خلال اليوم كنا نجيله في أذهاننا، لكن ما هنالك من تهويشات خارجية قد منعتنا فحالت دون وعينا به. ثمة اكتشافات واختراعات جمة قد تكشفت تحت مجهر الضوء وليس بالضرورة في حلم من الأحلام [وإن كان بعضها قد تحقق بواسطة الأحلام فعلاً]، ولكنها استبانت بعدما استرخى العقل الشعوري مما أتاح للهمس الداخلي أن يسمع نداء نفسه. أعتقد بأن الترداد هذا هو مصدر كثير من النشاط الإبداعي، إذ يتسنى خلال الأرتباطات والتداعيات والأفكار الانتشار على امتداد العقل فتلتحم بسلاسل الأفكار والأحاسيس الوجدانية الجديدة. وبهذه الطريقة تتكون ارتباطات جديدة غير متوقعة، مضفية بذلك على الأفكار القديمة معان جديدة. وما المجاز، والتعمية، والتورية، وتطابق المعاني، والاستعارة، ما هذه كافة إلا لغة يستعملها العقل الهامس إلى نفسه بقصد ابتداع صيغ جديدة في الحياة العقلية، وما الحلم من هذه كلها إلا جانب

واحد فقط.

إن مسألة ما يحققه الحلم من وظائف عندما نترك وشأننا من غير إزعاج، يمكن حلها فقط بما سيتم في المستقبل من بحوث وإن ما أنا مقتنعة به هو أن ما نسترجعه من أحلام تتيح لنا معرفة قيّمة حول أنفسنا. وأن التحدث بمشكلاتنا إلى مستمع مجهول تماماً لهي على وجه الإجمال طريقة أقل عوناً لنا مما لو تحدثنا بها إلى شخص معين بمقدوره أن يطبق عليها ذكاءه بشكل شعوري. وبطريقة مماثلة، فإننا بحاجة إلى استخدام عقولنا الواعية إن نحن شئنا الانتفاع بما تنطوي عليه أحلامنا إلى أقصاها: وذلك باستحضارها إلى حلبة الوعي الشعوري وبتعلمنا فهمها كما ينبغي يمكن أن يؤدي بنا هذا إلى إعادة تقييم نمط وجودنا ككل.



القسم الثاني

رواد في مجال الأحلام



الفصل السادس

رواد في مجال الأحلام

انطلق فرويد في عمله الرائد في توجيه الانتباه إلى الأحلام بوصفها تنطوي على دلائل تشير إلى الصراعات الداخلية، انطلق من علمه في العلاج النفسي في الغرفة الاستشارية، وما يترتب على ذلك فيما بعد من طريقة خاصة به في تفسير الأحلام أصبحت غاية في التخصص. إذا كان حلم ما، كما اعتقد هو، يعبر أساساً بشكل تمويهي عما يجري تحت سطح العقل، فآخر شخص يكون بمقدوره فهم معناه هو الحالم نفسه. اعتقد فرويد أن العقل النائم يلجأ إلى بطارية كاملة من مكنيات نفسية تغلف الرغبات اللاشعورية في صيغ تمنع الحالم من أن يعي طبيعتها الحقيقية. فلكي تحل معنى الحلم إذن فالأمر يتطلب، كما حسب هو، ليس فقط معرفة خبير عارف بهذه المكنيات، بل إنه ليقتضي كذلك محللاً نفسانياً مستقلاً عن الحالم. يمكنه التغلب على ما لدى الحالم من مقاومة نفسية تمنعه من رؤية الحقيقة.

وفي الوقت الذي لا يكون ثمة شك في أن الأحلام تعبر عن نفسها بلغة غريبة غامضة تختلف تمام الاختلاف عن الحياة الواعية، فإنه لا توجد هناك، كما سنرى فيما بعد، أسس واقعية يرتكن إليها في اعتبار هذه التحولات تمويهات تضليلية. إن هدف فرويد الكلي، وإن كان هدفاً علمياً في منحاه، فمما لا شك فيه أن النظرية التمويهية التي جاء بها إنما تسلم في الغالب إلى تفسيرات ذات نكهة لها خفايا الحدس والظن بدلاً من نكهة العلم. ورغم هذا، فإنه لشيء أساسي أن نمحص نظريته في تفسير الأحلام تمحيصاً مفصلاً ذلك لأن آراء كثيرة اشتقت منها فأصبحت جزء مما لدينا من فلكلور شعبي. أضف إلى هذا، فإن ما وصفه من مكنيات عن انتقال

الحلم إنما هي مكنيات حاصلة من غير شك، وباستطاعتنا أن نكتسب منه كثيراً من التبصرات النافعة بشأن صورة لغة الأحلام.

نظرية فرويد عن التمويه والتخفي في الأحلام

صاغ فرويد أربع طرائق رئيسية بها يتحول محتوى الحلم الكامن المؤلفة من رغبات لا شعورية مكبوتة، يتحول إلى حلم (ظاهر) manifest، وهو ما نتذكره عند اليقظة. وهو قد اسمى هذه العمليات: التكثيف Con-densation، الأبدال displacement، الترميز Symbolization، والصياغة الثانوية Secondary revision، وهذه كلها يوضحها المثال التالي وهو ما عرض لي خلال خضوعي للتحليل على الطريقة الفرويدية.

أنا مستلقية على أريكة المحلل أقص عليه حلماً رأيته. أروي له أنني كنت أراني محلقة، تغمرني السعادة، في إبهاء مسرح، أحلق ويدي بيد رجل يشبه منوم مغناطيسي هو زميل لي، ولاحظت بشيء من الدهشة أنه يرتدي ربطة عنق فراشية الشكل [بشكل فراشة] وهذا خلاف ما هو مألوف منه. داخلني إحساس بأن المسرح يعود إليه وأنه كان يطوفني في أرجائه. والكراسي والمقاعد هناك كانت تجلس عليها أشكال تذكرني بتماثيل الشمع، ولكن ما أن أدنو منها، حتى أتعرف فيها على وجوه كثيرة منها عرفتها من أيام طفولتي. إننا ـ أنا وزميلي ـ كنا نحييهم كلما اقتربنا من أي منهم. إني وإن لم أكن خائفة من التحليق بذلك الارتفاع عن الأرض، فإني أجد نفسي لعلة لا أدريها بأنني قلقة على الناس الجالسين في مقاعد شرفة المسرح من أن تهوى بهم الشرفة، فاستيقظ فألاحظ بأن التركيب الداخلي للمسرح بأكمله يبدو واهناً للغاية وإنه غير مأمون.

كان محللي يصغي بصبر وأناة، لكنه نسبياً لم يكن مهتماً بوصفي لمنظر المسرح ولم يكن مكترثاً قط لقدرتي على التحليق. والقصة كما رويتها لم تكن بالنسبة إليه أكثر من مجرد (المحتوى الظاهر) للحلم، والمحتوى الظاهر هذا

هو غطاء لا ضرر منه يغلف الرغبات المكبوتة العارمة المكونة (للمحتوى الكامن). ومهمته كانت، كما يحسبها هو، تقتصر على حل رموز الشيفرة وتعرية ما ينطوي عليه عقلي اللاشعوري من رسالة لها معناها. لذا فهو يطلب إلي أن أشرع بالتداعي الحر في الحلم وأن أذكر دونما تلكؤ أي عنصر يطرأ على ذهني من الحلم وإن أربط بين عناصره تلك. كان علي أن أسترخي وأن أدع عقلي يتجول في أروقة المسارح، وأن يذهب بعيداً إلى المنومين المغناطيسين، وإلى أربطة العنق المماثلة لفراشات، وهكذا، وأن أقول أي شيء يرد إلى ذهني، مهما كان غريباً.

وقد يتوارد إلى ذهن المحلل النفساني، أثناء إصغائه، عدد من الأفكار العامة عما تعنيه مثل هذه الأنشطة والفعاليات كالعوم والتحليق مثلاً، وذلك أساساً على ما تراكم لديه من خبرات تجمعت عنده في غرفة الاستشارة، لكنه يحاول أيضاً أن يؤالف في ذهنه ما قد يريده بطريقته الخاصة. ولقد كتب فرويد يقول:

[يجب على المحلل النفسي أن يوجه الشعور عنده بوصفه عضواً مسلماً إلى اللاشعور المرسل عند المريض. على المحلل أن يكيف نفسه إلى المريض تماماً كما تم تكييف سماعة الهاتف لالتقاط أصغر الموجات الصوتية. فكما أن السماعة تحول الذبذبات الكهربائية المرسلة في خط الهاتف إلى موجات صوتية، فكذلك هي الحال يجب أن يكون اللاشعور عند الطبيب.. أي عليه أن يعيد بناء اللاشعور لدى المريض.]

وبعبارة أخرى، فإن العملية التفسيرية إنما هي عملية إلهامية وغالباً ما يشار إليها بأنها عملية الإصغاء بالأذن الثالثة. [للأسف، إن كثيراً من المحللين النفسانيين لم يطوروا هذه الموهبة في أنفسهم وقد عولوا في تفسيراتهم على أفكار ونظريات مسبقة كانوا قد تلقوها إبان سياق تدربهم على التحليل.]

ومما ارتبط في حلمي واقترن به، أن البهو الذي كنت أحلق فيه يقرب

من ذهني فكرة بهو المتوحشين المتشردين Seveges، وإني إذ أرى شخوصاً مروا علي في الماضي يذكرني بالموقف التحليلي الذي يعيش فيه المرء من جديد كثيراً من خبرات طفولته المنسية منذ عهد بعيد. وأن التحليق هكذا يستحضر في الذهن نتفاً من أغنية ألمانية قديمة ترجمتها:

[نرقص معاً في أجواء المساء،
حباً نرقص في سابع سماء
رقصة التطراب من أجل الهناء]

وهنا أتوقف بفعل الإحراج حالما أدركت أن رفيقي في رحلة التحليق في أجواء الفضاء إنما هو محللي وحالما وجدتني أنظر إليه مبتئساً زاعقاً. ولقد كنت كذلك جد مبتئسة إذ استكشف أن عقلي الواقعي اللاعاطفي الأعتيادي وقد راح سراً يتغنى بمل هذه التفاهات الرومانتيكية!

استكمالاً لما لدي من ارتباطات وتداعيات، فقد تم تذكيري بأنني في جلسة سابقة كنت قد اتهمت محللي بتنويمي مغناطيسيا لتقبل أفكاره وقيمه - وهذا تعزيز آخر للحقيقة القائلة بأن المنوم المصاحب في حلمي هو محللي. ولمالم يكن أي منهما يرتدي ربطة عنق بشكل فراشة، أطلقت العنان لفكري يجوب في الآفاق حتى ومضت أمام بصيرتي صورة لصديق لي قديم،واسمه (جم سافيج) والذي كثيراً ما كنا نغيظه لارتدائه ربطة عنق فراشية الشكل مبهرجة. وأتذكر كذلك أنه كثيراً ما كان صديقي هذا يغاظ على أساس اسمه (والذي يعني متوحش)، وهو تماماً خلاف طبيعته المهذبة. وكلمة (متوحش) توحي لي بالفظاظة والجنسية البدائية، وهذا ما يعطي محللي مؤشراً آخر على ما ينطوي عليه الحلم في تضاعيفه.

على أن كل هذا بالنسبة إلى محللي إن هو إلا الخطوة الأولى باتجاه تفسير الحلم، ذلك لأن ما يسعى إليه حقاً لا يكمن فيما هو كائن من رغبة لا شعورية حاضرة، بل هو يبحث عن رغبة لا شعورية غابرة. وإن أحد اكتشافات فرويد المهمة كان يقضي بأن الأحلام التي تشير إلى المحلل إنما

هي إعـادة صيـاغـة لرغـبات راسخة ضاربة في القدم ترجع في بواكيرها إلى أيام الطفـولة حين اقترنت بعض خبراتها بشـخص آنذاك. وقد سمى الطريقة التي يسـقط فـيهـا المريض رغـبـاته وأحـاسـيسه الوجدانية هذه على شخص المحلل، (النقل) أو التـحويل transference، وقـد وجـد في هـذا أسلوباً فـنيـاً ذا قـيـمـة في الكشف عن أنماط السلوك العـصـابي التي تبنى في بواكير الحياة عند الفرد.

لهذا، فـفي هذه المرحلة من مراحل تداعياتي الحرة، خلص محللي إلى رأي مـؤداه، إن أحـاسيسي الجنسية إزاءه إنما ترتبط في حقيقتها بشخص في ماضي حـيـاتي، لـعله والدي، ولعله أخي، وقـد يكون شـخـصـاً آخـر من أفـراد العـائلة. والحق، فإن تداعـياتي تأخذني من موقف التحليق في الحلم فتنقلني إلى الماضي إلى لعبة اعتدنا أن نلعبها أنا وأخي أيام كنا صغيرين، إذ كنا نعلو كـرسـيين كـبيرين مـوضـوعين على جانبي فراش كبير فنقفز من فوقهما باتجاه بعـضنا، فـيـحـتـضن كل منا الآخـر في الهواء، ومن ثم نهوي فوق الفراش فنروح نتـدحـرج الواحـد فـوق الآخـر على حشية السرير الكبير ذاك. ومثل هذه اللعـبـة قـد تكون قد أوحت لمحللي أنها تمثل لدي رغبات جنسية قديمة مكبـوتة آن أوانها لكي تجـد لنفـسـها متنفساً بشكل تمويهي. وهذا هو المعنى (الكامن) في الحلم، حسب نظرية فرويد.

فـالحلم، أولاً، لا يشير إشـارة مـبـاشرة إلى محللي، مـثـلاً، أو إلى أخي، فـمـصـاحـبي، بدلاً من ذلك، هو صاحب بهو (المتشردين) وهو يشبه زميلاً منومـاً أعـرفـه يرتدي ربطة عنق فـراشـية. فهذه التوليفة المكونة من شخص المـتـشرد، ومـن المـنوم، ومن المتـوحش، وهي توليـفـة تبين بواسطة التـداعي الحـر أنها مؤلفة من المحلل وأخي، إنما هي نتيجة لما أسماه فرويد (التكثيف) في الحلم، وهو مكنيـة تمويهيـة خـاصـة بواسطتها تتكثف فكرتان أو أكثر في الحلم فـتـتحول إلى صورة image واحـدة أو فكرة مـفـردة واحدة تتجلى في الحلم الظاهر. لا شك أن مـثل هذه المكنيـة مـوجودة قائمة في الحياة الواعية

مثلما هي قائمة في الأحلام، لكنني أرى أنها أبعد ما تكون عن الرغبات اللاشعورية التمويهية، إنها ـ المكنية ـ تعمل على توضيح الأحلام إلى أقصى حد ممكن.

المكنية التمويهية الثانية التي قال بها فرويد، هي (الأحلال) displace-ment أو الأبدال، ويمكن أن يتخذ هذا عدة صيغ مختلفة في الأحلام. فإن انفعالاً معيناً في موقف معين مثلاً، يمكن أن يتبدل إلى موقف آخر، وذلك من أجل أبعاد انتباه الحالم وتحويل انتباهه هذا إلى شيء آخر غير موضوع أحاسيسه الحقيقي. ففي ما رأيت من حلم حلقت فيه، ارتأى محللي أنني قد حولت قلقي المتعلق برغبتي الجنسية، والذي رأيته على شكل (سقوط) من عالم الفضيلة، حولته إلى أناس في الشرفة، أحسست في الحلم أنهم كانوا في خطر يوشكون أن يسقطوا لأن المسرح كان غير مأمون.

يقتبس فرويد لهذا الغرض حلماً تحول فيه الأبدال في الأحساس إلى موقف عكسي تماماً. ذكر فيه كيف أن أحد مرضاه قد روى له أنه استيقظ من نومه ليلاً يضحك، ومع هذا كان بائساً وكئيباً في اليوم الذي تلاه. ولقد قادت تداعياته في الحلم إلى أفكار كامنة تمثل العجز والموت ـ أفكار كانت تراوده ـ فاستخلص فرويد أن الضحك في الحلم كان أمراً معاكساً للتنهدات والبكاء الذي أحسه حقاً عندما كان يفكر بأنه ينحدر من مسرح الحياة. وذكر كذلك أنه قد يكون ضحكة كبح كامل لإحساس معين ينطوي عليه الحلم ـ كما يحدث مثلاً عندما نقف موقفاً خلواً من التعاطف إزاء كارثة فاجعة يقع فيها شخص محبوب. اعتقد فرويد أن كلاً من العكس والكبح في الانفعال إنما هما مكنيتان تمويهيتان تستخدمان لتضليل الحالم وتخريب محاولات أساليب التفسير.

اعتقد محللي أنه اكتشف المكنية العكسية الكامنة في أحلامي. ففيها ـ المكنية العكسية ـ كانت المشرفة على دراستي قد انتقدتني لعدم دقتي، وإن لم يكن معها حق في ما وجهته إلي من نقد في الحياة الواعية. فأدت

تداعـيـاتي إلى حقيقة مفادها إنني كنت أحس بانتقادها ولومها في قرارة نفسي وذلك لعـدم إيلائهـا إياي اهتماماً كافياً. وقد اقترح محللي، إن حلمي هذا في أعـمق مـسـتـوياته يشير في الحـقيقة إلى والدتي التي أحسست أنها لم تمنحني مزيداً من محبتها لي.

اعتقد فرويد أيضاً أننا أحياناً نحول قلقنا من منطقة الأعضاء الجنسية إلى أعضاء أخرى من جسمنا. فشخص يعاني من قلق الخصاء مثلاً، قد يتحول قلقـه هذا إلى مخاوف يخشى منهـا أذى يصـيب أنفه أو أذنه، ولعله يحلم بأنّ له لحـية في وقت كان عقله في الواقع مثبتاً في تفكيره على شعر العانة. وحينما حلمت بسمكة تدخل أذني، فسر محللي هذا برغبة مني في الاتصال الجنسي، وذلك رغم الحـقـيـقـة التي أفـضت إليـهـا تداعـيـاتي التي ترتبط بمسرحـيـة (هاملت)، التي قـتل فـيها الملك بواسطة صب السم في أذنه. وأنه أحساسي الخـاص الذاهب إلى أنني كنت مـعرضة إلى التسميم من جانب محللي وذلك بتـفـسيراته التي أتلقـاها منه بأذني فـاسـمعها كما يقول بها، لم يكن إحساسي هذا ذا بال ولا بذي خطر.

ويتـعين علينا أن نتـذكـر كـذلك، كما قال فرويد، إن من وسائل تشويه الحلم العامة تتألف من تمثيل نتائج سلسلة الأفكار الحاصلة في بداية الحلم، ومن نقطة انطلاقـه في نهايته. وقد كتب في النهاية يقول:

[لئن أحـجم الحلم أو تعـذر في الكشف عن مـعناه، فإنه لمن المجدي أن نتبين النتـيـجـة المفـضية إلى إبراز معكوس بعض العناصر الخاصة في محتواه الظاهر، الذي تتـجلى في أعـقـابه كل مـا في الموقف غـالبـاً من ظواهر فتبدو جليـة واضحة على نحو مباشر.]

فإن أنا حلمت، مثلاً، برئيس أنه قد أكثر على جسمه من الرداء، فمعنى هذا أن لدي رغـبـة مكبـوتة في أن أراه مـعـرى، وأن أنا حلمت بأبي يغـازل والدتي، فمعنى ذلك أنني كنت أتمنى أن يبعدها عنه.

عند هذا الحـد، تصـبح مـسألة التـحـويل في الحلم بجـملتها، كما يراها

فـرويد، مـسألة باعـثـة على السخرية، إذ أنها تفسح المجال لأن تضفي على الحلم أي مـعنى نراه. إذ أن الفكرة الذاهبة إلى أن الحلم يمكن أن يشير إلى أي مـعنى أو مـا هو بالضد من هذا المعنى، إنما هي فكرة تحيل أي علم من الـعلوم إلى مـسـخـرة، ومع هذا فإننا نجـد المحللين النفـسـانيين مـا برحـوا يحاولون الادعـاء بفلسـفة [طرة أنا الرابح، كتابة أنت الخاسر] ويحسبونها من العلم شـيئاً. وثمـة مـبـدأ أسـاسي في أي علم من العلوم فـحواه أن النظرية التي لا يمكن أن تناقض وتدحض فـهي حـقـاً ليـست بالنظرية البـتـة. وفي الوقت الذي أقضي فـيـه بأن بعض ضروب التـحويل تحصل في الأحلام تماماً كما تحـصل في الحـيـاة الواعـيـة، فإنني اختلف تمام الاختلاف مع وجهة نظر فـرويد الرامـيـة لى أن التـحويل إنما هو وسيلة خداع مباشرة تطرأ في العقل النائم غـايتها تضليلنا. فقد ألفنا مثلاً أن نرى رجلاً يرفس كلباً يعترضه وهو يفـعل ذلك تنفـيـسـاً عن شـحنة انفـعالية تراكمت عنده بعد ساعات عمل مـضنيـة في دائرته، وليس ثمـة مـا يحول دون تحول انفعال كهذا وظهوره في الحلم. وبالمثل، فإن ابنتي حينما تكسو دبها المخملي بلباس ساتر وبحفاظات مـثلما يحصل لها بالذات لدى ترطيـبـها ملابسها الداخلية، فهي لعلها تفعل ذلك محاولة منها لإبعاد ما يلحق بها من قلق أحدثه أنا لها.

فـيـمـكـن، إذن، أن يـكـون محللي على صـواب عندمـا عـزا إلى تحـويل إحـسـاسي بالقلق جراء الناس الجالسين في الشرفة المتداعية الواردة في حلمي الذي رأيت فـيـه نفسي محلقـة، أرى أن هناك تفـسيراً أبسط وأكـثر عقلانية. ذلك أنني بعـد أن ترسخ في ذهني بأن المسرح يمثل غرفة الاستشارة ويرمز إليـهـا وفـيـهـا قـد تم بعث لأشكال وأشـخـاص ترجع إلى أيام الطفـولة، فـالحـقـيـقة تكمن في أني جعلت أنظر إليها إنها ليست مأمونة بل إنها وسيلة خطيرة فأحـسـست بأن التحليل قد يكون عملية تنطوي على مجازفة قد تنهار فـيها كثير من أيقونات الطفولة فتهوي من مكانها الرفيع في خيالي، إلى واقع منظور إليها فيه بعين القتامة، فالقلق في هذه الحالة إنما هو في مكانه الحقيقي

حيث هو، ولا داعي لاستحضار مفهوم التحويل والأبدال لتفسير هذا الجزء من الحلم.

وبالمثل، فإني أعتقد بأن الحلم الذي رأيت فيه المشرفة على دراستي كانت تعتقد أن عملي إنما كان تماماً على وجهه كما هو ـ ذلك أنني كانت لدي إحساسات ذهانية أشعر معها بعدم الطمأنينة إلى قدراتي التي تأدت بي إلى أنني أحس بأن ما أقوم به ليس بجيد إلى حد يكفي. وحقيقة ما أدت إليه تداعياتي الحرة بأنني كنت أنتقدها لم تكن حقيقة مفاجئة طالما أنني كنت أشعر بأنني كنت مهملة من جانبها وإنها لم تكن لتهتم بي بين حين وآخر. وسواء أكان الإحساس هذا له ما يبرره، فإنه لأمر مطروح للتحليل، لكنه على أية حال من غير المرجح أن تكون له أدنى صلة بالتحويل أو الأبدال.

فحينما تحدث التحويلات، يقول فرويد، فإنها تجبه عقلنا الواعي في الغالب، وإن عقلنا لهذا يحاول إضفاء معنى على الحلم وذلك باجراء عمليات يطلق عليها الصياغة الثانية Secondary Revision وهذا هو الميل الطبيعي من جانب الحالم اذ هو يحاول ان يجعل لما يرى من حلم معنى مقبولا، بعد استيقاظه من نومه. لهذا فهو ـ فرويد ـ قد كتب يقول:

(ان من طبيعة عقلنا الواعي ان يرى قواعد مادة معينة من ذات نوعها، فهو يوطد دعائم ما بينها من علاقات وان يجعلها متساوقة مع ما ترمي اليه من تطلعات على نحو كلي واضح).

ولقد وصف (هافلوك اليس) Havelock Ellis الانجليزي المتحمس للأحلام، وقد عاصر فرويد، وصف الموقف على نحو اكثر شفافية، اذ كتب يقول بشأن الصياغة الثانية:

(بوسعنا ان نتصور الشعور النائم يحدث نفسه قائلا: ها قد قدم سيدنا: الشعور اليقظ الواعي، وهو الذي يتولى أهمية بالغة في العقل والمنطق وسواهما. هيا تعجل! أجمع الأشياء بسرعة. رتبها ـ رتبها على اية صورة كانت، فانها تؤدي الغرض ـ هيا رتبها قبل ان يدخل ويتسلم المسؤولية).

واني لمتيقنة بأن قسطا معينا من الصياغة الثانية تأخذ دورها في الأحلام، لكنني لا أرى فيه ثمة أي سبب يدعونا لوصف العملية بأنها اكثر تمويها من التكثيف والتحويل.

والطريقة الرابعة والأكثر أهمية التي اعتقد فرويد بأن الرغبات الكامنة التي تظهر فيها على صورة تمويه في الأحلام هي طريقة الترميز Symbolization، وهي عملية يتمثل فيها شيء محدد، او فكرة معينة كائنة في المحتوى الكامن. فيستعاض عنها بشيء او بفكرة. فتبدو ماثلة في الحلم الظاهر. وقد كتب فرويد يقول:

[لعل الترميز أو الرمزية تمثل أهم فصل متميز في نظرية الأحلام. هذا وإن قسطاً كبيراً من أدبيات التحليل النفسي مكرس إليها ـ الرمزية.]

الرمزية في الأحلام من وجهة نظر فرويد

نظراً إلى أن فرويد كان يعتقد بأن أبرز القوى الحافزة للأحلام هي رغبات جنسية طفلية دفينة؛ لهذا فهو قد وجه جل اهتمامه إلى قدرة العقل لأن يلتمس له ما يعوض عن مظاهر الأعضاء الجنسية والنشاطات الجنسية عامة. فهو بمراقبته وملاحظته لتداعيات مرضاه، خلص إلى أن أي شيء مستطيل مدبب تقريباً إنما يرمز في الحلم إلى القضيب ـ كالعصي والمظلات، والأعمدة والأبراج العالية، والأشجار، والموز، وأشباه هذه كافة مما لا حصر لها. وهو كذلك وجد نفس النوع من الرمزية القضيبية في الأحلام، في الأشياء التي تكون ذات وظيفة اختراقية، مثل الخناجر، والمدي (السكاكين)، والرماح، والأسلحة النارية الصغيرة، ووجد الرمزية الجنسية أيضاً في الأشياء التي ينصب منها الماء كالنافورات، ومضخات الماء [المرشات]، والحنفيات.

وهو اعتقد كذلك بأن الأعضاء الجنسية الأنثوية يرمز إليها في الأحلام بالأشياء المستدير والأوعية بوجه عام، كالحفر، والتجاويف، والأواني،

والصناديق، وصناديق حفظ الثياب أو الأسفاط، والبوابات الكبيرة، والجيوب، وهلم جرا، وكذلك تسلك في هذا الجانب الأبواب والبوابات الكبيرة، في حين ارتأى إن الخزانات Cupboards، والغرف، والمواقد ترمز إلى الرحم بخاصة. وانتهى إلى القول بأن الأحلام التي يرى فيها النائم نفسه في حالة اهتزاز، أو حركة مجلبة للذة من أي نوع كانت تقريباً، سواء كانت من نوع ركوب الخيل، و الهزهزة والنوسان فوق النواسة، أو تسلق درج أو ارتقاء سلم، والطيران أو التحليق، هذه كلها ربطها بنشاطات اللذة الشبقية كالاستمناء والجماع.

ولأن تواتر التداعيات المرتبطة بالأشياء والفعاليات التي تظهر في الأحلام قد تكون مرتبطة بأفكار جنسية مدثورة، وبمواقف منسية، وبرغبات مكبوتة، فإن فرويد خلص إلى القول بأن هذا النوع من الرمزية الجنسية شامل من الناحية العملية. وهذا يعني أن بمقدور المحلل أن يحدس ويخمن معنى الحلم قبل أن ترتبط به أية تداعيات وقبل أن تنسب إليه أية اقترانات. وهو قد أقر: في تفسير الأحلام، بأن مثل هذه الاستنتاجات ستولد لدى كثير من القراء عدم ثقة بها. فهو قد تمثل القراء يسألون: كل منهم من وجهة نظره: [أحقاً أنا أعيش في معمعان رموز جنسية؟] هل كل ما يحيط بي من أشياء، وكل ما ارتدي من ملابس، وكل ما ألمس أو أمسك من أدوات وأشياء، هل هذه كلها رموز جنسية وليست سواها؟ وهو بدوره يجيب على مثل عدم الثقة هذه أن يطلب إلى قرائه بأن ينظروا إلى ما في التراث الشعبي، والأساطير، وأقاصيص الجن في أصولها الأساسية وليس في صيغتها الغنائية المحورة بعد مراقبتها، وإلى العامية، فإنهم سيجدون شواهد جمة كلها موسومة بالرمزية الجنسية الصارخة متمثلة حتى في النشاطات العقلية الواعية. ففي لغة العامة، مثلاً، يشار إلى القضيب بأنه أداة، أو آلة، أو مثقب، أو صنبور، له مهمة خاصة، ويشار إلى المرأة الحامل فيقال بأنها لديها [كيكة أو كعكة في الفرن]. لهذا السبب، يرى

فـرويد، ينبـغي ألا ندهش أن نرى مثل هذه الرموز تظهر في الأحلام، وأن بعـضـهـا قـديم قـدم اللغـة نفـسـها، وإن بعضها قد تمت صياغتها بصورة شـعـورية واعـيـة عبر العـصور حتى وقتنا الراهن. وآخر الصياغات الحديثة هذه السيارة أو الطائرة، في حين كانت الفرس أو الحصان هما الرمز المعول عليه في الماضي.

وجـد فـرويـد كـذلـك أن رمـوزاً أخـرى ظـهـرت بـتـكـرارات كـثيرة في الأحـلام. فـالمـلـوك والملكات مـثـلاً، يرمـزون إلى الوالدين، وإن الأمـراء والأمـيرات في الأحـلام يـرمـزون إلى الأخـوة، ويـمـثـل الشرطة في الأحـلام السلطة ويرمـزون إلى المحـرمـات عند الأطفـال. كما وجد أيضاً ثمة مواقف كـاملة تتكرر باسـتـمـرار في الأحـلام مما حـدا به إلى القـول بأن موضوعات أحـلام محددة تكون (نمـوذجـيـة) ولذا فـيـمكن تفسيرها بأن لها نفس المعنى مـتى مـا تكررت وان حـدثت. فـمـعظمنا مـثـلاً، حـصلت لنا أحـلام رأينا أنفـسنا فـيـها عراة أمام الناس؛ وهذا المشهد، من وجهة نظر فرويد، يعني رغـبـة في استعادة التشبث بخبرة من خبرات الطفولة المبكرة في عدم استشعار الخـجل من العري، ومعناه كذلك الاستمتاع بجنة عدن قبل استيقاظ القلق لدينا، وقـبل أن يحصل الطرد من جنة عـدن تلك، وقـبل بدء الحية الجنسية وشروع مـهـات النشـاط الحـضـاري. والأحـلام التي يرى فـيـها النائم موت عـزيز عليـه، فسرها فرويد بأنها تمثل رغبة من رغبات الطفولة الدفينة الرامية إلى اسـتـبـعاد منافس، وإن أحلام عدم إدراك القطار واللحاق به هي أحلام (مـواسـاة): إذ أن القطار المسافر هو رمز الموت، وإن الحالم يطمئن نفسه أنه ليس بمـيت، بينما فسر أحـلام السـبـاحـة والماء بأنهما يمثلان أوهام الحمل، والـرحـم، والـولادة ـ ويـراد بها مـقـدار الأمـان الفـائق. وأحـلام السراق، واللصـوص، والأشـبـاح، ترمـز، بالنسـبـة إلى فرويد، إلى ذكريات الطفولة أيام كـان الوالدان يقـربان فيه فراش الطفل وهو نائم. وقد كتب فرويد بهذا الشأن يقول:

[تحليلات أحلام القلق هذه قد مكنتني من استبانة كنه هذه الرؤى الليلية على نحـو أوفى دقـة. وفي كل حـالة، فإن السراق إنما يرمـزون لأب النائم، بينما تمثل الأشـباح شخصيات أنثوية وهي في أردية نوم ليلية.]

ومع هذا، فإن فـرويد أصر على أن مـا يبديه الحالم المريض من تداعيات ترتبط بأي حلم يراه، تعـد ركناً أسـاسـياً في التفسير النهائي للحلم. وهذا الأمـر على هذا النحـو لا لأن الارتبـاطات والتـداعـيـات يمكن أن تؤدي إلى اكـتـشاف كثير من الرموز الشخصية الخاصة فحسب، بل لأنه حتى الرموز ذات الطبـيـعـة الشـمولية والموضوعات الناسعة كذلك يمكن أن تنطوي على مـعـان محددة مختلفة بالنسبة إلى كل حالم على حدة. لهذا، ففي حلمي الذي رأيتني أحلق فـيـه، كـان يمكن أن يعـزو محللي فيخمن بأن تحليقي يشير إلى أحـاسـيس لذية حـتى من قبل أن أربط معه ـ الحلم ـ أغنية الحب الألمانية، لكنه ـ محللي ـ احـتـاج إلى تداعـيـاتي وذكـرياتي ليرجع إلى لعـبـة القـفز فوق الفراش، التي كنت ألعبها مع أخي أيام الطفولة.

ثمـة حلم آخـر من أحـلامي أرويه وهو يظهـر بوضـوح عـملية الرمز في حالة العمل والنشاط، رأيتيني فيه عند مدخل قصر بكنجهام Bucking-ham Palace انتظر مـوكب الملكة لتصل بعربتها الملكية عائدة من زيارة لها كانت تقوم بها لمستشفى (مارسدن) الملكي في تشلسي Chelsea، وأنـا في حلمي ذاك كنت أحس باسـتـشـارة مـتـزايدة وبنشوةة متعاظمة حتى بلغت حـدا لم اعـد مـعه اتمالك نفسي، وحينما ايقظني منبه الساعة عند هذا الحد، احـسـست حـقـا بأنني كنت مخدوعة الى حد يتسم بالفظاعة وانني قد اسقط في يدي، وانني قـد هويت بشكل مـفاجيء من ذلك العلو السامق والارتفاع الشـاهق. واني في حـيـاتي الواعـيـة، مـا كنت لاشـعـر بمثل هذه النشوة او الأفـتتان بالملكة، ولا حتى في طفولتي، واني في معظم حياتي المهنية كنت قد اعـتـدت كـثيراً على رؤية ومـشاهدة عربة الملكة تمر في المنطقة، لقرب مكاني من محل اقـامتها. لهذا بدا لي من الوهلة الأولى انه من المعقول جدا ان تكون

الملكة تعويضا عن شخص آخر، ولما كنت قد قرأت آراء فرويد، فقد تراءى لي انها تقوم في الحلم مقام أمي، ولقد وجدت تعزيزاً لهذا بطريقة خادعة مضللة، وذلك ابان الربط بين فكرتي وبين (مارسدن) الملكي، وجدت نفسي اكرر الكلمات (المارسدن الملكي)، وهو يعني بطبييعة الحال دار الملكة، وهو في حقيقة الامر قصر بكنجهام، فسلسلة الافكار المترابطة تلك هي التي أنتهت في الحلم الى قصر بكنجهام ومن هناك وصل الى الملكة، او بالعكس.

وهذا الموقف ما فتيء قائماً اذ يفسر بعد سبب الأستثارة والاندهاش تفسيرا دقيقا، وان كنت اعرف بناء على الأصول الفرويدية، ان العربة او السيارة انما هي تعبير رمزي عن العضو الجنسي الانثوي للأم وهو ورد من ترابط بين سيارة الملكة واقترابها من مدخل القصر. وان مقدمة السيارة يذكرني بانبوب الحقنة الشرجية التي كانت تعطيني اياها امي ايام طفولتي وان لم تكن بي حاجة اليها من الناحية الطبية. ولهذا فان استثارتي لا تشير الى وصول عربة الملكة، والتي تتركني بعد مغادرتها ايام ومرورها من امامي غير مكترثة، وانما تعزى استثارتي تلك الى اختراق انبوبة الحقنة لشرجي حينذاك. اني من الناحية الشعورية، لاتذكر كيف كنت انتظر عملية الحقنة بفزع ورعب، لكن الحلم كان يوحي لي حقا بأن العملية كانت تملؤني باندهاش جم حتى لقد كنت قلما (اتمالك نفسي). فأني لذلك لا اجد صعوبة تساورني بشأن قبول فكرة التفسير الفرويدي في هذا المجال، ومؤداها احاسيسي المضطربة المتأصلة في اعماقي ازاء امي وهي احاسيس مصدرها خبرات من ايام طفولتي الباكرة.

وحينما وجدت نفسي على خلاف مع محللي حول هذا الحلم بالذات، انما كان الخلاف يتركز على اصراره على ان الحلم كان تمويها لذاكرة الطفولة، بينما اراه انا الهام ممتع يكشف عن عمليات عقلية مترابطة موسعة واضحة. فكنت اعاني من صعوبة تذكر بشأن تقبل فكرة التفسير وفق المنهج

الفـرويدي، ومـا تعـرضت الى ضـغط من محللي بخـصوص هذا الموضوع او فـيما يتـعلق بالتـغلب على المقـاومـة العقلية عندي. والحق، ان الحلم بأكمله كـان واضـحـاً لدي حـتى قـبل وصـولي الى محللي بأسـاليب ملتـوية من ايام الطفـولة، فـلا ارى ابدا ثمـة سـبـبـا يدعو قلقي الى ان يحاول ان يخفي عني المعنى الحقيقي في الحلم.

فـهـذا الاخـتـلاف في الرأي، وان كان ضئيل الاهمية في تفسير هذا الحلم بالذات والخـاص بمـشـاهدة الملكة، فـانه قـد اضحى في مواقف ومناسبات اخـرى أبعـد مـغـزى واكثر جدوى. وما أكثر ما ألقت التفسيرات الفرويدية بـكلكلهـا على شثت ام ابيت، رغم حـقـيـقـة ان العناصر المترابطة لدي وفي احـلامي لم تكشف عن اية عـلامـة تفضي الى رغـباتي الجنسية، سواء ما كان منهـا مـوجـهـاً ازاء محللي او مـا كـان يرتبط منها بايام طفولتي المبكرة. ولقد وجـدت هـذا الضرب من التـوجـه في الخبرة المشتركـة وهي تجـمع بين مختلف اعـتقادات المرضى الذين يخضعون لاساليب التحليل وفق المنهج الفرويدي، واني لاعـتـقـد ان الخـلـل لا يكمن في تفكير المحللين، وانما يكمن في البنيـة اللاعلمـية لنظرية الاخفاء او (التمويه) disguise نفـسها، والتي تشجع مـثل هذه التـفـسيرات المبـتسرة. والحق ان هناك كثيراً من المحللين النفسانيين في الوقت الراهن من يتـحـرزون من هذا التـوجه وهم قد جانبوا اليوم المعتقد الفرويدي التقليدي هذا.

المنحى الاختزالي والتحريف في تفسير الاحلام

ان فـرويد نفسـه، في كـثير من الجوانب، لم يكن فرويدي المعتقد، وقد لاحظ النقـاد ان مـا قـدمـه في كـتـاباته من بيـانات عن احلامه وعن احلام مـرضـاه، قلما تمتـد في ماضيها الى خبرات جنسية طفلية، فكثير من الخبرات تلك تقـتصر على الرغـبـات اللاشعورية من ايام الرشد، وهو اذ عزا هذا في كثير من الحالات الى الجذر والتعقل، فأنه مع هذا اتاح للتفسير مجالات لان يكون محـتـملا عدة وجوه وعلى عدة مستويات، فهو كتب يقول:

(تبـدو الاحـلام في الغـالب ان لها اكثر من معني واحد، فهي لا تنطوي على تحـقـيق عدة رغبات مرصوفة الواحدة منها جنب الآخرى فقط، بل هي قـد تتـضـمن سلسلة مـتـواترة من المعاني او تحقيق لرغبات منضودة الواحدة منهـا فـوق الاخـرى، في ادنى قـاعـدتها يأتي تحـقـيق رغبة يرجع تاريخها الى بواكير الطفولة).

ايّا كـان الأمـر، فـانـه- فـرويـد- بقي مصرا على ان الاحـلام يجب دائمًا تأويلهـا بالرجـوع فـيها الى حدث موضوعي حصل في حياة الحالم، وان كان قـد دعـا الى ان هذا الحدث الموضوعي قد يكون مرده الى خبرة خيالية وليس الى خبرة حـقـيـقـية في حياة الحالم. (ففي حلمي مثلا اذ رأيت هجوم امي او اعـتـدائهـا الجنسي علي لم يكن اكثر من وهم مستمد من خبرة الحقنة الشرجية ايام كنت طفلة). فهو قد حاول حيثما كان ذلك ممكنا ان يحصل على مرضي يربط ارتبـاطهم مع الاسس الموضـوعـيـة في احلامهم بواسطة عملية الترابط، في مكان مـا من اعماق العـقل، تبقى مختبئة خافية، ويمكن استجلاؤها فقط في حـالة اختراق حـاجز التمويه، وان اعتقاده بأن الحلم يلجأ الى التكثيف،

والتـحـويل او الابدال، والرمـز، والصـيـاغـة الثانية لاخفاء معناه الحقيقي، مكنتـه - فـرويد- من التـمـسك بهذا المعتقد بصرف النظر عما قد يؤول اليه التـفـسير، او بغض النظر عما يمكن ان تكون عليـه قناعة المريض، والحق، ان اصراره عـلى ان المـحـاولات يـمـكـن ان تضـفي على المحتـوى الظاهري للحلم معنى، قد استبعد تماما.

كـان لـرأيـه هـذا اثـر وضـع الـتـفـسـير الـفـرويدي للحلم في نفس فئة التنجيم astrology، حـيث يمكن تفـسير اية قـراءة لخريطة البروج لتلائم جميع وقـائع الحـيـاة، فان لم تكن تلك الوقائع واضحة الحصول وغير حقيقية الان، فيظن بانها ذات صفة حقيقية تعبر عن مستوى خفي عميق لا يتسنى لغير المطلع التـعرف على خفاياه، فاذا ما اظهرت خريطة البروج ان شخصا مـا، مثلا، متكتما لا يفضي بسره لاحد، فان كان الشخص هذا حقا كتوما، فـان القراءة هذه يهلل لها ويستبشر بطالعها بأنها قد صحت، في حين انه اذا كـان سـلـوكـه الظاهر ينبيء عن انه انسـان مكشـوف في السر والعلن، فـان القراءة يتم تأويلها على انه في سره ينطوي على شيء متضمن في طبيعته التي لا هو يعـرف عنهـا ولا احد آخر سواه. وكذلك التفسير الفرويدي للحلم، فـمن اي طرف تأتيـه يتراءى لك وكأنه لا مأخـذ عليه، فان اصاب التفسير المرمي بالنسـبـة للمريض، كما هي الحال في حالة تحليقي وفي حالة الملكة في الحلمين اللذين رويتـهما، فـقـد تم الادعـاء والزعم بان التـفسير سليم، وان اخـفق التفسير في مس جوهر الحقيقة، فانه يزعم بأن مقاومة المريض للاقرار بالحـقـيـقة انما هي مقاومة عالية، وعند ذاك تعتبر عملية الاخفاء والتمويه في الحلم قـد حـقـقت غـرضها، من هنا نرى ان التفسير يتم وفق هوى المحلل الذي ينتهج النهج الفرويدي.

ان الاعـتراف بهـذا هـو مـا آل بـأخـلـص حـواريي فـرويد في بواكير ايام الـتـحليل النفسي، الى ان يبـدأوا بالابتـعـاد عن اطراء اسـتـاذهم في تفـسير الاحـلام، والمع واحـد من بين هؤلاء كـان المعالج النفساني السويسري كارل

غوستاف يونجC.G.Jung(١)، الـذي عـبر بـوقت طويل قـبل اقتراب وقت اوان البـحث الحـديث عن الاحـلام، عن رأيه بالقـول انه لمدين لشخصه في محاولة ارجـاع جميع الاحلام الى الرغبات، ففي فقرة ينتقد فيها فرويد، كتب يونج يقول:

(بما ان حـيـاة الانسـان ليـست وقـفاً على هذه الغريزة الاساسية او تلك، وانما هـي مـؤلـفـة مـن عـدد وفـير من الغـرائز، والحـاجـات. . . والعـوامل الشرطيـة النفـسيـة والجسمية، لذا فان الاحلام لا يمكن تفسيرها من جانب هذا العنصر او ذاك، مـهما بدا بسـيطا وجـذابا مثل هذا التفسير. . . . فليس من نظرية بسـيطة من نظريات الغـرائز بمـقـتـدرة على الاحاطة بذلك الشيء الجـبـار الخـفـي الملغـز، الا وهو النفس البشرية، كـلا؛ ولا يمكن كـذلك الاحـلام التي هي تعبير عن هذه النفس أن تدرك كنهها. . حقا هناك احلام تنطوي على رغـبـات مكبـوحـة وعلى مخاوف، ولكن مـا بالنا بتلك الجـوانب التي لا تحـيط بها الاحلام ولا تتضمنها؟ الاحلام قد تتيح التعبير عن حقائق تـتـعـذر مـقـاومـتـهـا، وعن بيـانات ودلالات فلسـفـيـة، وعن اوهام، وعن خـيـالات هائمـة، وعن تطلعـات وتوقـعـات، وعن خبرات لا عقلانية، بل وحـتى عن رؤى تواصل روحـيـة (تليـباثية) تخاطرية، والى جانب هذا، ثمة امور كثيرة لا يعلمها الا الله).

ان مـا يبـذل من جهد لتتبع كل حلم وإرجاعه الى الرغبات والصراعات الـطـفـليـة تعـتبر من وجـهـة نظر يونغ ليس فـقط اجـراء خـاليـا من النزعـة العلمـية، بل هو ايضا اجراء يمكن ان ينطوي على تجاوز واعتداء على كرامة المريـض الخـاصـة، ويمكن القـول كـذلك، ان الاجـراء هذا يمنع المحلل والمريض على حـد سـواء من ان يريا ان بعض الاحـلام قد تنطوي على انواع

---

(١) إني اذ أقـول هذا فـلا انكر دور المنشـقين الآخـرين على فـرويد، أمـثـال (أدلر) و (فلهلم شـتـيكل) و(أوتو رانك)، من رواد الحـركـة التـحليليـة النفـسية، فلهؤلاء اراء أصيلة ولكن أراء يونج كـانت أعمق تأثيراً (المؤلفة).

مختلفة من المعاني لا تقل قيمتهافي الاخذ بيد المريض باتجاه فهم ذاته، فهذا المنحى الذي اقترحه يونغ في النظر الى عناصر الاحلام وخصائصها وشخوصها وطبيعتها، اعتبر كل ذلك جوانب تعكس شخصية الحالم بدلا من النظر اليها على انها ذكريات. تكونت لدي في الغالب خبرة جعلتني ادرك ان ارتباطات احلامي وتداعياتي الحرة تشير الى ضرب ذاتي من ضروب التفسير بدلا من كونها تشير الى ما كان ملتزما به محللي من نمط تفسير موضوع فرويدي وساصف عددا من هذه الحالات في فصول قادمة، لكنني اقتبس هنا الان بخاصة مثلين جليين اسوقهما توضيحا لما قصدت اليه.

ففي الحلم الاول من هذين الحلمين، والذي حدث مباشرة بعد زواجي، الفيت نفسي منتظرة في طابور طويل مؤلف من نساء حوامل لاضع طفلا، كانت الفتاة التي قبلي تعاني من صعوبة في الوضع، وكنت انتظر دوري بشيء من التوجس والتخوف، ولكن حين حان دوري، وضعت مولودا، وكانت بنتا، وضعتها من غير معاناة تذكر، وقبيل تسليم الطفلة الى السيد المبجل، تحسست رأسها لاتأكد من نتوء صغير عرفت بوجوده بالحدس والتخمين، كان النتوء هناك، فاستيقظت وعندي احساس بانجاز كبير وسعادة غامرة.

وقد فسرت الحلم بانه انفراج (وهو في نظر بعض الدوائر الدينية ضرب من الاستهلال للحياة الروحانية) عن مصدر منه بزغ نوع من حياة جديدة، فالطفل الوليد، وهي البنت، اولتها بانها ولادة نفسية جديدة عندي، فهي تمثل جزءاً من نفسي كنت قد كرستها للايمان بالله، وان ما تحسسته من نتوء في رأسها هو الاخر رمز لما هناك من شعور شامل يعم بني الانسان، شعور بان للحلم دلالة روحية تتعلق بجانب او مرحلة من مراحل حياتي الزوجية، وان كنت في واقع الامر قد زهدت في ان احتفي بهذا الزواج او ان اربطه باي مظهر خارجي كالعقد في الكنيسة مثلا، فالحلم كان، في

حقيقة الامر، ينبؤني بانني كنت لأرى حياتنا الزوجية الجديدة معا بأنها ضرب من ضروب الحياة الحافلة بالمعنى انسجاما مع ما يتطلبه الموقف بانجاب الذرية وتحقيق السعادة في رحاب اسرة صغيرة فحسب، وانما تساوقا مع ما تقتضيه المتطلبات الاشمل والتي تنطوي على توفير اوثق الروابط الوجدانية والفكرية. والحق، كنا انا وزوجي قد شرعنا لتونا في مشروع دراسي يستغرق منا بضع سنين ولقد أملنا ان يتاح لنا قبيل انتهائنا منه اللقاء لنعمل سوية، احسست ان الحلم انما حدث لينبأني بان مشروع دراستنا هذا كان نوعا من الولادة الجديدة بالنسبة لي، او انه ينبيء عن ميلاد جانب لم يكتمل بعد من جوانب شخصيتي، فكنت شديدة التأثر به.

لك ان تتصور، اذن، مقدار دهشتي حينما انبأني محللي بأن الباعث على الحلم انما كانت رغبة لدي بان ألد من غير احساس بألآم الوضع، وبانني حولت مخاوفي تلك على الفتاة التي كانت امامي، وفوق هذا، فأنه قال لي بان التنبؤ في رأس الطفلة قد اثارته في نفسي رغبة مكبوتة مبعثها امنية ان يكون لدي عضو الذكورة، وان السيد المبجل في الحلم كان يرمز، حسب رأي المحلل، الى القابلة او الحاضنة التي سيعهد اليها بالوليد بعد الولادة، واضاف محللي ذاك، بان احساسي بالسعادة بعد اليقظة كان انعكاس ورد فعل لما كنت اشعر به من خوف وتوجس لدى اقتراب ايام الوضع.

ان ما بدا مني من رد فعل كان، وما فتيء، هو ان تعسفا قد انزل بالحلم وبتكويني النفسي الذي احدث ذلك الحلم، فقد شعرت في قرارة نفسي ان محللي لم يحسن الاستماع الي قط، وانما هو قد فسر الحلم على هواه طبقاً لما كونه من احكام وافكار مسبقة عن النساء وحسب النظرية الفرويدية في تفسير الاحلام. ففي تفسيره لحلمي ذاك، قد اغفل تماما المغزى الديني للحلم وتجاوز مشاعري الغامرة العامرة بالغبطة وقد اهوى باحساسي بالانجاز وبها حققته الى منزلة التفاهة المبتذلة، الحق انني كنت ارغب في ولادة من غير ألم (ومن من النساء من لا ترغب في هذا)، وحقا كذلك،

انني كنت ساستخدم حاضنة لتعاون في تعهد الوليد المنتظر، ولكن التفسير الفارغ، الخاوي من المعنى، ما علمني شيئاً، فالأمر لا يزيد على ما قاله هوراشيو لهملت Hamlet: (لا حاجة بنا، يا سيدي، الى شيخ ينهض من ثنايا الرمس لينبأنا بهذا).

بعد مضي بضع سنين رأيت حلما اخر له مغزاه، وقد بدا في جانب من جوانبه مرتبطا بالحلم الاول، وانه هو الآخر كان يتطلب تفسيرا ذاتيا. رأيت فيه رجلا كان قد تواطأ مع عشيقته لاغتيال زوجها، وكانت تلك العشيقة تبدو امرأة صارمة،، باردة الطبع، كانت بعد ذلك تجلس في محطة تحت الارض تحرس تابوت زوجها وهو مفتوح، وكان واقفا هناك عدد من الجنود ببزاتهم الرسمية الزرق ممن تآمروا في القتل وهم يقدمون التعازي الي الارملة الباكية، وبغتةً قد اختفت تلك المرأة عندها رفع الجنود غطاء التابوت ليروا ما في داخله. ما كان مني الا ان اهرب من المكان فزعة، سمعت الجنود ينادون وهم يتصايحون مرددين عبارة (الكلبة، الكلبة) فاستيقظت مرعوبة وقد استحوذ علي القلق، وانا اصرخ (سأقتل نفسي في عالم المرأة).

ومرة اخرى اقول، ان هذا كان كذلك حلماً مثيرا وواضح المعالم، وقد احسست ان جميع الشخوص فيه كانت تمثل جوانب من شخصيتي الخاصة بي- فالجانب الانثوي الصارم المتواطيء مع الجانب الذكوري المتأرجح الصعيف كان يتآمر لاغتيال ما أحسست بأنه يمثل (نفسي الحقيقية)، التي بقيت نثاراتها وبقاياها مختلطة متكومة داخل ذلك التابوت، وان الجنود ببزاتهم تلك هم يبدون كأنهم شخوص من الثورة الفرنسية، كانو يمثلون الجانب الثائر من طبعي انا، طبعي الغاثر الغاضب الذي لم يكن راضيا عن جريمة القتل تلك. ان ما حدا بي الى تفسير الحلم تفسيرا ذاتيا انما هو امر مبسط: ففي ذلك الوقت كان زوجي الاول قد حقق نجاحاً في مهنته واستقر في ميدان عمله، فراح يهددني باستمرار بأنه سيتخلى عني ما لم

اترك عـملي الوظيـفي واتفرغ للعناية به وبشؤون البيت. واني من جهتي بعد كـل سني دراسـتي الطويلة هاتيك، قـد شـعـرت بأن مـثل هذا الطلب انما يـشـبـه تحطيم جـزء من نفسي، وأنني مع هذا كنت احب الا نفترق، فكنت اسـائل نفسي عما اذا كنت اقـدر او لا اقـدر على ان افعل ما يرضيه من غير الحـاق الضرر البـلـيـغ بذاتي انا. فـالحلم كـان يخبرني بكل جـلاء بانه ليس بمـقـدوري ان افـعل ما يرضيه، وان النتيجة قد تكون القتل، وانه لمن الخير لنا الافتراق.

لا حـاجـة بي الى القول، بأن محللي لا يملك مثل هذا الهراء الذاتي، وهو مـا يعـتبره تهربا من امور اكثر اهمية، فهو قد اصر على اقتفاء آثار هذا الحلم بالعـودة الى مـا كنت قد عانيته من اجهاض ابان بواكير حياتي الزوجية، رغم حـقـيـقة ان ليس ايا من ارتباطاتي وتداعياتي ولا في مواقف حياتي الارادية عن احتمال انفصال زواجي، ما يشير الى ذلك الحدث المنسي الذي طوته الايام، فـهـو قد التزم القول بانني كنت انظر الى الاجهاض بانه اغتيال، رغم حقيقة كـوني لم اكن قد انطوت احاسيسي على مثل هذا الشعور يومذاك، كما انني لم اشـعـر بشـعـور الذنب الذي اسـتـثير لدي عندمـا ذكر هو هذا الحدث ولن تستثره تداعياتي ولا ما يرتبط بالحلم نفسه، لهذا، فقد داخلني شك بأنه هو الذي اعـتبر الاجهاض قتلا، ولست انا التي اعتبرته كذلك.

وانـا انـظـر الى هـذيـن الحلمين والى مـا اتلقـاه من عـلاج، اني لاشـعـر بالغضب اذ سلمت قيادي لغيري فابتعدت عن سلسلة افكاري وذلك باتباع روتين مطول ارضى محللي ولم يوصلني الي مـبـتـغـاي، ولم يكن ذا عـلاقـة بما عندي من احـاسـيس، ان الحلمين قـد نقلا الي بوضوح موقفا كان جزءا من شـخـصـيـته قد ولد فيه وترعرع اثناء السنين المبكرة من زواجي، لكن ذلك الموقف قـد تعـرض لخطر التـدمير والقـتل لو اني اسـتـسلمت الى مـتطلبات زوجي تلك، لو انني وعـيت هذه الرسـالة واسـتـوعـبت فـحواها، لفصمت الصلة هناك وآنذاك، بدلا من الاسـتكانة وتعريض نفسي الى الاستخذاء لمدة

عامين اخرين.

انه هذا الضرب من (الاعتساف في التفسير) هو الذي ادى ببعض الناقدين للتحليل النفسي لان يصفوا ممارسيه ومتعاطيه بانهم (قتلة الاحلام) Killers of dreams ، واننا لنجد في الاعوام الاخيرة ان كثيرين من بين المحللين النفسانيين انفسهم قد ظاهروا مثل هذا الانتقاد. ومثل ذلك ما كتبه (فرينتش وفروم)، في كتابهما (تأويل الاحلام) Dream Interpretation اذ قالا:

(لكل منا سماته النمطية وهناته الذاتية، وترتبط انماطنا هذه وهناتنا ارتباطا وثيقا بما نتقبله من نظريات، وللتصدي لهذه الهنات والوقوف بوجهها، فاننا ننصح المحلل بان ينسى نظرياته في الوقت الذي يقوم فيه باجراء التفسير والتأويل، وعليه، بدلا من ذلك، ان يركز اهتمامه تعاطفيا على بؤرة ما يصدر عن المريض من افكار وان يسمع صداها).

ينقل الدكتور والتر بونيمWalter Bonime، في كتابه: الانتفاع الاكلينكي بالاحلامThe Clinical Use of Dreams، قصة شديدة الشبه بتلك التي قصصتها عن نفسي، قصت عليه احدى مريضاته كيف ان حلما له دلالته من احلامها قد افرغه من مغزاه محللها السابق واظهره بانه ذو نتائج مفعمة. رأت نفسها في حلمها ذاك تسير في بهو ابوابه من كلا الطرفين مقفلة، مما جعلها تشعر بالوحشة تماما وانها عزلاء من اي شيء، وبينما كانت تمشي فوق سجاد قديم بان في ضياء الابواب، مما جعلها تماما تحس الوحشة والخور، ففسر محللها الفرويدي حلمها بأن البهو الطويل يرمز الى رحمها وقال لها انها كانت تشعر بالاهمال في حياتها الجنسية.

وفيما يأتي يجتزيء بونيم شيئاً من رد فعلها لذلك التفسير كما روته بنفسها اليه.

(كان تفسيره بالنسبة لي صدمة. انه تفسير لم يدق الجرس عندي- اي لم يتطرق الى صلب الموضوع، لم يكن فيه ما يمكن ان اعرفه، ولم احس

بـالاسـتـشـارة بطريقـة مـؤلمة، وانما احس بطريقـة مجزية تلك هي انني كنت استشعر الاستشارة عندما يكون التفسير منطويا على ما يدعو الى التعرف على شيء مـا، وحيـنما يحـملني على ان اعـمل شـيئاً محددا وانهض به في حـيـاتي البيـتية، وبدلا عن هذا، فقد صدمت واحسست بالأسى، وشعرت ان ثمة شـيئاً مـفقوداً في التفسير، اذ كان هناك في الحلم شيء اكبر واكثر، وتحسست انني كنت افتقد شيئاً ذا قيمة ينطوي عليه الحلم على نحو ما).

وهي تروي حلمـها ذاك الى بونيم بعد تسع سنين من رؤيتها له، اضافت تقول:

(مـا فـتئت استطيع ان ارى ذلك البـهـو بابوابه الكثيرة المغلقة، اني لعلي يقين من ان الحلم كـان يعكس ما كنت احسه من طريقة في الحياة حييتها في ذلك الوقت، شـعـرت بان جميع الابواب كـانت مـوصـدة بوجهي، وان بقية حـيـاتي ستكون امـامي رحلة طويلة شـاقـة كـامدة خاوية. . . ولو تأتى لي آنذاك ان افـهم معنى ذلك الحلم وان اعرف بوعي تام كم كنت يائسة بشأن مـا يخـص زواجـي، لاتخـذت مـا يـلـزم من خطوات لأتخلص منه في الوقت المناسب يومذاك، بدلا من الانتظار خمس سنوات بائسة طويلة).

يعـتبر بونيم واحـدا من المحللين النفسانيين الذين تزداد اعدادهم باضطراد ممن يرفـضـون التـوجه الفرويدي التحكمي والحتمي في تفسير الاحلام؛ فهو يرى الحلم حدثا وجوديا يجب ان يتاح اليه المجال (ليتحدث عن نفسه to speak for itself) بدلا من النظر اليـه بوصـفـه رسـالة بالغـة التـمـويه والاسـتـخـفـاء يجب حل لغـزها. ان كـثيرا من منحى بونيم يمكن تلمسه في اثاره الراسـخـة في افكار يونغ (فـهـو يقر بفضل يونج عليه وانه اليه مدين)، الذي ابتـعـد من عهد مبكر عن فرويد واتخذ لنفسه سبيلا في تفسير الاحلام يتسم بالمرونة خـاصـة. وان يونج بوصفه معالجاً نفسانياً ممارسا، لم تغب عن ذهنه حـقـيقة فحواها ان الاحلام بوسعها احيانا ان تكشف عن حقائق مؤلمة يقـاومـهـا الحـالم فلا يريد ان يراها ماثلة، لكنه (يونج) جعله مبدأ رئيسيا لا

ليستخدم هذا تبريرا من اجل الاصرار على تفسير يقحمه بصرف النظر عن موافقة المريض ورضاه. وحتى اذا ما اعتقد المحلل بأن تفسيره صحيح وسليم ولا تشسوبه شائبة، فان يونج كان لا يرى هذا مجديا ما لم يقره المريض نفسه عن خاطر طيب بدون حمله على الاحلام من بحث حديث، وهو يكشف من غير شك عن الطبيعة المتقلبة المتلونة للاحلام، انما يحمل في طياته تحفظ يونج بشأن هذا الموضوع تماما.

منحى يونج في تفسير الاحلام

في الوقت الذي تكون نظرية فرويد في الاحلام قد غالت في تبسيط المسألة بارجاع جميع الاحلام الى تحقيق الرغبات، فأن يونج قد عارض هذا الرأي، اذ ذهب الى ان نظرية (التمويه) او الاخفاء انما هي في مجملها جد معقدة ومتداخلة مما لا يجعلها جديرة بالقبول. بل هو آثر ان يقتبس من التلمود Talmud ليدين بذلك فرويد في اعتسافه في تفسير الاحلام، فقد ورد في التلمود:

[ان الحلم ينطوي على التفسير في نفسه]

لذلك انتهى يونج الى القول:

[وبعبارة اخرى فأنني اتخذ الحلم على انه مسلم به مقطوع بصحته. الحلم حدث طبيعي وليس ثمة سبب واحد تحت الشمس يدعونا الى ان نفترض بأنه اداة خداعة غايتها ان تضلنا سواء السبيل].

نفس النقطة هذه تناولها بملاحة وظرافة الدكتور (هـ. ج. بينز)H.G.Baynes احد اتباع يونج ومؤيديه، اذ وصف مناقشة فرويد لموضوع الوظيفة التمويهية للاحلام، بأنها تشبه زيارة قام بها زائر انكليزي الى باريس فظن الباريسيين يتحدثون رطانة خالية من المعنى لكي يستغفلوه ويسخروا منه!

لهذا فان يونج قد ركز اهتمامه على المحتوى الظاهر للحلم، وقد شرع

باماطة اللثام عما يكشف عنه الحلم بدلا من التركيز على ما يخفيه. فالحلم قد يعبر في بعض الاحيان عن صراع خفي او مشكلة دفينة، وفي احايين اخرى، كما تبين يونج، قد يوميء الى المستقبل وذلك بازاحته الستار عن احتمال غير معروف في الحياة او في النمو النفسي والتطور السيكولوجي. فالطبيعة الغريبة الرمزية للاحلام، كما يراها، هي ببساطة الصورة الطبيعية للغة العقل عندما يعبر عن نفسه خارج نطاق الحدود الضيقة للفكر العقلاني، وانه في الوقت الذي يقبل فيه توجه فرويد العام في تفهم اللغة الرمزية هذه وذلك بالتنقيب في ثنايا تداعيات الفرد والبحث في طواياها عما يكمن في الاساطير وفي الفولكلور وسواها، فأنه في الوقت ذاته قد عارض تماما اصرار فرويد على ارجاع كل شيء الى بواكير الخبرات الجنسية المترسبة في ايام الطفولة. فهو يذكر، مثلا، ان الحية قد ترمز الى عضو الذكورة في بعض الاحلام، لكنها في احلام اخرى قد ترمز الى الشفاء Healing ، او قد تشير الى الحكمة Wisdom، وقد تمثل في احلام اخرى، الشر evil، كما هي وظيفتها في الاساطير الاغريقية، او الشرقية، او المسيحية، على التوالي. واذا كان بمقدور العقل اليقظ ان يستخدم هذه الرموز فلم لا يستعملها العقل الحالم؟ كذلك فأن الدائرة المستعملة على نطاق واسع في الأساطير الشرقية لتشير الى التكامل والتوازن (المندالا)(٢)Mandala يمكن ان ترمز في الاحلام الى تكامل الشخصية ولا علاقة لها ايا كانت بالاعضاء الانسالية الانثوية، وإني لعلى يقين من ان يونج كان يمكن ان يفسر حلمي عند الولادة، كما فسرته انا، في حدود ثيمة الولادة المقدسة لا كما وردت في الاساطير، وهي ولادة تمثل مرحلة جديدة من مراحل النماء الروحاني او النفساني.

والحق، ان يونج قد اعتقد بأن الحلم يمكن تفسيره، على اي وجه يراه

---

(٢) المندالا أو الحلقة السحرية عند الهندوس والبوذيين رمز الكون. واستعارها يونج واراد بها رمز الذات، لأن الذات عنده هي نقطة الوسط في الشخصية (المترجم).

الحالم اكثر ملاءمة، فهو يقول، البداهة تشير الى انني اذا ما حلمت بشخص اعرفه جيدا، فيلزمني ان اعرف الشخص في الحلم كما اعرفه في الحياة الواقعية. واذا ما حلمت، مثلا، بأبي أو أمي، او بصديق حميم، فمن المرجح ان الحلم يشير الى هؤلاء الناس مباشرة وانه يقترن بمقدار ما بيني وبينهم من علاقة وطيدة، وان الحلم محمولا ومفهوما على اساس المستوى الموضوعي، فقد يشير هذا الحلم الى نوع من القلق او التنافر، او نية خفية لدى ضدهم، فالحلم في مثل هذه الحالة انما يعبر عن مشكلة ملموسة ترتبط بالعلاقات القائمة بين الجوانب التاريخية والخرافية والاسطورية وعلى اساس مستوى ذاتي كجزء من مكونات شخصيتي. فليدي ماكبيث Macbeth، قد تمثل جانب التطلع والطموح من شخصيتي، في حين يمكن ان تمثل الفتنة Beautyالنائمة الجزء الراقد الكامن من طبيعتي. فبالنسبة الى يونج لا يوجد شيء اسمه تفسير (صحيح)، اذ ان الحلم يمكن ان يكون تفسيره ناجحا حينما يكون ذا معنى للحالم وعندما يكون استخدامه من جانبه استخداما بناء.

كان يونج، على اية حال، تحكمياً في احد الموضوعات، وذلك باصراره على ان كل حلم انما يختص بموقف حاضر في حياة الحالم وليس بمرتبط بشيء من ماضٍ يتصل برغبة طفيلية او خيال عابر، كما اعتقد فرويد وبهذا فان يونج قد استبق في التنبؤ بما تم فيما بعد في بحوث اجريت عن الاحلام، كما اوضحت ذلك في الفصل الخامس، حيث سبق وان بينت بأن الحلم يكشف عما يجري في يوم الحالم من احداث، وان الحلم قد يلقي ضوء على ما لدى الحالم من تغرضات واتجاهات انحيازية لاشعورية. وفي الفصل الرابع من هذا الكتاب وصف لحالة الفتاة التي حلمت بأنها حامل وكانت تبحث عن وسيلة للاجهاض، وقد وصفت حالتها بانها كانت تفكر في مضاجعة زميل لها في الدراسة زنجي لكنها كانت تخشى الحمل، فظهرت رغبتها في الحلم.

لعل الحلم في مواقف ومناسبات اخرى، كما يرى يونج، يعمل بوصفه مكنية تعويضية لموازنة الاحاسيس المتنافرة حول شخص ما او حادثة معينة. فأن يونج نفسه قد وصف في سيرته الذاتية: ذكريات، واحلام، وتأملات، حلما من احلامه هو عن خبرة تعويضية، وكان في الوقت الذي رأى فيه الحلم، حواريا مخلصا لفرويد، يصغي ويتعلم ويعمل بمعية ذلك المعلم الذي اكبره كثيرا ومجده تمجيدا شديدا. بعدئذ، وما كان اشد دهشته، اذ وجد نفسه يحلم بفرويد بأنه: (تاعس منكود الحظ، موظف في خدمة الامبراطورية النمساوية، وانه ميت مهزول ولكنه لما يزل شبحاً يمشي بهيئة مفتش كمارك) وقد فسر يونج حلمه هذا بأنه تصحيح، وانه تعويضي، او انه ترياق لشعوره العالي ازاء فرويد، موضحا ان شيئا ما، في داخله عرف بأنه عليه ان يعامل الاستاذ بشيء من الحذر والحيطة وان يتحفظ في نظرته اليه.

يقول يونج ان الحلم يبرم نوعاً من التوافق الداخلي بين الاتجاهات الشعورية واللاشعورية عند الفرد، وفي اي وقت نجابه فيه بحلم مبهم، يقترح يونج، علينا ان نسأل انفسنا سؤالا: (عن اي اتجاه شعوري يعوض هذا الحلم؟). واني من جهتي ما زلت اتذكر بوضوح حلما كان يعاودني باستمرار كنت ارى فيه نفسي مقطوعة الرأس، كان هذا في فترة من فترات حياتي كنت يومذاك اهيء ذاتي واعد نفسي لتطوير حياتي الفكرية على حساب احاسيسي الوجدانية، وعندما اتخذت منحى متوازنا ازاء الحياة، انقطع الحلم فلم يعاودني بعد ذاك.

كان يونج في الحقيقة مقتنعا بان الاحلام تكشف عما هو كائن فينا من مصادر معلومة ثابتة وعما لدينا من حكمة لاشعورية. وهذا الاحتمال يبدو ان فرويد المح اليه في بعض كتاباته، لكن ما أنصب عليه التحليل الفرويدي هو اعتباره الحياة اللاشعورية في مجملها مجالا لنوازع الطفولة وغرائزها، ملقيا بذلك عبء المسؤولية الخاصة بالعلاج والشفاء النفسي والتكامل

الذاتي برمتـه على العـقل الشـعـوري العـقـلاني، ان يونج باعتقاده بان لدى الكائن البشري مـيـلا تكوينيـا ينزع الى الصـحة النفسية، وهو ميل مماثل لما عنده من قـابليـة فطرية للشـفـاء من جروحه عندما يتعرض لآفات مرضية، فـهـو- يونج- لهذا تبـدت له الاحـلام في الغـالب انها تعكس نشاطات هذا الدافع الداخلي النزاع الى التماس الصـحـة والنضج، وبتضافر مع هذا الدافع العقلي الشعوري.

ولقـد كـان هذا الاكـتـشـاف هو ما ادى بيونج الى ان يولي اهتماما خاصا باسـاطير العـالم الدينية وما في العالم هذا من خرافات وملاحم بحثا عن ابرز مـا في الكون من رمـوز لها دلالتها ينطوي عليها العقل البشري، وفي الوقت الذي فسر فـيـه فـرويد الاسـاطير والاحلام المتعلقة بالعبادة انها مجرد خواطر تعكس اولى خبرات الطفل عن والديه، فأن يونج نظر اليـهـا بوصـفـها تعبيراً عـن وعي الانسـان بما لديه من دافع داخلي ازاء النماء ونحـو التكامل، ولقـد فـسر يـونـج كـل ذلـك ضـمـن اطـار نـظـريـتـه المسماة (اللاشـعـور الجمعي)collective unconscious وفـيـهـا وجـد اسـاسا مشتركا يجمع بـين مختـلـف خـصـائص الجـنـس الـبـشري، بما في هـذا مـا اسماه الـنمط البدائيarchetype. وحـينما لا تكون في احلام المريض اية ارتباطات تتصل بـحـيـاته الحـاليـة،، فأن تفسير الحلم يمكن التماسـه في النماذج او الانماط البدائية هذه.

فما يبدو للحالم من صورة imageعن اله اسماها يونج (النمـوذج البدائي للنفس) archetype of the self وهي قـوة التكامل الكائنة في اهاب كل فـرد، وهي القـوة التي يمكن ان تجـد تعـبيرا لها في المندالا. اعـتقد يونج انه تمكن من اكـتـشـاف صـورة نمطيـة بدائيـة اخـرى مـتـضـمنة في موضوعات الاحـلام، تـلـك هي (الظلام المزدوج)، او الشـيطان الشـخصي الذي يطارد البطل كما ورد في اسـاطير وخـرافـات لا حصر لها، محاولا الشـيطان هذا ان يجعل المرء يشـعـر بالاغتراب في ذاته على نحو ما بل يسعى الى تحطيمه. وقد

اطلق على هذا الاكتشاف عقدة (الظل)shadow complex ونظر اليـها انها تمثل رمـز الظلام، وانها الجـوانب المكبـوتة من الشـخصية، وهي الجوانب التي تلح باسـتـمـرار باحـثـة عن الاعتراف والتـعـبير عن نفـسها لدى جميع الكائنات البشرية، حـتى وان كـانت خـصـائصـهـا تتفاوت من شخص الى اخـر. وفي ضـوء هذا الرأي فسرت حلما مـتكررا كـان يعـاود احـدى النساء كـانت تتطوع في تجـاربي المتـعلقـة بالبـحث في الاحلام، وان يونج قد اعتقد بان مـا ينشـده الانسـان من تكامل انما يمكن الظفر به في الظل هذا، وليس في التهرب منه.

فـفي حلم المرأة المذكـورة آنفـا، كان الشخص الظل يمثل تجربة شخصية خـالصـة، توحي بما يرد في بعض القـصص كـقـصة: قضية الدكتور جيكل والمستر هايد الغريبة(٣)، بدلا من كـونها تذكـر باسـاطير قديمة. وان مثالا آخـر اكـثـر اسـتثارة من طراز النموذج البدائي قد حصل لي في احلامي ابان ايام حلمي الثـاني، حـينما كنت ارى ليلة بعد اخرى، ان قططا وكلابا وذئابا تطاردني، وكنت احـيـانا اتفـاداها بمـجـرد الهرب منهـا ولكنني كنت احـيانا اصـمـد امـامـهـا لقتالها بالعصي وما اكثر ما كنت اتغلب عليها اما بالضرب بالعصي او بتـقطيـعـهـا بمـدية كنت احملهـا، ومما أدهشني ان هذه الاحـلام كـانت تعاودني في اسابيع الايام القلائل الاولى من احساسي بالحمل بالطفل، منذرة اياي بأن جـسمي على نحو ما بدا يعي بما تتوعده من (طبيعة حيوانية) آتيـة وذلك بفترة طويلة قبل ان يعي عقلي الشعوري ذلك.

ثـم، في اواخـر ايام حملي، اتخذت الاحـلام المعـاودة تلك مـسـارا غـريبـا جـدا. اذ حلمت انني صـادفت في الطريق كلبا يشبه ذئبا، وعندما هاجمني، رحت اضربه بعـصـا كـانت مـعي حتى انهكته فلم يعد يستطيع ان يتحرك. عـرفت انني سـيطرت عليـه فلم يعـد بمقدوره ايذائي، لكنني استمريت في ضربه حـتى ادركت انه مـات. وبعـد ان مات، لاحظت اثناء موته ان عينيه

(٣) ترجمتـها إلى اللغة العربية وقدمت لها بمقدمة ضافية وتعليقات وافية (المترجم).

قد استحالتا الى لون الذهب واصبحتا خطرتين، وقد تحول وجهه الى وجه امرأة، ادركت وانا في غمرة الفزع ان تلك المرأة استدعيت لتنتقم مني لموت الكلب، فاستيقظت مذعورة وبدا لي انني كنت اردد (ايكوب، ايكوب). تذكرت مباشرة ان هذه انما هي اسماء (هيكوبا) و (هيكات) وكل ما اعرفه عن هذه انها اغريقية قديمة. ايا كانت الحال، فقد جعلت تلك الاحلام تطاردني مما اضطرني الى الذهاب الى المكتبة لابحث في الكتب عن هويتها، وان احساسي الاستخفائي قد تحول الى نوع من الاستياء وعدم الراحة حينما اكتشفت ان (هيكوبا) Hecuba، انما هي زوجة الملك بريام Briam ملك طروادة المندحر، بقيت تناكد يوليسيس اوعوليس Ulysses المنتصر وكانت قد سبيت اليه، فضاق بها ذرعا فحولها الى كلبة ودفع بها الى عرض البحر داعيا عليها باللعنة، بينما كانت (هيكات) هذه (تيتانا) Titan، الأم الجبارة التي كانت مستحوذة على الطبيعة النباتية وعلى الولادات، وكانت لها ثلاثة رؤوس حيوانية، واحد من تلك الرؤوس هو رأس كلب.

لم أكن لاتابع التلميحات الاسطورية هذه، ولكن تراءى لي ان هذه الاحلام انما تتناغم على نحو معين مع ما في عقلي من مكنونات تتحدث في حدود اللغة الاسطورية وبمصطلحاتها من اجل تحذيري من ان الجانب الغريزي من ذاتي، الذي احاول جاهدة في الاعتلاء فوقه والتسامي على نزواته كان اقوى سطوة مما كنت ادرك حقيقته. يبدو لي انني كنت في الواقع أدمر قوتي وطاقتي مخالفة بذلك ارادة طبيعة الأمومة، التي ستنتقم مني ان انا تماديت اكثر، كان هذا تحذيرا بان علي ان اتعلم التعايش مع هذه القوى القائمة في نفسي وان اتقبلها، فهي قوى اقدم واشد سطوة من طموحاتي الشخصية الرامية الى معرفة ومهنة والى تطلعات فكرية، وان يلزمني ان اكف عنها مهما كانت الاخيرة هذه من الاهمية في خطة حياتي الذاتية. وان ما حلمت به من مشاهدتي للكلب وما حلمت به كذلك عن هيكوبا وهيكات كنت قد قرأت عنهما ايام كنت في المدرسة ولعلها ارتباطات منها

علقت في ذهني، ولكن يقينا لم اكن لاتذكر شيئا منها وقت ان حلمت بها. ومع هذا، فقد بدا لي في النهاية ان الدلالة في عقلي الحالم قد استخدم في خاتمة المطاف تكثيفا خالصا لهاتين الصورتين القديمتين القويتين ليوضح لي، اذ لم توضح لي احلامي السابقة، ان قوى الظل التي كان يجب علي ان ادمجها في حياتي لم تكن مجرد سمات خلقية شخصية كنت حتي الآن قد اهملتها، وانما كانت تمثل شيئاً اقوى بكثير مما يظن. ان اللغة المجسمة لمحللي الفرويدي لم تكن من الكفاءة لتحقق العدل لقوى الحلم هذا ولما ينطوي عليه من نوازع وجدانية.

موضوع نمطي نموذجي آخر، اعتقد يونج بأن التحليل الفرويدي اخفق في الانصاف اليه هو ما كان معبرا عنه في الاساطير الشائعة الخاصة بالروح الحارسة للامير المحب في قصص الجن وفي قصص السرانة، الهة الحب، فقد وجد في الغالب ان الصور الذكورية تظهر في احلام الاناث من مريضاته، وان الصور الانثوية دائماً تظهر في احلام الرجال من مرضاه، وفي كلتا الحالتين تبدو الشحنات الانفعالية مبالغا فيها مما يوحي بأن في الأمر ما هو أعمق من مجرد التطلع الى الاشباع الجنسي. وقد اطلق عليهما بالتعاقب عقدتي (الانيموس) (٥) animus و (الأنيما)(٦) anima ، ورأى انهما يمثلان نوعا آخر من مبدأ التعويض الاساسي في التكامل الكلي الشخصي- وهذا ينطوي على حاجة تدعونا الى ان نقر بحقيقة اننا جميعنا لدينا في دواخل نفوسنا كثير من خصائص الجنسين المتضادين المتعاكسين تكمن في اعماق تكويننا لكن طبيعة حضارتنا تقتضينا باغفالها واهمالها. ولذا، فيلزم المرأة ان تهذب وان تروض، بطريقتها الفريدة، ما في تكوينها من الخصائص الذكرية كالمبادرة والجوانب الفكرية التي تمكنها من النمو نموا متكاملا، بينما يلزم الرجل كذلك ان يؤالف في ذاته المؤهلات الانثوية الاساسية في شخصيته كالرقة والبداهة. وان كلا من (الانيموس) و (الانيما) ايا منهمايطغى على شخصية المرأة او الرجل فيتجاوز.مقداره

الطبيعي في شخصية اي منهما، فان سجايا وسمات الجنس الآخر هي التي تكون بارزة اكثر، لهذا علينا ان نرقب احلامنا، كما نصح يونج، لنتبين نوع الرسالة التي بعثت بها الينا ما في داخلنا من خصائص ذكرية خاصة بالرجل او انثوية مبعثها تكوين المرأة، ليتسنى لنا استعادة التوازن في داخل التركيب النفسي الخاص بنا.

ان نظرية يونج عن الانماط الاولية واللاشعور الجمعي هي نظرية معقدة، ولا يمكن الخوض في بحثها هنا في هذا المجال تفصيلا. وقد اكتفيت بدلا عن ذلك بالحاق قائمة بمراجع في نهاية هذا الكتاب لمن رغب من القراء في متابعة الموضوع اكثر. ليس مقصدي في هذا الفصل ان اناقش مختلف جوانب نظريات فرويد ويونج المتعلقة بتفسير الاحلام (اذ ان ذلك يستلزم افراد مجلدات)، وانما ارمي هنا فقط الى تدبر تلك الجوانب ذات الصلة المباشرة بالطريقة الشاملة الخاصة بتفسير الاحلام والتي سابسطها في فصول تالية. وان السبب الذي دعاني للتطرق الى نظرية يونج في هذا المجال هو انه رأى، كما رأيت انا، ان ثمة ضرورة قائمة تقضي بتوجه خاص إزاء احلام محددة معينة كالاحلام المرعبة والاحلام ذات الطبيعة الخارقة ولست اعرف ما اذا كانت هذه الاحلام تنبع عن طبقات قابعة في اعماق النفس، وهذا هو ما يعتقده يونج، لكن الحقيقة هي انها لمن المظنون انها هي كذلك وانها فعلا هي على هذا النحو، ولذلك فلا يمكن تجاهلها. واني سأعالج مثل هذه الاحلام في الفصل العاشر تحت عنوان (النظر الى الداخل).

في الوقت الذي اعتقد فيه فرويد جازما انه اكتشف سر الاحلام، وان يونج لبث متواضعا إزاء ما ظنها ظاهرة كبرى عن عقل الفرد البشري، فهو- يونج- كتب يقول:

(ليس لدي نظرية عن الاحلام، فلا أعرف كيف تنشأ الاحلام، واني تماما لفي شك في ما اذا كانت طريقتي في معالجة الاحلام تستحق حتي

التسمية- طريقة- واني لاشاطر قرائي تغرضهم ضد تفسير الاحلام وموقفهم منه بوصفه جوهراً او خلاصة لاجراءات اعتباطية غير مؤكدة. ولكني، من جهة اخرى، اعرف اننا اذا ما تأملنا حلما من الاحلام بما يكفي فترة طويلة وعلى نحو واف- واذا ما قلبناه على وجوهه المختلفة، ما اوتينا الى ذلك سبيلا، فان شيئا ما تقريبا دائما سينجم عنه ويتأتى منه. وان (الشيء ما) هذا، ليس هو مما يمكننا ان نزهو بطبيعته العلمية او مما يسعنا ان نعقله، وانما هو ينطوي على دلالة عملية ومهمة ترشد المريض الى الاتجاه الذي سيهديه اللاشعور اليه).

ولأن يونج قد اعتقد بأن اللاشعور مهمة استباقية او وظيفة توقعية، لهذا فهو قد حاول معالجة الاحلام على صورة سلسلة موصولة الحلقات بدلا من التصدي لها مجزأة، فأولا، يحصل ان يلقي حلم معين ضوء على حلم اخر اشد غموضاً، وثانياً، ان ما يحرزه مريض من تحسن او خلافه يمكن استباره مما تحدث من تغيرات في احلامه خلال فترة معينة من الزمن، وكمثال طيب يستدل به على سلسلة الاحلام المتلازمة، هو ما تعرضت له من خبرة ايام كنت حاملا، عندما طفقت اقاتلها حتى سيطرت عليها، وانتهت السلسلة بمواجهة ومجابهة مع الطبيعة وقواها بعدما قتلت تلك الحيوانات. وهذه سلسلة احلام لعل يونج لا يرتضيها ولا يسر بها لكي تنبيء بمأساة نفسية محتملة، ما بالك اغير طريقتي في النظر اليها من وجهة نظر يونجية. ان ما يجعل سلسلة الاحلام اكثر اتباعا حينما تمتد فترة طويلة فتستغرق عدة سننوات.

وليس بأقل أهمية من حيث النتائج، هو ما فتحه عمل يونج من امكانية استخدام شيء من تفسير الاحلام من جانب اناس اعتياديين هم خارج نطاق الأجواء المهنية السائدة في غرفة الاستشارة. فهو قد نصح بخاصة مرضاه وقراءه بأن يتأملوا كثيرا في احلامهم حتى يطل عليهم المعنى، واحدة من طرائق التأمل التي نصح بها خاصة هي طريقة (الحوار الذاتي

الداخلي)، وفيها يتحاور الحالم مع واحد من شخوص حلمه. وهذه التقنية، بوسعي القول من خبرتي، يمكن احيانا ان تتيح نتائج رائعة. لعل المحاورة، باديء ذي بدء، تبدو مجهدة شاقة وتلوح كأنها مصممة بصورة مصطنعة، ولكن ما ان يتم البدء بها حتى تتلو ذلك لحظات يظهر فيها الشخص المتصور(بفتح الواو) في الحلم، وقد اكتسب شيئاً من خصائص الحياة يختص بها، وكأنه ينطق باشياء تبعث على الدهشة- فكأنه يتحدث حديثا واقعيا عن شيء من الجوانب المكبوتة او المبعدة النائية من الشخصية. وهذا اساسا هو منحى (فريدريك بيرلز) Fredrick Perls وقد تضافرت جهوده مع جهود (كالفن هول) Calvin Hall ، هو الآخر احد الرواد المحدثين في ميدان بحث الاحلام، وكلاهما اقتفى اثر يونج في اخراج تفسير الاحلام من غرفة الاستشارة، وبسطه في سوق العرض ليكون في متناول الجميع .

هوامش الفصل السادس

(٤) اني اذ اقول هذا لست بحال من الاحوال براغبة في ان انأى بعيداً عن ذكر المنشقين المهمين الآخرين الذين جانبوا اراء فرويد في بواكير الحركة التحليلية النفسية، امثال ادلر وفلهلم شتيكل واوتو رانك، وسواهم، ممن كانت لهم اراء اصيلة سواء منها ما يتصل بالعلاج النفسي بوجه عام ام ما يختص بتفسير الاحلام خاصة. بيد ان يونج كان اكثرهم ابتعاداً ولا سيما في مجال الاحلام، وقصدي في هذا الكتاب عرض اهم الافكار التصاقا بفكرة: فسّر احلامك بنفسك (المؤلفة).

(٥) الانيموس هو الجانب الذكوري في شخصية المرأة حسب رأي يونج (المترجم)

(٦) الانيما حسب رأي يونج هو الجانب الانثوي في شخصية الرجل (المترجم).

الفصل السابع
الاحلام وتطبيقاتها في المجال العملي

منذ منتصف بدء اعوام القرن العشرين هذا، والاهتمام يتنامى بشأن احتمال تمكن الناس الأعتياديين من ان يفسروا احلامهم بانفسهم دون اللجوء الى خدمات المعالجين النفسانيين المحترفين. وهذ المنحى كان قد اشترعه يونج حين وضح ان الاحلام يمكن ان تنطوي على معانيها دونما حاجة تدعو الى تفسيرها بأنها اخفاء لرغبات مذقة مكبوتة: رغبات ليست بمستساغة. وهو بهذا قد استبعد ضرورة الحاجة الى مفسر محايد ينفذ من خلال مقاومة الحالم الى تحري الحقيقة، من جهة اخرى، فان نظام يونج في تفسير الاحلام انما هو نظام معقد وهونوعا ما نظام لا يخلو من تعقيد وابهام، متضمنا نظامه هذا معرفة بعلم الاساطير القديمة وبمقدار من الحدس هو فوق متناول الأعتياديين من الناس.

ومنذ الحرب العالمية الثانية، على اية حال، كان هناك باحثان نفسانيان امريكيان- احدهما كالفن هول وهو باحث في التجارب على الاحلام، والآخر هو فريدريك بيرلز، وهو معالج نفساني غريب الاطوار- هذان الباحثان قد اخذا الموضوع برمته بعيدا عن غرفة الاستشارة وجعلا تفسير الاحلام أمرا يتسنى لنا جميعا في حياتنا اليومية. فهما وان تناولا الموضوع من جانبين مختلفين ومن وجهتي نظر متباينتين وطورا نظريات تختلف عن بعضهما تمام الاختلاف فيما يتصل بالانتفاع بالاحلام واستخدامها، بيد اني ارى ان طرائقهما المستعملة تلك انما هي طرائق متكاملة. وسأوضح في فصول تالية كيف ان بعض الاحلام تنسجم ومعطيات طريقتيهما مع ما تتيحه من نتائج نافعة، بينما نجد بعض الاحلام تبدو اكثر ملاءمة مع نمط معين من انماط التفسير ولا تتفق مع نمط اخر سواه.

طريقة هول في تحليل محتوى الحلم وتفسيره

تناول (كالفن هول)، الذي كان مديرا لمعهد بحوث الاحلام في ستاكروز، مشكلة تفسير الاحلام بصورة اساسية من وجهة نظر علمية. وخلال فترة الاربعينات، لم يعد هول مقتنعاً بنظريات المحللين النفسانيين بشأن الاحلام وعبر عن عدم رضاه هذ على اساس انها نظريات قائمة بصورة رئيسية على نماذج شاذة ليست بقياسية من الاحلام تقدم بها مرضاهم في طور العلاج. لهذا فهو قد شرع حقا بجمع عينات واسعة من الاحلام مصدرها اناس اسوياء استطاعوا تذكر احلامهم في ظروف اعتيادية مرت بهم خلال نومهم في بيوتهم. اذ طلب الى هؤلاء الاشخاص ان يدونوا ما يتذكرونه من احلامهم على استمارات مطبوعة تتضمن اسئلة محددة تخص بنية احلامهم، وطبيعتها وحبكتها، والانفعالات فيها. اعقب ذلك ان هذه الملامح للاحلام قد تم ربطها ومقارنتها بما اتيح من معلومات تم التحقق منها موضوعيا تتصل بعمر الحالم وجنسه ومهنته، وما الى ذلك ليتوفر للمرة الاولى تقرير متكامل الصورة عما يحلم به عادة اناس من مختلف المشارب.

ففي هذه الدراسة الرئيسية، التي تعتبر ايذانا بتوجه مهم جديد في سيكولوجية الاحلام ، وهو ما يعرف الآن بتحليل محتوى الحلم analysis of dream content (وهو ما لا يجوز الخلط بينه وبين تفسير الاحلام)، كان(هول) قد جمع وحلل ما لا يقل عن عشرة آلاف حلم من احلام اناس اسوياء. وقد ضمن هول نتائج تحليله هذه، وما توصل اليه من استخلاص بشأن طبيعة الاحلام ومعناها ، ضمّن ذلك كتابه: معنى الاحلام ، The Meaning of Dreams نشر عام ١٩٥٣ وهو نفس العام الذي تم فيه اول مرة اختراق كبير في مجال بحوث الاحلام وذلك عندما تم اكتشاف فترة Rem التي تعتبر المؤشر الموضوعي بشأن الاحلام. وان لارى في هذا

توافقا يبعث على الغبطة لما له من تأثير على تحديث افكارنا عن عملية الحلم نفسها وعن نظيرها السيكولوجي الا وهو الحلم نفسه. وفي الوقت الذي استطيع فيه اعطاء لمحة موجزة عن نتائج هول وما بلغه من استنتاجاته، فأني لأوصي بقراءة هذا الكتاب المهم والممتع، ولعله الاول من نوعه في تطويع تفسير الاحلام ووضعها ضمن نطاق المجال الواقعي للناس الاعتياديين.

وبأختصار، فقد وجد هول ان اماكن الحلم انما هي بوجه عام جد اعتيادية، فهي لا تتعدى في العادة كونها بيتا او سيارة، او شارعا مألوفا، او متجرا معروفا اذ قلما يحلم الناس احلاما تتعلق باماكن عملهم، كالمكتب مثلا او المصنع، وهذا ما حمل هول على ان يخلص الى القول بأن احلامنا تظهر لنا اعراضاً عن اعمالنا كالنشاط والقيام بجهد، او الدراسة، او المضاربات التجارية، وتجنح الى تقريبنا من الفعاليات الترويحية. وقد توصل في الوقت ذاته إلى ان الافعال العدوانية، والانفعالات السلبية كالخوف، والغضب، والحزن، قد رجحت على انفعالات المودة والاعمال الحميمة، والانفعالات الايجابية والمسرة. وان معظم الشخصيات التي تظهر في الاحلام انما تمثل للحالم اناسا أحتكّ بهم كثيرا خلال ساعات حياته الواعية، وكذلك شخصيات مجتمعية عامة معروفة لا يتكرر ظهورها في الحياة العامة الا قليلا. من هذا كله استخلص هول ان الاحلام قلما تهتم بشؤون الحياة الاعتيادية، وهو استنتاج تعززه حقيقة تقول انه وان كان يجمع احلاما كل يوم من طلاب يلتقي بهم خلال الايام الاخيرة من الحرب مع اليابان، فهو لم يتسن له قط الحصول على مثال واحد يتعلق باسقاط القنبلة الذرية.

كتب (هول) يقول: (ان الحلم وثيقة شخصية، انه رسالة موجهة الى الذات، فهو ليس قصة منشورة في صحيفة ولا هو مقالة مسطورة على صفحات مجلة)، والتعبير هذا يشبه ما كان قد ذكره (الفريد ادلر) عن الحلم

حيث وصفه (انه رسالة شخصية موجهة الى النفس) تتضمن دلائل واشارات تتعلق بمشكلات شخصية وصراعات لم يتم حلها بعد. وكان (هول) مضطرا بحكم ما توالى لديه من شواهد علمية، الى ان يخلص الى القول، كما خلص يونج الى القول قبله، انما الحلم ببساطة هو لغة الصور الطبيعية للعقل النائم تقوم بترجمة الافكار الى صور فكرية مجسمة، دونما اية نية لتضليل الحالم او خداعه. فهو يتفق ويونج على ان الحلم انما يكشف باوضح ما يمكن وبطريقة اشد اقتصادا عن الحالةالقائمة لحياة الحالم الداخلية وانه غير معني اساسا ببعض الصدمات الطفلية المكبوتة منذ امد بعيد، وان كان هذا لا ينفي في بعض الحالات ان تنعكس مثل هذه الصدمات احيانا في بعض الاحلام. والحق ان ما ذكره (هول) هو ان الحلم يعكس على اوضح وجه وادقه ملخصا لما يفكر به الحالم اثناء نومه. فهو- الحالم- معني بذاته، وبعلاقاته باولئك المحيطين به، وبمأزمه وبما يقلقه، يمكن القول ان الحالم يمضي معظم وقته وهو يعبر عن منغصاته خلال نومه- منغصات ومزعجات تتعلق بوضعه كشخص، مفكرا كيف يراه الآخرون، وكيف هو ينظر اليهم، وما يحس به كيف سيكون وضعه في هذا العالم وماذا سيحل به في دنياه.

ان الطريقة التي يرى الحالم فيها نفسه، مثلا، انما يعبر عنها في احلامه بمقدار ما يضفي عليها من ادوار ابان يقظته. فهل هو ينظر الى نفسه اثناء يقظته انه ضحية لعدوان معتد عليه، هل يرى نفسه قويا او ضعيفا، هل هو جبان هياب او شجاع مقدام؟ وبنفس الصورة تبدو له في احلامه نظرته عن الآخرين، فالشخص الذي يستشف من تصرف ابيه معه، مثلا، انه رجل متزمت او انه مستبد فأنه يراه في حلمه بهيأة ضابط او شرطي. ويذكر (هول) انه عندما يظهر في احلامنا اشخاص غرباء او شخصيات لا نعرفها، فانهم دائماً على وجه التقريب انما يمثلون تجسيدا لادراكاتنا عن اناس نعرفهم في حياتنا الواعية حق المعرفة. والادراكات هذه تتباين،

بحيث يتراءى للمرء وكأنه يرى امه في احدى الليالي ساحرة ويراها في ليلة اخرى تبدو له بزي ملكة. لم يواجه (هول) صعوبة كبرى في تقصيه للهوية الحقيقية لأمثال هذه الاشكال والشخوص التي تظهر من تداعيات الحالم خلال نومه.

ويبدو ان الموقف في الحلم انما يعكس كذلك احاسيس الحالم ومشاعره حول عالمه الحقيقي وذلك بتحويل افكاره الى لغة قوامها الصور. فاذا ما كان يحلم باستمرار وكأنه يرى نفسه في اماكن ضيقة جداً عليه، فان احلامه هذه تعكس احساسه عن عالمه الواقعي وكأنه يكاد يأخذ بخناقه، واذا ما كان يحلم دائماً ببحار مائجة، او غارات جوية جائحة، او زوابع رعدية هائجة، وما شاكل ذلك، فأن احلامه هذه انما تمثل فكرته الحقيقية عن عالمه الذي يراه مليئاً بالتهديد والتحطيم والتدمير. (فكثير من الناس يحلمون الآن بالقنبلة الذرية علما ان فكرة التهديد الذري قد اصبح الان في عداد المحتويات العامة القابعة في عقولنا، لكن الارتباطات العقلية تقريبا دائماً تمثل ما ترمز اليه القنبلة الذرية في الحلم بأنه احساس وقلق في حياة الحالم الواعية اكثر من كونه قلقا بشأن ما سيقع من حرب او سواها).

يذهب (هول) الى ان الشخص النائم يستطيع رؤية افكاره مجسمة في هيأة صور، واننا لندرس الاحلام لكي نتبين منها ما كنا نفكر به اثناء النوم. ان الافكار التي تتراءى لنا في الاحلام تكون اكثر اثارة وابلغ افصاحا عما هي عليه افكارنا في الحياة الواعية التي يعتم عليها ويقمعها رقيب العقل الواعي لتتساوق وصورة الذات التي نريدها لانفسنا كما نرغب نحن وكما هي عليه ذواتنا بالفعل.

كان (هول)، مثله في هذا مثل (يونج)، محجما عن الرأي القائل بأن الحلم لا شأن له باخفاء او تشويه الافكار المتضمنة في الحلم، وهو لهذا يعزز وجهة نظره هذه بمناقشات قاطعة فهو قبل كل شيء قد توصل الى ان كثيرا من الاحلام التي يرويها المجرب عليهم يمكن تشخيصها مباشرة من

جانب الحالم نفسه بانها بيانات رمزية تشير الى احداث جنسية، دونما حاجة تدعوهم الى استشارة محلل مختص. اذ ما جدوى طمس معالم شيء في حلم ما، طالما ان الشخص لدى استيقاظه يدرك توا ما في ثنايا حلمه ذاك؟ واحد الأسباب التي تمكننا من ترجمة احلامنا هو ان ما تستخدمه احلامنا هذه من رموز انها تشبه تماما ما نستعمله من مسميات ورموز خلال حياتنا اليومية الدارجة مثل البندقية، والاداة، والديك، او الآجرة، وما ماثلها. ويرى (هول) ان (فرويد) بترويجه هذا الى ما يقوض دعائم نظريته عن الاحلام القائلة بان غرض الحلم انما هو التمويه والاخفاء، نظرا الى انه من غير المعقول القول بأن الحلم حين يلجأ الى استخدام صورة البندقية او المفك لأخفاء فكرة القضيب، اذا كان الحالم في حياته الواعية يفكر بان قضيبه يمثل سلاحا او اداة للفك.

وجد (هول) ايضا، كما وجدت انا كذلك، ان حالما ما قد يرى حلما رمزيا يتمثل فيه نشاط جنسي في ليلة سابقة وقد يتبعه نشاط جنسي حقيقي في ليلة لاحقة. وهنا يتساءل (هول): أمن المعقول الظن بان العقل النائم يحضر في ليلة لاخفاء تام وفي ليلة تالية يكشف ما كان يخفيه؟

واخيرا، فان (هول) يحاجج القول ان مجرد التكثير من الرموز الجنسية في نظرية التحليل النفسي يجعل نظرية التمويه والاخفاء مدعاة للسخرية. ففي بحث اجراه في ادبيات التحليل النفسي، وجد (١٠٢) رمزا مختلفا من رموز في الاحلام كلها تشير الى معنى القضيب، ووجد (٩٥) من هذه الرموز تشير الى الرحم، ووجد كذلك (٥٥) رمزا فيها يدل على الاتصال الجنسي، اذ وجد ان هذه كلها تمويهات تعبر عن الجنس وما يشتق منه. ومن هنا ينطلق هول الى القول: اذا كانت هذه كلها مجرد اقنعة تخفي افكارا جنسية محرمة، فان هذا يعني ان تفسير الاحلام يتضاءل شأنه الى حد الاكتشاف الممجوج الذي يجعل منا وكأننا جميعا مصابون بالهوس الجنسي، وحتى اذا كان هذا صحيحاً فانه امر لا جدوى منه وليس بذي غناء. ولعل اجدى

طريقـة واكـثـرها عقلانية هي ان نتقبل العلاقة التي تربط بين الاشياء المدببة والقـضيب كشواهد قائمة بذاتها ومن ثم نسأل لماذا يختار شخص ما او يميل الى ان يختـار رمـزا واحـدا بعـينه ليـدل على العملية الجنسية- كأن يختار مثلا رمـزا يدل على العـدوانيـة كـالبندقية او السهم- بينما يجنح شخص آخر سواه الى اخـتيار رمز مغاير للاول تماماً، كأن يختار نافورة ماء. خلص هول نتيجة لبـحـوثه الخـاصـة الى القـول ان مـا يظهـر من رموز تخص الجنس في مختلف احـلام الناس المتـباينة انما ترتبط ارتباطا مباشرا بمشاعر الحالم نحو الجنس في ذلـك الـوقـت بـالـذات، وهـنـاك مـن يراها- الرمـوز- تنطوي على النزعـة العـدوانيـة، ومنهم من يحسـبـهـا مـفـعـمة باستمرار الحياة وحيويتها، وهلم جرا.

يتـفق هول ومـا يذهب اليـه يونج على ان اللغـة الرمـزية للاحلام انما هي صـيـغة جد مكثفة للتعبير الذي ما أن نفهمه وندرك مغزاه حتى يجلو لنا كثيرا من جـوانب تفكيرنا الذي يغـيب عن مـلاحظتنا بأن سـيـاق حياتنا اليومية، حين نكون منهـمكين في تنظيم حـيـاتنا والافـصـاح عن ذواتنا بمـفاهيم من الـلـغـة مجردة. وهو بهذه المناسـبـة وتدعيما لرأيه يتـمـثل بقـول تورجنيف، الكاتب الروسي الذي يقـول: (ان الصـورة لتعكس على التو ما تتطلبه مئات الصفحات من وصف في كتاب).

وان هول مـقـتنع بأن اي واحد يتبع هدي قواعد بسيطة يتمكن من تفسير احـلامـه الخـاصـة به. فهو يرى ان الاحلام انما هي صور لما يفكر به العقل اثناء النوم، ويذكـر ان (اي فـرد ينظر الى صورة ما ثم يقول ماذا تعني يجب ان يكون قـادرا على النظر الى صـور احـلامـه والقول ماذا تعنيه. ان ما يعنيه الحـلم لا يمكن ان يوجـد في نظرية تبـحـث عن الاحـلام، انما نجـد مـعنى الحلم كـامنا هناك في ثنايا الحلم نفسه وفي تضاعيفه). وفي الوقت الذي نجد فـيـه (هول) ينصح الناس المضطربين عقليا الذين يلزمهم ان يلتمسوا النصح للعـلاج، بالا يفسروا احـلامـهم بانفـسهم تفسيرا ذاتيا، فانه شديد الاعتقاد

بان اي شـخص سليم العـقل يمكن ان يصـبح خبيرا في فن تفسير احلامه، وهو اسـتنتـاج قـد توصلت اليـه فـعلا خلال ما قمت به من بحوث في هذا المضمار، وستـبين ذلك في فصول تالية من هذا الكتاب.

وثمـة من وجـهة نظر (هول) اربع قواعد تتبع لتفسير الاحلام، يجب دائماً اخـذها في الاعتبار، وهذه القواعد هي:

١- ان الحلم ابداع من صنع عـقل الحـالم ينبئه كـيف يرى نفسه، وكيف يـنظر الى الآخـرين، والعـالم من حـوله، والى دوافع ونزواته، ومـا الى ذلك، وعليـه فـلا يجب ان يقـر على انه دليل الى الواقع الموضـوعي - وبتعبير آخر، انه لا يعطينا الحـقـيـقـة عن الاشـيـاء وحـولها، وانما هو فقط يقدم لنا صورة مجسمة كيف تبدو لنا تلك الاشياء.

٢- ان الحـالم مـسـؤول عن كل مـا يظهر له في حلمه، فاذا ما حلم عن شيء ما، مهما كان الشيء هذا فظيعا او سخيفا، فلا بد انه كان قد فكر من قـبل به وقـد ساورته فكرته وراودته خبرته.

٣- لدى الحـالم عـادة اكـثـر من مـفـهـوم عن نفسه وعن غيره من الناس الاخـريـن وعـن الـعـالم مـن حـوله، وعن اندفـاعـاته ونزواته، وان المفـاهيم المتعددة هذه تتراءى له في احلامه فتبدو له مجسمة.

٤- ينصح هول، مـقـتـفـيـا بذلك خطى يونج، بوجـوب قراءة الاحلام على صـورة سلسلة منتظمـة بدلا من تأويلها منفردة مجزأة، فهو لهذا يقول لا ينبـغي قط تفـسير حلم ما دونها استشارة حقائق الاحلام الاخرى والاستهداء بها كـسلسلة متصلة لبيان كيفية ارتباط افكار الشخص بعضها ببعض وسبيل اتسـاقـهـا مـعا. وغالبا ما يبدو معنى حلم من الاحلام من الوضوح والجلاء التـام، وان مـثل هذه الاحـلام البادية الوضوح كثيرا ما تسلط الضوء على ما في ذهن الحـالم وعـقله من نتـاجـات رمـزية مـعـقـدة. فما في عقل الحالم من ارتبـاطات يجب دائماً ان تتـيح اسـتنتاجات نافعة. ان بحثي في مجال الاحلام قـد رسخ لدي قناعـة بقـيـمـة مـا ذهب اليه (هول) من تفسير واقعي وعملي

معتمدا المنهج العلمي والحس الباده، وهذا ما اظهرته نتائج ابحاثي في الامثلة التالية المستمدة من وثائق دراساتي الشخصية عن الاحلام ومن خبرات الذين اجريت عليهم تلك التجارب: ان الاحلام معنية بما يلي:

(أ) كيف ارى نفسي

هذه سيدة، وهي زوجة رجل اعمال، اعتادت على امضاء جل وقتها تولم بنجاح ولائم حافلة تستقبل فيها زملاء زوجها، فراحت اثناء ذلك ترى احلاما تعاودها باستمرار تتخللها احداث تفسد تلك المناسبات الاجتماعية. ففي احد تلك الاحلام، رأت الخادمة وهي تصب الشوربة فوق المائدة كلها فتشوه المنظر، وفي حلم آخر رأت نفسها تتحدث لغة اجنبية بلهجة عامية، علما ان تلفظها كان سليما لا تشوبه شائبة؛ وفي حلم ثالث اكتشفت في آخر لحظة ان وجبة الطعام التي اعدتها وكانت على وشك ان تقدمها على المائدة تتألف فقط من النقانق(١) والفاصولياء الجافة المطبوخة.

وحينما راحت تتأمل احلامها تلك وتفكر فيها، وفي ضوء آراء هول بشأن الاحلام، فان زوجة رجل الاعمال هذه ادركت لتوها كم هي في قرارة نفسها كانت في الواقع تحس بالقلق وعدم الامان ينساب في ثنايا ذاتها في الخفاء تحت ذلك المظهر الانيق البراق الذي كان يبدو عليها وتظهر به. فهي تتحدر من خلفية اجتماعية تنتسب الى أسرة لا ترتقي الى مستوى اسرة زوجها، وهي في حياتها العقلية الشعورية وان لم يساورها ارتياب بشأن قدرتها علي الاندماج في بيئة زوجها، فان جزء من وعيها كان باستمرار يخشى اذلالا مصدره اصل تحدر زوجها ومستواه الاجتماعي. وان مزيدا من التداعيات قد اظهرت انها- السيدة- كانت قد ضاقت ذرعا بحياتها جراء ما فرضه عليها وضع زوجها، ودون قصد منه، من اجهاد عضلي وتوتر نفسي.

روت امـرأة مختـصـة بالعلوم حلما يتسم بالوضوح فذكرت انها رأت نفسها جـالسـة لاداء امـتـحـان في الأدب الانكليـزي وانها تؤدي الامـتحان ذاك في اقليم تهدده مخاطر ثورة زنجـية. فما ان دخلت القاعة حتى وجدت نفسها في مـوقف بيئس اذ لم تكن قـد هيأت نفـسها لذلك الامتحان لهذا لم تتمكن من الاجـابة على سـؤال واحد. وقد حانت منها التفاتة خلال النافذة، فشاهدت في الخـارج هناك اهل المنطقـة متسلحين بالرماح والفؤوس، لذلك قررت ان تغـادر على عـجل فـاسـتـيقظت من نومها في غمرة هربها من مشهد الحرب تلك.

ولما لم يكن هناك في حـيـاتها امـتحان قائم او وشيك، فقد طلبت منها ان تـربط بهذا الحلم مـا يرد على ذهنهـا من ذكـريات. فـذكـرت ان الحلـم من خـشـيـة الاخفاق في الادب الانكليزي كان امرا يساورها ويلازمها. وان هذا الامـر قـد ادهشـهـا ايما ادهاش ذلك لانها في العلن تزدري دنيا الادب الذي اهملتـه تمامـا واعـرضت عنه في اعـوامها الماضيات وكانت منصرفة بكل قواها الى المجـالات العلمـيـة. غير أن احـلامـها راحت تحكي قصة مختلفة تماما اذ جـعلت تلك الاحـلام تكشف عن قلق وعن مـشـاعر بالعجز حيثما احست وكلما شـعـرت بالعـجـز عن اجـتـيـاز اي امـتـحـان في بعض مواقف الحياة المحـددة. وفي هذه الحـالة فـقـد تم تذكيرها بصف تحضر فيه دروسا مسائية، يحاضر فـيـه محاضر، وان لم يكن اختصاصه الادب، بل هو مختص بالعلوم، الا انه كـان يكثـر من التـمـثل باشعار من شعر شكسبير وسواه من الشعراء الآخـرين. وكشف القسم الآخر من الحلم بوضوح عن اسباب قلقها البالغ، لا خـشية من الاخفاق في امتحانه والفشل فيه، بل لخوفها من ان يقل شأنها في نظره، امـا الثـورة الزنجـيـة في الحلم فـانها توضـيح عن اهتـيـاج النزوات الجنسـية عندها، وبايحاء مني، اعترفت على استحياء ان مشاعرها نحو ذلك المحـاضر قـد تجـاوزت كـثيرا حدود الاحساس بالصداقة. فالحلم قد اظهرها في مـواجـهـتـهـا للمـوقف الذي تمثلتـه حافلا بالخطر ومفعما بالتهديد، وكان

تصديها في حلمها للموقف بالهرب، وهربها هذا انما يعكس مشاعرها الجنسية. ولقد ايدت هذا الرأي واضافت اليه ان ما رأت فيه نفسها من احلام اخرى وفيها يطاردها رجال او حيوانات ربما تشير الى ما يستقر في اعماقها من مخاوف تتعلق بالجنس.

هذان فقط مثالان يوضحان ما يذهب اليه (هول) في توكيده على ان أي فرد يلتقط مائة حلم من احلامه ثم يتفحص دوره فيها سيتبين له في خاتمة المطاف ان بمقدوره ان يكتب مقالا بعنوان:

(ماذا ارى في نفسي)

(ب) كيف ارى الآخرين

روت احدي زميلاتي حلما رأت فيه رجلا جاريا في الشارع بسرعة وهو يرتدي مزردة(٢). وقد ارتطم بها فأوقعها ارضا، فاصابها برضوض بسيطة طفيفة. فمضى في جريه ذاك وكأن شيئاً ما لم يحدث. فاتقدت غضبا عليه لغلطته وفظاظته ولعدم اكتراثه بها لذلك فقد عزمت علي ان تتظاهر باصابتها بجروح ابلغ مما اصابها في الواقع، وذلك لتضطره الى دفع تعويض لها عليه ان يدفعه.

وقد افضت الي انها في واقع حياتها الواقعية ان زوجها قد اخبرها لتوه انه على علاقة حب بامرأة اخرى، وانه قد ازمع على ان يتزوجها. عند ذاك احست زميلتي بما جرح مشاعرها جرحا بليغا، ولا سيما مما بدر منه من عدم اهتمام بشأنها وبمصيرها. ولقد تمكنت على الفور من تشخيص ذلك الشخص الذي ظهر لها في الحلم بأنه زوجها، وقد اعربت عن دهشتها بعظيم ما فكرت فيه في الغالب معتبرة اياه (ذكرا مكبلا(٣)). وقد ارتعبت كذلك عندما علمت ادركت من حلمها ذاك انها كانت قد تجاوزت المدى في غضبها اكثر مما احست في الواقع بالاساءة، لما بدر منه من سلوك ازاءها، وانها قد إنتوت تماما ان تجعله يدفع الثمن كفاء سلوكه ازاءها وقد

اقـرت بعـد تلكؤ ان الحلم كـان صـحيحا في كشفه عن أن اخر شيء كانت تفكر به وتتـوقـعـه هو ان يفلت ذلك (الذكـر المقيد) من هيمنتها وان يسعى الى انعـتـاق وانطلاق. وقـد اعـتـزمت كـذلك ان ترقب سلوكـهـا المشـحون بالميـول الانتـقـامـية المدمرة، تلك الميول التي ادركت معها انها ميول لا تخدم غرضاً سوى زيادة الموقف سوءاً.

أتذكـر حلما يدعـو الى الضـحك رأيت فـيـه نفسي مع رجل صديق لي في سـيـارة مـتـجـهين صـوب حـاجز كمارك عند حدود تقع بين بلدين، وعندما اقـتربـنـا مـن المكان، اصر صـديقي على ان اوقف السـيـارة امـام حـانوت حلويات، وذهب هو الى الحـانوت لشراء شيء من الحلوى. عـاد وهو يحمل مـدفـعا مصنوعا من الشيكولاته، وحين سألته عما ينتوي ان يصنع به، اشار اليّ ان اتبـعـه وقد سار خلال حقل يخترقه سياج يمثل حدا فاصلا بين ذينك البلدين. فما كـان منه الا ان نصب المدفع امـام الحـاجـز واشعل فتيلا بعناية وهو يقـول تلك هي الطريقـة الوحـيـدة التي يتـمكن بها من اجـتـياز الحدود واختراق الحـاجـز وقـد اكدت له ان جوازاتنا سليمة وانه ليس معنا ما يدعونا الى الـقـلـق. لـكنه مكث غير مـقـتنع بما قلت، وعندمـا انطلق ذلك المدفع بشكل فـاتر، قـذف به فـرمـاه باتجـاه السـيـاج، وقد تمكن بعد لأي من أن يسـتـقـر على قـمـتـه، وهو في حالة مزرية، ثم هوى على الجانب الآخر من السياج.

وقـد تأدت التـداعـيـات الى ذكـريات الطفولة (او الخيالات والاوهام) يوم شـاهدت مـهـرجا (شخص مضحك) ينطلق من فوهة مدفع، وهذا ما يشير الى هـذه الـلحظة بالذات من هذا الوقت، اذ رأيت صـديقي وهو هنا يرمـز الى المـهـرج ذلـك الـذي اصر عـلى ان يضطلع باصـعب دور في حين كـان بوسـعـه ان يقـوم باداء أدوار أيسر وأسـهـل كثيرا مما كان قد قام به. ان صورة الحلم وهي تعكسه لي منقذفا من فوهة المدفع عبر السياج لا يمكن بحال ان تعبر عن عـميق احـاسيسي اوفى مما عبرت عنه على ذلك النحو الهزلي الملائم

حقا.

يوضح المثال الثاني هذا نقطة ساتولاها بالشرح مع شيء من الاسهاب في الفصل القادم، واعني بذلك ان الاحلام في الوقت الذي تكون فيه معنية بما يفكر به الحالم او بما يحسه ازاء اناس معنيين او نحو احداث متفاوتة، فأنها- الاحلام- يمكن احيانا، وبعد تأملها وتفحصها، ان تكشف عن بعض الحقائق الموضوعية التي كان الحالم نفسه او الشخص الذي يفكر فيه، يحاول تفاديها ويجتهد في اجتنابها خلال ساعات حياته الواعية. وفي هذا الحلم بالذات وجدت صديقي قد اخذته الدهشة مما فيه من احداث، وانه قد اقر بعد تردد باضماره مشاعر تتسم بمضايقات وملاحقات لا عقلانية، جعلته كثيرا ما ينغمر في ما كان يبدو للاخرين انها اساليب مضحكة وتكتيكات ملتوية في سبيل اخفاء نزواته تلك.

(جـ) كيف أرى العالم

روى لي احد الذين كنت اجري عليهم التجارب من الذكور أنه حلم وكأنه يجري فحصه تمهيدا لأجراء عملية له خاصة بأرتفاع ضغط الدم عنده. وكان جهاز قياس ضغط الدم الذي رآه في حلمه ذاك عبارة عن صليب من الخشب كبير وقد تم تشبيح جسمه على ذلك الجهاز وتثبيته من الرسغين، ذلك بامتداد ذراعيه على طول عارضة الخشب الافقية. وان الممرضة الواقفة على جهة احد الذراعين كانت زوجته، اما الواقف على الجانب الآخر فكان رئيسه في العمل، استيقظ من نومه ومن حلمه وهو يسمع صوتا يقول: (ينبغي ان نجري العملية له فورا والا فان الضغط سيفجر قلبه).

ففي الحياة الواقعية، لم يكن الحالم يتمتع بصحة موفورة فحسب، وانما كان كذلك قد اخضع نفسه لتوه الى فحص طبي شامل، وهو ما يحتمل ان يكون قد أوحى الى ذهنه بذلك النوع من الحلم. ولم تكن ثمة صعوبة تذكر تحول دون ان يتبين من حلمه ذاك وان يستشف من خلاله انه لم يكن على

شيء من الصحة العقلية كبير مثلما كان يتمتع به من صحة جسمية كشف له عنها الفحص الطبي الدقيق. انه وان كان يرى نفسه يحيا حياة طبيعية وانه بصحة تبدو له جيدة، الا ان الحلم اظهر له بوضوح لا غبار عليه انه (ضحية) لتوترات يتعرض لها وهو دائب بين البيت والعمل، وان ما سمعه من الفاظ لدى استيقاظه انها كانت توحي اليه بضرورة إجراء تغييرات جذرية على اسلوب حياته قبل فوات الاوان.

وشخص آخر روى لي حلما انه وصديقة له كانا يسيرات متشابكي اليدين بنشوة، في واد هادىء، حين بدا لهما فجأة شق في الارض امامهما، راح الشق هذا يتسع اكثر فأكثر، وحاول ان يجتازه قفزا ساحبا صديقته معه. لكنها كانت مذعورة وقد قاومت محاولته تلك، وكانت النتيجة ان تخلى عن محاولة سحبها الى جانبه، وقد هوت في اعماق هوة بدت انها سحيقة. وبينما هو كان واقفا على الحافة الاخرى يرى وابلاً من الاحجار يتراكم فوقها وهي تتوارى تحت ذلك الركام، بدا له ذلك المنظر الطبيعي الخلّاب وكأنه يتغضن او يتكسر فاستولى عليه الخوف من انه هو ايضاً سينسحق تحت وطأة تلك الجلاميد المتدحرجة المتهاوية من الجبل باتجاهه.

وبربط الاحداث بالحلم، ذكر ذلك الشخص انه خلال العامين الماضيين كان على علاقة سعيدة بالنسبة اليه منطلقة من حدود القيود. يمارسها مع تلك الفتاة التي انبأته فيما بعد انها تحس في احشائها جنيناً يتحرك. انه من جهته اذن لها باجهاض الحمل، لكنها رفضت ذلك، معربة له عن رغبتها الملحة في الزواج الشرعي منه والابقاء على حياة الطفل. غير ان الشخص المعني هذا احس احساسا شديدا انه ليس بمستعد للزواج، وبما انه كان مغرما بالفتاة ومتعلقا بها، فقد استجاب الى مطلبها فوافق على الزواج منها، ان الحلم قد اوضح بجلاء كم كان هذا الشخص فاقدا الامل في كل ما يتعلق بالموقف: اذ رأى وكأن العالم يتهاوى تحت قدميه ومن حواليه، مترتبا على ذلك انه لم ينج هو والفتاة.

وبمتابعة الحلم خطوة ابعد، واذا ما قبلنا مقولة هول بأن الحالم هو المؤلف الوحيد لحلمه وانه المسؤول الفريد عن كل ما تقع فيه من احداث، فمن الجلي الواضح اذن ان صاحب الحلم هذا كان يرغب في قرارة نفسه في تحطيم الفتاة لعدم (مطاوعتها اياه) في قبول الاجهاض، ويتضح هذا من التسبب في جعلها تسقط في تلك الهاوية. ويرجح انه تحت وطأة الاحساس بعقاب الذات لاضماره مثل هذه الرغبة، لذلك فانه قد استجلب لنفسه الموت الذي تراءى له في ذلك الحلم، واني لا ادري ما اذا كان قد تزوج الفتاة ام لا، لكن الحلم قد اشار بوضوح الى انه سيكون على ضلال ان هو فعل ذلك.

(د) كيف ارى نزواتي

في الوقت الذي لا يكون فيه هناك ادنى شك في ان فرويد كان محقا فيما ذهب اليه من ان كثيراً من الاحلام انما هي تعبير عن دوافع جنسية وعدوانية، فان هول يذهب في نقاشه الى ان معظمنا لا حاجة بهم لان يلجأوا الى الاحلام لكي يكتشفوا ان لدينا مثل هذه الدوافع. وان ما هو بمقدورنا ان نتعلمه علي اية حال انما هي الطريقة التي نستبين بها نزواتنا في اي وقت من الاوقات والكيفية التي نأمل فيها ان نشبع دوافعنا او نرضيها.

شخص ممن اجري عليهم تجاربي في الاحلام، وهو شخص متزن هاديء الطبع معتدل المزاج، كان يرى احلاما متكررة يشهد فيها باستمرار اعمال تعذيب وحشية تجري امامه، وهو يحتج عليها ولكن دون جدوى. وقد وجد ذلك مزعجاً له فالتمس مساعدتي لكي يفهم احلامه تلك، فاقترحت عليه ان يتأمل في مضمون رأي هول الذي يقول فيه بأننا نحن انفسنا مؤلفو كل ما يحدث في عالم احلامنا، وكان ما أشد دهشته اذ ادرك انه هو نفسه كانت من بعض نواياه في الاقل يتمنى حقا ان يرى الآخرين يقاسون من الذل والاذى، فأحلامه قد كشفت عن ان هذه طريقته في التنفس عن هذا (الجانب المعتم) من طبيعته اذ كان يتوخى معالجة مواقف يقترف فيها اناس

اعمالا عـدوانيـة هو في قرارة ذاته لا يقرها (ولا يحلم بارتكابها).

فـتـاة ممن كنت اجـري عليـهـا تجارب الاحلام، حلمت انها كانت تتزلج على الجليـد هابطة من اعلى جـبل الى سـفـحـه. وقـد فـزعت فزعا شديدا اذ رأت نفـسـهـا تتطوح باتجـاه حـافـة منحدر سحيق، وعندما احست انها على وشك ان يبـتلعـهـا الموت، في تلك اللحظة انحـرفت الزحلوفـتـان(٤) جانباً فـبلغت مأمنا وتخلصت من مـوت كـان ينتظرها. ان مـا يقترن بحلمـها هذا من ارتبـاطات كـشـفـت عن ان التزحلج على الثلج جعلها تستذكر استثارات لذيذة ومـغـامـرات مـقـبـولة لديها، وهذه كلهـا ذكرتها بلقاءاتها الغرامية مع عـشـيـقـهـا الجـديد. وقـد اخبرتني انها كـادت ان تقع في شراك حبه، لكنه بدوره لم يظهـر مبادلتها نفس المشاعر والاحاسيس. كان هناك، كما ذكرت، شيء من البرود يكتنف العـلاقـة بينهما، وان الحلم قـد صـور برود العـلاقـة هذه بابرازها على شكل عـمل تمثل على مسرح الثلج. وان الحلم قـد اوضح كذلك انها كانت تخشى ان تسمح لنفسها بالانطلاق الى اقصى الغايات تماما خـوفـا من ان تتـعـرض الى الألم والاذى. لهذا فهي قد كبحت مشاعرها من ان (تنطلق على سـجـيـتها وكيفما تريد) وأبقت عليها حبيسة معها في مخدعها مما نجم عنه ان الاشـبـاع الجنسي عندها كان أبعد ما يكون من تحقيق مبتغاه تماما.

(هـ) كيف ارى صراعاتي

خـلص هول من خـلال تحليله لآلاف الأحـلام الى ان كل انسـان يناضل باسـتـمرار من اجل حل خمس صراعات اساسية، وهو يصف هذه ويصنفها بأنها صراعـات تقع بين الحـرية والأمـان، وبين الحق والباطل، وبين الرجولة والانـوثـة، وبـين الحـيـاة والمـوت، واخـيراً صراعـات بين المحـبـة والكراهيـة وتتـمـثل في عـلاقـة الطفل بأحـد ابويه او كليـهما. وهو يضيف ان الاحلام غـالبـا ما تتيح لنا معلومات قيمة تتصل بما نكابده من صراعات في اي وقت مـن أوقـات حـيـاتـنا اليـومـيـة، وتنبئنا عن اتجـاهاتنا ازاء هذه الصراعـات.

واقترح ان أذكـر هنا فقط مثلين اثنين من خبرتي الخاصة.

اعـتـدت ان ارى حلماً تتكرر علي احداثه اذ كنت اراني فيها يتعين علي ان اخـتـار بين واحـد من بيـتين: بيت حديث مشيد كله تقريبا من الزجاج يقع وسط ريف مـفـتـوح فـوق رابية عالية، او ان اختار كوخاً صغيراً ملموما على شـاطيء اليـحـر تصطفق به امـواج عـاتيـة في جـو عاصف. ان القرائن قد كـشفت عندي عن صراع داخلي بين ان اختار وظيفة (عامة)، ويرمز لها هنا (بيت من زجـاج)، وفيها يمكن ان اترقى في العالم الاكاديمي، وهنا ترمز له (الرابية العالية)، او ان اصطفي حياة مستقرة تنعم بدفء الألفة وهي الصق بالجـذور الوجـدانيـة الاصليـة وبالوجود و (البحر) يرمز الى الوجود هنا ومن الواضح فـان المنبـه هنا يرتبط بحـقـيـقـة تهديد زوجي لي بأنه سـيتخلى عني ويهجـرني مـا لم اتخل عن عملي واكرس حياتي كلها الى الاسرة لهذا فان الحلم قـد اوضـح بـجـلاء كـيـف كـنت احس ازاء هذه المعـضلة اذ كـان بوسـعي الاحـتـفـاظ بحـريتي واسـتـقلالي (ويتمثلان في العمل) ولكن الثمن هنا هو الـوحـدة والـعـزلـة، فـيـما يـقـابل ذلك اذا كنت اتوق الى الطمأنينة والراحـة (ويمـثلهما البـيت) فـان هذا يكون بمجازفتي على نحو ما في ان اكون مغرقة اغـراقـاً انفـعـالياً. اي تحاصرني انفعالاتي. ومن هنا يبدو ان الحلم كان حالة واضـحـة من حالات الصراع بين الحرية والأمان، وان محللي، على اية حال، قـد اصر على ان الحلم كـان يمـثل صراعـا بين الرجـولة والأنوثة، وفيه يكون الاخـتـيـار بين العمل ويمثل رغبتي في امتلاك القضيب، وبين اختيار البيت فـيـه تقـوم العـلاقات الوجدانية وتمثلها الرغبة في ان اكون امرأة كاملة الأنوثة وبحق وحـقـيـقـة، (وسأعـود للحديث عن هذا الحلم فيما بعد في نفس هذا الفصل).

في الوقت الذي فـصـمـت فـيه عرى زواجي الأخير، كانت تعاودني احلام شـتى: منهـا اني تارة ارى فـيـهـا اسناني تتـساقط، واراني تارة اخرى في بيت

صديقة ثرية وقد لفت جسدي ببطانية واحدة فقط، واحياناً اراني اجوب شوارع كئيبة تحتشد فيها اشباح شائخة(٥) وهنانة(٦). وكنت استيقظ في الصباحات وانا متبلدة الاحساس، مشتتة الذهن، موزعة النفس فيشق علي ان انهض نفسي من فراشي، وبالربط بين احداث هذه الاحلام فانه ليبدو جليا انني كنت أحس في قرارة نفسي بأنني قد قاربت الكبر في السن، واني لم اعد جذابة، وانني قد انتهيت، رغم كوني ما فتئت فتاة وانا بصحة ممتازة. وبمرور الوقت راحت تستجّد عناصر جديدة في أحلامي وكأنها تحاول ان توقظني مما انا فيه من خمول. ففي احد الاحلام مثلا رأيتني اثناء سيري حافية القدمين في الظلام، وقفت على مقربة من سيارة وعرض علي سائقها ان ينقلني بسيارته الى المسرح. وعندما اومأت اليه بأنني حافية واني من الملابس اكاد اكون عارية، رد يقول لي أنني سأجد هذه كلها في السيارة، فتلكأت اول الأمر قبل ان اقبل العرض، ثم استيقظت بعد ذلك وانا احس بنشوة(٧) واشعر بتفاؤل. ورويدا رويدا تغيرت ادراكاتي ازاء ذاتي بعدما ادركت ان الحياة ابعد ما تكون عن مقاربة نهايتها وان ما كنت قد مررت به لم يكن هو آخر الدنيا وان احلامي التالية قد حددت بوضوح معالم وعيي المتنامي بشأن احتمالات وامكانيات جديدة آتية. واني لأفسر هذه الاحلام في حدود الصراع بين الحياة والموت، حتى وان كان موتا رمزيا. وغالباً ما ينعكس هذا النوع من الاحلام فيترأى لكبار السن ويبدو لهم في احلامهم، وهم في واقع الحال يواجهون مشكلة الاقتراب من الموت. فبالنسبة لحالتي فان الحل الواضح الصريح انما يكمن باتجاه الحياة، اما بالنسبة لكبار السن فالافضل هو التقبل التدريجي لما ليس منه بد.

يجب الا يغرب عن البال ان كتاب: معنى الاحلام The Meaning of Dreams كان قد تم تأليفه قبل اكتشاف انواع النوم في حالتي NREM و REM عام ١٩٥٣، لذلك فان هول عندما الف كتابه هذا، لم يكن آنذاك ملما تماما بمختلف انواع الاحلام التي يطلقها عقل النائم. ولهذا فان

عـمله كـان يقوم كله على مجرد اساس احلام تم تذكرها تلقائياً حدثت له في منـامـه، ويـرجـح، كما سبق ان رأينا، انها تتألف من الاحـلام المبـهـجـة والمثـيرة، وهـي تحـصل عـادة في دورة النوم في حـالة (REM). اذ لو كـان هـول يـومـذاك، عـلى دراية كـافـيـة بـجـولات الـنوم في حـالة (NREM) وبتـهـويمات الاحـلام ورقـتها في حالة النوم (REM) لـكان من المرجح الا يبـقى مصرا على الرأي بأن الاحـلام ان هي الا حـصيلة كد الذهن بالتفكير الجـيـد الشـاق، كما سبق ان بحثت في الفصل الخامس، فان الدليل الجديد يوحي بان دمـاغ النائم وبشكل عـشوائي غير منتظم، ينفتح على مادة كانت من قـبل فيه مختزنة من احداث النهار.

ان المنحى التـفـسيري عند هول، لم يتأثر من الناحـيـة الاخرى، بالدليل الجـديد هذا، بوصـفه الدليل الوحيد الاخاذ في تفسير الاحلام على اساس، وباعتبار الاحلام في هذه الحالة تنطوي على مادة جد نافعة تعين على التفسير والتأويل، وإنّي اشك، على اية حـال، فـيما اذا كـان العقل الحالم يستعرض اتجـاهـاتنا عن انفـسنا، واتجـاهاتنا حـول اناس آخـرين غيرنا، وعن كل مـا حـولنا، بطريقـة منتظمـة. ولهذا فـفي جميع محاولاتي الخـاصـة التي قمت بها مـسـتـخدمة طريقة هول في تفسير الاحلام وفي التطبيق، لم اجد طريقته هذه ذات جـدوى كـبيرة في انطبـاقـهـا بشكل متسق على جميع فئاته التي ذكرها. ولا أنا واجـدة من الضروري الضـغط باتجـاه ان الحلم لا ينبغي إعتباره دليلا على واقع مـوضـوعي. بل اني في الحـقـيـقة، لافضل في الوهلة الاولى معاملة الحلم على انه صـورة لحـدث مـوضـوعي افلت من ملاحظة الحالم اثناء حياته الواعـيـة. ولقد توصلت خلال مجريات عملي الى ان الاحلام يمكن ان تكون احـيـانا نافـعـة للغاية في اجتلابها الى حيز انتباهنا حقائق قد اغفلناها خلال اليـوم امـا لاننا مـا احـبـبنا مواجهتها والتصدي لها او لاننا شغلنا عنها آنذاك انـشـغـالا حـال دون مـلاحظتـهـا حـقـا والاهتمام بها. وسأتناول مـثـل هذه الاحـلام في الفـصل القادم تحت عنوان (النظر الى الخارج). واني فقط عندما

اقـتنع بان الحلم لا ينطوي بعد تمحيصه على اية حقيقة موضوعية، فسالتفت حـينذاك الى طريقـة هول للاسـتـهـداء بها، وان كنت اشـعر ان ما اتبعه من منهج مباشر انما هو منهج مثالي في ارتياد عالم الحقيقة الذاتية.

ايا كـان الامـر، فـن طـريقـة هول كـانت طريقـة واحـدة فـقط في فـهم الاحـلام- وتـلك هي ترابط الافكار- واني في الوقت الذي اتفق فـيـه على ان طريقـتـه هذه اسـاسـية في معظم الحالات، فانه يجدر التنويه بان ثمة طرائق واسـاليب اخـرى تتـيح مـعلومـات اضافية قيمة. واحدى هذه الطرائق هي منهجية يونج (في الحوار الداخلي) interior dialogue لفـهم الاحلام، وهي منهـجـيـة لم يسـتـخـدمـهـا هول قط. وهذه الطريقة هي لباب المنحى الجـشـتـالتي الذي طوره فريدريك بيرلز، وهو منحى اجده نافعاً بوجه خاص عندمـا يكون الحلم عصيا على التفسير والافضاء بمعناه باتباع طريقة التداعي الحر Free associationفي تـأويـلـه، او عـنـدمـا يتطلب الامـر تفـسيرا متعمقا.

طريقة بيرلز ومنحاه في تفسير الاحلام

فريدريك بيرلز (ويعرف باسم فرتز) توفي في آذار عام ١٩٧٠. وهو نمساوي المولد، وتدرب في فيينا ليكون محللا نفسانيا على الطريقة الفرويدية، ثم جاء في الاربعينات ليعيش في امريكا، وانه سرعان ما توصل الى قناعة بان العلاج النفسي التحليلي المهني قد سار باتجاه مغلوط عندما ركز اهتمامه بصورة اساسية ورئيسية على المرضى العصابيين الذين كانوا على استعداد لتلقي علاج وتحليل مكثف يمتد عبر سنوات طوال لكي يكيفوا انفسهم الى معايير مجتمع هو ابعد ما يكون عن الصحة وانه قد شعر ان العلاج الفردي قد تضمن مواقف ليست بواقعية وان النشاط الذاتي، شأنه شأن النشاطات الاخرى في الحياة، ينبغي ان يتم توجيهه ضمن اطار جماعات. لهذا فهو قد شرع بتصميم طرائق مكثفة وقصيرة الامد للعلاج في جماعات محددة وتكون الطرائق هذه خاصة بالناس (الاسوياء) normal الراغبين في حيوات مفعمة بالصحة التامة. فهو كتب يقول: (انها دائماً اجساد حافزة لي وللجماعة على حد سواء ان ارى ما كانت سابقا مجرد اجساد آلية متحركة قد عادت اليها الحياة لتدب فيها من جديد).

ان طرائق بيرلز، وتعرف الآن باسم العلاج وفق المنهج الجشتالتي (والجشتالت كلمة المانية ومعناها الكل: اي بمعنى نسق او نمط متكامل)، قد اصبحت طرائقه جزءا من حركة في العلاج مألوفة وشائعة رئيسية في امريكا ويطلق عليها اسم: حركة الطاقة الانسانية الكامنة The Human Potential Movement، وتتضمن جماعات متناظرة، ومشاغل تنشيط للحواس، وسوى ذلك، وتوجيه كل ذلك باتجاه النمو الشخصي وتنمية الذات. وفي الاعوام القلائل الاخيرة من حياته، كرس بيرلز جهوده الى اقامة مشاغل علاجية على منهجية جشتالتية، اقامها في معهد (ايزالبين) في

كـاليـفورنيا. (ومن اجل تفصيلات اوفى عن كل ذلك انظر قائمة المراجع في نهاية هذا الكتـاب)*. وفي اخـريات ايام حياته، وانتهى الى قناعة مؤداها انه حتى العلاج الجماعي قد اصبح من الطرائق البالية، وفي عام ١٩٧٠، قبيل وفـاته بفترة وجيـزة، افتتح مجمعا في كولومبيا البريطانية في امريكا حيث يتاح لـلسـاكـنـين المـقـيـمين في ذلك المجـمع الانطلاق والصراحـة والامـانة وهم يمارسـون انشطة عـلاقـاتهم اليومية، فهم يتعاطون ذلك طبقا لمنطوق صلات جشتالتية:

علي ان اتدبر حـيـاتي وشؤوني وعليك انت شؤونك. انا ما جئت الى هذه الدنيـا لأحـيـا حسب توقعات شؤونك. فلا عليك انت في هذا العالم ان تحيا وفق أمـالي. فـانت لك ذاتك وانا لي شأني ومألي، لئن اتفق ان نلتقي كلانا، فتلك نعمة براقة. والا فان التجربة قاسية خناقة.

يقـال ان كل فلسـفـة تستحق الاهتمام يجب ان تنطوي على تطبيق عملي، ولهذا فـان العـلاج النفسي طبقا لطريقة الجشتالت قد اصبح اليوم يعرف بانه المصاحب الفعال للوجودية(٨) existentialism الـتـي تهـتـم بـمـسألة (الوجـود- هنا- والأن). فـبيرلز لم يكن لديه من الوقت ليـعود الى ما هنالك من ارتباطات كانت تقترن ببعض صدمات الولادة traumas الطفليـة المبـهـمـة، لكنه ركز اهتمامه، شأنه في هذا شأن يونج، على استكشاف الكنز الدفين الكائن في اعماق الشـخـصـيـة، فـهـو يتيقن ان ما يبديه ألمريض من تداعـيـات حـرة بشأن فكرة او حلم قـد افضت بالمعالج النفساني لان يدور دورة ممتـعـة حـول المشكلة دون الوصـول اليـهـا او بلوغ لبها. فهو قد اطلق على هذه العـمليـة اسم (الانفـصـال الحر)، واراد بهذا التعبير هروب الافكار التي يسـتـعـملهـا المريض ليتحاشى مواجهة عصابه بوصفه مشكلة له. ولهذا فأنه- بيرلز- ركـز انتبـاهه على السلوك الحـقـيـقي كما هو مـوجود في الموقف الذي تكون فـيـه الجماعـة- من ذلك مثلا تعابير الوجه، نبرة الصوت، وضع الجسم، الحـركـة او الاشارة، رد الفعل ازاء الآخرين، وهلم جرا وكل ذلك

يتم من اجل استكشاف (الفجوات) الكائنة في الشخصية الحاضرة للفرد. وان بيرلز ليذكر بان الفجوات هذه او الثنايا انها كانت قد تسببت بفعل رفض اجزاء محددة ومعينة من الشخصية لكي يتم تحاشي وتفادي الألم. ولذا فان مهمة المعالج النفساني يجب ان تتركز على ما يتفاداه الشخص في وجوده الحالي وواقعه الحاضر، وعلى المعالج ان يأخذ بيده وان يساعده على التخلص من المواقف المؤلمة، وان يمكنه من تكامل الاجزاء المستبعدة من الشخصية واستكمالها في كل متكامل في مجرى حياته.

رفض بيرلز اية فكرة تتعلق بالعقل اللاواعي، مفضلا على ذلك التفكير في ان الشخصية تشبه كرة مطاطية تطفو على سطح الماء وتتدحرج عليه ولا يبان منها في الوقت الواحد الا جزء يسير. وان المعالج النفساني الجشتالتي يتعامل فقط مع ذلك الجزء المنظور منها ضمن سياق تلك اللحظات التي يظهر فيها ذلك الجزء. لذلك فهو لا بد من ان يحاول تتبع اي عرض من الاعراض المرضية في الماضي من ايام صدمة الطفولة، فانه دائماً يسأل الشخص: (ماذا تشعر الآن وفي هذه اللحظات) ففي احدى المرات مثلاً كنت احضر جلسة علاج جماعية وفق الطريقة الجشتالتية، وكان يبدو واضحاً ان احد اعضاء الجماعة كان يستعمل فأفأته وتمتمته ليعبر بذلك عن خصومته للاخرين دونما وجل او خوف من الانتقام او المقابلة بالمثل، ذلك لانه: من يجرؤ، بعده على ان يكون قاسيا ليهاجم رجلا يعاني مثل هذه العاهة؟ وكان هناك رجل اخر كان يستخدم تهوره وطيشه كوسيلة لتحاشي مسألة علاقاته الجنسية، وثمة امرأة مريضة ضمن المجموعة ايضاً كانت قد تعلمت ان الصداع كان وسيلة تعفيها من الاعمال الرتيبة ومن تبعات اقامة الولائم ومن مصاحبة زوجها في المناسبات الاجتماعية.

نظر بيرلز الى الحلم بوصفه مكسباً مضافا اتيح في صيغته رسالة موجودة قائمة وكائنة تنبئنا بدقة عن موقعنا بالنسبة الى انفسنا وبالنسبة الى العالم من حولنا في الوقت الراهن الذي نكون فيه. واذ وصف فرويد الحلم بانه

(الطريق المعبـد الى اللاشـعـور)، نجـد بيرلز ينعتـه بانه (الطريق المعبد الى التـكـامل)، ذلك لانه رأى فيـه امكانيـة استـعـادة الاجـزاء المفـقـودة من الشخصية واعادة انتظامها في كل متكامل.

ان طـريـقـة تـعـامـلـه (بـيرلـز) مـع الاحـلام هـي اعـتـبـاره كل صـورة (عقلية)Image في الحـلـم، سـواء كـانت هذه الصـورة ترمـز الي انسـان او حـيـوان او نبـات او مـعدن، اعتباره اياها جزء مهماً من النفس كان مستبعداً عنهـا فاسقطناه على الصورة العقلية هذه. وفي هذ ألحاله يطلب من الحالم ان يـمـثل دور كل صـورة طرأت له وبشكل مـتـسلسل وان يعـيش مـرة ثانيـة احـداث الحلم وخبراته من زاوية كل مخلوق تمثله الصـورة ومن وجـهة نظره. وان مـواجـهـات تسـتـحـدث بين هذه الصـور وعندما تصطدم وتعترك، فان الحـالم يدرك انه قد حقق شيئاً مهماً. وحيثما احس الحالم ان فكره خاليا او انه نـعـسـان، فـانه يدرك انه يحاول تحـاشي شيء مـا. ولهذا السـبب، فـانه لمن المسـتـحـسن ان يناقش الفـرد الحلم بضـمن مجمـوعـة او مع شـخص اخـر باسـتطاعـتـه تفـسير هذه الاشياء وتأويلها. والهدف هو ان تعمل على تجميع الاجـزاء المتناثرة من الشـخـصية في كل منسق بعضها مع بعض بحيث تؤول الى اكـتمال نهائي وليـست الى اعـاقـتـه او تأخيره. فـافضل طريقة لاستخدام الحلم والانتـفـاع به، كما يذكـر بيرلز، هي ليـست بتـقطيـعه الى قطع مفككة ومن ثم تفـسيره بعـدئذ، وانما افضل سبيل في ذلك هو وضعه في محك الحياة ومن ثم يجب ان يحيا المرء احداثه مجددا.

كـخطوة اولى، كـان بيرلز يطلب من الحـالم ان يعـيـد سرد حلمـه بصـيغة المضـارع لكي يجعله يعـيش احـداث حـاضره الحالية ومن ثم عليه ان يعيش مجدداً الاحـاسـيس الحـقيقية التي شعر بها اثناء الحلم. وعندما كان مثل هذا الاجـراء يتم ضـمن جماعـة، كـان بيرلز يراقب عن كـثب تعابير الوجه، وما يجـد هـنـاك من حـركـات واشـارات وغير ذلك مما يبـديه الفـرد وهو يقص احـداث حلمـه، على اساس ان ما يظهر على الشخص من اشارات وأمارات

وحـركـات، هذه كلهـا تتـيح عـلامـات محددة يستهدي بها الى ما هناك من مناطق صراع قـابعـة في ثنايا الحلم. فـاحـد المعـالجين الجشـتالتيين، مثلا، اخبرني عن احـد اعـضـاء مجمـوعـتـه التي كان يتولى علاجها وقد قص عليه الشـخص هذا حلماً مطولا ينطوي على تفصيلات شتى، وكان حلمه قد بدأ بدخـول الحـالم بناية مكتـبه مـبـتدئاً باتخاذه المصعد. وعند نقطة البداية التي ابتـدأ الحـالم فـيـهـا يقص حلمـه، لاحظ المعـالج ان الحـالم ما ان ذكر لفظة (المصـعـد) حـتى دارت عـيناه دورة خاطفة نحو اليسار ثم عادتا الى وضعهما الطبـيعي من جديد، مما حمل المعالج على ان يسأله عما اذا كان فاته شيء اراد ان يذكـره قـبـيل اتخاذه المصـعـد. حاول الرجل ان يستبعد السؤال ويتناساه وذلك بقـوله انه فـقط لمح باب حـجـرة صغيرة بجانب المصعد، وانها ليست بذات اهميـة طالما هي كـانت مليئة بنفـايات مـتـعـفنة. فما كان من المعالج، بطبيعة الحال، الا ان اهتبل الفرصة فالتقط الفكرة فطلب من هذا الشخص ان يـمـثل دور النفـايات وهي ملقـاة في الحـجـرة، الامـر الذي أعـقب هذا بدوات وافـشـاءات تنم عن أجـزاء كـانت خـافية في حياة الحالم، كان يحاول اغـفالها والاعراض عنها ذلك لانه اعتبرها (بالية).

فـفي الوقت الذي لاحظ فيه فرويد ان تلك الاقسام او الأجزاء المنسية او المهـملة من الحلم لدى رواية الحلم لاول وهلة هي ذات اهميـة بالغة، الا ان طريقـتـه في اجلاس المريض على اريكة وجلوس المحلل خلفه يقلل في الواقع كـثيراً مـن عـدد الـدلائل والقـرائن المتـاحـة والتي يمكن ان تؤدي الى فـهـم للحلم افـضل. امـا طريقـة يونج في العـلاج، والتي يتم بمـقـتضاها جلوس المعـالج والمريض وجـهـا لوجـه، فـانها تمكن المعـالج من مـلاحظة اية تعابير وجـهـيـة او حـركـات جسمية تتيح شواهد ومفاتيح يستدل بها على ما لدى المريض من صراعـات دفينة، ولهذا فان الطريقة الجشتالتية تسمح للمجموعة ككل من ملاحظة بعضها بعضا وان تفعل الشيء ذاته.

كـثير من المعـالجين ألجشـتـالتـيين يرون انه من المفيد وضع كرسي يكون

مـواجـهـا لما يسمونه (المقعد الساخن)، إذ يحتله او يجلس عليه عضو الجماعة عندمـا يقـوم هذا بتمثيل الادوار في ما رآه من حلم، بحيث يستطيع، عندما تلتـقي صـورتان من صـور الحلم في حـالة حوار، يستطيع الحالم الانتقال من احـد الكرسيين الى الآخر وهو يقوم بتمثيل اجزائهما المختلفين. والغرض من هـذا هو التـخلص من اي وضع جـسـمي او توتر يحصل من جـراء القـيـام بتـمـثيل دور واحد فقط دون الآخر، وبهذا فانه بانتقاله بين الكرسيين يكون في كل مرة قد بدأ بداية جديدة تخلصه من توتره.

وكـمـثل على الكيـفية التي يؤدي بها المنحى الجشتالتي غرضه، فاني اعتزم هنا ان اتوفـر على ذكـر حلمي المتكرر والذي كـان يعاودني وارى لي فيه بيتين سبق لي وصـفـهما في فـقرات قلائل سابقة. اذ تبين لي من خبرتي ان المنحى الذي يكون كله جشتالتيا ذاتياsubjective، وذلـك عندمـا ينظر الى جميع عناصر الحلم بوصـفـهـا جـوانب تبرز شخصية الحالم، يكون هذا المنحى قيما بشـكل خـاص لدى تطبـيـقـه على الاحـلام المعـاودة المتكررة، نظرا الى انها يحتـمل ان تكون احـلامـا تعكس صراعـات مـسـتمرة تثيرها من وقت لاخر مـواقف خـارجـيـة مـرتبطة بتلك الصراعـات. واني ايضـا وجـدت الطريقـة الجشـتـالتية ذات جدوى عندما يكون المنحى المباشر للتداعي الحر قد اخفق في اتاحـة اي شيء يذكر او ذي بال او عندما يدع الحالم يشعر ان هناك شيئاً ما مهماً لم يتوضح كما ينبغي.

فـفي حـالة حلمي عن (البيتين)، باستطاعتي ان ارى بوضوح، وانا انظر اليـه كـصـورة، انـنـي كنت بعض الشيء مـوزعـة بين الحـرية والطمأنينة او الامـان. ان انا اخترت عـملاً في العالم الاكاديمي (ويمثله في الحلم بيت من زجـاج عـلى هـامـه رابيـة)، فـانني كنت في اعماقي اخـشى الوحـدة والعـزلة والوحـشـة والضـيـاع والتعرض لنوائب الزمان، ومع هذا كنت بنفس القدر، اخـشى، ان انا اخترت الحـيـاة المنزليـة الدافئة في سفح التل، ان اتعرض الى ارتبـاك المشـاعـر والغـرق في لجتها (وقد تم الرمز لها في الحلم بالبحر). ولقد

كـان في هذا، كما حـدث فـعـلا، تبصير لي مفيد، اذ اوحى (الحلم) الي بان خـير نـصـيـحـة قـد قـدمت الي انسـاق مـضطرة الى اي طرف من الطرفين المتطرفين، اللذين جـدا في تلك الفترة من حـياتي، والا ادع زوجي يضطرني قـسرا الى الـتـخلي تماما عما انتـويه من عـمل. ومـهما يكن من امـر، فـقـد احسست احساسا قويا بان تلك لم تكن القصة كلها كاملة، اذ كنت متحيرة خـاصـة بشأن الانفعالات المزعومة وكيف كان يمكنها ان تغرقني في خضمها لو انني اصطفـيت الحـيـاة البـيـتـيـة وحدها. وكان محللي الذي ينتهج المنهج الفـرويدي في التـحليل، قـد تناول المسألة وكأنها مـسلم بها اذ اصر على ان هذه الانفـعـالات انها تعكس انفعالات الانوثة الرقيقة، ومشاعر الحب، التي كـنـت، كما يظن المحلل، ارفض الاعتراف بها بدافع من رغـبـة عـصـابـيـة، وذلك لكي انافس الرجـال، ولكنني، كما يرى، لم اتمكن من تكيـيف نفسي الى الاعـتـقـاد بانني في الواقع كنت اكـتـب في اعماقي حنينا دفـينا الى الانغمار انـغماراً كـامـلا في الحـيـاة المنزلـيـة. ولهذا فـقـد عـمـدت الى تطبـيق التكنيك الجـشـتـالتي، اذ شرعت بسرد الحلم بصيغة المضارع او الحاضر، وعلى النحو التالي:

يجب علي ان اخـتـار واحداً من بيتين: احدهما مبني كله من زجاج، يقع على قـمـة تلة، والاخـر يقع على شاطيء البحر مشيد كله من الآجر ونوافذه صـغيرة جـداً. واني أشـعـر بمـيل لاخـتيار الأول لانه مضاء وصحي الهواء، ويحـيـطه منظر خـلاّب يطل منه على الوادي والبـحـر. وانه لرائع كـمنتـجع صـيـفي لعـدم وجـود بيـوت اخرى تخنق الرؤية من حواليه، لكنه يمكن ان يـكون بارداً شـتـاء، ومكشـوفـا، ولعله يكون مـوحـشـا مخيـفـا خـلال ذلك الفـصل، وقـد لا يكون ثابتـا مكينا في يوم عـاصف تشـتـد فـيه الريح. اما البـيت الآخـر فانه اقرب الي ساحل البحر وامتع للراحة، ولكني لا استطيع مـقـاومـة احـسـاس عندي انه وان يكن قـويـاً كما يبدو، الا ان أمواج البحر العاتي يمكن ان تقتلعه بكل سهولة.

ان مجرد اعـادة حكاية الحلم على هذه الشـاكلة فـانه للتو او للوهلة الاولى يجعل شـيئاً مـا جليـا وهو انني لم اكن قـد فـهمته من قبل، ذلك هو البحر العـاتي او (الغاضب) الذي يقوم بتدمير البيت الواقع على الشاطيء، وبعبارة اخـرى، اقـصد تلك الانفعالات المكبوتة التي اخشاها في الموقف الذي اكون فـيـه في حـالة اخـتيار الحياة المنزلية، هي تقريبا مزيج من انفعالات الغضب والمحـبـة وللغـوص في الاعماق ابعد، فانني افسح المجال للبيت على شاطيء البحر، ومن ثم للبحر نفسه ان يتكلما. فالبيت يقول:

انا البـيت الواقع هنا على شـاطيء البـحر. انا سحيق في القدم وفي بنيتي القـوة. جـدراني سـمـيكة، مـصمدة، بيد اني وان وقفت بوجه عوادي البحر وقـاومت هجماته الضـارية حـتى هذه اللحظات، الا ان الرطوبة والتآكل قد دبتـا في قـواعـدي وفي اسـاسي، وإنّي الان لفي خطر مـريع واني لعلى شـفـا جـرف هـار وآيـل للانهيـار في اية لحظة. وسـافـعل مـا في طوقي للذود عن اولئك الذين احميـهم تحت سـقـفي. نعم ثمة اسرة في داخلي- وهي اسرة من نوع الاسر المـمـتـدة، هناك منهم كـثير. وحين تصطفق الامـواج على جنبـات الجـدران، فـانهم- افـراد الاسرة- يسدلون السجوف(٩)، ويروحون يحتسون الشـاي، ويغنون الاغـاني وهم حـول النار مـتـحلقـون. وهم بهذه الطريقـة يطمـسـون الضـوضـاء المنبعثة من امواج البحر فينسون ما هم فيه من مخاوف الخطر.

واما البحر فيقول:

اني انا البـحـر، حينما اكـون وادعـاً هادئاً، فـاني اتهادى مـتـمـهـلا على الشـاطيء جيئة وذهوبا، وني لا اهدد بالخطر هذا البيت الصغير ابدا. ولكن حين تثـور عـاصـفـة هوجـاء فـتساط امواجي بسياط زعزع نكباء، وتدفع بي الرياح الى الهيـاج، اتمنى لو لم يكن المنزل مـبنيـا هناك، اذ ليس بوسـعي ان ادرأ عنه اذى الاثبـاج. مـا كان ينبغي للبيت قط ان يشاد على شاطيء هنا، فـالسيف(١٠) لي وحـدي، وانا احـوج الى الخطى الفساح. اني لانية اضمر

لـتـدمـير البـيت او اهلاك الذين فـيـه يسكنون، لكنهم تجـاوزوا المدى وعلى حـدودي هم مـعـتـدون، وانا مـا زدت على ان رددت عليـهم الصـدى، اني تـوقـيرا لهـم الى حـدود انسـحب. غير ان هذا ليس بمـجـد ولا يجب، فـانا اهـوى ان ارقـص وان اتمـطـى وان اجـلـو عـنـفـوان حـركـاتي. اني لاهـوى الضـجـيج احـيـانا. فما من شيـمة البحر ان يخلد الى السكون دائما. وليس الـركـود الدائم من نحـيـزته، وعندمـا يعـتـورني الاهتـيـاج فـاني اولا انشـد الفساحة في الفجاج.

ها هو تبصر جـديد مـهم قد بزغ، انه لا يتمثل في نفس عصابية تريد ان تدرأ عن ذاتها وتنشـد امـتهان عمل تهواه وتخشى ان تتغشاها الانفعالات، ان خـوفي من ان اكـون محاصرة بانفـعـالاتي التي بعد تعبيرها عن ذاتها شيئا مهما بالنسـبـة لي ولوجـودي، ستتجلى فيمابعد انها انفعالات تبلغ من القوة ازاء اي انسـان (وانا بهذا مـشـمـولة) يحاول ان يحصرها وضـغطها في حيز منزل محدد مضغوط. فهناك، كما قال باريسParis ، (رسـالة وجـود) مـبـاشرة مؤداها اني لا ارى في حـيـاة المنزل دنيـا تسـمح للانفـعـالات بالتـعبير الحقيقي عن نفسـهـا. فـالناس السـاكنون في البيت الواقع على شاطيء البحر يرغبون في الاحـسـاس بمـشاعر الدفء الرقيقة تتسرب الى نفوسهم من خلال اصغائهم الى الامـواج وهي علي مـقربة منهم تصطفق، لكنهم في واقع الحال لا يحبون ان يكونوا مـعـهـا على تماس. فـهـم قد اقاموا الجدر(١١) لتحول دون اقتراب تلك الامـواج وأنهم ليـفـزعـون لو انها اشـتـدت وزمجرت، وبالنسبة الى نمط تفكيري، فـان طريقـة الحياة البيتية كلها، في الحقيقة، انها تمثل ذريعة يمكن الابقـاء عليـهـا فقط في حالة المحاولة للسيطرة على البحر ليتخلى عن طبيعته العـاتيـة ويخلد الى الهدوء. وهذا قـد اراني ان كثيراً مما كنت اتوق اليه ويتعلق (بالانفـعـالات الخـاصـة بالحـيـاة المنزليـة الدافئة)، التي يقـيمها زوجي غالباً (ومـن قـبـلـه والـداي كـلاهما) انما هـو توقـان زائف، ذلك لان ألملاحظات العـابرة تكشف لنا بجـلاء عن ان مـا تتـمـتع به (الاسر السـعيدة) من نشوة

ومـرح تمر في سماء حـيـاتها سرعـان مـا تتلبـد بسحائب الغيوم فتنسحق فيها مـظـاهـر الـنشـوة الكاذبة (وتمثلهـا في الحلم الرقص بالقـرب من النار). ان الملاحظات العـابرة المتناثرة في هذا السـيـاق، لا تنسـفـهـا فـقط انفـجارات الاحـاسيس الغـاضبة، والتي يفسرها اوتوماتيكياً هنا المحيط العائلي الحميم، وكأنها احـاسـيس مـدمـرة شـيطانيـة شريرة، وانما يشـار اليها كذلك في هذا المضمار بها يعبر عن الفـرح الغـامر او بمشاعر الميل والاحساس الجنسي، بل حتى ليعبر عنها احياناً بمظاهر الأسى.

ولقـد تجلى ذلك بوضـوح اكـثر عندما اقمت حواراً بين البحر وبين الاسرة السـاكنة في البـيت القـائم على الشاطيء. وعندما قمت بتمثيل دور الاسرة، فـان صـوتي قـد تغير، ورحت اتكلم بنبرة اخـلاقـيـة واثقة هي بقايا اصوات والدي كليـهما وصـوت زوجي، فـجعلت اعنف البحر على صخبه وهيجانه. اذ ان مـا أحـبـوا ان يروه هو بحر تنساب امواجه على شاطئه بلطف وهدوء، ويـتم ذلك ارتفـاعـاً وهبـوطاً مع تيـار المد والجـزر ولكن دون ادنى مـسـاس بكيـان منزلهم، ومن الواضح فـان ثمـة جـزءا مني ظاهر دون شك، مأخوذا في اسـاسـه ويستـمـد اصوله من والدي كليـهما، وهذا الجزء مني هو الذي يخشى عنفـوان الانفـعـالات القـوية، ولكن، وبنفس المستـوى، فان البحر نفسـه هو جـزء مني وهو ذلك الجـزء من الحوار الذي اعترض على القول او الـظـن بان المسألة انما هي مجرد الحـاجـة الى الرقص والايقـاع والدحـرجـة، وانتـشار الرذاذ مع هبوب الريح، وهذا ما عناه البحر حين قال:

اني لست بمـدمـر، ان كل مـا اتطلبه هو مجال فيه اتمطى وفسحة ومدى. انت تفسر حـركـاتي بانها مدمرة ذلك لاني اندفع فادنو من بيتك، لكنك لو انك ابتنيت بيـتك فـوق الشـاطيء، لشـهدت تماما نفس الحركات تبدو لك راقـصـة، ولقد قاسيت المآسي وانا احاول زم نفسي وكبح لجام ذاتي كيلا ادمر بيتك، لكن هذا مما يقضي علي، واني لا اطيق ان ادأب عليه الى الابد.

كـتب بيرلز يقـول، (الانفـعـالات ليـست شـيـئاً بغـيـضـا ينبغي اطراحها

والتخلص منها. ان الانفعالات هي المحركات المهمة لسلوكنا: الانفعال باوسع معانيه- مهما كان احساسك- سواء في حالة الانتظار والترقب، او الفرح والسرور، ام في حالة الجوع.. الاستثارة الانفعالية في هذه الحالات كلها تعبيء وتهيء الطاقة العضلية... فانك لا يمكن ان تتصور حقيقة الغضب بدون الحركة العضلية. وليس بوسعك ان تتصور السرور، الذي يماثل الرقص قليلا او كثيرا ويضارعه، من غير ان يكون مصحوبا بحركة عضلية. وفي الحزن يوجد هناك نشيج وبكاء. وفي حالة الجنس توجد ثمة حركات معينة كذلك، وكل هذا معروف لديك. وان هذه العضلات تستخدم للحركة، انها تتلقى من هذا العالم، وانها لتلامس هذا العالم، لتكون في تماس معه، انها على اتصال دائم به). واذا ما حرمت الانفعالات هذه من التعبير الطبيعي المناسب عن نفسها، فانها، كما يقول بيرلز، تؤدي الى حالة من القلق يجعل الشخص فاقدا للحساسية، اذ ان وعيه وادراكه الاحساسي الخاص بالبصر والسمع والتذوق، والشم، واللمس، هذه كلها تتبلد، فيصبح جامدا، ولهذا فان غرض العلاج الجشتالتي انما هو العمل على اعادة جسد آلي كهذا الى الحياة من جديد.

فالمعالج الجشتالتي لا يجابه صعوبة تذكر للتعرف في داخلي على اصوات كل من والدي كليهما ولا اصوات زوجي، اصوات كلها تتحدث بنبرات الشجب والادانة ونغمات الوقائع الاخلاقية، انه لا يجابه صعوبة متي عبرت

انفعالاتي عن نفسها بقوة، بوصفها المتنفذة top dogالمعبرة عن مكنون شخصيتي، والمتنفذ دائماً يتمتع بالصدق ويكون سلطويا، ومعرفته بالدواخل افضل.. والفاظه الاثيرة التي يرددها عادة هي:

(يلزمك ان تفعل كذا...)

(ينبغي عليك ان تنفذ كذا...)

(يجب عليك الا....) وهلم جرا.

انه يعمل في مجال تهدده كوارث- وفي حالة ما تعرضت له في صراع

نشب من الاختيار بين البيتين، لعل الموقف كان يتمثل وكأنه يقول لي:

[ان انت عبرت عن احاسيسك وانفعالاتك، فلن يكون ثمة من يحبك او يقترب منك او من بجانبك]

بل لعله كان ينوي ان يقول:

[انك ستدمرين نفسك وتدمرين اولئك الذين تحبينهم]

ان هذه الاصوات التي اصبحت جزءاً من كياني، جعلت دائماً تلح علي وكأنها تحدثني بقولها:

[اهدئي، سيطري على نفسك، لا تثيري المتاعب، دعي الاحداث تهدأ، حافظي على الهدوء]

فكأن الاصوات تلك كانت تنتقدني بقولها:

[انت مدمرة، انت مثيرة للمتاعب، انت غول مخيف، يجب عليك ان تخجلي من نفسك]

ان الملتقى لهذا الانتقاد الداخلي انما هو ذلك الجزء من الشخصية المعروفة في المصطلحات الجشتالتية باسم (المنفذ) Under gog انه يعترض على المناكدة ويحتج على الالحاح وهو لا يبدو مقتنعا بكل ما يسمع به ذلك الجانب المتنفذ من الشخصية. انه في العادة يكون اعتذارياً، دفاعياً، مداهناً، مراوغاً، لكنه لا سلطان له، اذ يقول:

[نعم، نعم، اني اعرف انك محق. لذا ساحاول جاهداً ان انفذ ما تريد على نحو افضل. ولكن لا تثريب علي ولا لوم اذا انا اخفقت)

وبالنسبة الى حالتي، فانه كان يتعين علي ان احبس انفعالاتي التي كانت غالبا ما تنفجر فيما بعد بشيء من العنف اكثر مما لو اتيح لها في وقتها المناسب التنفيس عن نفسها بصورة اعتيادية وطبيعية، وهي بانفجارها الغاضب ذاك، تحمل كل فرد، بما في ذلك انا نفسي، على القناعة بانني حقاً كنت غولا مخوفاً.

يسمي بيرلز كلا من المتنفذ والمنفذ في الشخصية المهرجين الساخرين، اذ

هما يعـمـلان باسـتمرار على ان يلعبا دور ايذاء الذات تحت مستوى الادراك الشـعـوري، اذ ان لدى كل منا جـانبـاً مـتنفـذاً واخـر منفذاً يظهران في كل صراع محدد، لذلك فـحـينها تنطلق فـينا شرارة صراع مـعين نتـيجة لمشكلة ما او حـدث يحصل في الحـيـاة، فـان هذين المهـرجين كليـهما ينجمان فيشرعان بعـملية تعذيب الذات، وكل منهما يكافح من اجل السيطرة، انها معركة الى حـد الموت، تتـبـدد فيها الطاقة التي كانت يجدر ان تستمر من اجل العيش للبناء والعطاء.

فـفي حـالة تمثيل حلمي، فـان المنفـذ في داخلي ممثلاً بالبحر قد ابتدأ في الكشف عن نفسـه والتـحـدث عن ذاته، ولو اتفق ان كنت اعـمل ضـمن جماعـة، لطلب زعـيم المجـمـوعة مني ان اقف امام كل واحد منهم بالتناوب وان اتحدث بقدر المستطاع حديثاً مقنعاً اقول فيه:

[اني لست مدمرة، ان لي الحق في ان اعبر عن ذاتي]

كـان علي ان اكـرر ذلك حتي تقتنع الجماعة بانني حقا عنيت ما ذكرت، وبخـلاف ذلك كـان يمكن ان يطلب من افـراد الجماعة ان يضربوا نطاقا من حـولي، وان يتـقـدمـوا ببطء باتجاهي ليـحـاصروني، وفي هذه الحـالة اكـون مضطرة الى ان اصرخ قائلة:

[لا تضيقوا علي، لا تحطموني]

وعـنـد ذاك احـاول شـق طريقي لانقـاذ نفسي، والهدف هو للاقـلال من سطوة المتنفـذ وفـسح المجـال للمنفـذ ليـعبر عن حـاجـاته عـلانية، وهي في حـالتي انا كـانت تعني بألا اسـمح لنفسي بالاستخذاء لتقبل نمط من الحياة محدود، على اسـاس ان هذا هو سـبـيل كل انسـان (سـوي)، واقتصارا على حـدود حلمي، فان هذا يمكن ان يعني ان البيت القائم على الشاطيء هناك قـد تحـرك فـاندفع الى رحاب الريف فاسحا المدى امام البحر ليعبر عن ذاته بشكل طبيعي فيتمطى على الساحل كما يشاء.

يذكـر بيرلز انه ليس من الضروري ان تتـعامل مع كل عنصر في الحلم او مع كل حـدث فيـه، طالما انه بمـقـدور الحـالم ان يتلقى في الحلم في الاقل رسـالة وجـود واحـدة. ولهذا فـفي حـالتي انا فان الامر كان يمكن ان ينتهي عند هذا الحـد لو لم انتبه ان ما دار من حوار بين البحر وبين الناس في المنزل قـد تكشـفت مـعالمه، اذ انه ابرز مخلوقـا هنا لم يكن ساكناً، كما يريده اهل البيت ان يكون، لذلك فـقد اعتزمت ان ادع الريح تتحدث والنتيجة كانت مدهشة على نحو واضح، اذ قالت:

[اني انا الريح، لست متأكدة من اين اتيت لكني احس انني من ريح اللّه وانـك لـتـدري، ان روح اللّه هي التي هبت على وجـه الامـواه فـجـعلتـهـا تتراقص بنبض الحيـاة. انا ريح لحياة التي نفخها اللّه في جسد أدم، فحوله من قطعـة من صلصـال إلى نفس حية. اني انفخ الحياة في بني الانسان وانثر البـذار على وجـه الارض. اني انا احياناً نسائم الريح التي تحدث بها اللّه الى يـعـقـوب، لـكنه من غـبـاء الناس ان يصـفـوني بانني مـدمـرة، او عندمـا يتـضـايقـون فينزعجون حين اقتلع قبعاتهم من على رؤوسهم او لما اخشخش على نوافـذ بيـوتهم. ان هم اصروا على ابتناء بيـوتهم على حـافة البحر، فتلك جـريرتهم، وان ذلك الشـخص الذي اقـام بيتاً له من الزجاج فوق قمة التل فـلا اقـل حماقـة، اذ هو قـد نسي كم قـوية وكم عنيـفـة انا. أريد الناس ان يصـغـوا الى ذلك لاني اتيـهـم بهبـات من اللّه فـيـهـا اليهم رسائل واشارات، ولكن عليـهـم ان يفـعلوا ذلك (الاصـغـاء من موقع عقلاني ممتاز نظرا الى اني بالغـة القـوة والعنفـوان ومـا من احـد يتكهن بي آتية من اي مكان، وان بيتا يشاد منتصف المسافة من قمة التل لهو خير مكان يتخذه الانسان مسكنا، اذ هو من مكانه ذاك بمـقـدوره ان يستمع الى هينماتي بامان دون ان يحاط به او تطبق عليـه الضـوضـاء، بل ان بمـسـتطاعـه ان يبني لنفـسه طواحين هوائية تكبح شـيئاً من طاقتي، ولكني لا يمكن ان أرضى او ان يهيمن علي الانسان ذلك لاني انا اكبر منه في هذه الحياة].

واني هنا اتعرف على رسالة وجود اخرى، واعني بذلك انّ قوة انفعالاتي (ويمثلها تأثير قوة الريح في البحر) انما هي من نفس قوة الخيال الابداعي، وبالتالي، فانها تكون حماقة مني ان اغمر نفسي تماماً في مسائل فكرية اكاديمية (ويمثلها في الحلم بيت من زجاج على هامة الرابية) ولا اقل من ذلك ان انا كرست حياتي كلها الى حياة منزلية تخلو من التفكير كلها ويمثلها في الحلم بيت على ساحل البحر. وفي كلتا الحالتين، فان الريح، وهي ابعد عن ان تكون مصدر طاقة ابداعية، يمكن ان تصير فقط مبعث ازعاج، تعبث باسلوب حياتي الجامدة المزمومة. ان ما اطمح اليها من حياة ابداعية لا بد انها معرضة باستمرار الى الشك. (الريح تهب حيث تشاء... وكذلك فان كل واحد انما يولد من الروح)، ولهذا فانا بحاجة الى علاقات حميمة، بقدر ما انا محتاجة الى تنبيه فكري، ولكن يجب ان احتازهما بشكل يكون باستمرا مفتوحا الى نماء وامكانات جديدة.

كلي امل في ان اكون قد اوضحت من هذا المثال كيف يمكن ان يؤل الحلم في البيت بدون مساعدة ما من جماعة. ان جدوى وجود جماعة حول الحالم، ولا سيما وجود زعيم المجموعة الذي يكون له خبرته ما ينبهه الى دقائق من الاحاسيس لا تكاد تستبان تقريباً عندما يقوم الحالم بتمثيل حلمه، ان وجود هذه الجماعة امر له ضرورته الواضحة لكنها ليست ضرورة مطلقة. يذكر (باريس) في كتابه: العلاج الجشتالتي نصا وروحا: Gestalt Therapy Verbatim، كثيراً من التلميحات عن الكيفية التي يصبح فيها ألحالم حساسا لما يتعرض له من احباطات. واذا ما وجهت، مثلا، صعوبة في القيام بدور شخص تراءى لك في حلمك، فيمكنك ان تتيقن من انك انما تتعامل مع جزء من شخصيتك كان مستبعداً مغترباً وانك تتلكأ في استرجاعه وضمه الى تكوينك الشخصي. فانت في الواقع في قرارة نفسك تقول: (ذلك لست انا). وكلما كنت اكثر تفتيتا، كنت للكوابيس اكثر تعرضا، وانها تتتابك اكثر، وكلما صرت اشد تماسكاً،

فان هذه تزايلك فتختفي.

وعلى العموم، فقد فضل (بيرلز) ان يتناول بالبحث الاحلام القصيرة نظراً الى انها اقل تضليلاً وتعمية من الاحلام الطويلة، وكان يصر على انه حتى ما يتم تذكره من جزء من نصف الحلم يمكن ان يكون كافياً لاستحثاث العملية الابداعية الرامية الى فتح معالم الشخصية، ومجزوءة الحلم التالية قد قدمت في احدى احلقات العملية الجشتالتية البريطانية كنت قد حضرتها، وقد قدم المجزوءة هذه رجل اعمال معتد بنفسه، مهم في عين ذاته، وقد ذكر في حينه من المرجح الا نخرج بشيء منه- حلمه- اذ ذكر: (كل ما استطيع ان اتذكره هو انني كنت اتبول على السجادة)، وبما لديه من شيء من معرفة بالنظرية الفرويدية، فانه قد عرض ان يفسر هذا بقوله انها رغبة في العودة الى الحرية الطفلية اللامسؤولة واللامحدودة. تريد الدوافع من خلالها ان تتلقى اشباعا مباشراً. واضاف ان هذا قلما يكون اشد الاستبصارات كشفا لحقائق واكثرها إستنارة.

وان قائد المجموعة طلب منه ان يقيم حواراً بين نفسه هو وبين السجادة، متنقلا من احد الكراسيين الى الكرسي الآخر وانه هو الذي يقوم بتمثيل الدورين تباعا. وهذا ما كشف بسرعة عن عنصري المتنفذ والمنفذ في شخصيته، وكان الحوار متخذا نوعا ما الشكل التالي:

السجادة: لماذا انت تتبول علي هكذا؟

الرجل: يا للسماء! بل حتى انني لم انتبه الى وجودك، واني الآن تأتى لي لاتملاًك عن كثب، انك شائخة وانك رثة على اية حال- وانك قذرة ايضاً- انك لا تستحقين اكثر من التبول عليك، يحق لك ان اقول.

السجادة: حسن، ان هذا ليس من العدل، واني لاحتج. وعند هذا الحد، تدخل رئيس الجماعة فطلب من (السجادة) ان تحتج باظهار شيء من القناعة والاقناع، وهو حقاً يعني ما يقول. لهذا راح رجل الاعمال يدور حول الجماعة، وهو يردد، (كف عن التبول علي)، كان يقول هذا مع شيء

من التلكؤ باديء الامر، وبالتدريج اكتسبت ثقة الى ان جعل في النهاية يرقص رقصا ايجابياً ويتقافز غاضبا وهو يلوح بقبضات يديه ويردد الكلمات والألفاظ من اعماق صوته واعلاه. ثم طلب قائد المجموعة منه ان يعود إلى مقعده وان يستمر في تمثيل دور السجادة، فراح يقول:

(قد اكون بعض الشيء رثة، ولكني لا اسمح للناس بالتبول فوقي. انا مصنوعة من مادة طيبة، واني شديدة القدرة على الاحتمال، اني جد نافعة واني حقاً اشيع الدفء في المكان، والواقع انا سجادة جد مفيدة حقا).

فالرسالة الوجودية هنا بادية الوضوح، فهو كان قد قاسى خلال حياته في مجال الاعمال من احساس بانه موضع استخفاف وانه نوعاً ما مزدرى وبأنه دائماً ضحية خداع، وكان يستحضر هذا الاحساس ذلك لانه كان يشعر في اعماق نفسه بانه لا يستاهل شيئاً افضل من ذلك. ادت هذه الشريحة من الحلم الى ان تكشف عن (نقيصة)(١٢) كائنة في شخصيته، وقد شجعه على ان يسترجع (الكنز الدفين) المفقود من ثقته بنفسه.

واذا ما تعذر على شخص ما ان يستذكر احلامه كلها بتفاصيلها، فان بيرلز يقترح عليه ان يسأل سؤالا كالآتي: (ايتها الاحلام لماذا انت دائماً لا تأتيني الا نتفا واجزاء؟) وان احد اعضاء المجموعة قد تلقى من نفسه الجواب التالي: (ذلك لاننا نريد إتعابك وإغراءك، لنجعلك تتساءل عن طبيعة البقية منا، اننا نبتغي ان نستأثر باهتمامك. ان نحن مكناك من كل انفسنا، فقد تجدنا اغبياء او تحسبنا متعبين)فسأله قائد المجموعة السؤال الآتي: (أهذا هو السبب وراء عدم اسهامك اسهاما فعالا في نشاط الجماعة؟) وعلى نفس المنوال يجب ان نسأل اسئلة في حالة احلام الكوابيس، اذ يجدر ان نسأل، فعلا، (ايتها الاحلام، لماذا انت تحاولين ان تخيفيني؟) وعلى هذا السؤال، اجابت نفسها وردت عليها بالجواب الآتي: (ذلك لانه لا ينبغي لك ان تتمتعي في الازمان والاوقات بحياة رائقة، واذا ما استمتعت بيوم سعيد ناجح نهارا، فمن الحق اذن ان تتعرضي للمقاساة

ليـلا. وإذا انت واجـهت يومـا يائسـا تعيسا نهاراً فاننا نأتيك لنحييك ليلا).
ولعل شـيئاً من هذا القـبـيل وسـببا من هذا الضرب كان وراء ما دعاها يونج ب(الاحلام التعويضية)compensatory dreams- ويراد بذلك المشاعر الداخليـة فـينا والتي لا نمـتلك معها ان نتحسس مقداراً فائقاً من السعادة، ولا نحن مـسموح لنا كذلك ان نقاسي بوجودها، من المآسي اكثر مما تقتضيه عدالة الحياة من نصيب لنا وقسمة.

اسـتعمل يرلز هذا التكنيك كذلك مع اناس كانوا قلما يسترجعون او انهم لا يسـتـذكرون اي حلم من احلامهم، ونظريته تعلل النسيان انما هو خدعة او حـيلة لتـفـادي المواجـهـة مع تعـاسـة محتـملة وانه يسـتخدمه عادة اناس يعـتـقدون انهم قد اصبحوا على وفاق مع الحياة. فهو يجبرهم بان يتحدثوا الى احـلامـهم الضـائعـة كما يلي: [ايتـها الاحلام، اين انت؟] وان الجواب دائماً مـفـيـد، اني، وانا اكـتب هذا، فـلا اتذكـر اني استرجـعت حلما حقيقيا على مـدى عـدة اسـابيع، الامـر الذي لم يكن مألوفـاً بالنسـبـة لي. اذ اني اسأل احـلامي ماذا بها، فتجيبني:(اننا لا نريد ان نربكك بمادة اكثر تشوش عليك في هذه المرحلة، لذلك فـاننا نتحاماك ونتنحى عنك جانبا بعض الوقت والى حين. وسنعـاودك بعـدمـا يكون الكتـاب قـد انتـهى، فلديك من المادة بين يديك مـا يكفي لاشـغـالك في الوقت الراهن ولا نرغب في ارباكك اكـثر مما انت فـيـه. فـان نحن عاودناك الآن، فانك ستمضين جل اوقاتك في تأويلنا فـقط، بل حـتى انك سـتـبلبلين نفسك بافكار جديدة ممكنة او محتملة. ها انت قـد رتبت كل شيء ونسـقتيه كما ينبغي، لهذا فسنأخذ بيدك الى المحافظة على الابقـاء على الاشـيـاء مرتبة على هذه الصورة). ومن هذا نتبين كم يسهل على المزمن في النسـيـان في عـدم تذكـر احلامه ونسيانه اياها يمكنه ان يتلقى جوابا مماثلا في ما يتعلق بحياته ككل.

ان الأسـاليب الجشـتـالتـيـة لا تقـدم لنا كثيرا عن الاحلام نفسها-- من حـيث مـصـدرها، طبيعتها، او اغراضها- لكنها في الغالب تنبؤنا دون شك

كثيراً عن انفسنا. ومن خبرتي الخاصة، فانها لا تكون مجدية لكل شخص، وبخاصة بالنسبة الى اولئك الذين يواجهون صعوبة في ان يكونوا على اتصال بعالم خيالاتهم الداخلية، وفي مثل هذه الحالات فاني اوصي باتباع طريقة هول في التعامل مع الاحلام على ان يخامرني شك في ان هناك مناسبات نجد فيها المنحى الجشتالتي يبرر الى حد بعيد دعوى بيرلز الذاهبة الى انه باتباعه هذا ألمنهج يستطيع ان يسبر غور الشخصية خلال نصف ساعة، في حين أن محللاً نفسانيا آخر ينتهج اسلوبا غير هذا يتطلب اشهراً حتى ينشط ويبلغ درجة الاحماء، وكما سبق ان اسلفت، فان خير النتائج انما تتاح من العمل ضمن اطار جماعة يتولى قيادة دفتها قائد متمرس خبير، ولكن ليس ثمة سبب مطلق يقف حائلا دون استخدامها في رحاب البيت ليفيد منها وينتفع بها كل من له اهتمام بها.



نحو طريقة شاملة لتفسير الاحلام

في الوقت الذي يتجذ فيه كل من هول وبيرلز منحيين يختلف احدهما عن الآخر تمام الاختلاف في تفسير الاحلام (حتى ان بيرلز ليحجم عن استعمال كلمة تفسير) فان نظريتهما بشأن الاحلام يوجد بينهما قاسم مشترك:

١- كلاهما يعترف بان الاحلام تستخدم لغة الصور الرمزية، لكنهما يهتمان بما تكشف عنه الاحلام لدى الحالم من مشكلات في حياته، بدلاً من معاملة الحلم، كما كان يفعل فرويد، على اساس انه اوالية تمويهية غايتها منع الحالم من ان يفهم ما يرمي اليه حلمه.

٢- كلاهما يصر، شأنهما في هذا شأن يونج، على ان اي حلم معين انما ينطوي على اشارة الى موقف في حياة الحالم الحاضرة الراهنة، بنفس القدر الذي يشير فيه الى التركيب الخلقي الاساسي عنده الذي تكون بفعل خبرات الطفولة المبكرة. كلاهما يبحثان في ثنايا الحلم عن (رسالة وجودية) مبعثها الحال الحاضر عند الحالم ويستخلصان فقط عرضا اشارات تعزى الى خبرات التكوين الاخلاقي المتحدر من الماضي.

٣- كلاهما يتفق مع يونج في ان الحلم ينبغي تأويله على انه وجهة يجدها الحالم اجدى له وانفع. فان وجد ان الحلم يكشف عما يبدو انه رغبة طفلية لا شعورية، فينبغي في هذه الحالة تمحيصها لتبين كيف تؤثر هذه الرغبة في مواقف حيواتنا الحالية. ومن جهة اخرى، فان الاحلام تنطوي على ما هو ابعد مدى من الرغبات وحدها فقط، وانه ليتعين علينا ان نبحث دائماً في ثناياها عن رسالة مناسبة ايا كانت نوعيتها.

٤- ولأن كلتا الطريقتين بسيطة ومباشرة، فانهما كلتيهما يمكن ان يستخدمهما الناس الاعتياديون في بيوتهم بغية اكتساب معرفة تبعد بصرهم

عما يجد عندهم من مشكلات وصراعات شخصية. كلتا الطريقتين ليستا منهجين متخصصتين ليتم استخدامهما من جانب خبراء مختصين في غرفة الاستشارة فقط، ولا هما تعنيان بشكل خاص بعلاج الامراض العقلية.

يبدو لي ان هذه النقاط جميعها لها ما يبررها في ضوء معطيات البحوث الحديثة في مجال الاحلام، ولكني لا ارغب في ان انكر بان الاحلام يمكن كذلك ان تكون ذات فائدة في العلاج المهني المتخصص بالامراض العقلية. والحق اني لانصح اي واحد يصبح مضطربا اضطرابا خطيراً جراء اشياء يجدها في الاحلام، اي اي فرديساوره ادنى شك او سبب يحمله على الظن بانها- الاحلام- ترتبط في عدم الاستقرار العقلي عنده، انصحه بان يلتمس استشارة مهنية من مختص، واني لانصح بشكل خاص اولئك الذين لا يتمكنون من الاضطلاع بالتجربة التي ساقترحها في الفصول اللاحقة، وعدم تمكنهم من النهوض بها يتمثل اما باجتنابهم اياها وتحاشيها وتركها او بسعيهم الى طلب المساعدة من احد، وبخاصة اذا ما كان هناك اي احساس خطر جدي بانهم في غشاوة مغرقون، وفي حالة كهذه، فكأن الاحلام، على حد تعبير بيرلز، تقول له:

(اننا بالنسبة اليك نفوق كثيراً ما تحتمل وفوق ما تقدر عليه، فاذهب واطلب العون).

واني، بشكل خاص، لا ارغب في ان الح بان التحليل النفسي الفرويدي القويم يخلو من شيء يقدمه. واني لعلى استعداد للاعتقاد بان ثمة مواقف ومناسبات يمر بها شخص مضطرب اضطرابا خطيرا او يخضع خلالها لتحليل مهني متخصص، فانه يمكنه ان ينتفع من طريقة العلاج الفرويدي عن طريق تحليل احلامه، اذا ما افلح العلاج هذا في الكشف عن الصراعات الطفلية الدفينة المسؤولة عما به من عصاب. وعلى وجه العموم، على اية حال، فاني لاظن الناس (الاسوياء) يحسون بانهم متقيدون بالمنحى الفرويدي في مجمله، ولا سيما عندما يكون التطبيق الفرويدي هذا متأثراً بما

يعبر الآن بوجه عام انه منحى تجاوزته روح العصر وان نظريته تنطوي على اخطاء. كما اوضحت من قبل، فان النهج الجامد ازاء الاحلام يمكن ان يلحق ضرراً بالغاً بكل من الحالم وحلمه. واعتقد ان ديننا لفرويد يكمن في حقيقة ان اعماله الريادية قد اولت الحلم اهمية واضفت عليه قيمة في وقت كان العلم فيه يسعى جاهداً للتقليل من شأنه (من شأن الحلم)، وانزاله الى درك التفاهة وكأنه لا يستحق البحث.

والاسهام الآخر لفرويد يتمثل في انه امدنا بثروة من الافكار جديرة بالتأمل والاعتبار، وكثير منها قد وجدت طريقها الى لغتنا ومواقف حياتنا اليومية. وبمقدورنا جميعاً في ايامنا هذه ان نتحادث بصورة عفوية ودونما تكلف عن (عقدة اوديب) oedipus complex وعن (الحسد القضيبي) penis envy ، وعن (قلق الخصاء) castration anxiety ، نتحدث عن كل ذلك حتى اذا اختلفنا ووجهة نظر الفرويدية الصارمة المحددة هذه، لذلك فليس من العجب ان نجد قائمة طويلة بأسماء اشياء ترمز في الاحلام الى القضيب، وهكذا الحال، على انه، لا يكفي، كما يذكر هول، ان ندع الامر ينتهي عند ذلك الوقت المعين. ان التحليل الفرويدي يسمى غالبا (التحليل المتعمق)، لكنه، من وجهة نظري، ليس متعمقا بما يكفي.

ان المنهج الفرويدي ازاء الاحلام يمكن ان تكون له منافعه داخل غرفة الاستشارة، لكنه كتطبيق عام ليس مناسبا لمعالجة مواقف الاحلام في البيت. واني ليهمني او اوضح كيف يمكت للاحلام ان تساعد الناس (الاسوياء) الاعتياديين في حياتهم اليومية معرفة انفسهم وفهمها على نحو افضل. وإنّي ساقتصر، بوجه عام، على منهجي كل من هول وبيرلز (وكلاهما مدينان كثيراً الى يونج) وسأبين كيف يمكن، كما ارى، ان يستعمل هذان المنهجان افضل استعمال وعلى اتم فائدة ضمن حدود المنزل. وان ما ادين به الى يونج بصورة رئيسية هو انه قد قادني الى ان ارى ان

هناك عـدداً قليـلاً من الاحـلام الخـاصـة نوعا ما تتطلب تفسيرا وفق خطوط مختلفـة تمام الاخـتـلاف، وسأتناول هذه بالمناقـشـة في الفـصل العاشر، واول قاعدة في تأويل الحلم وتفسيره هي الا نسأل:

(اية طريقة في التفسير صحيحة؟)

ولكن يجب ان نسأل:

(مـتى يلزم ان نستخدم طريقة معينة تفضيلا لها على طريقة سواها؟)

وخـلال سيـاقـات بحـوثي في الاحلام عبر كثير من السنوات، الفيت انه من المسـعف ان اتعـرف على ثلاثة انواع واضـحـة من انواع الاسـتبصار التي يمكن ان نجنيها من الاحلام، وهذه هي:

أ- استـبـصـار يتعلق بحقائق كائنة في العالم الخارجي امكن استبانتها انها مخالفـة(١٣) للعـرف والتقاليد والقواعد، كما يقال، وانها تجري اثناء مجريات الحـيـاة اليـومـيـة، لكنهـا حـقائق لم يتم تمثلها في سياق الوعي الشعوري ولم تـندمج فـيـه. ولذلك فـاول مـا اثيره من سؤال عن حلم مـا هو: (هل هو يحتـوي على اية حـقـيـقـة مـوضـوعية؟) وبعبارة اخرى، هل هو يعكس اية مـعلومات واقعية عن الاحداث الراهنة، ام انه فقط يعكس انطباعا ذاتيا عن الكيـفـيـة التي يرى الحالم فيه عالمه المحيط به؟ وأنا اسمي هذه الخطوة الأولى في النظر الي الخارج Looking outward.

ب- واني مـا لم اجـد في الحلم دليـلا يوميء الى حـقـيقة موضوعية، فاني اطبق طريقـة هول القـائلة (بالتأمل في صـورة) وذلك لكي اكـتـشـف ادراكات الحـالم للحـياة ومفاهيمه لها. وانا في هذه الحالة استخدم الحلم كمرأة مشوهة للصـورة تلوي الواقع الخـارجي فـتطوعـه تبـعـا لاتجـاهات وصراعـات الحـالم الداخلية، فتعكس بذلك معطية صورة لواقعه الداخلي الفريد unique، وانا اسمي الخطوة الثانية هذه: النظر في المرآة Through the looking Glass.

جـ- وأخيرا، فـان الاحـلام يمكن ان تتيح استبصارا يمكّن من النفاذ الى

اعـمق مـا في نفس الحالم، ويصدق هذا احيانا على الاحلام التي اتاحت من قـبل تبصرا على صـعـيـد المسـتويات الاخرى، كما سبق لي ان بينت قبلا في حـالة مـعالجتي لحلمي الذي ذكرته مسبقا بشأن (البيتين). وتوجد في الوقت نفـسـه بعض الاحلام التي تتطلب مباشرة هذا الضرب من التفسير المتعمق، اعني انها تتألف من صـور عـقليـة مـسـتغربة، خارقة او اسطورية خرافية، تنشأ مـبـاشرة من طبـقـة كـائنة نوعـا مـا في اعماق الشـخـصـيـة ومـثل هذه الاحـلام، شأن جميع الاحـلام الاخـرى، انها تنبـهـها للوهلة الاولى احداث مـرت بالحـالم في حـيـاته الواعية ابان النهار، لكنها تبدو في نهاية المطاف انها مـعنيـة بالحـالة النفـسـيـة الداخليـة اكبر مما هي معنية بالواقع الخارجي. وانا اسمي التفسير عند هذا المستوى: النظر الى الداخل Looking Inward، واني لاجـد طرائق بيرلز ويونج، بخـاصـة مـوائمـة لها وجـد مناسبة، وحيث نجـد تفـسيرا (النظر في المرآة) تطلعنا علي الكيـفـيـة التي نرى فـيها انفسنا، وننظر بها الى الآخـرين، والى العـالم من حولنا، فاننا نلغي (النظر الى داخل) يمكن في الغـالب ان ينبئنا عن الاسبـاب التي دعـتنا الى ان نبني مـثل هذه الاتجاهات اول مرة.

اعـتـقـد ان شـيئاً ما يقارب المنهج الشامل الخاص بتفسير الاحلام يمكن تحـقـيـقـه وذلك عن طريق تمحيص اي حلم من الاحلام بواسطة تطبيق كل واحـدة من وجـهـات النظر الثـلاث هذه بصـورة مـتـعـاقبة ومن ثم استعمال انسب طريقـة في التـفسير تنطبق على الظرف المطلوب وتلائمه. ان ارشادات سيرد ذكـرها في الفـصـول الثـلاثة القـادمـة، والقـاعـدة الاسـاسـية في جميع الحـالات هي بالا نفـرض قسرا اي مـعنى على اي حلم بل يجب ان ندعه في كل الاوقات (يتحدث عن نفسه).

هوامش الفصل السابع

(١) النقانق وتسمى السجق (بضم السين والجيم) لحم مثروم ومضغوط يصنع بهيئة الاصابع ويقابلها بالانكليزية كلمة Sausages (المترجم).
(٢) درع مرنة ذات زرد (المترجم)
(٣) كلمة درع chain mail وكلمة ذكر مكبل chained male ومن هنا جاء الربط بين الحلم والواقع (المترجم).
(٤) الزحلوفة احدى اداتي التزلج على الثلج والتزحلج عليه (المترجم)
(٥) طاعنة في السن..... (المترجم).
(٦) مهزولة، ضعيفة........ (المترجم).
(٧) استعملت المؤلفة التعبير المجازي وهو:
Feeling like cinderella in The ball
والترجمة في المتن تؤدي المعنى بدقة (المترجم).
(٨) هذا اتجاه جديد في علم النفس يرمي إلى التوفر على ما يعانيه الانسان وعلى حقيقة وجود كينونته في ضوء تفاعله مع بيئته حاضراً ومستقبلاً (المترجم).
(٩) السجوف: الستائر (المترجم).
(١٠) السيف (بكسر السين) ساحل البحر وشاطئه (المترجم).
(١١) الجدر (بضم الجيم) جمع مفردها جدار (المترجم).
(١٢) استعملت المؤلفة كلمة (hole) وهي تعني ثقباً او ثغرة او عيباً، والترجمة في المتن انسب (المترجم).
(١٣) استعملت المؤلفة عبارة below the belt، وهي تعني حرفيا تحت الحزام او اسفل النطاق، وكلاهما لا يؤدي المقصود من حيث مكانها في السياق، والاجدر ترجمتها كما في المتن آنفاً، وهذا ما يراد به هنا (المترجم).

القسم الثالث

الأوجه الثلاثة للحلم



الفصل الثامن

النظر الى الخارج

في مراحل مبكرة خلت، كان الأمر يبدو وكأنه مسلم به بأنه يمكن أن تجلب الأحلام الى الحالم اشارات أو تحذيرات عن أحداث حدثت فعلاً أو على وشك أن تحدث في العالم الخارج. ولكن مع تقدم النظرة العلمية، فان هذه الفكرة قد حسمت على اساس انها لا تعدو كونها أكثر من خرافة بدائية. وان الصحافة والمجلات ما فتئت تحاول من حين لآخر أن تثير الاهتمام بالأحلام عن طريق رواية قصص عنها فتجعل تلك الأحلام تبدو وكأنها ضرب من ضروب الاستشفاف Clairvoyance أو المعرفة المسبقة Precognition بأحداث واقعية كائنة تماماً خارج الادراك الشعوري للحالم، لكن الرأي العام العلمي يجنح الى معاملة مثل هذه القصص جميعاً بشيء من الشك، بوصفها محاولات تلجأ الى استخدام توافق الأحداث للاستحواذ على ما في القوى العقلية من معتقدات.

وعلى مستوى أكثر تواضعاً، فان المختصين بعلم النفس قد أقروا بأننا جميعنا نضمر ميلاً الى أن نسقط مخاوفنا، وآمالنا، ورغباتنا، على العالم الخارجي، لذلك فهم نشطوا في ثني الناس عن البحث بشأن حقائق موضوعية عن أي حلم من أحلامهم يتعلق بأقاربهم أو بأصدقائهم، أو بموقف من مواقف حياتهم. وهنا نجد موقف كالفن هول نموذجياً اذ يقول : [ليس الحلم صورة للواقع الموضوعي، ولا ينبغي ان ينظر اليه هكذا. انه، على أية حال، صورة دقيقة للواقع كما يتراءى للحالم نفسه. وهذا النوع من الواقع - كما يبدو للحالم - يسمى الواقع الذاتي. وغالباً ما يتطابق الواقع الذاتي للمرء مع الواقع الموضوعي، ولكن يتعذر، اعتماداً على الأحلام وحدها، أن نحدد مقدار هذا التطابق ونقرره.].

في حين أني لا أختلف من حيث المبدأ مع ما يذهب إليه هول من رأي، فانه يبدو لي أنه توجد هنا خطورة حقيقية لها محاذير علمية ونفسية وتلك هي أن لا نسمح برمي الطفل مع ما يرمى من ماء حممناه فيه (١) . اذ أن البحث الحديث المتعلق بالأحلام قد كشف عن أن محتوى الحلم انما يستمد مادته أساساً من خبرات واقعية حديثة العهد، وأنّ بحثي الخاص قد وفر كثيراً من الأمثلة المتعلقة بأحلام نلتقي فيها بما إستبعد من معلومات كان العقل الواعي قد نحاها جانباً على أساس ان تلك المعلومات جد مزعجة مما يجعل من المتعذر تقبلها. في مثل هذه الحالات يمكن أن تمدنا الأحلام بمعلومات ذات قيمة عالية عن العالم الخارجي، ولهذا السبب فانني أعتقد بوجوب تمحيص جميع الأحلام بحثاً عن عناصر تنطوي على واقع موضوعي. وهذه في حد ذاتها يمكن أن تكون ذات خصائص تذكيرية، أو تحذيرية، أو حتى تنبؤية، وأني لأشعر أنه من الغباء أن نتجاهل هذا الاحتمال بقدر ما يكون كذلك هناك من الخطأ المعاكس في أن ننظر الى جميع أحداث الأحلام على أنها الهامات دقيقة عن أناس حقيقيين أو مواقف واقعية.

ان الاجراء المعقول، كما أراه، هو أن ننظر أولاً الى أي حلم فيما اذا كان يمكن أن ينم عن معلومات حقيقية حول الأحداث الخارجية التي لم يتمثلها بعد العقل الشعوري في الحياة الواعية، وأن نتمعن بعين ناقدة وبطريقة الحس العام الباده كل احتمال من هذا النوع لنتبين ما اذا كان ينطوي عن أي شيء فيه. على أن هذا لا يحول بأية حال من الأحوال دون امكانية أن نفس الحلم يتضمن كذلك مستويات أخرى من التبصر، وان الاشارات الموضوعية في الغالب يتطلب الأمر ابعادها من قصة الحلم ككل. فهي في العادة يتم تمثيلها بصورة مباشرة، لكنها في بعض الأوقات تظهر بصورة رمزية مما تستدعي ترجمتها قبل أن تصبح المعلومات واضحة. وان لي من

---

(١) هذا تعبير مجازي له بعده ما يفسره (المترجم)

خبرتي ما يؤهلني للقول أنه حيثما تجلت في الأحلام (ادراكات تسامي) اعلائية كهذه فانها يمكن أن تكون في الغالب ذات جدوى مباشر للحالم أكثر من نظيراتها الذاتية المعقدة.

وسأبدأ بشيء من الأمثلة البسيطة جداً ومن ثم أنطلق تدريجياً الى أخرى أكثر تعقيداً.

أحلام تذكيرية

منذ ليال قلائل مضت، رأيت حلماً بدا وكأنه كان بمثابة تذكير لي مبسط مباشر عن شيء كنت قد نسيته، فقد حلمت بأن باب الحديقة كانت مفتوحة وهي تتأرجح في مهب الريح. وقد استيقظت وانا حقاً أسمعها تصطفق، لكني عندما هبطت السلالم لأتبين ماذا كان يجري هناك وجدتها مفتوحة وهي مثبتة على عقيفة(٢) ثابتة كانت يقينا تحول دون اصطفاقها. وفضلاً عن ذلك فان الليلة تلك كانت هادئة وما من أبواب أخرى كانت تصطفق. اذ في مكان ما في هذا المسار، قد عرف دماغي بأنني كنت قد نسيت اقفال الباب، وهذا القلق الأعلائي كان في سبيله الى عملية معاودة العمل عندما استيقظت. يبدو على وجه التقريب ان هناك في الدماغ توجد أوالية(٣) تحذيرية قد اصطنعت ذلك الاصطفاق لكي توقظني لأغلق الباب.

منذ سنوات قلائل خلت حدث لي حلم تذكيري أكثر تعقيداً بعض الشيء، وذلك حينما حلمت أنني وصلت لحضور جلسة تحليل نفسي

(٢) العقيفة أو المشك أو ما يسمى بـ(الرَّزَّة) وهي ما يثبت الباب على حاملتها (المترجم)

(٣) وتترجم أحياناً مكنية وتقابل كلمة Mechanism الانجليز وبعضهم ينقلها بنفس اللفظ (ميكانزم) وأصح ترجمة لها ما ورد في المتن (المترجم)

جماعيـة، ولدهشتي أني وجـدت جميع أعـضـاء المجـمـوعة وسط حفل أقيم هناك. أحـسست بالاستياء اذ وجدت أن أفخر الطعام كان قد تم أكله وأتى عليـه وأن المحـتـفلين قـد نعموا بالمتعة والفكاهة. حانت مني وأنا هناك نظرة عبر مـائدة الطعـام فلمـحت رئيس المجـمـوعـة وهو يحدق في بصـورة كلهـا استـنكار واسـتـهـجـان. وقـد سألت فـتاة كانت جالسة بجانبي لماذا ابتدأوا بتناول الطعـام بصورة مبكرة على هذا النحو، فأجابتني : [أما تتذكرين. أنه كـان قـد طلب منا أن نحضر جميعـاً مبكرين في هذا الاسبوع]. فأستيقظت مـتـذكـرة أن جلسـة الجماعـة الاسبـوعي كـان مقرراً له ذلك اليوم بالذات، وتذكـرت ان رئيس الجماعـة كـان بالفـعل قد طلب منا جميعاً أن نحضر أبكر من الوقت المعـتاد بمقدار ساعة، واني كنت قد أنسيت ذلك كله تماماً. كان الحلم مـواتياً وملائماً، ان لم يكن صحيحاً تماما، . ذلك لأنني كان يتعين علي أن أحضر جلسـة تحليل انفـرادية، قبل التئام المجموعة في جلستها التحليلية تـلـك، ولـذلـك فلولا تذكير الحلم أياي بالوقت الأبكر، لوصلت فـعـلاً في الموعـد المحـدد لحضور جلسة التحليل الجماعية، ولكن كان يمكن أن يفوتني مـوعـد حـضـور جلسة التحليل الانفرادية. فلو أن شيئاً من هذا قد حصل لكان مـضـيـعة لقسط من الأجور أكبر من المبلغ المطلوب دفعه ضمن جلسة الجماعـة ولكان ايضاً ادعى الى أن يحدث نوعاً من الملل ويبعث على تفسيرات مـثيرة للحـساسية تنطوي على معنى أنني أقاوم التحليل النفسي من حيث لا أشـعـر! لذلك كنت مسرورة غـاية السرور ان يكون الحلم قد ذكرني بكل ما حـصل، وقـد وجـدت هذا أكثر نفعاً من التفسير النفسي السطحي الظاهري الـذاهب الى أنني كنت قـد نظرت كما يبـدو الى الجلسـات الجماعـيـة وكأنها حـفـلات مقامة، وهي نظرة تعبر عن عاطفة كان يمكن أن يستهجنها رئيس المجـموعة [وهو محللي] أشد الاستهجان.

وقـد حـدث لي مـؤخـراً حـلـم آخـر ممـاثـل يـتـعـلـق بـمـوعـد (لقـاء) Appointment ، لم تكن الاشـارة فـيـه واضـحـة تماماً. إذ رأيتني فيه بين

مجموعة من الناس نلعب الورق Strip Poker، وعندما حانت لحظة كنت أراني فيها أنّي أخلع بنطالي، لاحظت وقد تملكني الهلع، أن ساقي كلتيهما، كانتا يغطيهما شعر كثيف أسود. ولدى استيقاظي، رحت توا اتفحص ساقي وقد وجدت أن الحلم، وإن كان قد بالغ كثيراً [اذ أن الشعيرات في ساقي صهباء على أية حال]، فأني في الواقع كنت بحاجة الى معالجة شمعية(٤) عاجلة، وهذه كنت معتادة عليها مرة في كل ستة أسابيع. ولتحديد الموعد ولذلك كان علي أن أحدده عادة قبل الوقت باسبوعين مقدماً في الأقل، وقد خاطبت (الصالون) هاتفياً فما كان الا أن أتلقى الرد بأنني في الحقيقة كنت قد ضربت معهم موعداً خلال آخر زيارة لي قمت بها اليهم وكان الموعد الموقوت هو ذلك اليوم الذي تلفنت اليهم فيه.

في حالة كهذه، أجد من الصعوبة بمكان أن أوقن بما يذكره التحليل النفسي عن [الحسد لفقد القضيب]، بل وحتى ما يذهب اليه التفسير وفق مذهب (هول) القائل [بأنني أرغب في أن أرى نفسي في موقف الرجولة]، فلا أراني مستعدة لأن أعزو قيمة كبرى لتأويلات كهذه. يبدو أنه من المعقول أكثر أن دماغي كان على نحو ما قد سجل حقيقة الموعد الموقوت وكان قد أطلق في الحلم ما يذكرني بخبرة كان عقلي الواعي في حينها منصرفاً عنها لأنهاكه بما كان يشغله. ولكن لماذا لم يتكرر هذا النوع من الحلم دائماً وغالباً. والجواب هو أنه يمكن أن يحدث أكثر مما ندرك ذلك، اذ أننا لا ندرك الا أجزاء ضئيلة من أحلامنا، ولهذا فان استعمال دفتر تدوين المواعيد أو استخدام المذكرة الخاصة هما أنجح وسيلة لتسجيل تواريخ مواعيدنا. والحق، أنه لمن الممكن أننا نحلم بمواعيد يكون الدماغ قد سجلها، وبشكل لا شعوري، في مكان ما خلال احداث يومه نوعاً من التناقض بين خططنا لليوم التالي ومعرفتنا المختزنة التي تصبح فيما بعد لغزاً

(٤) يدعك بالشمع، ويفرك الجسم تمسيداً ويقابله (المساج). (المترجم)

يجب حله خلال الليل. وليس من الانصاف في شيء أن نزيد الدماغ المنهوك انهاكاً عن طريق تقديم مزيد من الألغاز أكثر مما يمكنه أن يضطلع به عادة.

ففي هذين الحلمين الأخيرين (التذكيريين)، يبدو وكأن دماغي قد أعاد الكرة على هذا التناقض المحير، وذلك باستقصائه (قصة) من النوع الذي يمكن أن يحدث فيها لو بقي الموعد المضروب منسياً ولعل مثالاً من هذا القبيل وأكثر دراماتيكية هو ما حدث لاحدى أفراد مجموعتنا اذ حلمت وكأنها في حالة مخاض لتضع طفلاً في مستشفى للولادة. هذا الحلم كان قد حصل في القسم المبكر من الليل، وبينما راحت الحالمة تتفكر في المعاني الممكنة للحلم ـ ما اذا كان ينطوي على رغبة [فرويدية] في الحصول على طفل آخر، أو ما اذا كان يعبر عن ولادة جديدة [يونجية] لاستقبال وجه ما أو مرحلة من الحياة جديد ـ بينما هي تتأمل ذلك كله، استذكرت فجأة أنها كانت قد نسيت أن تتناول حبوب منع الحمل قبل أن تأوي الى فراشها تلك الليلة. فما كان منها الا أن قفزت من فراشها حالاً فتناولت تلك الحبوب. يبدو لي جلياً أن هذا الحلم كان في الحقيقة نتيجة لما كان يقوم به دماغها من سبر لعواقب هذا الانحراف عن الروتين الطبيعي.

ثمة خبرة أخرى مماثلة ذكرتها احدى عضوات المجموعة، وكانت قد حلمت كأنها تعبر حاجزاً يفصل بين بلدين، وكان ما أشد دهشتها عندما اكتشفت في اللحظة الأخيرة أن ليس لديها جواز سفر، ولدى استيقاظها، وقد تذكرت أول قاعدة من قواعدنا في تفسير الحلم، راحت تبحث عن جواز سفرها إذ كانت على وشك السفر في عطلة لها خلال الاسبوع التالي. ومما أشاع في نفسها الارتياح، انها وجدته حيث كانت تتوقعه أن يكون، ولكن بينما كانت على وشك البدء بتفسير حلمها في حدود عبور الحواجز الكائنة في اللاشعور، لاحظت أن جواز سفرها كان سينتهي مفعوله وهي، بعد، في منتصف أيام عطلتها. وكان يمكن أن يكون هذا مزعجاً لها تماماً،

لا سيما وأنها كانت تزمع ان تقطع أوروبا سياقة ـ واعتقد بأن الحلم كان تذكيراً واضحاً لها يلزمها بتجديد جواز سفرها قبل الشروع في عطلتها.

واني لأجد هذا ملمحاً عاماً مشتركاً على نحو ملائم في الأحلام، ولكن في أغلب الحالات قد لا يحصل هذا في الأحداث الخاصة التي سبق لها أن نسيت تماماً، ولكن مثل هذا متوقع أن يحدث بالنسبة لما كان قد تم نسيانه في حالات القلق الشعورية الجارية. في حالات كهذه يبدو أن الحلم يعزز من مواقف القلق، وذلك من خلال تحديد ما يمكن ان يحدث فيما لو تجاهلنا المواقف هذه، واني من جهتي لأسمي هذه أحلاماً [تحذيرية] Warning بدلا مما توصف به بأنها أحلام [تذكيرية] Reminder . واني لأقصد هنا أن أعزو أي تمييز صارم الى ما في الحلم من مكنية يحتمل أن تكون واحدة في كلتا الحالتين ـ (في الحلمين المذكورين آنفا).

أحلام تحذيرية

يذكر الدكتور وليم ديمنت Dr. William Dement، الرائد في البحوث الحديثة في الأحلام، يذكر في القسم الأول من بحوثه تلك، أنه استيقظ ذات صباح وهو في حالة قلق شديد بعد حلم رأى فيه أنه كان قد تم تشخيصه بأنه مصاب بسرطان الرئة. هذا الحلم وما صاحبه من انفعالات ترك في نفسه أثراً عميقاً مما حمله على الاقلاع عن التدخين لمدة عامين كاملين. وهو يكتب قائلاً انه استأنف مؤخراً تلك العادة مرة أخرى، رغم كل ما ينشر من دعاية مناهضة للتدخين ورغم ما يملأ شعوره من قلق يتعلق به، وأنه لينتظر حلماً مماثلاً ثانياً يصده عن التدخين الى الأبد.

ان محللاً نفسانياً يتبع منهجاً فرويدياً قد يواجه صعوبة في تفسير أحلام كهذه على أنها [رغبات] ، وهذا المنحى كان أحد النقاط التي أصر أدلر

عليـهـا عندمـا نتـبنى وجهة نظر أقرب الى الحس العام. وقد أوضح الدكتور (رودولـف درايكرز) Dr. Rudolf Dreikurs المنطلق الأدلري - نسبة الى أدلر - بذكـره قـصـة مريض كان قد حلم في الليلة التي أعقبت ملئه استمارة الضرائب على نحـو مـزيف، حلم بأنه قـد ألقي به في السجن. وأنه لم يربط أول الأمـر بين الحـدثين الا بعـد مضي عـدة أيام عندمـا عـرض حلمـه ذاك للتـحليل. وأنه تذكر فيما بعد أنه قد صمم لدى استيقاظه على ألا يقدم بعد ذلك كـشـفـاً بمـعلومـات زائفـة. يبـدو الحلم في هذه الحالة انه قد قدم على مـسـتـوى انفـعـالي محض تحـذيراً، جـعل الحالم يحس بعدم الارتياح في حالة التـدليس على القـانون، قـام الحلم بهذا دون عـرض حـقـيقي قط للمشكلة نفـسـهـا في مجال الشـعور بصورة مباشرة! إن المبدأ العام الذي اهتم به أدلر، على أية حـال، هو أنّ الحلم كـان يبـدو بأنه تكرار لقلق يسـاور الحالم، وأنه بـالـتـكـرار عـلى هذه الصـورة، كـان يقـدم أحـيـانـاً تحـذيرات على مخاطر، وخطورتها تتـمثل في احتمال إهمالها.

عندمـا ولدت ابنتي، كنت قـد حلمت أحـلامـاً مـشـحـونة بالقلق وكأنها تتصل بخوفي من أن أفقدها، شأني في هذا شأن كثير من الأمهات الحديثات التـجـربة في هذا المجـال. ومـثل هذه الأحـلام تفسر عـادة من وجـهـة نظر التـحليل النفسي بأنها تعـبير عن رغـبـة في التـخلص من الطفل الوليد، وهو تفـسير قد يحمل في طياته شيئاً من الحقيقة ذلك لأن الأطفال الحديثي الولادة يحدون من حـريتنا ويضطرونا الى السـهر في الليالي، وهم في معظم الأحيان يدفـعـوننا إلى الاهتـياج جراء ما يسببونه لنا من اسخاط. اننا في الغالب على وعي تام بمـثل هذه الرغاب العابرة، لذلك فان مثل هذا التفسير لا يضيف شـيئاً جـديداً هنا من جهة أخرى، إن ما يمكن أن تنبئنا به أحلام كهذه هو على وجـه الدقـة الكيـفـيـة التي نخشى فيها على أطفالنا وما قد يتعرضون له من أذى، ولذلك فـمن الأجدى في أغلب الأحيان أن ننقب في ثنايا الأحلام عن مـؤشرات تنم عن خطر حـقـيـقي ممكن حدوثه. ولقد حلمت ذات ليلة

مثلاً وكأن القطة قد قلبت المصباح المنضدي الكائن في غرفة نوم الطفلة مما تسبب عنه حريق في البيت، وقد ترتب على ذلك أني في اليوم التالي أعطيت القطة الى صديقة لي وقد توقفت تماماً عن استخدام المصباح المنضدي. فالحلم يبدو أنه مزيج من خطرين حقيقيين محكيين تماماً ـ وهما القطة التي كان يمكن أن تقفز على الطفلة وهي نائمة في سريرها، والمصباح الذي كان يمكن أن ينقلب بأكثر من طريقة ممكنة.

وفي مناسبة أخرى، عندما بدأت ابنتي تمشي، حلمت أنها سقطت في الحديقة من خلال فرجات مشبك حديدي يحيط بسطح الدار، وقد ترتب على ذلك في النهاية أنني اتخذت الحيطة لمراقبتها وأبعادها عن الاقتراب من تلك الفرجات. وكذلك حلمت أنني سقطت من أعلى السلم إلى أسفله وأنا أحملها بين ذراعي، بعد أن عثرت قدمي في ثنايا سجادة ممزقة تغطي درجات السلم. وفي حياتي الواعية، كنت في حقيقة الأمر قد عثرت في هذا المكان أكثر من مرة وكنت قد أقسمت على إصلاح الموقف ومعالجته في الحال ودون إبطاء. ففي كلتا الحالتين، كان القلق مستحوذاً على الشعور عندي بصورة أو أخرى وفي معظم الأوقات، لكنني كنت في كل مرة أتجاهل النتائج العملية الممكنة التي ستترتب على كل إهمال يبدر مني. إن أحلاماً من هذا النوع وهي تصور لنا نتائج مشؤومة وتجعلنا نبلو(٥) جميع ما يصاحبها من انفعالات كاربة، لتفعل خيراً لنا وتصلح من مواقف حياتنا أكثر مما تفعله جميع النوايا الشعورية الخيرة في هذا العالم من حولنا. أياً كان الأمر، وكما أكدت من قبل، فإننا ننام ونمر بكثير من أحلامنا، بحيث تتوفر لنا على المدى البعيد خبرة أوفى تمكننا من تدوين ملاحظات ملموسة تتعلق بما ينتابنا من حالات القلق، كما تحدث فعلاً في حياتنا الواعية، فتجعلنا نتحسس حالات القلق هذه بدلاً من دفنها في خلفية العقل وفي أعماقه حيث تتحول هناك إلى مواد خام فتظهر على شكل كوابيس.

حلم ممتع قصته على صديقة لي وكنت قد سألتها ما إذا كان في المستطاع

أن أستعير مشطها وفرشاة شعرها، إذ كنت نسيت مشطي وفرشاة شعري الخاصين بي. فناولتني مشطاً، وهي تقول: [إن هذا يحسم الأمر. سأغسل فرشاة شعري في هذه الدقيقة] قالت هذا وقد غسلتها فعلاً. وعندما استفهمتها عن مغزى هذا العمل الغريب والمفاجىء، أجابت تقول: [منذ أسابيع خلت وحتى الآن، أقسمت بأن أغسل فرشاة شعري كلما استعملتها نظراً إلى أنها تتراكم عليها الأوساخ كثيراً - لكنني كنت هذه المرة جد مشغولة فنسيت أغسلها في حينها. ثم إني منذ ليلتين خلتا، رأيت حلماً وكأن الملكة قد جاءت لتتناول الشاي معنا. وبينما كنا على وشك الجلوس حول المائدة، لاحظت وأنا فزعة أن فرشاة شعري القديمة الوسخة كانت ملقاة وسط مائدة الشاي، ووجهها إلى الأعلى وهي تحتوي شعراً كثيراً عالقاً بها. وقد حاولت إبعادها بسرعة قبل أن تلحظها الملكة، وعند ذلك استيقظت وأنا قلقة أشد القلق.] الآن وأنا لست بالملكة، وأن الحلم قد غالى في إبراز النتائج الممكنة المترتبة على عدم غسل فرشاة الشعر، فإنه لمن الواضح أن ذلك الحلم كان من النوع المحذر من موقف لا يخلو من إحراج كان محتملاً حدوثه. أن تفسيراً فرويدياً لظهور الملكة في الحلم على أنها رمز للأم قد لا يضيف إلا قليلاً أو لعله لا يضيف شيئاً البتة إلى القيمة العملية للحلم ذلك لأننا جميعنا نعرف أن أمهاتنا يستنكرن عاداتنا القذرة. ففي هذه الحالة، نجد العقل الحالم، لكي يحقق هدفه، قد اصطفى رسالة أكثر الأشكال توضيحاً لموقف يتوخى تبيانه.

إن الأحلام (التذكيرية) و(التحذيرية) تشير إلى موقف ما أو حدث محدد كنا في وقت ما على وعي غير شعوري به لكننا دفعنا به إلى مؤخرة عقولنا. غير أن هناك بعض الأحلام التي تشير في الواقع إلى مواقف راهنة لسنا على وعي شعوري بها. لهذا السبب فأنا أسميها أحلاماً [استبصارية Clair-voyant] [والاستبصار ملكة تمكن صاحبها من الرؤية العقلية لما يحدث أو يوجد خارج نطاق البصر]، وإن كانت هذه، كما سأوضح لاحقاً، تنطوي

عـادة على تفسيرات طبيعية بدلاً من كونها خوارق.

الأحلام الاستبصارية [تبصيرية]

كنت قـد مـررت في حـالات كثيرة بأحلام (تنطق بالحقيقة) حول شيء ما يبـدو للوهلة الأولى أنه كـان قـد انتـقل إلى الدماغ عبر وسائل خارقة Para-normal وهـي أحـــلام تجـعـل الحـالم في الـغـالـب يحس بالضـيق وعـدم الأرتيـاح، وخبرتي الأولى عن هذا، بقـدر مـا أستطيع أن أتذكـر، كـان قد حـدث لي وأنـا في المـدرسـة عندمـا أعلنت المديرة في أحـد الأيام أن الآنسـة (ر.) قـد غادرت المدرسة لتعنى بتمريض أمها التي مرضت فجأة. وفي تلك الليلة بالذات قـد حلمت أن الآنسـة (ر.) الصـارمة المفتولة العضل نوعاً ما، من ذلك الجنيني الشـاب الوسـيم الذي يعـمل في حديقة مدرستنا. وأياً كان الأمـر، فـعندمـا اخـتـفى الجنيني ولم نعد نراه أسابيع تلت هذا الحلم، رحنا نبـحث عنه ونتـسـاءل عن أسـبـاب غـيبته، اكتسفنا أن حلمي ذاك كان قد (نطق بالحـقـيقـة). وقـد تأثرنا لذلك تأثراً كـبيراً إذ رأينا حلماً يتحقق، وقد تـلـقـيـت بـعـد ذلـك عـدة الـتماسـات بـأن أحلم أحـلامـاً تتـصل بأسئلة الامـتـحـانات، وبمستقبل صديقاتي وحظوظهن، وهلم جرا. وكانت النتائج في العـادة مخيـبة للآمال، ولكن لو أنني واظبت على ذلك لربما أصبحت نبية لا نفسانية!

ومـهما يـكـن مـن شيء، فـإنـنـي عندمـا شرعت أتدبر الخبرة فـيما بعـد، تذكـرت أنني كنت قـد لاحظت في الحـقـيقة الآنسة (ر.) أكثر من مرة وهي تتـمـشى في ساحة المدرسة بصحبة الجنيني، وقبل سفرها بعدة أيام فإن عدداً من البنات كن قـد ألمحن بأن الحدائقي قد اختفى. وقد تذكرت كذلك أنني سـمـعت الآنسـة (ر.) وهي تدندن همسـاً مع نفـسـهـا إذ تقـول: [إن أنت أحـبـبت فإن العـالم كله يترنم من حـولك بالألحان]، كانت تردد ذلك لدى مـرورها في الممـر على مـقـربة مني قبيل مبارحتها إيانا. ورغم أني لم أكن من

الناحيـة الشعـورية أفكر بهذه الأشيـاء عندمـا أعلنت مديرة المدرسة علينا إعـلانها ذاك، فإن شيئاً ما ربما كان قد طبع في دماغي لغزاً مصغراً يوحي بما كـان في فكر الآنسـة (ر.) من ابتـهـاج حملهـا على البشاشة وهي تعرف أنها مـقـبلـة عـلى تمريض أمـهـا المريضـة، ولابد، في الوقت نفـسـه، أنني قـد استوحيت في مكان ما من خلفيات عقلي حلاً ممكناً يرتبط بإطار رومانسيتها مع ذلك الجنيني. فإن عـقلي النائم، وهو يعيـد تنظيم مجرياته الليليـة، قد التـقط مـادته النهارية وراح يعرضها على صورة قصة مصورة.

ولعل أكـثـر الأحـلام الاستـبـصـارية إيلامـاً هو مـا روته إحدى أعضاء المجـمـوعة التي أجري عليها دراساتي الخاصة بالأحلام، اسمها (جوان)، إذ جـاءتـني في إحـدي الأمـسيـات وهي تبكي وروت لي حلماً رأت فـيـه كأنها وجـدت رسـالة في جـيب الصـدر من سترة زوجـها الخاصة بالرياضة. ورغم أنها اسـتـيـقظت قبل معرفة محتويات الرسالة فإنها لبثت تحس قلقاً شديداً، وهـي، وإن كـانـت تعـرف مـسـبـقـاً رأيي بأن أي حلم يحدث لنا يجب أن نتـحـرى في ثناياه عن عـلامات تدل على ما هناك من حقائق موضوعية، إلا أنها مع ذلك قـد استسلمت للذعر والفزع - وبعد أن خرج زوجها للعمل، راحت، وهي تشـعـر بشيء من الإثم - راحت تبـحـث في خـزانة ملابسه عن دلائل ذات صلة بما رأت في حلمـهـا. ويا لدهشـتـها ويا لفزعها، إذ عثرت هناك في جـيب الصـدر من سترة الرياضة الخاصة بزوجها على رسالة من فتاة لم تسـمع بها من قـبل، والرسـالة تشير بوضـوح إلى أن ثمة علاقات غرامية كانت جارية منذ بعض الوقت.

وعندمـا ألح عليـهـا أعـضاء المجموعة بأن تسترجع ما هناك من ذكريات ممكنة كـانت قـد حـصلت لها فيما دون عتبة الإدراك من الذاكرة، ولها علاقة بالحلم، أجـابت بأن زوجـهـا خلال الأشهر القليلة السابقة للحلم كان كثيراً مـا يمضي الليـالي خـارج البـيت، وكان غالباً ما يعود إلى البيت متأخراً بعد انقـضـاء سـاعـات عمله، وقد حصل مرة أو مرتين أن لاحظته يضع سماعة

التلفـون فـوراً حـال دخولها الغرفة عليه وهو يتحدث في التلفون. وقصته أن عـمله كـان يقـتـضـيـه أن يعـمل ساعات عمل إضافية، وإن عقلها الواعي الشـعـوري كـان مـتـقـبـلاً هذه الحقيقة. فخلصنا إلى أنها لابد أن تكون قد لاحظت هناك شـيئاً من المفـارقـات والمتناقـضـات فـدفـعـتها بعيداً إلى أغوار خلفـيـات عـقلهـا لأنها لم تشأ أن تواجه إمكانية أن يكون زوجها غير مخلص لها. وإنه لمن الممكن في الوقت نفـسـه أن تكون في الحقيقة قد لمحت يوماً ما طرف رسـالة في جـيـبـه وهو يخلع سترته، فتكون من كل ذلك إدراك فنبه ما في ذهنهـا من قلق سـابق راقـد هناك، فـراح عـقلها الحالم يجمع شتات هذه الأطراف كلهـا فعرضها على شكل قصة مصورة محددة بذلك معالم قلقها من الناحـيـة الأخـرى، فإن ظهور الرسالة الحقيقي في الحلم قد يكون في الواقع مـصـادفة بحتة، حيث كان عقلها ببساطة يستعرض ويفسر ما يساورها من قلق، إذ كـان يقـوم بذلك في حـدود مـعـايير دراميـة تتعلق بالأساليب التي تكتشف الزوجات فيها خيانات أزواجهن.

هذه الحادثة قادت بطبيعة الحال إلى مناقشات مستفيضة جرت بين أعضاء المجـمـوعـة حول إمكانية أن يرى شخص ما حلماً يعبر عن حالات ليس لها في الحـقـيـقـة أي أسـاس تقـوم عليـه. ألا يمكن أن يكون مبدأ البحث عن حـقـيـقـة مـوضـوعية تنطوي عليها الأحلام في ثناياها، هو الذي أفضى إلى كـثير مما لا داعي له من الشك والتـعاسة؟ أما يجدر بنا أن نحتاط ضد ميول ذهـانيـة تأخـذ بنا إلى الظن بأن هناك أناسـاً يريدون أن يخدعـونا في حين لا تكون مخاوفنا هذه مـعـقـولة؟ والجـواب البسيط كان يبدو لنا أن (جوان) هذه لو لم تكن فـعـلاً قد عثرت على أية رسالة أو لو أنها لم تجد أي شيء يماثلها، لكانت الخطوة التـاليـة أن تطلع زوجها على تفاصيل حلمها ذاك بدلاً من أن تبـدأ بمـراقـبـة حركاته بعين الشك والريبة. ذلك أنه كان هناك في علاقاته ولا هو بمـخلص، فـلا يوجد ثمة سبب يدعو الشخص الآخر إلى أن يقابل الإسـاءة باللطف والعطف. فلو أن مناقـشـة كهذه قد أماطت اللثام عن أن

زوجـهات كان في الواقع يعاني من إحباط في زواجه، لما تمخض الحديث عن ذلك إلا عن نتـائج طيـبـة لكانت المسألة قـد حـسـمت لا ريب. من جهة أخـرى، لـو أن المناقـشـة كـشـفت عند (جـوان) عن وجـود حـالات تماماً ذهانيـة، وأحـاسـيس حقاً ليست بعقلانية فإن هناك حالة واضحة تستوجب التـحري أكثر في أغوار أحلامها بحثاً عن لقطات تتصل بالجذور الممكنة لمثل هذه المخاوف. وهذا ما سنبحثه بإسهاب في الفصل التالي.

وفي الأسـبـوع التـالي، روى لنا حلماً عـضـو آخـر من أعـضـاء مجمـوعـة الدراسـة، واسـمـه (ديفـيد)، ذكر أنه رأى خطيبته تتسلم مبلغاً من المال من زوجـهـا السابق، رغم أنها كانت قد وعدت ـ ديفيد ـ بألا تعود إلى مثل هذه الممارسـة منذ أن قـررت العـيش مع (ديفـيد) هذا. وهذه المسألة أصبحت في الأيـام الأولى بـعـد تعـارفـهما مـثـار نزاع بينهما، فـفي الوقت الذي كـان هو يريدها أن تقطع صلتـها وعلاقتها بزوجها السابق تماماً، كانت هي تصر على الاسـتـمـرار على تلقي المبـالغ منه إلى أن يتم زواجها من (ديفيد). و(ديفيد) كـان ممتـعـضـاً مما رأى في هذا الحلم، الذي لا يجد فـيه حقيقة ملموسة وإنه حلم كـان يشير إلى عـدم ثقـتـه بخطيبته من جانبه هو وأن أحاسيسه ليست مـعـقـولة. وقـد أخبر خطيبته بذلك صباح اليوم التالي، وراح الاثنان كلاهما يتـحريان عن نقاط ضعف ممكنة في ثنايا شخصيته هو. وعندما عاد ليلاً بعد انقـضـاء يوم عـمله وجـد مـائدة الطعام معدة لشخصين اثنين بجانب سراج من الشـمـعـدان وعلى المائدة طعـام وشراب. كان عشاء فاخراً وشهياً، وبعد أن أصـاب منه كـفايته وانتشى امتدت خطيبته إليه عبر المائدة قبل أن تنهض منها، وقالت له لديها شيء تريد أن تفضي به إليه. إن حلمه كان صحيحاً، إذ قـالت له: سبق لها في الحقيقة أن تلقت من زوجها السابق مبلغاً من المال وإنها كـانت واثقـة من أن ديفـيـد سـيصفح عنها ويسمح لها ما فعلت لأنها كـانت قـد أنفقت المبلغ الذي تلقته. وقد اعترفت له بإحساسها بالاضطراب الشـديد من جـراء مـا لديه من قـوة ظاهرة واضحة تمكنه من (قراءة أفكارها

ومـا في عـقلهـا) بواسطة أحـلامـه، وإنها فكرت مع نفسها بأن ليس ثمة ما يسـتـحق أن يحملهـا على أن تحـاول خداعه مرة أخرى أو أن تخفي عنه شيئاً ثانية.

كـان أعـضاء المجموعة على استعداد لاعتبار هذا الحدث نوعاً من التطور البـهـيج في العـلاقـة بينهما، لكنهم كـانوا مترددين في أن يعـزوا إلى ديفيد أية قـوى خـارقـة. إذ نظرنا إلى المسألة على أنها حـالة أخرى من حالات الدماغ وهو يقـوم (بلعـبـة المتـحـري) وذلك بقـيامه بعملية صف اثنين بجنب اثنين تجـمـيـعـاً لمؤشرات ضئيلة كاد قد تلقاها وهي تمر به فيها تحت مستوى الوعي الشـعـوري، وهو يرى أثناء مـراقـبـته سلوك خطيبته. وتعقلاً من ديفيد بعد مـرور الأحـداث، فإنه استـجـاب إلى منطق الحكمـة وعلل الأمر بأنها ربما اعـترفت له بمنطق هو دون عـتـبـة الأدراك لديها، أو لعل الأمـر يعـزى في الحلم إلى أنها لم تطلب منه مبلغاً من المال فترة طويلة، أنها كانت قد إبتاعت شـيئاً مـا حـسـبـه هو فـوق مـا تسمح به قدرتها الشرائية، وإن عقله الواعي الشـعـوري قـد تحـاشى مواجهتها بالأمر أو مكاشفتها على أساس من قرائن مستمدة من استنباطات واستخلاصات ظاهرية فقط.

إن جميع الأمـثلة التي ضربتها حتى الآن، كلها توضح أحلاماً استبصارية مـبـاشرة وصريحة، لكنني كـذلك وجـدت حـالات كثيرة من الأحلام تصف جـوهر الحـقـيـقـة لكنهـا تكون نوعـاً مـا خارج نطاق المطلوب لانصرافها إلى تفـصـيـلات مـتنوعـة، ففي إحدى المرات مثلاً، قد (حلمت) وكأنني أفتح صـحـيفة الصباح وأنا على مائدة الإفطار فرأيت فيها صورة كبيرة لصديق لي وهو محلل نفـسـاني سـاخط. رأيتـه يقف هناك وعلى وجـهـه ابتسامة عريضة وهو يتـوسط صـورتين لكل من (فـرانك سينانزا) و(توني كيرتس)(٦) والتعليق أسـفل مكتـوب بحـروف كـبيرة يقـول [المحلل النفـسـاني المغني]. ومـضت الصـحـيفة في تعليقها تقول أنه قد اختير من بين مئات المتقدمين ليلعب دوراً رومـانتـيكيـاً أسـاسـياً في فلم موسيقي مع ذينك النجمين الشهيرين. وأنا في

الحلم ذاك شعرت بمزيج من الانفعالت - إذ أحسست بالمتعة من فكرة قيامه بذلك الدور، وداخلني إعجاب به لمبادرته تلك، وخالجني انزعاج من فكرة زج نفسه في عين الرأي العام وبذلك يكون قد تجاوز على ما كنت أعتبره أنه من ضمن حدودي التي أعمل في إطارها - ذلك لأنني كنت أرى فيه المحلل النفساني المتحفظ المتسم بالواقعية ذا المكانة الأكاديمية الرفيعة وأعتبر نفسي من ناشري وذائعي ومروجي قضايا التحليل النفسي على شاشة التلفزيون وبواسطة الراديو وعلى صفحات المجلات. شعرت وأنا في الحلم بأنه كان إجحاف بالغ من جانبه أن يقوم بذلك الدور، وبخاصة في ضوء ما أعرفه عن اتجاهه الفائق إزاء ما أقوم به من نشاطات.

إنني بطبيعة الحال قد محصت حلمي وتبينت أن ما رأيت عن الزميل كان بعيداً عن أن يقوم رجل مثله بدور موسيقي جديد، إذ لم يسبق له أن ظهر في التلفاز ولم يتحدث في المذياع ولم يسبق له أن نشر شيئاً في الصحف المتداولة. فكنت مأخوذة بالدهشة والعجب. من أين دبر عقلي قصة كهذه ومن أين نسج حلمي خيوطها، فرحت أتلاعب بمختلف التأويلات النفسية وأقلبها على وجوهها وكل ذلك في حدود صيغة هي: [ترى كيف أنظر إلى صديقي المحلل]، فما من تلك التفسيرات قد أصاب الهدف أو بلغ المرمى. وبعد أيام قلائل، على أية حال، قد سمعت من صديقة لي أنها كانت قد كتبت بواسطة عنوان صندوق بريد ومعلنة على صفحات مجلة تعلن عن حاجه إلى معالج لمجموعة تدريب على تجارب الحساسية، وإنها تلقت من هذا المحلل جواباً يخبرها فيه أنه ابتدأ مؤخراً هذا النوع من العلاجات وأنه الآن يشرف على مجموعاته الخاصة به ويتولى علاجها. وبهذا يكون جداً قد تجاوز على حدودي، ولكن ليس تماماً بالمعنى الذي حدده حلمي، ذلك لأنني كنت قد بدأت بمجموعاتي المتناظرة الخاصة مستخدمة في العلاج والممارسة المبادىء النفسية الجشتالية وكذلك تفسير الأحلام منذ أشهر سابقة. اعتبرت نفسي واحدة من الرواد في الحركة الإنسانية

الفعالة human Potential Movement في انكلترا وإني لم أدخر وسعاً في أن أوضح لصديقي المحلل أن طريقته التقليدية في العلاج كانت في طريقها إلى التلاشي وإنها سرعان ما ستخلي مكانها للأساليب الجماعية الجديدة في العلاج. وإنه حسب مزاجه الخاص ووفق سجيته المعتادة، قد صب سخريته على الفكرة كلها ويبدو واضحاً أنه قد لبث تماماً غير مقتنع في كل ما أعقب ذلك من مناقشات أجريناها.

ومن خلال النظر إلى الوراء واستجلاء الماضي، كان بمستطاعي أن أتبين بوضوح أنه كان قد استنطقني حول المجموعات، وفيما يخص الكتب، وعن جميع المعلومات ذات العلاقة بالموضوع إلى درجةكانت تخرج عن نطاق ما يبدو أنه أمر مجرد من الغرض. ومن الواضح أنني قد سجلت هذه المفارقة في الأعماق الخلفية من عقلي وإن حلمي قد حاك قصة تتناول الشك المتكون فيما تحت عتبة الإدراك، وإن الشك كان يتصل بالظن في أنه تجاوز على ما يخصني من حدود. وإن الحلم كذلك قد أطلعني عرضاً على شيء في خلق الرجل كنت من قبل أجهله ولم أكن على وعي شعوري به. فتحت ظاهرة المتحفظ المتزمت، كانت تكمن هناك عنده رغبة توشك أن تنفجر وأن يسايرها كما هي وكما تريد في مظهرها السيكولوجي، هذا بالإضافة إلى ما يكنه من حسد ممكن لي أتمتع به من مكانة في مجال علم النفس المألوف بين الناس. وإنه لمن الممكن كذلك أن يكون حلمي قد التقط منه ذات يوم خيطاً حاسياً يمثل طموحاً لديه يحمله على أن يتحين الفرص على غفلةمني لعله يحسن من مستقبلياته بطريقته الخاصة.

لعل هذا الحلم علمني عن المحلل أكثر مما علمني عن حقيقة نشاطاته، وإني أجد كثيراً من الأحلام تجلو عناصر وتكشف عن جوانب تتصل بحقائق موضوعية تخص شخصاً معيناً، وكانت تلك العناصر قد فاتت على العقل الشعوري لأن يدركها في الحياة الواعية. إن هذه الأحلام بوجه عام أقل غرابة من نظيرتها الاستبصارية التي تتصل بأحداث خاصة محددة،

لكنها ليست بأقل فائدة ونفعاً. وعبر السنين ها أنني قد تعلمت ألا أمحص شخصية تبدو في الحلم من وجهة نظر ذاتية، مهما كانت الصورة تبدو غريبة، فما كنت أفعل ذلك قط ولا أقدم عليه قبل أن أستيقن بصورة مطلقة أولاً إن هناك في أقل تقدير شيئاً من الحقيقة الموضوعية فيه.

الاستعماق في الناس والاستشفاف:

واحد من أبسط الأمثلة التي تطرأ على ذهني في حالة السيدة (ب)، وقد التقيت بها خلال العطلة في العام الماضي. إذ كنا نتحدث أنا وهي عن انتشار ظاهرة استعمال العقاقير، والحبوب، والأدوية بمختلف أنواعها في المجتمع الحديث، وكنا نشجب اعتماد مستعمليها عليها اعتماداً يكاد يكون منتظماً من الوجهة النفسية. كانت السيدة (ب) متفقة معي قلباً وقالباً حول الموضوع، وهي ترى أن أفضل سبيل وأجداه هو الابتعاد عن هذه العقاقير والحبوب تمام الابتعاد إذا كان ذلك ممكناً، وأضافت أنها لم تقرب هذه الأشياء قط. وفي تلك الليلة حلمت بأن السيدة (ب) واقفة في غرفة حمامها أمام رف عليه كثير من القناني، وكانت تلتهم منها حبوباً بالدوزينة. استيقظت صباحاً وأنا مقتنعة تماماً أنها قد انتحرت، ولكنني شعرت بالارتياح الكامل عندما خاطبتهم هاتفياً وجدت أن السيد والسيدة (ب) يتناولان طعام الإفطار سوياً كالمعتاد. وبعد ذلك خلال النهار ذكرت حلمي هذا إلى السيد (ب) فضحك وقال، [إنه لمضحك أن تحلمي بذلك وترينه في الأحلام. فأنا لا أكف عن قولي لها إنها إذا هي استمرت على تناول الحبوب وهذه الأشياء أكثر من اللازم، فإنها سترمي بنفسها في مهالك المرض، لكنها لا تلقي إلى ذلك بالاً. حقاً إنها لوسواسية ـ هناك دائماً شيء غلط في نفسيتها.] أما من جهتي فأنا لا أزال لست متأكدةكيف عرفت هذا. لعل شيئاً ما، وهي تتحدث، قد أخفق في أن ينطق بالحقيقة ـ من ذلك مثلاً قد تكون نبرة صوتها، ولعلها اختلاجات وجهها البسيطة،

وربما يعزى الأمر إلى ململتها العصبية ـ وقد يرجع الموضوع إلى أنني شاهدتها في الحقيقة خلال النهار وهي تبتلع شيئاً ما. فمن المرجح، على أية حال، إن كلا الجزئين المتضاربين من هذه المعلومة قد اجتمعا في دماغي ليكونا لغزاً أمكن له في النهاية أن يتوحد بشكل درامي منسق فظهر في حلمي ذاك.

وحلم آخر مماثل حدث في وقت كنت أشارك فيه ضمن جماعة نفسية دينامية Psychodynamic. في ذلك الحلم، رأيت كأننا أنا وأعضاء المجموعة كنا في رحلة معينة وقررنا أن نمضي ليلة في أحد الفنادق يبدو أنه مهلهل، وضيع، ليس بجذاب. وكان من بين البنات فتاة اسمها (سوزان)، معروفة بأفكارها المتطرفة، قد عارضت بشدة مسألة الإقامة في ذلك الفندق، وقالت إنها ستمضي ليلتها مقيمة تلك الليلة في فندق مرتفع الأجور عبر الشارع في الجهة المقابلة لذلك الفندق الذي نوينا المبيت فيه. بحثنا حلمي هذا وناقشناه صباح اليوم التالي في اجتماع كانت فيه (سوزان) غائبة، وقد عبر كل واحد من أفراد المجموعة عن دهشته في سر اختياري لها من بين أعضاء المجموعة كافة، لتقوم بهذا الدور. وفي الأسبوع التالي، انفردت بها جانباً بعد الاجتماع وأخبرتها بحلمي عنها. وقد بدت عليها بادىء الأمر الدهشة وقد صدمت صدمة خفيفة، ثم ضحكت وقالت، [ها أنت قد رأيت ما في داخلي في خاتمة المطاف. إن ذلك كان تماماً ما كنت أفعله وما سأقوم به. والحق، أنني قد اختلفت وتشاجرت أنا وصديقي الشاب حول موضوع مماثل قبل يوم من ذلك.] فعلى مستوى شبه الشعور Subconsious، لابد أنني قد التقطت لمحات تشير إلى أن (سوزان) هذه لم تكن حقاً مخلصة في ممارساتها المتطرفة تلك. وإن هذه المسألة بالذات ضمن إطار مجموعتنا لم تكن بالغة الأهمية، ولكن لو كنا جميعنا ننتسب إلى حزبها المتطرف ذاك، لكانت المعلومات التي وردت في الحلم ذات متعة عظمى!

وإن مثالاً آخر أكثر رصانة يتصل بالأحلام التي تستشف ما في أذهان الناس، حلم حدث لزوجي، منذ سنوات خلت عندما حلم بأن زميلاً جديداً له في العمل قد دعاه إلى العشاء ذات مساء ومما قدم من طعام على المائدة خضار مطهوة ولكنها تعج بالديدان. أحس زوجي آنذاك أن هذه هي طريقة الحلم التي تنبهه إلى أن زميله لم يكن مستقيماً، لذلك فحص ما ساوره بشأنه من شك فوجد ذلك صحيحاً. لذلك فقد ألغى الصفقة التي كان مقرراً أن يعقدها معه، والتي لو تمت لأخسرته مبلغاً من المال جسيماً. فهذه حالة واضحة وصريحة للتدليل على ضرورة تمحيص ما ينطوي عليه الحلم من إدراكات، قبل البدء باتخاذ ما ينبغي تحسباً لما قد يكون عليه الأمر كله إنه مجرد وهم وخيال من جانب زوجي.

وبالمقابل، فإن الحلم قد يكون مضللاً إذا ما نظرنا إليه بصورته الحرفية، حتى وإن كان مبنياً على إدراك حسي صحيح. ومثال جيد على ذلك هو ما روته إحدى عضوات مجموعتي التي أجريت عليها دراساتي في الأحلام، واسمها (ليزا) كانت مروعة بهذا الموقف، لاعتقادها بأن تلك المربية وإن لم تكن هي أكفأ ما في هذا العالم من مربيات، بيد أنه لم يكن هناك سبب ظاهر يحمل على الظن بأنها سيئة، ورغم ذلك، فإن (ليزا) هذه قد أخذت حلمها هذا بنظر الاعتبار فوضعت المربية تحت المراقبة الدقيقة. ثم حلمت حلماً آخر رأت فيه أن ورقة نقود من فئة عشرة باونات قد سرقت من حقيبتها. وعندما استيقظت اكتشفت أنها كانت قد تركت حقيبة يدها أسفل السلم أثناء الليل، وأن ورقة نقود فئة عشرة باونات في الحقيقة قد فقدت منها. فما كان من (ليزا) إلا أن تعجلت ما كونته من خلاصة في ذهنها فأبلغت دائرة الشرطة القريبة منها بالأمر. حضرت الشرطة وزرعوا في أرجاء البيت نقوداً تحمل صبغات خاصة تعلق بأيدي أي شخص يلمسها. اختفت النقود كما ينبغي فسارعت (ليزا) إلى إبلاغ الشرطة بذلك. ولدى التحري وجدت أيدي المربية نظيفة، لكن يدي المنظفة كانتا ملطختين باللون الأحمر

القاني واللون الأزرق، ولدى تفتيشها وجدت النقود مخفية عندها شخصياً.

وبطبيعة الحال، فإن (ليزا) شعرت برهبة لذلك، وإن أعضاء المجموعة قد ناقشوا الأسباب الممكنة لتلك الأحلام. بقي الحلم الأول سراً غامضاً، وأخيراً كان لابد من أن يبحث على أسس جشتالتية، وأن تقوم (ليزا) بدوري المربية والطفلة، لكن الحلم ذاك قد أخفق في أن يطلعنا على أي شيء بشأن الموقف الموضوعي، بيد أن الحلم الآخر، على أية حال، كان يبدو أكثر وضوحاً نوعاً ما، إذ أن ليزا كانت تعرف في مستوى شبه الشعور عن عشرةِ الباونات التي تركتها في حقيبتها أسفل السلم خلال الليل. وإن هذا الموقف لابد أن يكون قد بقي عالقاً في ذهنها فأثار لديها شيئاً من القلق أن تأوي إلى فراشها، ومن هنا جاء حلمها ذاك بأن ورقة النقود تلك كانت قد سرقت. ولما كانت لديها مسبقاً شكوك حول رصانة المربية وسلامة موقفها، وهي شكوك تقوم على أساس من الحلم الأول، فما الذي عسى أن يكون في ذهنها عادة أكثر من أن عقلها النائم كان ينسج قصة جمعت بين طرفي المخاوف عندها؟ على أن الموقف يبدو غريباً نوعاً ما أن يكون الحلم صحيحاً إلى هذه الدرجة التي يدلنا فيها على أن النقود قد سرقت حقاً، وأن حلاً ممكناً لذلك قد تكشف في اليوم التالي عندما طلبت المنظفة من المحكمة أن تأخذ بعين الاعتبار عدة سرقات صغيرة أخرى كانت قد اقترفتها في بيتِ (ليزا). فمن الممكن أن تكون لدى (ليزا) إدراكات حصلت دون مستوى الإدراك عندها تتعلق بسرقة نقودها وهي عملية مستمرة عبر فترة من الوقت ولذلك فقد حدث ما كان متوقعاً وهو أن النقود قد سرقت فحلمت بما وقع. إذ كان من الممكن أن تفقد بكل سهولة باوناً أو باونين، بدون أن تدرك ذلك إدراكاً شعورياً، لكن اختفاء عشرة باونات أمر يختلف تماماً. إن مغزى هذه القصة، بطبيعة الحال، هو أن نأخذ الأحلام مأخذ الجد ولكن يجدر في الوقت نفسه التحقق تماماً من جميع التفسيرات الموضوعية قبل الإقدام على أي إجراء من أي نوع كان. لعل العقل شبه

الشعوري يحتوي على قدر من القوى القادرة على التحري على التحري والاستكشاف، لكنه كغيره ممن يقومون بالكشف والتحري يمكن أن يقع في خطأ.

الأحلام الاستباقية [التعرف المسبق]:

إن الأحلام التي كثيراً ما تؤدي إلى نشر مقالات مثيرة في الصحافة هي تلك الأحلام التي تبدو أنها تنبيء عن المستقبل. وحسب الاصطلاح الفني المتبع في البحوث النفسة Psychical research فإن أي حلم يبدو أنه يشير إلى أن في عقل الأنسان معرفة مسبقة foreknowledge بشيء ما يمكن أن يسمى حلماً استباقياً Precognitive، تمييزاً له عن حالات الاستبصار Clairvoyance الذي يراد به الملكة faculty الواضحة التي تمكن صاحبها من رؤية الأشياء أو الأحداث الموجودة مسبقاً، وذلك بدون أن يمر التعرف عليها خلال قنوات الحواس الاعتيادية.

ليس في نيتي أن أعلق هنا على تلك الأحلام التي يبدو أنها استبقت في الرؤيا وقوع كوارث عامة مثل غرق الباخرة [تايتانك Titanic] أو اغتيال الرئيس جون كندي، باستثناء القول أن بعض القصص الموثقة الصحيحة تبدو حقاً أنها على جانب ممن الغرابة كبير، هذا حاصل حتى وإن فسحنا االمجال للحقيقة القائلة أن هناك في أية ليلة آلاف الناس يحلمون بسفن تتحطم ورؤساء يموتون، وهلم جرا. وأن الأحلام التنبوية التي امتلك خبرة مباشرة حولها هي من النوع الشخصي الخاص بي، وإن استخلاصي بشأنها أنها يمكن أيضاً تفسيرها عادة على أساس أنها نتيجة (لنشاط استكشفاي) تم تحريه على مستوى شبه الشعور، وإنها، وإن كانت تشبه الأحلام الاستبصارية الظاهرية، فإنها في الوقت ذاته لا تبدو إنها غريبة أو متميزة.

وإني قد خبرت مؤخراً حالة نوع من الحلم تجلى فيها أوضح معانيه الدالة

على الأحلام الاستباقية إذ رأيت فيه سني الأمامية قد سقطت محدثة رنيناً في الطبق الذي أمامي وأنا أتناول العشاء مع مجموعة من الناس المرموقين في أحد المطاعم. وخلال الدرس في اليوم التالي، رويت الحلم إلى محللي الفرويدي، فما كان منه إلا أن انبرى على الفور فراح يغور بعيداً في التعقيدات الخاصة بقلق الخصاء Castration وما حسبه قابعاً في ذهني من أخيلة وأوهام تتعلق بفقدان القضيب. وفي الليلة التي أعقبت ذلك اليوم، كنت في حفلة تخللها شراب وقدمت فيها أجبان وبينما كنت قد غرزت أسناني في قطعة من الجبن لأقضمها علق غطاء سني بتلك القطعة فتحرك من مكانه فوقع في الإناء الذي كان أمامي. ولقد اضطربت باديء ذي بدء لهذا الحدث وعجبت من قدرتي ومن قواي الخاصة بالاستشفاف والمعرفة المسبقة لدي، لكن اضطرابي تلاشى عندما أدركت أني كنت أعرف منذ أمد ليس بالقريب أن غطاء سني لم يكن ثابتاً وإنه كان يتعين علي أن أراجع طبيب الأسنان منذ فترة بعيدة من أجل إصلاحه. والحقيقةأن ذلك كان ضرباً من ضروب الأحلام التحذيرية وقد تحقق فعلاً قبل اهتمامي بإصلاح ما كان يجب أن أهتم به من قبل. فلو اتفق أن حدث قبل أسبوع أبكر من وقته الآن، لكان من المرجح أن أحصل على موعد من طبيبي لأزوره، ولما ترتب على ذلك أي استباق أو معرفة مسبقة.

أكثر الأمثلة على الأحلام الاستباقية الواضحة، ازعاجاً هو مثال روته إلى أعضاء مجموعة دراسة الأحلام، الفتاة (سالي)، كانت قد حلمت وكأنها قد قدمت إلى ملك من ملوك الشرق وتم تقديمها إليه على قاعات قصره، وبينما كانا يتكلمان دخلت عليهما القاعة مجموعة فتيات مرحات مغتبطات وكن يتضاحكن، وقد جاءت تتبعهن امرأة نصف(٧)، لكنها تبدو حزينة، وظنتها (سالي) أنها كبيرة زوجات ذلك الملك. هذه المرأة كان يبدو واضحاً عليها أنها حزينة. وشعرت سالي بأن الملك طالما لم تعد به حاجة جنسية إلى تلك المرأة لذلك فهو قد أوكل إليها دور تنظيم شؤون القصر وما يتصل به

من حشم وخدم. وحسبت سالي أنها هي أيضاً قد أوكل أمرها إلى تلك المرأة. في أثناء ذلك تقدمت إحدى الفتيات إلى سالي وقالت لها: [أما تعرفيني. كنا من قبل معاً متوحدتين في تجسيد سابق.]

استيقظت سالي من نومها وهي كئيبة، إذ أحست إحساساً غريزياً أن الملك كان يمثل زوجها وأنها هي نفسها كانت ترمز إلى كبرى الزوجات. وقد ربطت بين صورة الملك وبين ما ذكرته عن زوجها من شك فيما كان يساورها حيث كانت ترى فيه أكثر من أثر من آثار (السيد المطلق أو الأعلى) Overlord، رغم ما كان يبدو عليه من عطف ولطف وإنصاف. أضف إلى هذا، فإن حديقة القصر ذكرتها بالحديقة المعطرة، أو حديقة العطور، وهو كتاب كانت قد قرأته يتناول أساليب الجنس الشرقية ـ وهي حديقة وردت في الحلم وكانت هي مجرد زائرة لها ومراقبة أو مشاهدة لمناظره. وقد أوضحت أنها عبر السنوات القلائل الماضيات أنها هي وزوجها قد خففا من تواصلهما الجنسي إذ انصرفت هي أكثر فأكثر مكرسة وقتها إلى البيت والأسرة. أما إشارة الفتاة إلى ما ذكرته من تجسيد متوحد فقد ذكرها ببواكير زواجهما هي وزوجها عندما كانا شديدي الاتصال ببعضهما والارتباط الزوجي بينهما وانطلاقهما آنذاك انطلاقاً مرحاً بعيداً عن القيود. ونظراً إلى معرفتها بعمل زوجها، وهو يدخل في صلب صناعة الأفلام، وأن طبيعة عمله هذه تحتم عليه أن يقابل كثيراً من الفتيات الجميلات، فإنها قد استبعدت أي إيحاء يداخلها أو يثير في نفسها الشك بأن له علاقات غرامية معهن. إذ قالت: [إنه ليس من هذا الطراز وهذه ليست من سجاياه. إنه ليمتنع عن ذلك امتناعاً تاماً.] انتهت المجموعة إلى قرار مؤداه أن الحلم يعكس إحساسها بالقلق حول حالة زواجها وقد نصحناها بأن تحاول تغيير الموقف كله. غير أن هذا النصح، على أية حال، قد جاء بعد فوات الأوان، ذلك لأن زوجها بعد هذا الحلم بأشهر قليلة قد جاء إلى البيت بفتاة، وهو يقول إنها بحاجة إلى سكن مؤقت يأويها وبينما تجد لها

سكناً في مكان آخر. ومنذئذ تلت ذلك سلسلة طويلة من الغراميات مع عدة فتيات كان يأتي بهن إلى البيت من وقت لآخر، في الوقت الذي كانت فيه (سالي) هذه تطبخ، وتنظف، وتقوم على خدمتهن جميعاً.

كان الحلم غريباً ومتميزاً بما انطوى عليه من دقة في التنبوء. ولكن يبدو لي أن هناك في مكان ما وضمن هذا المجال لا بد أنه كان يتوفر عند (سالي) نوع من التبصر النفاذ إلى أعماق شخصية زوجها وما كان عليه من سجايا وبما يتصل به شخصياً حقاً. إن جزءاً من عقلها كان يعي أنها لم تكن في الواقع ترغب في استئناف علاقة جنسية نشطة مع زوجها، وإنه في الوقت الذي كان فيه عقلها الواعي الشعوري يؤكد لها أن زوجها كان مزموماً وبعيداً عن أن يكون علاقات غرامية مع نساء أخريات، فإن عقلها شبه الواعي أو شبه الشعوري كان يدرك خلاف ذلك. والنتيجة التي نجمت عن كل ذلك أنها من المرجح أنها تكون قد بدأت تعمل بهذا الاتجاه وأن عقلها أخذ يسير بهذا المنحى ويلتمس حالاً فيما تحت الشعور، فكأنها كانت توطن نفسها على أن تجاري زوجها فيعيشان معاً تحت سقف واحد، وهو حل ضخمه عقلها النائم بشكل دراماتيكي فأخرجه في صورة حلم. وإن سالي بطبيعة الحال قد ابتأست باديء الأمر عندما أصبح ما رأته من حلم أمراً حقيقياً، ولكن ما أن تعودت على الموقف الجديد، حتى بدت مقتنعة قناعة معقولة وتامة بما أقدمت عليه من ترتيب طالما أن الجيران لم يكونوا يعرفون بما يجري. ولقد حذرها أعضاء المجموعة من أن زوجها قد يجد في يوم ما فتاة يرغب في الزواج منها فعلاً، فيهجرها هي، رغم تكريس وقتها وجهدها للعناية بالأولاد وإدارة البيت وانصرافها إلى ذلك انصرافاً كلياً، لكنها رفضت الإيمان بهذا والاعتقاد به على أساس أنه لم يكن وارداً في حلمها ولم يكن جزء منه. ولقد أعربنا جميعنا عن أملنا بأن تحلم حلماً آخر يقنعها، وذلك نظراً إلى أننا أحسسنا بأنها كانت تحيا في موقف ليس بواقعي إطلاقاً.

حلم (سالي) هذا قد ذكّر عضواً آخر من أعضاء المجموعة، واسمه (جورج)، بعدة أحلام استباقية كان قد خبرها منذ سنوات قليلة خلت. فهو كان يحسب نفسه آنذاك أنه سعيد بزواجه ولهذا كان مندهشاً عندما حلم أنه كان يحمل في يده أوراق الطلاق وهو يقول: [سأتزوج في المرة القادمة من واحدة أكثر نضجاً.] وبعد فترة وجيزة تلت ذلك، حلم وكأنه مطلق وكان يهم بالزواج من محبوبة له قديمة، وقد حلم حلماً آخر إذ رأى نفسه يتكلم مع فتاة عبر الهاتف عندما اعترضت زوجته المكالمة بواسطة التلفون الملحق في الغرفة. هذان الحلمان الأخيران هزاه هزاً عنيفاً وصدماه صدمة شديدة نظراً إلى أنه يحب زوجته حباً جماً ولم يكن في يوم ما، خلال تسع سنين من الزواج، غير مخلص لها، بل حتى أنه لم يكن يفكر بذلك. بيد أنهما بعد ثلاثة أعوام من حدوث هذه الأحلام قد انتهت حياتهما الزوجية بالطلاق، وتزوج كل منهما مرة أخرى وكان كل واحد منهما سعيداً بزواجه الجديد. قال (جورج) وهو ينظر إلى أحلامه تلك، أنه قد بدا له بوضوح تام أنه وزوجته الأولى لم يكونا مناسبين بعضهما لبعض وأنه لا يستطيع أن يدرك لماذا كانا قد تزوجا أول الأمر. ففي هذه الحالة، كما كانت الحال بالنسبة إلى سالي، قد أظهرت الأحلام التنبؤية بكل بساطة أن جورج هذا كان في أعماق عقله يدرك مسبقاً أن زواجه برمته كان أبعد ما يكون عن الحالة المرضية، لكن تعلقه الراسخ به قد منعه من أن يقر هذا أو يعترف. (*)

كانت هناك، على أية حال، تفصيلات ظرفية وعرضية تخللت الحلم الأول الخاص بالطلاق، ذلك الحلم الذي رآه جورج، وأنه لم يشرح ببساطة شرحاً كما ينبغي. إذ انتهى بالطلاق وإن المحامي هو الذي كان قد أبقى الأوراق عنده وكان يقول: [كل شيء على ما يرام، وإنك في الحقيقة لا تحتاجها الآن في هذا الوقت.] وبعد مرور عام على حلمه ذاك، عندما حطمته زوجته أول مرة، ودمرته حينما تركته وذهبت لتعيش مع رجل

آخـر، كـان جـورج بطبـيـعـة الحـال يتساءل مبهوتاً: أحقاً أن تتحول أحلام الطلاق هذه إلى واقع مـرير، ولكن كـانت في الحـقـيـقـة هناك فترة مـصالحة وجـيزة قبل تصميمهما النهائي على أن يفترقا فيذهب كل منهما في سبيله.

وحـالة ثالثـة من حـالات الأحـلام (التنبـؤية) المتعلقة بمجرى العلاقات كـانت قـد روتها زمـيلة لي في المهنة، وكـانت الزمـيلة هذه منذ سنوات خلت قـد أحـبت رجـلاً كـانت تعـمل معه، وكانت قد أحبته قبيل اتخاذ قرار غير مـتـوقع يقضي بإرسـالها إلى أميركـا لمدة سـتـة أشهر، لم تكن هناك اتصالات جنسـيـة بينهما، ولهذا لما كـانت ترى في أحـلامـهـا أنها نائمة وإياه في فراش واحـد كـانت تطرد تلك الأحـلام من ساحة عقلها باعتبارها من قبيل تحقيق الرغـبـة ليس غير. وفي أحـد تلك الأحـلام كـانت تشعر مبتئسة عندما كان يخاطبها عبر الهاتف قائلاً لها أنه [لا يستطيع مضاجعتها في ذلك اليوم]، وفي حلم آخـر شـاهدته عـارياً تمامـاً ولكنه أدار إليها ظهره؛ وفي حلم ثالث رأته عـارياً أيضـاً ولكنه بخـصـيـة واحدة فقط وفي حلم آخر من سلسلة الأحلام هذه، قـد حلمت قـبيل عودتها إلى بلدها كأنها كانت جالسة وإياه في إحدى دور الـسـيـنما فما كـان منه إلا أن قـفـز فـجأة من مكانه منتـقـلاً إلى الصف الأمـامي قـائلاً أن المكان فـيه مريح أكثر. أياً كانت الحال، فإنها قد أبعدت هـذه الأحـلام المفـعـمـة بالتناقض عن ذهنهـا، ولدى عـودتها إلى مـوطنهـا استقبلها ذلك الرجل في المطار وبإلحاح شديد أقنعها على أن تصحبه لتعيش مـعـه. ولمدة عـدة أشـهـر قـد إسـتـمتعا ببهجة الحياة على طريقتهما الخاصة استـمـتاعاً معقولاً، ولبثا على هذا المنوال حتى حانت منه في مناسبات معينة تصرفـات لها مـغـزاها. إذ على حين غـرة أدار إليـهـا ظهره في إحدى الليالي وهو يقـول: [لا يسـتطيع مـواقعتها]، وقد تكرر منه هذا إياها. اتضح فيما بعد أنه قد أصيب بالعنة فأصبح عنيناً، وذلك جراء ما كان يكنه من مشاعر المقت الشـديد للنسـاء عـامـة، وهو أمر كان معروفاً عنه من قبل. ومن هنا يتـضح أن أحـلامـهـا تلك كانت قد التقطت هذه المشاعر والأحاسيس التي

كان يحاول إخفاءها، وأن آخر (تنبؤ) من تنبؤاتها تلك، قد وقع فعلاً عندما غادر شقتهما التي كانت تضمهما كليهما، ليسكن في شقة أخرى خاصة به تقع في نفس المنطقة، وهي حركة بدرت منه فأذنت بنهاية علاقاتهما تلك.

إن أحداث أحلامي في الاستباقية كان حلمًا ذا مسحة خفيفة. إذ حلمت أني ألقيت محاضرة في اجتماع يضم أعضاء جمعية روحانية، ولكن بدلاً من أن أكون واقفة في مقدمة القاعة رأيتني أقرأ المحاضرة [وهو خلاف عادتي، إذ لم أكن من قبل أقرأ المحاضرات قراءة]، وأنا على كرسي في مؤخرة القاعة. وعند الانتهاء صفق الحاضرون جميعاً تصفيقاً ينم عن الأدب، لكنهم فعلوا ذلك دون أن يلتفتوا نحوي لينظروا إلي، كنت قلقة لأن المحاصرة كانت قصيرة غير أني عزيت نفسي بأن سيكون هناك وقت كاف لأسئلة كثيرة. وعند هذا الحد نهضت رئيسة الجلسة وقد نطقت ببعض الملاحظات والتعليمات، انصرف بعدها كل واحد من الحاضرين ذاهباً إلى بيته. وقد استأثر بانتباهي روزالند هيوود، وهي واحدة من المعروفات في مجال البحث النفسي في بريطانيا، قد تقدمت من رئيسة الجلسة فصافحتها ثم غادرت المكان. كنت أحس وأنا في الحلم جد مبتئسة، وأحسست أنها ـ روزالند ـ لابد أن تكون قد تلقت دعوة خاصة لتحضر ذلك الأجتماع في تلك المحاضرة، [كانت حاضرة وإن لم تكن الأحلام ضمن اهتماماتها، وقد تبينت ذلك فيما بعد]، وشعرت بأنني سأغادر المكان وأنا بئيسة كئيبة.

هذا الحلم حصل عندما كنت أمضي عطلتي في قبرص، وكنت بشأن فهمه في حيرة من أمري، ذلك لأن ذهني آنذاك نسيت الحلم تماماً كما نسيت أحداثه فلم أتذكره إلا بعد سلسلة أسابيع عندما طلب إلي أن ألقي محاضرة حول الأحلام على أعضاء جمعية من المهتمين بالدراسات الروحانية والنفسانية. وكنا أنا وزوجي مدعوين لتناول العشاء مع سكرتير الجمعية وعضوين آخرين من أعضائها، وفي طريقنا في السيارة إلى المطعم المقرر أن نتناول فيه العشاء، فجأة تذكرت حلمي وأنا بجانب زوجي في السيارة

جعلت أحدث نفسي: [يا إلهي: أذاهبة أنا لإلقاء محاضرة على جمع من الروحانيين كذاك الجمع الذي رأيته في حلمي يوم كنت في قبرص؟ وإذا كانت روزالند هيوود حاضرة هناك فمن المحقق سيقع شيء خاطيء.] فما إن دخلنا أنا وزوجي المطعم حتى حيتنا روزالند وزوجها بحرارة وقالا كم كانا يتطلعان إلى سماع آرائي حول الأحلام. كنت أنا في لحظة صمت مطبق ثم كررت لهما بعدها ذلك. ولقد أغرقا في الضحك، وأنه لأمر غريب أن التقي بروزالند في دعوة عشاء، وبعد أن فرغا من ضحكهما ذاك قالا أنهما متيقنان من أن ذلك الحلم لم يكن حلماً استباقياً، طالما أنهما لا يريدان ما يدعو إلى عدم سير الأحداث حسب مسراها السوي. بعد انتهاء العشاء جلست مكان منظم الحفل والمشرف على الاجتماع، ومما أراقني أن الكرسي كان في مقدمة القاعة وليس في مؤخرتها كما كنت رأيت في الحلم! رحت أبحث في حقيبتي عن الملاحظات التي كنت قد أعددتها، ومما أرعبني أنني لم أجدها هناك، فأدركت أني بكل تأكيد كنت قد تركتها في البيت، وأنني كنت واثقة من أن بوسعي أن ألقي المحاضرة على نحو جيد من غير حاجة إلى تلك الملاحظات، إلا أن كلامي سيكون مسلوب القوة وسينقصه الخصب والإثراء ما لم يكن معززاً في سياقه بالأمثلة التفصيلية التي سبق لي أن جمعتها. ثمة شيء واحد فقط كان بمقدوري أن أفعله. في الوقت الذي سيعود فيه زوجي مسرعاً إلى المنزل بسيارة أجرة لإحضار تلك الأوراق، أكون أنا قد أكملت القسم الأول من المحاضرة منمقة أياها بأمثلة من أحداث ذلك الحلم، فأكون بذلك قد قدمت تفسيراً عقلانياً وذلك بجمع شتات ما أستطيع جمعه من أحداث ما حصل في ذلك الحلم بالذات.

كنت، في المقام الأول، مضطرة إلا الاعتراف بأنني لم أكن متهيئة تماماً ولا مرتاحة بشأن إلقاء المحاضرة، كما أنني أحسست بأن أفكاري حول الأحلام إنما هي واقعية وعملية أكثر مما تقبلها أذواق وأناس ينتمون إلى جمعية اهتمام أعضائها ينصب بصورة أساسية على الدراسات الروحية

والنفسية أكثر مما ينصب على الجوانب العملية. هذا القلق قد قادني بوضوح إلى أحداث ذلك الحلم الذي كنت قد رأيته وأنا في قبرص، ومع هذا فلم أكن شعورياً جد قلقة بشأنه في الوقت الذي تذكرت فيه أحداثه. لو أني أخذت ذلك الحلمَ مأخذ الجد لاعتبرته بمثابة تحذير لي بأنّ جزءاً مني كان يحاول عزل نفسه عن سائر المعنى العام للموقف ككل، فأكون في هذه الحالة قد انتبهت انتباهاً أشد وما كان ينبغي لي أن أكون قد [تركت في البيت قسماً مني يهمني أمره] في المحاضرة تلك. وفي الوقت الذي كان الحاضرون على اتفاق تام معي حول هذا التفسير، إلا أنهم سارعوا إلى القول أنه لم يكن ثمة سبب خاص يجعلني أعرف حتى أن السيدة هيوود ستكون موجودة هناك في المحاضرة. هذا فضلاً عن حضورها دعوة العشاء. تقبلت هذا الكلام وتظاهرت بأنني مقتنعة بذلك وزعمت أنني كنت وإياها على اتصال عن طريق التخاطر telepathy. وافترضت أنها قد استخدمت عامدة قواها الخارقة paranormal powers لتهيء كل الأشياء وترتبها لكي تسبب صدمة يكون اتجاهي بعدها أقل تشكيكاً بالأدراكات الخاصة بما وراء الحواس Exrta sensory perceptions ـ اختصاراً ESP ـ.

وفي الوقت الذي لا أرغب فيه حقاً أن أؤكد تأكيداً قاطعاً على أنه ليس للعقل قوى خارقة، فإن ما أنا معنية بمناقشته هو أنه ـ العقل ـ ينطوي على قدر كبير من القوى والطاقات الاستكشافية detection والتنبؤية prediction، وهذه ليست خارقة البتة. وأن الأحلام إذا ما تحققت أو صحت أجزاء منها، فإنه من المحتمل إذن تكون الحقيقة التي انطوت عليها الأحلام مشتملة على إدراكات واحتمالات كانت قد مر بها العقل الشعوري إبان الحياة الواعية في حالات اليقظة. هذا، وإن الأحلام تكشف كذلك عن مشاعر وأحاسيس نجد من الصعوبة بمكان الإفصاح عنها في حالاتنا الواعية، ولهذا فإن الأحلام تمثلها على شكل صور واضحة فتعرضها وقت

النوم. وعندما يتم فهمها على وجهها الصحيح يمكن أن تكون [تنبؤية]، بمعنى أنها تؤشر النتائج المحتملة لمواقف محددة ومعينة في الحياة. وإن أحلامنا من هذا النوع، كما ذكر يونج: [ليست أكثر نبوءة مما يتم التنبؤ به في حالة التشخيص الطبي أو في حالة التكهن بالأنواء الجوية. فهي مجرد ائتلاف استباقي مكون من احتمالات يمكن لها أن تتزامن مع السلوك الحقيقي للأشياء، ولكن ليس بالضرورة أن تكون متوائمة تماماً في جميع التفصيلات] أنه في الحالة الأخيرة فقط يمكننا أن نتحدث عن التنبؤ Prophecy. إن هذه الأحلام [المنبئة بالمستقبل] Prospective، كماوصفها يونج، لنافعة بشكل خاص، وذلك لجدواها في جميع ضروب العلاج النفسي ذلك لأنها تومىء إلى الكيفية التي يشعر فيها المريض في أية لحظة إزاء المعالج النفساني ونحوالعلاج، وإنها تنبيء عن مقدار ما يطرأ مستقبلاً من تحسن أو ما يمكن أن يحدث من انتكاس في غرفة الاستشارة.

الأحلام المنبئة بالمستقبل وأهميتها في العلاج النفسي:

إن يونج نفسه يقتبس حالة أخاذة ممتعة متمثلاً بها بصورة خاصة: تلك هي حالة امرأة أحلامها تعبر عن صعوبات واجهتها، وقد أتضح ذلك لدى عرض أحلامها تلك على ثلاثة من المحللين كانت تذهب إليهم للعلاج. فعند بدئها العلاج لدى الأول منهم، حلمت أنه كان يتعين عليها أن تعبر حاجز حدود لتصل إلى بلد آخر، لكنها لم تجد المعر الذي يوصلها إلى ذلك البلد، ولم تجد من يساعدها في ذلك. أدرك المحلل أن هذا الحلم يعبر عن [صوت في داخلها يقصد عدم الثقة] بهذا المحلل لذلك فقد آثر إحالتها إلى زميل له. لكنها تارة أخرى قد حلمت أنه كان يجب عليها أن تعبر الحدود. وبعد أن بحثت طويلاً ولاحظت بصيصاً من الضوء ينبعث من مكان بعيد فحسبته يأتي من دائرة للكمارك قائمة هناك. ولكي تصل إلى مصدر الضوء كان عليها أن تسير عبر غابة غبياء، (٨) فضلت طريقها في تلك الغابة،

فاستيقظت مرتعبة وكأن شخصاً آخر كان مسافراً معها تعلق فجأة بها متشبثاً بها من هول ارتعابه وكأنه إنسان مجنون. كان يونج يعتقد أن حلمها هذا إنما يشير إلى إحساس لديها يعبر عما كانت تشعر به من حالة إغراق تعانيها سببهاالها محللها. وكما هي في المرة الأولى فقد انفصمت أسباب التحليل الثاني وانقطعت ذلك لأن حالة المريضة لم تتحسن. وفي المآل جاءت يونج وهي مريضة. في هذه المرة رأت نفسها في حلم ثالث لها أنها عبرت الحدود مسبقاً ووجدت نفسها في دارة كمرك سويسرية. كانت تعتقد أن لا شيء معها تحمله في حقائبها لتخبر بشأنه موظفي الكمارك لكن موظف الكمرك دس يده في حقيبة ملابسها فاستخرج منها حشيتين(٩) كبيرتين.

فسر يونج هذا الحلم بأنه دلالة على ثقة تلك المرأة به وأنه حلم يشير إلى أن التحليل سائر إلى نجاح. إذ فسر [عبر الحدود] بأنه علامة على نمو إرادتها وقوتها باتجاه الشفاء والمعافاة، وفسر الحشيتين بالزواج الذي ارتبطت به فعلاً بعدئذ، وذلك بعد أن تغلب بفضل العلاج على ما كانت تعانيه من مصاعب ومتاعب جنسية. فالأحلام الثلاثة هذه كلها، حسب رأي يونج، هي أحلام استباقية كانت تنبيء مسبقاً عن المتاعب والنتائج المترتبة على المحاولات الثلاث التي كانت قد سبقت العلاج النفسي.

من المتعارف عليه اليوم بعامة، بين المحللين النفسانيين من مختلف المدارس أن الحلم الأول للمريض وهو في دور العلاج، يرجح أن يكون حلماً ذا دلالة تشير إلى سياق العلاج ومسراه مستقبلاً وما قد يتخذه من نهج. وبالنسبة إلى الحالة الخاصة المشار إليها فإن هذه حقيقة مؤكدة. إذ بعد الجلسات القليلة الأولى من بدء التدريبات على التحليل النفسي وفقاً للمنهج الفرويدي، حلمت بأنني اشتبك وأمي بعراك مرير لإصرارها على استخدام معمار كنت أعرفه أنه شخص فظ ورعبال(١٠). كان من عادته أن يثبت الأشياء بطريقة غليظة لا ذوق فيها وكيفما أتفق بحيث أن ما كان قد ثبته

سرعـان مـا تهاوى حـالما لامسته. كماأنه كان يقوم بعمل أشياء لم يطلبها أحد منه ولا داعي لها، وكـان يرمي بأشـياء وبقطع أثاث كنت أنا مولعة بها وكان يضع مكانها أشيـاء أخـرى أكـرههـا. وكنت أثناء الحلم أحذر أمي من كل هذا، لكنهـا لم تكن لتلتـفت إلى تحذيراتي تلك أدنى التفاتة. فاستيقظت من نومي وأنا في أشـد حالات الاضطراب والاكتئاب.

فأنا بطبـيعة الحال، ليست لدي أية مشكلة تذكر بشأن التعرف على ذلك [المـعمار الـسيء]، فـهـو في الحلم بديل عن محللي الذي كنت أتدرب عنده، وهـو بـدوره فـسر الحلم بأنه ينطوي على دلالة تنم عن مـقـاومـتي للتـحليل وعـدم تـقـبـلي إيـاه في قـرارة نفسي وذلك بانتـزاع الثـقـة به من نفسي وعـدم الاعـتماد عليـه فـيما كـان يفـعل أو يقـول. وقـد تقبلت هذا كاحتمال قائم، وكنت خـلال السنة الأول مـتحرزة تحرزاً خاصاً إذ أني كنت في الغالب أشعر أنه يمكن أن يكون على خطأ. ولأضرب على ذلك مـثـلاً. فـهـو كـان يصر على القـول بأن علمي [الذي كنت مـولعة به] إنما هو، حسب رأيه، بالنسبة لي بديل عن القـضـيب، وأن مـا يمكن أن أنجـزه في الحـيـاة إنجـازاً حقيقياً يـكـمـن في انـصرافي كـلـيـاً إلى زوجـي ورعـايـة شـؤون الأسرة. وفي الأيـام الأخيرة من التـحليل، عندمـا واجـهني زوجي مـواجـهة حقيقية في أن أختار إمـا البـيت أو العـمل، كنت تماماً مغسولة الدماغ، لذلك فقد اخترت الأول منهما في محاولة يائسـة مني لأصـبح حسبما أسماه [امرأة حقيقية]. وقد اتضح فـيما بعـد أن هذا الاختيار كان بمثابة موت لي في الحياة، كما كان عندما تنبأ به [حلمي الخـاص بالتـابوت] وقد ورد ذكره سابقاً في الفصل السادس. ولا حـاجـة بي تدعـوني إلى القـول بأن محللي، رأى في اخـتياري البيت أنه نتيجة لتـحليل ناجح قـام به هو، في حين كنت أعـمل على بصيرة تامـة بأعـمق ما عـنـدي من حـاجـات، كـان كل هذا رغم مـا كنت أحس به في أعماقي من كـآبة وإحـبـاط واغتراب نفسي تام. وعندما أنهيت فترة التحليل [الذي أديته وتدربت عليـه اسـتـجـابة لرغـبة زوجي] وجدت آنذاك أن الحياة لا تطاق.

فوجدت أنه يتعين علي أن أستأنف العمل من جديد، تلا ذلك أن انفصم الزواج فيما بيني وبين زوجي، وقد وجدت بعده صيغة في الحياة أكثر سعادة وأوفر هناءة.

إنه لمن الواضح الآن، وأنا أنظر إلى الماضي، أن حلمي كان قد تنبأ قبلاً بسياق التحليل ومسراه على نحو من الدقة أخاذ. فمحللي، مثلاً، كان يصر على أداء عمل لم أطلب منه القيام به، إذ أنه إنبرى لمعاملة عملي الخاص بي على أنه عرض من الأعراض Symptoms، رغم حقيقة ماثلة وهي أني لم أذهب إليه كمريضة، وإنما كنت قد ذهبت إليه لمجرد التدريب فقط. وقد استخدم نظريته الفرويدية كالمطرقة، محاولاً بذلك إعادة بناء أسلوب حياتي وتأثيثها حسب قيمه الخاصة به هو [وكذلك حسب قيم فرويد]، قيم يريدها كما ينبغي أن تكون عليه [المرأة الحقيقية] حسب مفهومه وكما يرى من وجهة نظره الخاصة به، وإن كان منهجه هذا قد ألحق بي وبمجمل طبيعتي أذى كبيراً. أما ما يقترن مع أمي في الحلم وما يرتبط بها، فإني لأتذكر الآن أن أمي قد هددتني في عدة مناسبات أيام طفولتي بعرضي على [معالج نفساني] Psychiatrist، وذلك لكي أعالج من العناد ومن الرفض لكل شيء ومن التمنع، وإن استجيب للقيام بمساعدتها في شؤون البيت، في حين كان أخي يمرح خارج ويلهو كما يشاء وإن حلمي حين وصفها بأنها رديف [المعمار السيء]، كان قد تنبأ بدقة ورشاقة بالكيفية التي اقترن فيها محللي مع صوت أمي الذي كان يريد أن يدمجني بمعايير المجتمع عن طريق تدريبي لكي أكون ربة بيت ناشئة وظريفة.

أياً كان الأمر، فقد كنت مترددة بشأن الاعتقاد الخاص القائل بأن ليس في التحليل الفرويدي ما يمكن أن يقدمه لي أو ينفعني، إذ أني في الحقيقة قد أفدت من نهجه وجنيت كثيراً من جوانب التبصر القيمة، لهذا فقد حاولت فيما بعد أن أعمل مع محلل آخر. وللأسف، أن أول حلم رأيته، بعد جلسات قليلة أجراها معي محللي هذا، رأيتني في حلمي ذاك مستلقية

عل سرير فحص المرضى، وكان قصيراً جداً إلى حد أن رأسي كان متدلياً من ذلك السرير خارج النافذة، رحت أنظر حولي وأنا في وضعي ذاك فرأيت أن الحديقة هناك عبارة عن مقبرة مرتبة منظمة، وأدركت أن كل قبر كان يحتوي في داخله على رأس امرأة وقد اقتطع رأسها لكي يتناسب طولها وسرير الفحص ذاك.

ورغم هذا التحذير، كما ورد في الحلم، فقد واظبت على الاستمرار معه أشهراً كثيرة، ولكنني وجدت في نهاية المطاف أنه يتعين علي أن أترك تدريبي عنده، بعد أن بلغت بي الحال مبلغ السأم والملل جراء اجتهادات المحلل التعسفية(١١) الإكراهية المستمرة الرامية إلى محاولة إخضاعي إلى ما يأخذ هو بها ومؤداها أن على المرأة أن تضحي بشخصيتها وبمبادراتها من أجل خدمة الرجال. وإني ما زلت أحس وأشعر بشيء من الإخفاق بسبب مبارحتي موقف التحليل ذاك، ولكني مع هذا لم أعد أطيق تجاهل ذلك النداء الصادر من أعماقي يناديني بوجوب احترام ذاتي. ولم أكن أدرك يومذاك، أن السنوات القليلة اللاحقة كانت ستشهد تحولاً في الرأي العام عن التحليل الفرويدي، ولاسيما فيما يخص النساء، ذلك التحول المشهود الذي أدى بالناس إلى أن يزجوا لي التهاني على تخلصي المحظوظ منه. هذا، وقد كتبت [إيفا فيجس Eva Feges] في كتابها الذي نشر مؤخراً بعنوان [الاتجاهات الأبوية](١٢) Patriarchal Attitudes، تقول فيه: [إن المريض المشافى إنما هو في الواقع مريض مغسول الدماغ، وأنه آلة متحركة، شأنه في هذا شأن الميت. لقد تداعت الزوايا وأنهارت، وإن المرأة الآن لتتقبل خصاءها Castration كحقيقة واقعة، وتعترف بنقصها في نفسها وقصورها، وإنها راحت تكف عن حسدها لوجود القضيب عند غيرها، وشرعت تتقبل الدور الخامل للأنثى. والمحزن في الأمر، أن الرجل يعترف بأن المرأة المثالية هي المرأة المستخذية المستكينة التي أعدها على نحو معين لنفسه. وهذه المرأة التي يريدها على هواه لم تكن بعد ولم تتوفر تماماً لما يجب

ويرضى وأن الآنسة [فيجس] لتضيف [ودون أن تفيد من حلمي الخاص بسرير الفحص المذكور من قبل]، تضيف قولها: [إن فكرة فرويد الأساسية هي أن كل امرأة إنما هي وتد مربع الزوايا يجب أن يلائم ثقباً مستديراً. إذ لم يطرأ على باله أن الموقف يكون أقل تدميراً عندما يغير شكل الثقوب بدلاً من نسف جميع الزوايا وتحطيمها.]

إن الحركة الحديثة في العلاج الجشتالتي إنما هي بهذا الاعتبار ضد النهج الفرويدي بصورة مكشوفة. ورغم أن النهج الفرويدي يستمد كثيراً من حقائق التبصر من منهجية فرويد بالذات، فإن الأصل الأساسي فيه هو أنه ما من أحد منا في هذه الحياة ينتظر منه أن يعيش وفق توقعات الآخرين أو أن يتكيف تماماً إلى المجتمع وأن الحق الأساسي لجميع الكائنات البشرية - سواء في ذلك الرجال، والنساء، والآباء، والأبناء، والمعالجون والمرضى - إنما هو أن نكون نحن بأنفسنا كما خلقنا، وهذه عاطفة لم يلتفت إليها الفرويديون ولم يسدوا إليها خدمة تذكر سوى الخدمة اللفظية، ولكنهم وضعوها موضع التطبيق الفعلي. وإننا لنجد هنا [بيرلز] متشدداً بشأن نقطتين. فهو، في المقام الأول يجادل قائلاً يصعب أن نعرف تماماً ما يفترض فينا أن نكيف له أنفسنا في مجتمعنا الحاضر المتغير باستمرار، وهو يرى، ثانياً، أن الحاجة need إلى التكيف إنما هي عرض من أعراض العصاب يجب قهره والتغلب عليه. فهو - بيرلز - يذهب إلى أننا نتكيف فقط عندما نسعى سعياً حثيثاً إزاء ضمانة معينة فيحول سعينا الحثيث هذا دون الوقوف على أقدامنا والاعتماد على ذكائنا، والحيلولة دون اقتحامنا مفاوز الحياة. ولهذا فإنه كتب يقول:

[أعتقد أننا نعيش في عالم مجنون، وأن عليك أن تختار بين أمرين اثنين فقط، فأما أن تسهم في هذا الجنون الجماعي، وأما أن تجازف فتكون سوياً معافى.. وإذا ما تقوقعت حول ذاتك، فإنك لن تتكيف بعد ذلك أبداً.]

وإن ما ينطوي على الدلالة، هو أنني عندما شرعت بتدريبي على العلاج

حسب المنهج الجشتالتي، رأيت في نومي بأني أطلق نسراً من قفص ثم استيقظت من نومي وأنا في غاية الانشراح. وقد ذكر رئيس الفريق، وكان من كاليفورنيا، إن هنود النفاجو Navajo indians، يعتقدون بأن ثمة ثلاث أرواح تستوطن جبال سان فرانسسكو تلك هي: الرياح، والبرق، والطيور. والنسر بالنسبة إليهم بوجه خاص هو رمز الروح الجبارة الفعالة وما ينبغي له أن يحتبس في قفص وأنهم لو عرفوا بحلمي لفسروه بأنه دلالة على فأل حسن وأنه طالع حسن وأنه بشير خير وأنه ينبئني بمستقبل زاهر.

وأن حلماً من أحلام الفأل الحسن قد حدث لي كذلك عندما بدأت بالتحليل وفق منهج يونج Jung، بشكل استطلاعي أولي. إذ حلمت بأنني ورثت بيتاً قديماً وكبيرا يقع في الريف، وكنت أتساءل في قرارة نفسي وأفكر: هل أبيعه أو أنفق عليه وقتاً كثيراً ومالاً وفيراً من أجل تجديده. وعرفت في الوقت ذاته أنني سأفضله في النهاية على بيت صغير حديث اقتصادي في الجهد والنفقات. وأثناء ارتيادي جنبات البيت وتقصي تكوينه، دخلت غرفة فيه فشاهدته فيها قطعاً كبيرة من اللحم معلقة على خطاطيف وقد ساورني شك شديد في أنها كانت لحوماً متعفنة وأنها تنخر فيها الديدان. ولقد ارتعبت فانكفأت مولية هاربة، وفي هذه الأثناء سمعت شيئاً يعدو عبر أرض الغرفة تلك، فشعرت بأنني قد أزعجت شيئاً ما، كان قابعاً هناك مختبئاً منذ أمد بعيد. وبينما كنت أجيل النظر لأتبين ماذا كان هناك، رأيت الغرفة أشد ضياء وأكبر حجماً، ثم استيقظت ولديّ إحساس عميق كأن الحلم حقيقة وليس حلماً، وإن علي أن أنظفه وأن أسكن فيه. كان ذلك الحلم يومىء بوضوح إلى أن التحليل الذي كنت أتدرب عليه من شأنه أن يوسع آفاقي بدلاً من أن يضيق مدياتي أو يقيّد مجالاتي وهو تكهن أتضح أنه صحيح.

تلخيص واستنباط :

الخطوة الأساسية الأولى في تفسير الحلم تكمن في البحث والتمحيص عن الحقيقة التي يمكن أن تكون في العالم الخارجي المحيط بالفرد، لا لأنها حقيقة ذات قيمة في حذ ذاتها فقط، وإنما كذلك لأن عملية التمحيص هذه تنير السبيل باتجاه فهمنا أية دلالة أخرى ينطوي عليها الحلم وهي في ألوقت ذاته تشير إلى مشكلاتنا الذاتية الخاصة بنا. فحينما أحلم، مثلاً، بأن الملكة قادمة لتناول الشاي معنا ثم أرى فرشاة شعر قذرة ملقاة فوق المائدة، فمن الممكن أن حلماً كهذا إنما ينبيء عن مشاعري نحو أمي ولكن من المرجح أن يتخذ التحليل عند هذا المستوى مسارات شتى متباينة منها مثلاً ما إذا كنت أمتلك في الحياة الحقيقية الواقعية مثل هذه الفرشاة الوسخة أو لا أمتلك. وإن كانت حقاً لدي فرشاة قذرة، فمن المعقول إذن أن أفترض بأن الحلم إنما يعبر عما لدي من قلق يتعلق بعدم الانتظام وبما عندي من عادات مستكرهة. ومن المحتمل كثيراً أنه يشير إلى أنه ليس هناك ضرورة تدعوني إلى الانسياق وراء البحث عن ارتباطات واقترانات تتصل بشعر الفرشاة وربطه بزغب المراهقة وشعر العانة، أو ما يشبه ذلك. وإذا ما كانت فرشاة شعري، من ناحية أخرى، نظيفة جداً فإن ارتباطات كهذه إنما تعتبر السبيل الوحيد للكشف عن معنى الحلم واستبانة حقيقته ومغزاه.

معظم الأحلام التي وصفتها في هذا الحلم قد كشفت عن (حقيقتها الموضوعية) وعبرت عنها على نحو مباشر تماماً. لكن حلم (سالي والحلم الخاص بالحريم في ذلك الفصر الشرقي والأحلام المنبئة بالعلاج المنتظر كلها توضح الكيفية التي تظهر فيها الإدراكات في عقل الحالم على نحو رمزي. وأياً كان الأمر، فإنني أقترح هنا أنه ما لم تتح الرمزية معنى مباشراً عن طريق الارتباطات، فإن التمحيص والبحث عن دلالات موضوعية قد يكون محفوفاً بمصاعب من ناحية الجدوى العملية. فإن رأيت، مثلاً، في

الحلم أسداً يولي هارباً بمعية غزال، فقد يريد ذلك الحلم أن يوضح بأن عقلي كان قد أدرك في مكان ما في زمان معين بأن زوجي لم يكن مخلصاً، ولكن ثمة كثير من البدائل في التفسيرات المحتملة، بحيث يتعذر معها الاستقرار على هذا التفسير الذي ذكرته وما يقترن به من موضوعية ما لم يقفز إلى ذهني معناه مباشرة. وحيثما كان الحلم، من الناحية الأخرى، يشير إلى ما في العالم الخارجي المحيط بنا من أناس حقيقيين، وأشياء، وعلاقات، ومواقف في دنيانا الحقيقية، فإن الأمر يسهل التحقق منه في دنيا الحقيقة الموضوعية وإن البحث في نطاق العالم الخارجي هذا يعد أمراً أساسياً من وجهة نظري. وحتى إذا كانت الدلالة تافهة نسبياً، فإنه لمن المجدي حقاً أن نتعلم شيئاً حول الطريقة التي تخفق فيها عقولنا الواعية الشعورية في إدراك الأشياء في حياة اليقظة وبالتالي يرمي بها فينثرها على صورة أحلام.

إذا ما اتضح أن الحلم ليس بذي دلالة موضوعية لها أهميتها ومغزاها، فإن النشاط العملي سيتوقف على ما هناك من ظروف. ففي حالة الأحلام (التذكيرية) والأخرى (التحذيرية)، يجد المرء هنا المضامين واضحةلا ريب.

أما بالنسبة للأحلام التي تبدو أنها تنطوي على إدراكات (استبصارية) أو تشير إلى استشفاف ما في الآخرين، فإن التدقيق فيها في هذه الحالة يعد أمراً جوهرياً قبل اتخاذ أي إجراء كان، وذلك كما رأينا في حالة حلم (ليزا) عن النقود المسروقة. فإن كان الحلم يتعلق بشخص معروف وقريب من الحالم أو من ذوي قرباه وتربطهما علاقة، فإن الشيء المعقول هو في العادة أن تبحث الحلم مع ذلك الشخص المعني، ولكن في المواقف التي تبدو فيها أشخاص في الأحلام وهم أقل قرابة، كما في حالة الحلم الذي ظهر فيه زميل زوجي أو في حالة حلم (ليزا) وعلاقتها بالمربية التي عندها، فإنه من المفضل معالجة الحلم على أنه تحذير محتمل وحينئذ يقتضي التدقيق في الحلم بوسائل أخرى.

أما ما يتعلق بالأحلام التي تبدو أنها تنبيء بالمستقبل وأحداثه، فإن

المشكلة أكثر تعقيداً وأشد صعوبة ذلك لأننا قد نشعر أنه ينبغي علينا أن نحاول الحيلولة دون وقوع الأشياء التي أنبأت عنها الأحلام، كما هي الحال في حالة إصراري على الاستمرار مع محللي الفرويدي وكما هي الحال في حالة استمرار زميلتي التي كانت تريد علاج عشيقها من اشمئزازه من النساء. ومن الواضح أن ليس هناك قاعدة ملزمة، ولكن ثمة الشيء الكثير من الشواهد وكلها تشير إلى أن العقل اللاشعوري في معظم الأحيان يكون أكثر حصافة من العقل الشعوري فيما يتعلق بأمور كهذه أو من هذا الضرب، والأمر على هذا النحو حتى إذا كانت حكمة العقل اللاشعوري تتألف من موقف يجعلنا نحذر ما هناك من قوى تقتضينا التصدي لها إذا نحن شئنا أن نثابر على استنجاز خططنا الشعورية.

يلزم المعالجين النفسانيين ولاسيما المحللين النفسانيين بخاصة، يلزمهم أن يعوا عاداتهم المهنية وفيما يتعلق منها بتواصل مرضاهم، بما في ذلك أحلام أولئك المرضى، بوصف ذلك التواصل وتلك الأحلام [إسقاطات] Projections، تكشف عن دواخل شخصياتهم، ولا تنطوي على أية حقيقة موضوعية. فإذا ما حلم المريض، مثلاً، حلماً رأى فيه محلله بأنه قاتل، فقد يكون في الحقيقة بحلمه هذا قد أسقط على محلله صورة أبيه - أب المريض - ولكن يمكن أن يدل الحلم في الوقت ذاته على أن المحلل نفسه قد أضر بشخصية المريض وبجوهر نفسه، ولعل الضرار هذا من جانب المحلل بشخصية المريض يكون متأتياً من تفسيرات المحلل التعسفية بدلاً من [إصغائه بأذنه الثالثة] إلى مريضه وأقواله.

فحينما، وحينما فقط، نكون قد بحثنا الحلم أي حلم من الأحلام بشكل مستفيض ونقبنا فيه عن دلائل تنمّ عن حقائق موضوعية وتمعنا فيها، حينئذ يلزمنا أن ننتفع به كمرآة يعكس اتجاهاتنا الذاتية نحو الحياة ككل. وإن الخط الفاصل بين المعاني (الموضوعية) و(الذاتية) يكون في الغالب، بطبيعة الحال، خطاً غير واضح المعالم وأنه لخط باهت الظلال. فحلمي عن (محللي

المغني) مثلاً، كان يوضح إلّي أنني قد التقطت لمحات عن طبيعة صديقي الحقيقية، وإن كان ذلك قد غالى في إظهار تلك اللمحات وإبرازها. بيد أن معنى الحلم كان يمكن أن يكون مختلفاً تمام الاختلاف لو لم يكن منطوياً على حقيقة قط، أو لو كان بعيداً عن الهدف ومجانفاً للواقع، وفي تلك الحالة أكون آنذاك مضطرة إلى أن أعرف لماذا رأيته في تلك الهيئة وعلى تلك الصورة. وكان يمكن حينئذاك أن يصنف بأنه حلم من أحلام [المرآة العاكسة]، وهو حلم يختلف عن أحلام (انظر إلى خارج) واختلافهما يتأتى من أن هذا الضرب الأخير من الأحلام يستمد طاقته من سخصية الحالم أكثر مما يستمدها من المحيط. إن أحلاماً كهذه، والتي ستكون موضوع الفصل القادم، تخبرنا عما في لغو أنفسنا وعن ذواتنا أكثر مما تصف لنا الناس الآخرين والمواقف في الحياة. وكما سنرى، على أية حال، فإن كثيراً من الأحلام يمكن تفسيرها على أكثر من مستوى وفي أكثر من معنى، وبخاصة منها تلك الأحلام الطويلة التي تنطوي على عدة أحداث مترابطة مع بعضها.

هوامش الفصل الثامن

(١) هذا تعبير مجازي له بعده ما يفسره (المترجم)

(٢) العقيفة أو المشك أو ما يسمى بـ(الرزّة) وهي ما يثبت الباب على حاملتها (المترجم)

(٣) وتترجم أحياناً مكنية وتقابل كلمة Mechanism الانجليز وبعضهم ينقلها بنفس اللفظ (ميكانزم) وأصح ترجمة لها ما ورد في المتن (المترجم)

(٤) يدعك بالشمع، ويفرك الجسم تمسيداً ويقابله (المساج). (المترجم).

(٥) يبلو: يجرب، يختبر، يمر بخبرة، كلها بمعنى (المترجم).

(٦) نجمان سينمائيان في الخمسينات في الولايات المتحدة، الأول منهما ممثل ومغني، والثاني ممثل فقط (المترجم)

(٧) امرأة نصف (بفتح النون والصاد): أي متوسطة العمر (المترجم)

(*) تقول المؤلفة تعليقاً إضافياً على ما ذكرته: إن الأحلام التنبؤية يمكن أن تكون حقيقية في دنيا الواقع. وهذا ما كان يثيره كثير من الناس حيثما ألقيت محاضراتي عن الأحلام. فعندما تكون هناك تصدعات في حياة الأسرة فقد يحصل الطلاق كما في الحلم الآنف. وإني لا أنصح أي فرد أن يقدم على اتخاذ قرار بقطع علاقاته الزوجية بمجرد أنه رأى حلماً ينبئه بفصم عرى الزواج. وإن إنقاذ الزواج من الانهيار يكمن في مواجهة الموقف بصراحة. وعن آرائي بشأن استخدام الأحلام في مجال الأسرة أنظر الفصل الحادي عشر. (المؤلفة).

(٨) ملتفة وكثيفة (المترجم)

(٩)الحشية: المطرح يضطجع عليه (المترجم)

(١٠) من الرعبلة: ويراد بذلك عدم الانتظام في الحركات الجسمية والتهويش في السلوك (المترجم)

(١١) استخدمت المؤلفة التعبير المجازي: بروكرستيزي Procrustean، نسبة إلى بروكرستيز أو إلى مضطجعه، وبروكرستيز هذا كان لصاً إغريقياً خرافياً، كان يمد أرجل ضحاياه ويقطعها ليجعلها تلائم حجم السرير الذي تلقى عليه. لذلك ذهب القول ويراد به العمل الاحتياطي. وهذا ما رمت إليه المؤلفة في حديثها عن العلاقة بينها وبين محللها الذي أراد إخضاعها إلى تبني آرائه الفرويدية. (المترجم)

(١٢) نظام تكون الهيمنة المطلقة فيه للأب على العشيرة أو الأسرة. (المترجم)



الفصل التاسع

حياتنا من خلال المرآة العاكسة(١) [الأحلام]

عندما مرت (أليس) Alice عبر المرآة العاكسة وجدت ثمة بعض الأشياء المألوفة التي تمثل انعكاسات مباشرة لما في هذا العالم المعتاد، ولكن هناك أيضاً من الأشياء الأخرى ما يمكن أن تكون على جانب من الاختلاف كبير.(٢) فعندما تحرف أحلامنا واقعنا الذي نحياه، وهذا هو ديدنها في أغلب الأحيان، فإن هذه التحريفات تصدر عن عقولنا وتقوم بها أذهاننا، وإنها في الوقت نفسه يمكن أن تنبئنا عن كثير مما في دخائل نفوسنا. ومن قبل كان (أمرسون) Emerson قد كتب يقول: [الإنسان الحاذق يقرأ أحلامه ليتعرف على ذاته]، وإني في هذا الفصل سأتوفر على قراءة الأحلام لكي أتعلم شيئاً حول الكيفية التي تؤثر فيها اتجاهاتنا وانحيازاتنا ـ وهي في معظمها تتكون من (برامج) كانت قد أرسيت أسسها من أيام طفولتنا ـ على المواقف المحددة الخاصة المؤثرة في حياتنا وقت حدوث الحلم وسأتناول في الفصل القادم كيف يمكن أن تساعدنا أحلامنا على فهم مشكلاتنا الداخلية العميقة ومعالجتها.

والمبدأ الأساسي الذي سأنتهجه في هذا الفصل هو أن أنظر إلى الحلم وكأنه صورة picture ومن ثم سأحاول أن أربط تلك الصورة بالظروف المباشرة المحيطة بالحالم. وسأركز اهتمامي هنا على أربعة ضروب هي من أكثر أنواع صور الحلم أهمية وهي ـ الناس، الحيوانات، البيوت، والمركبات، Vehicles ـ وسأوضح في كل حالة بعض الجوانب التي يمكن أن نتعلمها من هذه الأنواع المذكورة، سواء في حالة انطوائها على أية إشارة واضحة إلى معالم الحياة ومواقفها: الحياة الجارية في دنيا الحالم، أم في حالة انعدام مثل هذه الإشارة، فتبين عندما ننظر إليها كيف يجب أن نعتبرها

رموزاً نتحرى معانيها ودلالاتها من خلال الاقترانات والارتباطات. أن ما سأضربه من أمثلة توضيحية، وهي مستمدة بصورة رئيسية من فريقي الذي أجري عليه دراساتي، ستتيح بشكل عارض كثيراً من الأمثلة الخاصة بالرمزية التي غالباً ما تتكرر في الأحلام، بحيث يتسنى للقارىء بعد انتهائه من قراءة الفصل هذا أن يكون فكرة شمولية عن كيفية تفسير ما يراه عبر الرؤى والرؤيا من عالم خاص بأحلامه هو.

الناس من خلال المرآة العاكسة [من خلال أحلامها]

تلعب الشخصيات الإنسانية دوراً رئيسياً في القسم الأعظم من الأحلام. فإن كانوا أناساً من أقرب الناس إلينا في حياتنا اليومية ـ كأن يكونوا مثلاً أزواجاً، أو زوجات، أحباباً، أو آباء، أو كانوا أبناء لنا نحن ـ فمن غير المرجح أن يمثلوا غير أنفسهم. وفي حالات كهذه فإن معنى الحلم يتوقف على ما يفعله الشخص وما يقوم به في الحلم نفسه، ويعتمد الأمر كذلك على ما نقوم به نحن نحوهم وما نفعله إزاءهم، وتتوقف المسألة أيضاً على الموقف العام الذي يظهرون فيه. والسؤال الذي يجب أن يثار في جميع هذه الحالات هو: [ماذا يخبرني الحلم عن مشاعري وأحاسيسي وأفكاري حول هذا الشخص أو ذاك؟].

يكون المعنى أحياناً واضحاً جداً ومباشراً، كما هي الحال في حلم (جوانا) Joanna، وهي إحدى أفراد فريق الدراسة التي كنت أجري عليهم تجاربي، إذ حلمت أن زوجها قد ضبط وهو في استئناف علاقة غرامية سابقة له مع فتاة كانت قد وجدتها مرة نائمة معه من قبل، فقد ودت (جوانا) نفسها في الحلم تزحف باتجاه حافة فراشه وهو نائم، وتهم بقتله بفأس كان معها. وأثناء رفعها الفأس لتهوي بها عليه بالضربة القاضية، توقفت عن ذلك، وجعلت تفكر في أن تضربه ضربة واحدة قاتلة

تكون في صالحه، إذ تقضي عليه بدون تعذيب، ولذلك قررت أن تقطع أولاً يده ليستيقظ على أثرها فيدرك عندئذ ماذا كان يفعل ولماذا يجب أن يقتل. هذا الحلم كان يمكن أن يكون حلماً من النوع الذي [ينطر فيه إلى الخارج] مبنياً على ما هناك من طاقة ثم إطلاقها بشكل استكشافي وحصل كل ذلك فيما دون عتبة الإدراك وهو في جملته موقف يتعلق بخيانة زوجها وتدليسه، فهو حلم ينطوي على تحر لما في سلوك الزوج، لكن (جوانا) أكدت لنا أنها قد تحرت الموقف بعناية فائقة وانتهت إلى قناعة بأن زوجها قد لبث مخلصاً لها تماماً بعدما انكشفت علاقاته الغرامية الأولى. ولهذا فإن الحلم ينطوي إذن على إشارة ودلالة جد واضحة، بأن تلك العلاقة الغرامية ما برحت عالقة في ذهنها ولم تنته قط حسبما كانت هي تعتقد اعتقاد شعورياً بأن المسألة قد انقضت. نعم إنها انتهت بالنسبة إليها ظاهرياً، لكن رواسبها بقيت ثاوية في عقلها اللاواعي.

فهي، تحت قرارها الشعوري بتناسي الماضي وجعل القديم ينطمر تحت الرديم، كانت في الواقع تخفي في نفسها مشاعر انتقامية كان يمكن أن تتمخض عن متاعب خطيرة لو لم يجلب ذلك الحلم انتباهها إليها. وبالرجوع إلى ما في الحلم من تفصيلات، كانت (جوانا) قد تم تذكيرها بالمثل القائل: [دعها في غفوتها نائمة تلك الكلاب وابتعد عما يثير المتاعب والاضطراب]، وقد أقرت بأن جزء من تكوينها كان لا يزال يرى زوجها وكأنه كلب. فهي على المستوى الشعوري من حياتها كانت تميل إلى عدم نبش الماضي وعدم مقابلة زوجها باتهام مضاد سبق لها أن صفحت عنه وتناسته، ولكنها من ناحية مقصدها اللاشعوري المتعلق [بالمصالحة وتسوية الأمور والمسألة] لم تكن في حقيقتها سليمة الطوية ولا هي تماماً حسنة النية: فهي على المستوى اللاشعوري هذا كانت تحاول تطمينه وجعله في مأمن من أمره ومن ثم الانقضاض عليه بالانتقام وفق طريقتها الخاصة، وربما كان في نيتها، مثلاً، إقامة علاقات غرامية خاصة بها أو القيام بشيء ما يمكن أن

يدمر مستقبله. كان واضحاً من خلال طريقتها الوئيدة في انتواء قتله في الحلم إنما تعني أنها كانت تصغي إلى ما كانت تعبر عنه مشاعرها وأحاسيسها حول الموقف برمته وحول غرامياته كلها بحيث يكون زوجها على وعي تام بمقدار ما سببه له من إيلام وإيذاء.

اقترح أفراد فريق الدراسة أن عليها في المقام الأول أن تقوم بتمثيل ما كانت تنوي القيام به من انتقام في حلمها تمثيلاً على هيأة دراما نفسية (٣) Psychodrama، وذلك بأن تقوم بضرب وسادة كبيرة موضوعة في وسط الغرفة بمضرب تنس، وأن تنفس عن أحاسيسها تنفيساً كاملاً. وإن عليها بعدئذ، أن تخبر زوجها حول الموقف برمته، وأنه يتعين عليهما معاً أن يقيما نوعاً من العلاقة الجديدة المبنية على وعي تام وأكبر لتفهم ما بينهما من توترات، كانا لحد تلك اللحظة يكبحانها ويخفيانها تحت غلالة مهلهلة من أجل انسجام سطحي.

ليست معظم الأحلام هي، على أية حال، من الوضوح أو مباشرة على هذا النحو، وأن اللجوء إلى ما هناك من ارتباطات واقترانات، معقدة إنما هي ضرورة لا مناص منها وذلك للكشف عما تعنيه تلك الأحلام حتى وإن لم تكن هناك صعوبة تذكر في التعرف على الأشخاص الرئيسيين فيها. فثمة مثلاً فرد من أفراد فريق الدراسة، واسمه براين Brain، وقد ذكر لنا حلماً كان يقلقه، وهو حلم كان يبدو للوهلة الأولى أنه شبيه بحلم (جوانا)، إذ أنه يعكس ما داخله من رغبة إجرامية موجهة هذه المرة نحو ابنه الأكبر. فقد حلم أن ابنه وعدداً من أصدقائه في المدرسة قد تم صفهم بالقوة صفاً واحداً من قبل أشرار غير معروفين بقصد قتلهم جميعاً بواسطة تسليط أشعة عليهم، وكان هو ـ الأب ـ قد اضطر عنوة أن يقف هناك متفرجاً على ما كان يجري. وأول ضحية تم اختيارها كان ابن أحد شركاء (براين) في العمل فاستيقظ من نومه مذعوراً وقت كان الصبي قد ترك على الأرض يتلوى من الألم، في الوقت الذي كان هناك صوت يقول: [إنه الآن دور

ابنك هذه المرة.]

كان (براين) يعرف الكثير حول النظرية الفرويدية المتعلقة بالعداء اللاشعوري بين الآباء والأبناء لكنه كان يظن بأن هذا الرأي مفرط في المغالاة والمبالغة وأنه إنما كان قد قيل لمجرد المتعة، وأنه رأى قد ترك أسئلة كثيرة بدون الإجابة عنها، منها مثلاً: لماذا كان بعض الأولاد في ذلك الحلم يقتلون، ولماذا تم اتباع هذه الطريقة الغريبة دون غيرها لقتلهم بالأشعة كسلاح للقتل والإجرام. وعندما طلبنا منه أن يربط بين ما في ذهنه وفي نفسه وبين قصة الحلم، تجلى بوضوح تام إن (براين) قد استشف ما في نفسه وعرف حقيقته، إذ أدرك أن الإجرام يثوي في نفسه، ولكن بشكل غير مباشر فقط. ذلك أن ما كان مقترناً في ذهن (براين) عن (أشعة الموت) هو بقايا مسرحية علمية خيالية بقيت عالقة في ذهنه وكان قد شاهدها على شاشة التلفاز في الليلة السابقة للحلم الذي كان قد رآه وفيه تلك الأحداث، وكانت تلك المسرحية تدور حول أشعة تجعل الشخص عبقرياً إذا ما أعطي منها جرعة قليلة، لكنها تحيله جثة(٤) هامدة إذا ما زادت على المقدار المقرر إعطاؤه. ويذكر (براين) أن زميل ابنه في الدراسة كان قد عاد لتوه من مدرسته بعد انتهاء الفصل الدراسي الأول، وهي مدرسة داخلية مرموقة، وإن ما رآه في الحلم هو أن جميع أصدقاء ابنه في ا لمدرسة كانوا معرضين لنفس المصير. إن (براين)، وإن كان لأسباب سياسية، يعارض بشدة فكرة النظام التربوي الخاص، فإنه مع ذلك قد استجاب لرغبة زوجته وآراء زملائه في أن يتيح لابنه فرصة الانتفاع من تعلم يتم في صفوف دراسية عدد طلابها أقل، ويكون معلموها مؤهلين تأهيلاً أفضل، وغير ذلك كثير، فهو قد وافق على هذا التوجه بشأن تعليم ابنه حتى وإن كان يعتقد في أعماق نفسه بأن ذلك النظام التعليمي ينبغي أن يتغير. وكان قد تقبل ما جادلت به زوجته قائلة أن مشاعر سوء الظن التي تخامره إنما تعزى إلى أحاسيس التعالي المعكوس النابع من مكانته بوصفه ينتمي إلى الطبقة

العاملة وذلك عندما كان قد تلقى تعليمه في المدارس الأجرومية(٥) (النحوية) Grammar، وإن مشاعره تلك لا تعزى إلى أي مبدأ سياسي.

غير أن ذلك قد كشف، على أية حال، عن قصة مغايرة بشأن هاجس (براين) وشكوكه حول ذلك النظام التعليمي. إذ أوضح أنه في أعماق عقله كان يرى عملية الأكاديمي الخاص، الذي تأخذ به الطبقة المتوسطة برمتها، مع ما تنطوي عليه من محاسن وفضائل فكرية عندما تعطى بجرعات أصغر وقليلة، فإن تأثيرها على الأطفال حينما تقدم لهم بجرعات أكبر، من شأنها أن تجعلهم فاقدي الإرادة وأن تشل قدراتهم على التفكير، فتجعل منهم نتاج مجتمع متنافس منافسة حادة، وأن تجعل منهم امتثاليين مستخذين مستكينين من غير تدبير ويشعرون طبقياً من غير تفكير. وكان قد لاحظ على سلوك زميل ابنه الذي كان قد أمضى فصلاً دراسياً واحداً تعرض فيه [لغسيل الدماغ] لاحظ تغيراً نحو الأسوأ، وقد شعر عندما شاهد ذلك بأنه مسؤول بشكل غير مباشر عما قد يلحق بابنه من انهيار في مستقبله.

مراتب الحياة العقلية(٦) والتكوين النفسي

أقربون آتون من الماضي

حينما نحلم بأناس تربطنا وإياهم في الماضي وشائج وثيقة، كالأباء، والأخوة والأخوات، فإنهم قد يمثلون في الأحلام أنفسهم إذا كنا لا نزال على إتصال وطيد معهم، وصلتنا بهم وثيقة، ولكن يمكن أن يرمزوا كذلك إلى تلك الأجزاء من ذواتنا نحن، والتي كانت قد اجتزئت منهم في أيام مضت. إن ظهورهم في الحلم إنما يقدمه عادة وجود منبه كان قد مر بنا وخبرناه في الحياة الواعية وهو يماثل شيئاً كنا قد ألفناه في مواقف ماضية. ففي حلمي الذي كنت رأيته عن ذلك المعمار السيء، والذي أشرت إليه في أواخر الفصل الثامن، فإن ما حصل من شجار بيني وبين أمي حول

استخدامها إياه خلاف رغبتي، لم تكن له صلة مباشرة بأمي، إذ لم أرها منذ عدة شهور خلت. وإنما ارتباطه المباشر كان متصلاً بالمحلل الذي كنت أتدرب عنده. فهو الحلم كان يرمز إلى بناء رديء مصمم على تدمير شخصيتي تماماً مثلما كانت أمي ترغب في أن ترى مني الطاعة الكاملة أيام طفولتي. ففي حين يبدو الحلم وكأنه في ظاهره يقول عني بأنني أشعر بأن أمي ستكون مسرورة غاية السرور لو أنها وجدت واحدة تتمم ما كانت هي قد بدأته، لكن الحقيقة كانت في واقعها أكثر قتامة وأشد نحساً. فالشجار إذن كان يقوم في الحقيقة بين جزأين متعارضين متصارعين في داخل شخصيتي أنا بالذات ـ أحد هذين الجزأين يمثل الفتاة الطيبة، وهذا الجانب يقوم على أساس من فكرتي عن نوعة الشخصية التي تريدني أمي أن أكون عليها؛ أما الجانب الآخر فيمثل ذلك الجزء (المتمرد) مني وفي داخلي، وهو الجزء الذي يرفض الخضوع من أجل القيام بتلك الأعمال اليدوية. ولقد لبثت عدة سنين وزيارة أمي تتكرر علي في أحلامي، مما يدل على أن تأثيرها كان لا يزال يستحثني من داخلي وهو لم يكف يعمل في أعماق نفسي، حتى وإن كنت فعلاً قد انفصلت عنها في دنيا الواقع.

يذكر المحللون النفسانيون أننا (نتبطن)(٧) Introject في ذواتنا آباءنا وأخوتنا ونتبطن في الواقع أي أشخاص آخرين قريبين منا ومقربين إلينا وهم في حياتنا أيام طفولتنا سطوة حتى وإن كانوا بعيدين عنا بعض الشيء، بل حتى الأموات منهم. إننا نتبطن هؤلاء جميعاً فيصبحون فيما بعد جزء من تكويننا النفسي، فتستمر أصداء أحداثهم تتحدث في دواخلنا فتؤثر في مسرى سلوكنا. فهذا (أريك) Eric، وهو الآخر من حيث الخلفية الاجتماعية ينتمي إلى فئة الطبقة العاملة، يذكر أن أباه المتوفى ما فتيء يزوره في أحلامه كلما حاول تحسين وضعه في حياته وهو في عالمه الظاهري هذا. فهو قد ذكر أنه في إحدى المناسبات، وكان يجول في خاطره شراء بيت في منطقة جيدة، حلم بأن أباه كان يخاطبه هاتفياً من البحر الأحمر Red Sea

وطلب من ابنه هذا أن يلتقي به في اليوم التالي هناك. وقد فسر (أريك) كلمة [الأحمر] بأنه الدفء والحنان والعطف، وفسر [البحر] بأنه دلالة على العواطف التي كان والده يعتقد اعتقاداً قاطعاً بأنها خصائص تتميز بها الطبقة العاملة دون غيرها، أما عند الطبقة الوسطى فإنها لا شيء سوى مظاهر زائفة. كان أريك في قرارة نفسه موقناً بأن هذا مجانف للواقع وبعيد عن الحقيقة ولذلك بقي فترة يقاسي من صراع داخلي يعتمل في أعماقه قبل أن يقدم فعلاً على اتخاذ القرار في تنفيذ تلك الخطوة المرغوبة التي كان ينتويها، وكان ذلك الصراع في دخيلة نفسه راجعاً إلى أنه كان في طوية ذاته لا يزال يظن أنه في حالة إقدامه على هذا العمل وتنفيذه إنما يعني عزل نفسه عن الحياة (الحقيقية) التي كان قد أوحى بها إليه أبوه ومنه تبطنها.

إن الأصوات في دواخلنا تمنحنا أحياناً نصائح لا شك أنها معقولة، لكنها في كثير من الأحيان تكون أصواتاً جامدة ونمطية Stereotyped، وإنها في الغالب تكون أقسى مما كانت عليه في الواقع أصوات آبائنا الحقيقية. وسأتناول في الفصل القادم هذه الهياكل المتراتبة، والقابعة في طوايا تكويننا النفسي وخفاياها، إذ سأوضح عند ذاك معرفتها والتعايش معها من غير ما حاجة تدعونا إلى اللجوء إلى معالجات التحليل النفسي.

الأصدقاء والزملاء (في الأحلام)

عندما نحلم بأصدقاء، وزملاء، تربطنا وإياه خلال ساعات الحياة الواعي، روابط حميمة وتصلنا بهم صلات سليمة، فمن المرجح إذن أن الأحلام في هذه الحالات تخبرنا عن كيفية شعورنا نحو هؤلاء الأشخاص أنفسهم. وعلينا ، بطبيعة الحال، أن نتحرى دائماً عن حقيقة موضوعية قبل شيء، ولأضرب مثلاً عن هذه الحالة حلم زوجي حين رأى فيه زميله يقدم له في العشاء خضاراً مطبوخة متفسخة متعفنة ـ وقد سبقت الإشارة إلى

ذلك من قبل ـ. إن الحلم في هذه الحالة كان من أحلام [النظر إلى خارج] والاحتراس في الحياة، وقد برهنت التجارب أن زميله ذاك لم يكن رجلاً مستقيماً، ولو لم يكن الحلم متضمناً بعض الحقيقة من التحذير الكامن فيه، لكان حرياً بزوجي أن يتساءل: لماذا إذن هو قد حلم على هذا النحو. فلو لم يكن الأمر كذلك لحلم زوجي مثلاً بأن زميله كان يرتدي ربطة عنق فراشية bowtie، ولذكر بأن والده كان قد حذره إبان طفولته، مثلاً، من كل إنسان يرتدي مثل تلك الربطات، وبالتالي يكون في مثل هذه المواقف قادراً على أن يتبين الجذور غير العقلانية المتضمنة في تضاعيف هذا الحلم فيعزو إليها عندئذ مشاعر التردد من خبرته بالذات.

بيد أن العقل الحالم يستخدم، أحياناً، هيأة الصديق أو الزميل ليذكر شيئاً ما عن شخص آخر مغاير تماماً. فإحدى معارفي، مثلاً، وكانت قد تركت بيت زوجها وعادت إلى منزل أبويها، قد حلمت بأن مكان أبيها المعتاد على مائدة الطعام كان يجلس فيه زميل لها، واسمه [الدكتور جاك دومنيون]، وهو معالج نفساني كاثوليكي المنزع، وكان قد ألف كتاباً عن انهيار الزواج، ولما لم تكن الآن لها صلة بالدكتور [دومنيون]، فمن المرجح بل من الواضح إذن أن الحلم كان يشير إلى أبيها الذي كانت تحس أن نفسها تحت هيمنته وسلطانه(٨) dominion، ولا سيما فيما يتعلق بزواجها الذي كان أبوها يرى أنه يجب عليها أن تحافظ على استمراريته رغم جميع المتاعب والمصاعب.

وإذا ما حلمنا بصديق لنا نعرفه في الماضي، ولكن انقطع اتصالنا به في الوقت الحاضر، فيمكننا أن نوقن إلى حد ما بأن إشارة الحلم هنا لا تعني هذا الصديق بالذات؛ إذ من المرجح جداً أن يكون المعني بذلك هو موقف حاضر يثير استجابة سابقة لها علاقة بذلك الصديق وبه ترتبط. فأحد أعضاء فريق الدراسة، واسمه (مارك) Mark، كان قد حلم، مثلاً، بأنه كان يتناول طعام العشاء وكانت تقدم له فيه شواء من لحم البقر، فتاة

صـديقـة له يعـرفـها من زمن بعيد في حياته المبكرة، لكنه كان يشعر بالقلق نظراً إلى أنه كـان منتظراً منه أن يتناول عـشاءه في داره مع أبويه، ولما كان لم يسـبق له أن رأى الفـتـاة تلك منذ عشر سنوات خلت، فقد سأله أحد أفراد الفـريق أن يحاول ليـتبين أي شيء يرمز إليه ظهورها في حلمه ذاك. فذكر في وصـفـها بأنها فتاة صغيرة الحجم، شقراء، شبيهة بزوجته التي كان قد اقترن بها حـديثاً، والتي كانت في الواقع قد قدمت له شواءً في اليوم السابق.

اتضح فـيما بعد على نحو جلي أن عقله اللاشعوري لم يكن قد تكيف بعد كما ينبـغي لحـقـيـقـة كـونه رجـلاً حـديث الزواج وإنه ليس ملزماً بأن يتناول الطعـام مع أبويه. فـتـحت غطاء انقطاعـه إلى زوجـتـه وإخـلاصه لها وحبه إياها، كـان في الواقع يفكر فـيـها بنفس الطريقة التي كان يفكر بها بصديقته السـابقـة، كـواحـدة اعتاد أن يروغ أحياناً روغاناً ليراها ويقابلها مخالفاً بذلك رغبات أبويه اللذين كانا يساكنهما(٩) إلى أن حـان وقت زواجه. والحقيقة هي أنه كـان يرى في زواجـه، من حـيث لا يشـعـر، عـلاقة أخرى محرمة وغير مشروعـة، وكـان لا يزال يرى ، رغم زواجـه، أن الحنان مـصـدره أمـه وهذا مـا جـعل الحياة غير مريحة بالنسبة إلى زوجته التي كانت دائمة الشكوى من أنه لا يصـغي إليـهـا وأن رغبـاتها كلهـا كـانت دائماً خـاضعة لمشيئة رغبات أبويه. وكـان من قـبل ينظر إلى انفـجـار زوجـتـه بالغضب ويعتبر اهتياجها تصرفـاً غير مـعـقـول تماماً حـتى حصل له ذلك الحلم؛ لكنه قد أدرك الآن كـيف أصـبـحت تفـهم طريقـة معاملته الطارئة لها. وقد عزم على الاعتراف لهـا بمكنون نفـسـه، وإننا أقنعناه بأن يطلع زوجـتـه على الحلم ليـتسنى لهما التـعاون معاً على مساعدة [الطفل مارك] القابع في نفسية [مارك](١٠) الحقيقي لينمو ويكبر.

ثمـة نوع آخـر من الرمـزية يختلف عما ذكـرنا بعض الاخـتلاف، وقد تم توضـيح ذلك من جـانب [سيليـا] Celia، إحـدى أفـراد فـريق الدراسة، وكـانت (سـيليـا) هذه قـد هيأت مـؤخـراً مـسـتلزمات بيت بالاشـتراك مع

رجل له زوجـة ولكنهما ليسا على وفاق وإنها كانت تماطل في تأخير الطلاق، وهـو مـع ذلك كـان يعـاملهـا بكرم وسـخـاء. وقـد حلمت (سـيليـا) بأنها وصـديقـهـا قـد ابتـاعـا بيتاً جميلاً بسعر مناسب من أحد أصدقائها القدامى الذي لم تره منذ عـدة سنوات خلت. وبينما كـان أهل ذلك البـيت يطلعانهما هي وصـديقـهـا على مـعالم البيت ذاك، وكانت منشرحة النفس لمشهد البيت ومظهـره ومـرآه الجـمـيل الفسيح، بغرفه الوسيعة ذات النوافذ الكبيرة، وبينما كـانا يقـومان بتطوافهما ذاك في أرجاء البيت حانت من صديقها التفاتة نحوها فـقـال لها: [إنك، بطبـيعة الحال، ستسمحين لنا بعد شرائك البيت بالإقامة فيه حتى عام ١٩٨٢ حـين ينتـهي إيجارنا]. فأدركت سـيليـا عندئذ أنها قـد ابتـاعـت البـيت بدون أن تتـحقق من أن فيه مستأجرين يسكنون، وينتظرون مـنهـا أن تقـوم هي بصـيـانة البـيت طيلة أيام سكنهم فـيـه وهـم بدورهـم لا يدفـعـون لها لقـاء ذلك إلا أجـراً مـتدنياً. وأسوأ ما يترتب على ذلك هو أنها كـانت تعـتـقـد أنه لم يتبق هناك مزيد من الغرف المحترمة لأفراد مجموعتها. لقـد أظهـرت الاقترانات المرتبطة بحلمها ذاك هو أن أصدقاءها الذين كانت تتـحدث عنهم كانوا يلقبون بـ[لو] Law، ومـعناها [القـانون]، وقد ذكّرها هذا على الفور بالطلاق. أما الإشارة إلى عام [١٩٨٢]، فإنه العـام الذي سـيـتـخـرج فـيـه من الجـامـعة أصغر أبناء صديقها الذي تريد الزواج منه، ومـعنى هذاأن لا أمل لها بالزواج من صـديقـهـا هذا قـبل تصرم ذلك العام المضروب وانقـضـائه. وقد تذكرت، في الواقع، أنه في الأيام المبكرة من أيام انفـصـال صـديقـها هذا عن زوجته، كانت تلك الزوجة قد وجهت إليه لوماً قـاسـيـاً لهـجـره إيـاهـا وأولادها قـبل أن يتـمكن أولادهما من الوقـوف على أقـدامـهـم والاعـتماد على أنفـسـهـم. وفـضلاً عن ذلك، فإن حلمها ذاك قد كـشف عبر خـوف كان يساورها مؤداه أنها هي نفسها أيضاً ستبقى طيلة فترة طويلة تكد في الكسب إلى جـانب صـديقـهـا من أجل إعـالة أبناء صديقها هذا، ذلك لأن أبناءه قد اعتادوا على الاتكال عليه.

وفي هـذه الحـالة، فإن الأصـدقـاء في الحلم لا يرمـزون إلى الناس، وإنما يرمـزون إلى مـؤسـسة يمثلها [القانون] Law وإني أنا شـخـصـياً قد خبرت أمـثلة كـثيرة من هذا الضرب من ضروب الرمـزية تمثل شـخصية الصديق أو مـبدأ عاماً، أو موقفاً معروفاً، أو هي ترمز إلى طريقة حياة يهتم بها الحالم في وضـعـه الجـاري اهتمامـاً خـاصـاً. وفي حـالات كهذه، فإن معنى الحلم قد يمكن اكـتشافه إذا ما بحث المرء على اسم ذلك الصديق الذي كان قد حلم به، ومـثـال على ذلك هو حلم [سـيليـا]، ولكن يمكن أن يشار إليه كذلك بشيء معين يرتقبه الحالم ويدور في مجرى حياته اليومية، كما سيتضح ذلك في حـالـة الحـلـم التـالي الذي أورده زمـيل لي وكـان يعـتـزم التـخلي عن عـمل مـضـمـون المكسب مربح يدر عليه مكسباً يزاوله في مجال الإعلان، والتحول عن عمله هذا إلى التفرغ للكتابة وحدها.

فـقد حلم بأنه ارتأى، بعد أن رأى الجو أخذ في التماطر، ترك الذهاب في نزهة والقـيام بدلاً عن ذلك برحلة. عرف وهو في حالة الحلم أن ثمة ملتجأ له يمكن العـثـور عليـه في قمة منحدر صخري شاهق، وكان هذا يعني أنه يتـعين عليـه أن يتـغلب على صـعوبة السير في مسلك ضيق شديد الانحدار يدور حـول التـواء يكاد يكون حلزونيـاً، لكنه شعر بقلق شديد ساوره حول قـدرته في التمكن من القيام بكل هذا. وقلقه ذاك مبعثه خشيته من أن يهوي فـيـسـقط إلى القـاع، ولاسيما بعد أن أصبح المسلك مبتلاً وصار الطريق كله زلقـاً. لكنه لم يتخاذل، بل عض(١١) على نواجـذه وشـحـذ العزم وصمم على طرد الخـوف من نفـسه، وقد طلب من أحد أصحابه في الرحلة، وكان قبلاً قـد بلغ قـمـة ذلك المنحـدر الصـخـري، أن يتناول منه حـقيبة كان يحملها لتـسـهل عليـه المحافظة على توازنه أثناء عملية التسلق. عندما رفع بصره إلى الأعلى رأى أن ذلك الشـخص الذي في القـمة هو صديقه المسرحي [جيمس بـرابازون] James Brabazon، هـذا الحلم كـان تعـبيراً تصـويرياً بديعـاً يكشف عما في دخـيلة زمـيلي من قلق بشأن قـدرته في مـواجـهـة الانتقال إلى

أسلوب جديد في الحياة، وعندما سئل عن دور [جيمس برابازون] هذا في الحلم وعما كان يفعله، أجاب بأن هذا، كان خلال الحياة الواعية، رجلاً قد جازف بالانتقال من عمل إداري مضمون إلى عمل آخر حر وقد نجح فيه.

وأخيراً فإن ظهور الأصدقاء والزملاء في الأحلام إنما يرمز أحياناً إلى أجزاء من شخصية الحالم نفسه، وفي هذه الحالة يكون الأمر تماماً مثلما هو الموقف عندما يبدو للحالم الآباء والأخوة والأخوات والأقربون، وإن أحلاماً كهذه تستحق دائماً تقريباً مزيداً من التحليل على أسس من [النظر إلى داخل الذات] inward - looking lines، وبذلك تتضح الإشارة في هذه الأحلام بأنها تمت بصلة مباشرة إلى مواقف تتعلق بحياة الحالم بعد أن تكون قد محصت تمحيصاً مستفيضاً. وهذا حلم آخر أسوقه هنا، رآه [مارتن] Martin، وهو زميل لزوجي الثاني، وكان يومذاك يقوم بتسويق أجهزة إلكترونية جديدة، رأى [مارتن] في حلمه ذاك أنه كان على وشك الذهاب إلى روسيا ليقوم بعرض الأجهزة وتجربتها هناك ورأى أنه كان يقوم بتهريب زوجي عبر الحدود في حقيبة ملابس ليتولى عرض تلك الأجهزة وتطبيقها وتشغيلها. وبينما كانا في طريقهما يجتازان حراس الكمارك، كان [مارتن] قد تحسس حركات داخل الحقيبة فانتبه إليها لئلا تثير شكوك حرس الحدود.

غالباً ما تستخدم الأحلام صوراً لشيء معين مخبأ داخل حقيبة أو صندوق لوصف جزء خفي من شخصية الحالم، وهو جزء كثيراً ما يكون خافياً أو مكبوتاً(١٢)، وفي هذا المثال المضروب هنا كان يبدو جلياً أن [مارتن] قد أحس أن هناك بداخله شيئاً خفياً يمور - وهذا الشيء المحسوس في داخله قد كان الرمز له زوجي من خلال ظهوره في حلم مارتن - وإن الشيء الذي كان يعتمل في داخله جعله يخاف في حلمه ذلك من أولئك الذين يمثلون السلطة [وهم في هذه الحالة يتمثلون في الحلم في

حـراس الحـدود والكمارك]، التي لا تسيغ تلك الأحاسيس. فهو كان يعتقد بأن زوجي شـخص يظهـر دائماً على شـاشـة التلفـاز ويظهر اسمه منشوراً في الصـحـافـة، ويسـمـع صـوته مجهـوراً به في الإذاعـة، وفي الوسـائل المقـروءة الأخـرى؛ هذا وإن ظني ينصرف إلى أن [مـارتن] كـان يشـعـر بأنه شخص لديه طاقـات كـامنة ولكن شركـتـه لم تكن تفـسح له المجـال لاسـتـخـدامها وتوظيـفـهـا والتـعـبير عنهـا. وكـانت نصيحتها لمارتن تتلخص في ألا يكتفي بإعـادة التـمـعن في دوره في الشركـة التي يعمل فيها فقط، بل عليه أيضاً أن يرجع إلى أحـلامـه الأخرى والبحث في ثناياها عن أدلة بها يهتدي إلى القوى المسـتترة الكامنة في شـخـصـيـتـه والتي حملتـه على أن يتـخذ لنفسه عملاً في الصناعـة مأمـوناً رتيباً، بدلاً من أن يتخذ له عملاً يتيح له التعبير عن مواهبه المعطلة.

الأشخاص البارزون في المجتمع
الشخصيات التاريخية، وأناس من الروايات

عـندمـا نحلم بأفـراد من البشر فإننا عن طريقـهـم نعـرف ونتـعـرف على الأشـخـاص البـارزين في المجـتـمع، كـالملوك والرؤساء ونجوم السينما، ومن الـواضـح فإن هؤلاء الأفـراد الذين نحلم بهم لا يمـثلون عـادة أنفـسـهـم في الأحـلام أبداً؛ والأمـر كما يعـرضـه [هول] ويثـبـتـه، هو أن الأحلام وثائق شـخـصـية، وهي لا تقتصر على اتجاهنا نحو الشؤون العامة في الحياة فقط. وينطبق الشيء ذاته على أشـخـاص الروايات أو الشخصيات التاريخية. وإن جميع الأشـخـاص من هذا النوع يجب تمحـيـصـهـم والتحقق منهم عن طريق الاقترانات والارتبـاطات للتأكـد من أنهم قـد كـشف عنهم الحلم [ليـبـعـدوا شـيئاً مـا] عن أناس حـقـيقيين موجودين في حياة الحالم؛ أو لتعكس مواقف تتـعلق بأصـول وقـواعد، أو مؤسسات أو دساتير حياة تهم الحالم [كما ورد في

الحلم الخاص بالقانون]، أو هي قد تكون أحلاماً تكشف جوانب مستخفية من شخصية الحالم نفسه. والمبدأ العام في التفسير هو نفس المبدأ الخاص بشخصيات الآباء، والأخوة، والأصدقاء، أو الزملاء، فهي، إذن، شخصيات ترمز إلى أشياء أخرى تتجاوز حدودها؛ ويجدر دائماً أن يوجه السؤال إلى الحالم: لماذا هو اختار هذا الرمز دون سواه. ولعل السؤال الذي يجب أن يوجه والجواب عليه يكمنان في الاسم، أو لعل الأمر يتعلق بها في حياة الحالم الماضية من اقترانات، أو لعل المسألة ترتبط بخصيصة أو صفة بارزة ماثلة في ذهن الحالم، عن صفة يتحلى بها ويتميز الشخص الذي يظهر في الحلم ويتراءى للحالم.

عندما تمت المصالحة بيني وبين زوجي، بعد أن أوشك زواجنا على الانهيار، حلم زوجي بأنه كان ينظر شاخصاً ببصره عبر أرض قاحلة مهجورة، وعليها مشيدة كنيسة من طراز حديث. كانت مبنية من الطابوق الرمادي اللون المصنوع من الخرسانة والكونكريت الكارب للنفس، ذلك لأنه يحب الألوان الذهبية والألوان الزاهية للكنائس والكتدرائيات، ولا يميل إلى الألوان القاتمة. وقرأ هناك لافتة كانت معلقة على واجهة الكنيسة تلك تقول: [شيدتها السيدة آرمسترونك ـ جونز السابقة: أي زوجة آرمسترونك]، وقد أحس بشيء من الاشمئزاز بعد أن قرأ مضمون اللافتة تلك لأنه فسر الملاحظة ومعناها بأن تلك السيدة شيدت الكنيسة لا لتمجيد الله وإنما شيدتها لتمجيد نفسها.

فهو ليست لديه اقترانات أو أية ترابطات تتعلق بوالدة زوج الأميرة مرغريت، لكنه ألمح إلى أن مرضاه [فهو نفسه خبير بأمراض العظام واعتلالها] غالباً ما كانوا يطرون قوة يديه الجميلتين ويثنون عليهما، لذلك فلو كان هو نفسه [آرمسترونك ـ جونز] فمن الواضح أن أكون أنا زوجته. وفي اختيار زوجة آرمسترونك جونز لترمز لي في الحلم، يكون عقله قد تصرف بطريقة نظيفة في التعبير عن حقيقة رآني فيها زوجة سابقة، وإن كنا

قد سوينا المسألة فيما بيننا. أما الكنيسة المبنية من الخرسانة الكاتمة للنفس فإنه قرنها بعلم النفس الذي اتخذته مهنة لي، إذ كان يرى أنه علم جاف وكئيب، ففي الأيام المبكرة من زواجنا كنا قد انغمرنا في شيء كثير من النشاطات الدينية وخضعنا خلالها إلى طقوس شتى، وكانت نشاطات وفعاليات حافلة بالألوان، والرموز، والتمثيليات، وإن حلمه ذاك قد حدد بوضوح تام إحساسه وأبرز مشاعره حول الكيفية التي أبدلت أنا فيها كل تلك الطقوس القديمة بدين حديث جديد، يقوم على سيكولوجية أكاديمية.

وعندما بحثت هذا الأمر معه، اعترفت له بأنني كنت أرمي إلى الاستخفاف بالأيام الأولى من تفكيرنا وأنني أكثر من مرة كنت قد استخدمت معرفتي السيكولوجية لطمس ما كنت أعتبره أمراً عابراً وشيئاً سطحياً من فلسفة آرائه العفوية وإني لأعتقد بأن هذا العامل قد أسهم بشيء غير قليل في إقترافنا، وإن الحلم كان يعبر عن الطريقة الألمعية لدى زوجي مكنته من أن يطلعني على جلية الواقع(١٣). ولقد طردنا من ساحة تفكيرنا فكرة الزوجة السابقة الواردة في الحلم بوصفها من مخلفات الماضي فبقيت عالقة في الأذهان، لكن الحلم نفسه يمكن أن يعد من النوع الاستباقي ذلك لأنني قد أصبحت فعلاً [السيدة آرمسترونك ـ جونز(١٣) السابقة] بعد سنوات قلائل.

وحلم آخر يصف معلماً [بفتح الميم وسكون العين] من المعالم العامة الشاخصة يمثل هذه المرة إحدى المؤسسات وليس شخصاً معيناً، روى الحلم لنا [جيريمي] jeremy، أحد أفراد فريق الدراسة؛ وقد رأى فيه كأنه كان يراقب عرضاً عسكرياً يتقدمه [دوق نورفولك] Duke of Norflk، والعرض يسير في شارع [مول] Mall؛ كان يبدو وكأن الجو جو حرب، لأن المدافع كانت تطلق، وصوت انفجارات مدوية كان يسمع في كل مكان، جعل صديقة [جريمي]، وكانت واقفة إلى جانبه، تكيف من

الاستخفاف بكل ما كانت تنطوي عليه المناسبة وقالت ما أسخف كل هذا. وعلى حين غرة انطلقت طلقةـخر على أثرها ميتاً جندي شاب كان في ذلك الموكب. فقال جيرمي معلقاً: [إذا كان هو رجلاً(١٤) حقاً فليرجع إليه ليحمله فلا يتركه ملقى هناك] وبالفعل فإن [الدوق] قد عاد إلى الجندي المنجعف واحتمله بين يديه، ثم واصل قيادة ذلك الاستعراض وكأن شيئاً لم يحدث.

كان [جيريمي] هذا لتوه قد تمت خطوبته على فتاة صديقة له، متحررة من الأعراف أكثر مما ينبغي، ومتحللة من القيود التي تجدر معها مراعاة الأذواق، بل هي من [الهيبي]، وقد طلبت منه أن ينهي عمله في الخدمة المدنية وأن يقوم معها برحلة استمتاع. وكانت شديدة الازدراء بكونه عضواً في كنيسة انكلترا، إذ اعتبرت عضويته هذه في منتهى ضروب الرتابة والملل. وإن [جريمي]، وإن كان في يقينه حذراً من تحررها المفرط ذاك، فإن جزءاً منه ومن تكوينه كان في واقع الأمر منحازاً إلى ذلك الانطلاق منها. إذ ذكر بأن [دوق نورفولك] يعني بالنسبة إليه ترسيخاً للتقاليد، فهو يعرف أن الدوق من طائفة الرومان الكاثوليك، وإنه ـ الدوق ـ أحد المنتمين إلى أشهر أندية [الكركت Cricket]، وإنه هو المنظم لاحتفالات التتويج. كانت دلالة هذا الحلم إلى [جريمي] دلالة واضحة لا ريب. إذ أنه كان يشعر في قرارة نفسه بأن ميوله الراسخة الخاصة بالمؤسسات المجتمعية المحترمة، قد أضحت معرضة لانتقادات لاذعة؛ وإنه قد أحس كذلك بأن مشاعره الحالية كانت متأرجحه ولم تعد ثابتة كما كانت من قبل. فهو في الوقت الذي كان يرى فيه المؤسسة على جانب من الكرامة والرصانة والشجاعة، فإنه في الوقت ذاته كان يعترف في قرارة نفسه بأنها جامدة وأنها مستعدة أن تضحي بحياة أولئك الذين خدموها، إنها تضحي بهم، حسب رأيه، باسم النظام الشعائري.

كان فرويد قد جادل بأن الشخصيات الملكية في الأحلام دائماً تقريباً

يرمزون إلى والدي الحالم، أو إخوانه، ولكني لا أرى في هذا الرأي ما يدعوني إلى أن أتبنى ما كان قد تبناه وذهب إليه في اعتباره رموزاً كهذه مجرد تعبير عن رغبات متصارعة متعارضة، لها جذور ضاربة في الطفولة ومتأصلة فيها هناك إذا كانت علاقتنا، بطبيعة الحال، بآبائنا أو أخوتنا علاقة حميمة ومباشرة وتظهر لنا في الحلم شخصية ملكية مناسبة، فمن المرجح أن يكون الحلم معبراً عن شيء يكمن في تلك العلاقة بالذات ـ فأمي، مثلاً، كانت تحاول أن تملي علي ما هو خلاف طبيعتي وتلزمني بما يخالف حياتي. وإذا لم تكن ثمة علاقة مباشرة تذكر بين الحالم وأبويه أو إخوته وقت حدوث الحلم، وإذا لم يكن هناك أي شخص أو أي موقف يشير الحلم إليه [كما في حالة دوق نورفولك] في حلم [جيريمي]. فمن المفضل التحري عن معنى الشخصية الملكية في ذلك الحلم، في بعض جوانب شخصية الحالم الذي يرغب [أو ترغب] في أن يكون هو تلك الشخصية الملكية.

بعد أن أنهى زوجي الأول دراساته المهنية وبدأنا تدريجياً نندمج في الحياة الاجتماعية المرموقة، حلمت وكأنني في حفلة مع الأميرة [آن] Anne، ومما أفزعني وأخافني هو أنني وجدت نفسي أدخل معها في حديث يتناول السياسة، والدين، والجنس، وهي موضوعات ثلاثة أعرف أنها محرم الخوض فيها في المناسبات الرسمية كهذه المناسبة. وقد ظهر عليها الارتياح من حديثنا ذاك، لكن المرأة الواقفة إلى جانبها والتي ظننتها وصيفتها، بدا عليها ما يشبه الصدمة وندت عنها أصوات استنكار. فالحلم في هذه الحالة قد عبر عما في داخلي من صراع وتناقض بين كوني كابنة لأمي ـ أي أن أكون الفتاة المدربة، الطيبة الصالحة، الرصينة، الملوكية الممثلة بالأميرة [آن]، وبين ذاتي المنطلقة التي تستمتع بمقابلة ومجاملة الناس المتعضين المزعجين. إن حلماً من هذا النوع خليق بأن يتيح مزيداً من التعرف على حقائق نافعة إذاما تم تحليله على أساس [النظر إلى داخل] النفس، وفي

الفصل القادم سأتناول بشيء من الإسهاب مسألة [ملوكيتي الداخلية] in-ternal royalty.

ون مبادىء التفسير هي نفسها تنطبق تماماً على الشخصيات التاريخية والخيالية التي ترد في الأحلام فحينما يظهر هؤلاء في أحلامنا علينا أن نسأل أنفسنا عما إذا كانت تلك الشخصيات تشير إلى شخص معروف لدينا في حياتنا العامة، أو أنها تؤشر إلى مؤسسة، أو أنها تعبير عن جزء من تكويننا نحن. ففي أحد الأحلام، مثلاً، رأيتني فيه وكأنني كنت أشاهد مسرحية [هاملت]، وقد تم الإعلان أثناء ذلك أن الفتاة التي كانت تقوم بدور [أوفيليا] قد نقلت مريضة إذ سقطت على حين غرة. وقد طلبوا إن كان بوسع واحدة من بين المشاهدين من يمكن أن تحل محلها لتؤدي دورها. وقد بادرت فعرضت خدماتي نظراً إلى أنني حسبت أن ذلك الدور كان دوراً صغيراً لا يستنزف مني جهداً كبيراً. وبينما كنت واقفة في أجنحة المسرح بانتظار دوري، أدركت أنني لا أعرف سطراً واحداً مما كان يجب أن أقوله، فوليت هاربة مذعورة.

كان ذلك الحلم قد حدث في الوقت الذي تركت فيه عملي لأكرس نفسي تماماً لشؤون البيت والأسرة، فأوضح بجلاء لا لبس فيه أنني كنت أشعر بأنه دور لم أكن قط قادرة على القيام به. إذ لم أعرف كيف ألعب دور [المرأة الصغيرة] الناشئة المعرضة باستمرار إلى الضعف والانهيارات العصبية، ولذا فإن الحلم كان استباقياً إذ أوضح أنني فعلاً قد تخليت في النهاية عن الدور على مضض(١٤)، وحيثما حدثت لنا أحلام من هذا النوع أو تحدث، أو عند حدوث ما يماثلها، كنسيان أسطر ونحن على المسرح يمكننا أن نتيقن بأنه يوجد في حياتنا الحاضرة دور لا نقدر على الاضطلاع به أو أننا لا نرغب في أدائه.

الغرباء في الليل [خلال الأحلام]

من الواضح أن الأشخاص الغرباء أو المجهولين يعبرون في الأحلام عن رمز له مغزاه، إذا كانوا يلعبون دوراً معنوياً في جزء من أجزاء الحلم، وأن معنى دورهم هذا يجب أن يتم اكتشافه بنفس الطريقة التي تكتشف بها معاني أشخاص الأحلام التي تم وصفها في فقرات سابقة من الفصل هذا. إذ أن الأشخاص الذين يتراؤون في الحلم يمكن أن يمثلوا أشخاصاً حقيقيين، أو لعلهم يرمزون إلى مواقف محدودة، أو قد يدلون على مؤسسات لها مدلولها، بل لعلهم يمثلون جزءاً من ذات الحالم نفسه، وأن التفسير في هذه الحالات ليتوقف على ما تعبر عن نوعية الشخص الذي يبدو في الحلم أو اسمه.

عندما التقيت أول مرة بزوجي الثاني كان مقدماً معروفاً على نطاق واسع لبرنامج ديني خاص من وجهة نظر العلم الحديث في كل من المذياع والتلفاز. واعتقاده الأساسي يقوم على أساس الإيمان بقوة الحب الألهي، وكان يفسر مبدأ doctrine الثالوث trinity، على أنه إلهام revelation ينطوي على جوانب المحبة الثلاثة المتضمنة لكل هذه المعاني السامية ـ وإن جوانب المحبة الثلاثة هذه يشع نورها على علاقة الأخذ والعطاء المتبادل بين المحب والمحبوب ومن ثم إشعاع هذه المحبة وتدفق أقباسها على الآخرين. وخلال فترة وجيزة، وبعد أن بدأت علاقات صداقتنا تتوطد، حلمت حلماً رأيتني فيه أنني وشخصاً غريباً علي، اسمه [كرستيان] Christian، يضمنا فراش واحد، ومعنا زميلة لي سابقة اسمها الآنسة [لوك] Locke. جعل كرستيان يداعبني وفجأة توقف عن ذلك وهو يقول: [اسمحي لي، الأفضل أن أداعب الآنسة لوك لأنها ستتزوج بعد أسبوعين]. فتقبلت هذا القول وأنا في الحلم على أساس أنه إذا كانت الآنسة لوك ستتزوج بعد أسبوعين في الواقع، فإنني سأكسب في هذه الحالة سمة الشهامة والإيثار. أسفت وأنا في حلمي ذاك أنه لم يظهر أية دلائل تشير إلى عودته إلي

فاستيقظت في حالة ابتئاس واكتئاب.

احتوى الحلم المذكور نوعين من أناس انعكسوا على صفحات المرآة العاكسة. فالآنسة [لوك] كانت شخصية حقيقية وقد تزوجت فعلاً في غضون أسبوعين، ولكن لم تكن لي أية علاقة خاصة تربطني بها، إنها كانت مجرد زميلة لا غير وليس أكثر. وعندما رحت أقرن باسمها ما يتداعى لي، تذكرت، على أية حال، فتى سويسرياً عرفته منذ سنوات كثيرة خلت، كان في زورقه في بحيرة [لوسرين] السويسرية، وقد ندت عنه آنذاك عبارة قالها وهو متجهم، إن النساء يشبهن بعضهن وهن في الفراش سواء. فمن الواضح، إذن، أن الآنسة لوك كانت بالنسبة لي تمثل النساء، فهي إذن ضمن سياق جنسي خاص. وبالربط بين [كريستيان] وبين ما يتوارد على ذهني فإنني كنت منقادة إلى الجانب الديني (١٥) وتوجهات صديقي الجديد، فالحلم إذن قد كشف عن شكوك خفية كانت تساورني بشأن الدفق الفياض الصادر على الثالوث في لاهوته وربما يعني اندفاعه نحو نساء أخريات.

والحالمون لا يواجهون صعوبة تذكر في التعرف على الهوية التي تتقمصها شخصيات الغرباء الذين يظهرون في الأحلام إذا ما كانت تلك الشخصيات ترمز إلى أناس حقيقيين. فزميلتي التي حلمت بشخص مكبّل في سلسلة [ورد ذلك في الفصل السابع] قد عرفت على التو أنه يمثل زوجها، وأن (سالي) التي ورد اسمها في (الفصل الثاني) لم تواجه صعوبة في تشخيص ذلك الملك الشرقي بأنه زوجها وذلك حالما أدركت أن الزوجة الكبيرة في قصره، إنما تمثل جانباً من نفسها هي [نفس سالي]. وبالطريقة عينها، فإن الأغراب الذين يظهرون في الأحلام يمكن في الغالب الربط بينهم وبين الآباء والأخوة والأخوات، وهؤلاء جميعاً قد أصبحوا جزءاً من ذواتنا عن طريق تبطننا إيّاهم وتشربنا لهم ولسجاياهم. فـ[بيتر] مثلاً، وهو أحد أفراد الفريق، كان قد رأى حلماً رواه لنا إذ يقول:

كنت عائداً في باخرة من أمريكا وكان فيها معي مسافران لم التفت باديء الأمر إلى وجودهما إلا التفاتاً عابراً يكتنفه شيء من الإبهام. كان أحد الشخصين يبدو أنيقاً ذا وقار، والآخر هندي، كما يبدو من مظهره ومن زيه، ويعتمر(١٦) بعمامة، وكان ذلك السيد الأنيق يعمل لحساب شركة تتعاطى تجارة الشاي. وكان يظن أن ذلك الهندي منافساً له وأنه يتابعه بقصد تسقط أخباره، وإن كنت أنا أحس بأن لا حقيقة هناك وراء ظنه هذا. ولما خرجنا من الباخرة وكنا مصطفين ينتظر كل منا دوره لغرض استئجار سيارة أجرة، فما كان من ذلك الرجل إلا أن استخرج سكيناً جرح بها ذراعي الهندي، ثم قفز إلى داخل سيارة أجرة وتوارى عن الأنظار. من ناحيتي كان انطباعي بأن هذه الضربة من جانب ذلك الرجل كانت ضربة قاسية لا رحمة فيها، كأن الغرض منها كان للحيلولة دون ملاحقة ذلك الهندي له. أصابني الفزع والرعب مما رأيت، وأن الهندي، وإن لم يكن تماماً في وضع سيء، غير أنه كان منذهلاً من العمل وكان محتاراً كيف سيحمل حقائبه فيما بعد وماذا سيفعل مستقبلاً. فتابعت ذلك الرجل بعين العقل وسألته لم هو فعل فعلته تلك مع انعدام البرهان لديه بأن ذلك الهندي كان يقوم بملاحقته. فكان جوابه: في هذا العالم التجاري المتكالب لا يوجد وقت للتردد ولا حتى لتبرير وتفسير الشكوك. والسبيل الوحيد للبقاء هو أن نتخذ عملاً سريعاً لا شفقة فيه.

لم يكن بمقدور [بيتر] آنئذ أن يربط بين الهندي أو ذلك الرجل وبين أي واحد آخر يعرفه في سياق حياته الحقيقية. وأدنى ما استطاع تقريبه من ذهنه هو إحساسه بأن الهندي ذاك بدا له أشبه موقفاً بوالده الذي كان قد عانى ما عانى في مجرى حياته المديدة، والذي كان قد توفي منذ سنوات خلت. وذكر أبن والده كان يمقت أصحاب رؤوس الأموال وبخاصة أولئك الذين يستثمرون أموالهم داخل المدن. وأضاف بيتّر أنه كان يشعر بذنب دائم حول اعترافه لوالده بأنه هو نفسه يمتلك قليلاً من الأسهم، وإن هذا قد

ذكـره بأنه في اليـوم السـابق للحلم كـان قـد باع بعض تلك الأسهم ليجمع أموالاً كان بمسيس الحاجة إليه من أجل قضاء عطلة في الخارج.

وواضح من هذا أن الرجل الأنيق ذاك كـان يمثل الجانب المندفع الطموح من ذات [بيتر] نفسـه. وهذا الجـانب منه كان دائماً يحس بأنه مطارد ومهدد من قـبل شـخـصـيـة أبيـه التي سبق لبيتر أن تبطنها. وهذا قد عززته حقيقة كـون كـلا الشـخـصين كان مرافقاً لبيتر في حلمه وهو في رحلته البحرية من أمـريكا، أرض الرخـاء. أوضح الحلم، حـينما شبه والد بيتر بالهندي، أنه لم يكن ذلك الرجل العـجـوز الذي كـان دائماً يناكـد والده بيتر ويناكـفه ذلك [لأنه قـبل وفـاته بعـدة سنين لم يكن فـقيراً مـعـوزاً حـقـاً]، ولكنه كان دائم الوعظ والتـذكير حـول سـوء تصرف أي واحـد يسـمح لنفـسه بالانغماس في اللذاذات في حين أن هناك مـلايين من الناس في الهند يموتون جوعاً.

وبقطع اليـدين ربط بيتر مـا كـان قد تذكره من مد اليدين للاستجداء في بعض المدن الشرقـيـة، وتذكـر كـذلك حـقـيـقـة قطع اليـدين قديماً كعقاب للسرقـة. لذلك فإن الحلم قد أماط اللثام عن بيتر السمح الهاديء في ظاهره كـان في حـقـيـقة أمره يختبيء تحت إهابه انفصاماً خطيراً في الشخصية، فهو عندمـا يجمع أي مـبلغ من المال أو حينما ينفق شيئاً منه على نفسه، فإنه كان يحس بشـعـور من الذنب فظيع، وكـان يتـعامل وإياه بالانسحاب(١٧) الذاتي والانكماش على نفـسـه واتخاذ موقف متطرف مع الذات يماثل موقف صاحب رأس المال الفظ الذي يغـضـب فـيـقطع الإعـانات رغم التـوسـلات، فـينهي بذاك المسـاعـدة عـمن يحتاجها، وقد تصور بيتر أن قطع المساعدة هذه أشبه بالسرقة.

هذا النوع من الانفـصـام الداخلي في الشـخـصية أصبح شائعاً ومتفشياً في مجتـمـعنا الحالي الذي أضحى فيه كثير من الناس أفضل حالاً من آبائهم من الناحية المالية. فكان إحساسهم الشخصي بالذنب قد تعزز، ذلك لأنهم إبان طفـولتـهم كـانوا يتشبعون، كما هي حال بيتر، بالتعاليم المسيحية التي تحثهم

دائماً على التضحية، وعلى تشرب الفضيلة لتعينهم على محاربة ما كانوا يواجهون من فاقة، وشجب العكوف على الاهتمام بالذات وحدها باعتبار هذا الاتجاه مما يغرس في النفس الأنانية الخبيثة. إن مثل هذه الانفصامات الداخلية لدى الأفراد يمكن أن تدمر حيواتهم وتحطمهم، وأجسم الخطر في هذا كله يكمن في أنهم قد يستمرون سنوات طوالاً يسلكون خلالها سلوكاً يظهرون فيه أنهم لطفاء، كرماء، ذوو سجايا طيبة، وشهامة إيثارية، فإذا بهم فجأة ينقلبون أشحاء، قساة، مناعين لكل عطاء، فيكون تصرفهم هذا أكثر إيذاء لمن هم حواليهم، إذ يكون تصرفاً خالياً من الشفقة الإنسانية، بعيداً عما يجب أن يكون عليه التعقل والعقلانية، وبمنأى عن الحد الوسط المقبول المعقول.

أما ظهور الأطفال المجهولين في الأحلام، فإنهم يمثلون فيها الأجزاء غير النامية من ذواتنا، أو أنهم قد يرمزون إلى تلك الأقسام من أنفسنا التي بقيت ملتصقة بالتناقضات والصراعات المتجذرة في الطفولة، لكنهم أيضاً يمكن أن يمثلوا جوانب من مواقف محددة في حياتنا برمتها، حيث يتراءى لنا أن حالة معينة جديدة من الحياة تبدو وكأنها شيء قد اكتمل نموه. ففي حلمي [مر وصفه في الفصل السادس] الخاص بولادة طفل وتسليمه إلى السيد المتعبد، وقد فسرت أحداثه بأنه يشير إلى حالة جديدة من الزواج أوكلت الأمر فيه إلى الله المعبود وفوضته إليه. وإن حالة أخرى كاملة الوضوح عن الرمزية في الحلم قد حصلت لزوجي الثاني مباشرة بعد لقيانا وتعارفنا، عندما عقدنا العزم وقررنا أن الأساس الوحيد المعقول لعلاقة حميمة بين الزوجين هو الصدق والأمانة والإخلاص والتفاهم والصراحة، والتفاعل في مشاعرنا نحو بعضنا، والتشارك في آمالنا، وفي هواجسنا، ومخاوفنا، وحاجاتنا، وغير ذلك، بدلاً من اللجوء إلى الانغمار في لعبة التحايل والتمثيل على بعضنا. فقد حلم زوجي بأن زوجة أبيه قدمت له طفلاً مولوداً حديثاً لكن جمجمة رأسه العليا [القحف الأعلى] كانت

مـقطوعـة بحـيث أن مخ الدماغ كان ظاهراً تماماً، مما أفزعه فسأل زوجة أبيه لماذا سـمـحت له أن يولد هكذا، وأي نوع من الحـياة سيحياها المولود ذاك.
فأجـابته بلهجة المرأة الريفية الحصيفة تقول: [ستكون له حياة طيبة كحياتك أنت]، فاستيقظ من نومه مطمئناً طيب الخاطر.

فأدرك أن الحلم إنما هو تعـبير عن حـالة التـحدي والترقب التي أحس بها إزاء مـسـتـقـبل ينتظره يتـعلق بحياة جديدة متغيرة تغيراً جذرياً وليست هناك وراءها دفـاعـات مـضـمـونة مـؤكـدة. وإنه ـ زوج الكاتبـة ـ قـد عـزا ذلك بخـاصـة إلى مـا كـان يحسـه من تحـد وترقب وتوجس حـيـال انفـتاحه على مـوضوع جديد من المعتقدات الدينية موضحاً بذلك إلى الناس ما يعتقده هو في الـواقـع، بـدلاً من ترك المشـاهدين يفكرون مع أنفـسـهم بأن مناقـشـاته العلمـيـة هي التي تفسر مـا يعـتـقـدونه حـقاً وما ينبغي أن يعتقدوا به. وإن الحلم هذا، كـان على نحـو مـا وبصورة من الصور، حلماً استباقياً، إذ أن [الطفل الوليد](١٨) الذي رآه في منامـه مـا زال حـياً، وينعم بالخير، مستمتعاً بالحياة الرافهة، مثلما أنبأته في الحلم زوجة أبيه تماماً.

الحيوانات والحشرات وسائر المخلوقات
كما تبدو في المرآة العاكسة [الأحلام]

لمحت (أليس) Alice، بشيء من العـصـبـية، وهي تمر في البهو الكبير، لمحت عبر المائدة ضـيـوفـاً يربو عـددهم على الخـمـسين، ضـيـوفاً من جميع الأنواع، بعـضـهـم من حشرات، وبعـضـهـم من صنف الطير، بل لقد كانت بينهم أزاهير قليلة تتـحلق حـول المائدة تلك. فـحـدثت نفـسها تقول: [إني سـعـيـدة أنهم قـد قدموا بغير انتظار منهم حتى توجه إليهم الدعوة. وإلاّ لما عـرفت من أحق الناس منهم بالدعوة لأدعوهم]

إن مـوقـفنا يجب ألا يكون كـمـوقف [إليس]، إذ ينبغي أن نتحمل كامل المسـؤوليـة إزاء المخلوقـات التي تتداعى في أحلامنا. فهي في العادة رمزية في

طبيـعـتـها، ولكن يمكن أن تكون ذات معنى مباشر إذا ما كنا مهتمين عن كـشب بحيـوان حـقـيـقي بعـينه إبان الحـياة الواعية. فصديقة لي، مثلاً، قد حلمت بأن كلبـهـا قـد قـتل في طرف حـديقة لهم عند الشارع العام المزدحم بالسـابلة والمرور، وكـانت قـد رأت هذا الحلم بأسـبـوع واحـد قـبل أن يلقى كلبـهـا ذاك مصرعـه تحت عـجـلات عربة مرت هناك. فالحلم هنا قد أشار بوضـوح إلى قلق صديقتي حول احتمال موت كلبها وإنه لحلم يمكن تصنيفه بأنه [حلم تحذيري].

وقـد ذكـرت إحـدى عـضـوات فـريـق دراسـتـي وبحـثي عن الأحـلام، نمـوذجـاً عن حلم يتـسم بالوضوح التام يتلخص في أنها كانت تتصيد جسم كلبـها الميت في النهر، وليس ثمة أدنى شك في أن الحلم هنا كان يشير فعلاً إلى كلبـهـا الحـقـيـقي وليس سواه. ذلك لأنها كانت ترى في كلبها ذاك عبئاً عليـها تفكر في قرارة نفسها في التخلص منه لكنها لم تشأ القضاء عليه لتعلق ابـنـهـا بـه. فكشف الحلم عن رغبـة مخلصـة صريحة في أن يلقى مصرعـه، وكـانت تتمنى لو أنه نفق(١٩) في حـادث فـتكون بذلك قد أعفت نفسها من مـسـؤوليـة موته على يديها. إن أحلاماً واقعية كهذه على الحيوانات قلما مرت بي في خبرتي، على أنها من المرجح أن تحـدث عندمـا يكون الحـيوان في وضع من نفس الحـالم بحـيث يلعب دوراً مـباشراً في حياة صاحب الحلم كما يلعب الدور هذا، الزوج أو الطفل.

ان مـعظم الحـيـوانات التي تظهـر في الاحلام هي رمزية، وانها، شأنها في هذا شأن الحـيـوانات والحشرات التي تتراءى في مـرآة (اليس) العـاكسة، تمر في الغالب بتحولات Transformations غـريـبـة. (يـمـكـن ان يكون المخلوق هذا اي شيء سـوى النحلة الاعـتـيـادية. ها أنني قد تبينت الحقيقة الآن: انـه فـيـل)، هـكـذا عبرت اليس عندمـا كـانت تراقب تلك المخلوقـة تنتـقل بين الأزهار. وحلم آخر روته (روث) Ruth ، احدى اعضاء فريق الدراسـة، رأت فـيـه أنه كـانت هــنـاك فـرس الـبـحـر (أو فرس الـنهر

(Hippopotamus كـانت تطاردها في بيتها، تطاردها في جميع انحاء البيت متـسـبـبـة في سحق الأشياء محدثة بذلك دماراً كبيراً. فأدركت بغتة ان فرس البـحر هذه كانت تبتغي طعاما، فراحت تطعمها خبزاً حتى نفد كل ما كان عندها في البـيت منَ الخـبـز، فما كـان منهـا (روث) الا ان سـارعت خـارجة لتـبـتـاع مـزيدا من الخبز لاطعام الفرس تلك، وهكذا استمرت في اطعامها وهي في حلمـهـا ذاك. وفي النهـاية غـادرت تلك الفرس البيت خارجة منه، لكن (روث) ظنت انها سـتـعـاود الكرة في المجيء عندمـا تجوع ثانية، وفعلا فقد عادت فرس النهر تلك ثانية، ولما نفد ما تبقى من الخبز تحولت الى نمر راح يلاحـقها بشراسة يريد افتراسها.

وبالربط بين مـا رأته في حلمـهـا وبين فـرس النهـر، قـالت ان اطعـامها لفـرس النهر يذكرها بزوجها الذي كان دائما يبدو لها نهما جائعا. فحيثما كانا يذهبـان مـعـا وقدم لهما اصدقاؤهما طعاما فانه دوما يقبل عليه أكلا حتى وان كـان لتـوه قـد التـهـم كمية كبيرة منه في البيت. وقد أدركت (روث) ان ذلك لم يكن جـوعا طبيعيا فادخل في روعها انه لا بد ان يكون نوعا من التعويض الترويحي يتـخـفـف به من بعض النوازع النفـسـيـة الدفـينة لديه. لقد وصف الحلم زوجـهـا بأنه فـرس نهر شراهتـه لا حـدود لها، مع اضافة اخرى مخيفة هي ان هذا المخلوق فـرس النهـر ـ يمكن ان يتحول الى نمر يفترس الانسان اذا مـا نفـد الطعـام. فسرت (روث) هذا الحلم بأنه تحـذير لها عما هو كـامن هناك في طبـيـعـة زوجـهـا من مـعـالم خفية خبيثة يمكن ان تتجسم فتدمرها وتنهيها ان هي فشلت في اشباع حاجاته العصابية.

وان عـضـوة اخـرى من أعـضاء الفريق، وأسمها سونيا، قد حلمت بأنها كـانت مـضطجـعـة في فراشها ورأت راقدا الى جانبها في نفس الفراش كلب اسـود كـبير وأرادت ان تربت على ظهـره وان تمسـده للتـدليل على مـودتها له واشـارة منهـا على عـاطفـتـهـا نحـوه، لكنها أدركت انه عليها الا تفعل لئلا توقظه. غير أنها لم تستطع مـقـاومـة رغـبـتـهـا، ونتيجة لذلك فقد استيقظ،

فعض ركبتها بين أنيابه ، وجعل يأكلها . وبربط ما تداعى على ذهنها بالكلب، قالت ان صديقها كان بين الحين والآخر يشعر بالابتئاس لأنها كانت معتادة على تربيته على رأسه مثلما تصنع مع (كلب وديع) ، وكانت تفعل ذلك كلما أتى عملا يدخل على نفسها البهجة والسرور. وكان يقول لها انه وجد تلك الحركات منها تشوه مكانته وتحط من قدره. ان حلم سونيا هذا قد كشف بوضوح عن خوف على مستوى شبه الشعور عندها، خوف من ان صديقها الفتى ذاك لم يكن سلس القياد كما كانت تظن ولعله في يوم سيثأر لذاته على نحو ما مما قد يضر بها ويؤذيها.

عندما يظهر بعض الأفراد في الأحلام بهيأة حيوانات، فان هذا يحصل لأن عقل الحالم يشعر عادة بشيء ما نحو ذلك الشخص الذي تمثله على نحو مناسب صفة ذلك الحيوان الذي يبدو في الحلم. وعلى هذا فان الحلم قد ينبئنا بأن شخصا معينا قد ظهر في الحلم وكأنه كلب أو كلبة، أو كليب (كلب الحضن)، او كلب الزاسي. وقد يظهر بهيأة شاة (وكنت قد ظهرت في التحليل ببعض الأحلام بأنني حمل Lamb يتم اقتيادي الى المجزرة) ، وقد يظهر شخص آخر وكأنه أفعى بين الأدغال، وقد يبرز وكأنه جرذ أو فأر، أو قد يكون بهيأة قرد، أو أسد. وفي جميع الأحوال، على أية حال، فمن الأهمية بمكان ان نتبين ما اذا كان الحلم ينطوي على ما يصاحبه من (نظرة خارجية) Outward - Looking ؛ أي ما اذا كان الحلم يمثل استكشافا دقيقا لبعض الشخص الذي كان قد شاهده فعلا عقل الشخص الحالم - أو عما اذا كان ذلك الحلم يعبر تعبيرا كاملا عن المشاعر الذاتية للشخص الحالم.

إن تبطن شخصيات الآباء أو الأقرباء يمكن أيضاً أن تظهر احيانا في الأحلام بصورة حيوانات. وأول حلم رأيته كان عندما بدأت اجراء بعض التجارب على نفسي (فكنت اوقظ نفسي على فترات متعددة بواسطة ساعة منبهة) وكان ذلك الحلم قد نقلني سنوات الى الوراء، الى أيام طفولتي

الأولى يـوم كنت أدرج في رحـاب المنزل، وفـيـه رأيت أسـدا يتـمطى أو نائما في الجـزء الـتـحـتـاني الأسـفل من البـيت. ورأيتني في حلمي ذاك أنني كنت أحـيـانـا أزعج ذلك الوحش واسـتـثيره، فكان يهتـاج ويأخـذ يجوس خـلال البـيت ويطوف فيه. رحت من ناحيتي اخاطب عبر الهاتف حديقة الحيوان ـ والرقم الذي اسـتـخـدمـتـه كـان (ح ٧٠٠٠) ، هذا هو كان الرقم في ذلك الحـلـم ـ لـكـنـنـي بـدلا من أن أطلب منهم المجيء الى البـيت والامـسـاك بالأسـد، وجدت نفسي أسأل عن اسم ذلك الحيوان.

وبربط ذكـرياتي بالحلم، تذكـرت أن أخي كـان من الناحـيـة الفلكية من برج الأسـد، وقـد فسرت الحلم بأنني كنت قـد تبطنت برج أخي في الحـياة وكـان سـاكنا في داخلي وهاجـعا فتمثل لي في منامي ورؤياي في صورة أسد. وكـان شـعوري هذا قد تعزز وأنه لم يكن حلما من غير أسس ينهض عليها، اذ تبين لي في غـضـون الأسابيع التالية حيث تراءى لي أخي، ويا لدهشتي، في مـشـاهد من أحـلامي يظهـر في سـياقات جنسية معينة مع مبلغ اطلاعي والمامي بنظرية فـرويد وتمثل الحـيـوانات في أغلب الأحـوال الدوافع الجنسـية بصـورة مـبـاشرة، وان اخـتيارنا في الحلم لحيوان معين يشير الى ما هو مكنون فـينا وكيف نتملى تلك الدوافع. لذا فان اختياري للأسد انما يمثل ضربا من ضروب التكثيف Condensation الصريح الواضح. فـقد أظهر لي الحلم انه منذ ابان طفـولتي كنت أحس بأن هناك من الناحـيـة الجنسية فوارق تقوم بـيني وبين أخي وأن تلك الفـوارق كـانت ترتقي أحـيـانا الى حـد المحـاذير الفـعـالة ـ وأنه لهذا السـبب بالذات فـقد طويت جوانحي على ذلك الوحش وأن أدعه يرقد هناك في ثنايا نفسي.

الآن قـد أدركت أن شـيئاً مـا قـد أهاج ذلك الحـيـوان الهاجع واثاره (واني لأعـزو ذلك الى مـا أجـريتـه من تجارب)، وأني كنت شديدة الاهتمام بكيفية السـيطرة عليـه، وقد تبين لي ذلك من تدوير الرقم سبعة المبهم ومحاولتي أن أسـمي ذلك الحـيـوان، وهي طريقـة سحرية للظفر، بالهيمنة على شيء ما.

وأن الموقف كله كـان، بطبيـعة الحال، مسألة فرويدية كلاسيكية لكنني عبر السنوات القـلائل الماضيـات، قـد توفرت لي معرفة وتلقيت عونا بالغا ليس بـواسـطـة الـتـحـليل وانما عن طريق البـحث في الأحـلام باتبـاعي أسـاليب التقنيات الجشتالتية، كما سأصف ذلك في الفصل التالي :

فـالحيـوانـات في الحـلـم، شـأنهـا في هـذا شأن الناس حين يظهـرون في الأحـلام، يمكن أن ترمـز في بعض الأحـيـان الى المواقف، والمبـاديء ، بل والى بعض المؤسـسـات . حضرت مـؤخـراً احـدى جلسات جماعة تنتهج في التـحليل والعـلاج المنهج الجـشـتـالتي، وقـد روى أحد أعضائها أنه رأى في الحلم فـيـلا يتـجـول في أعلى بيتـه فوق السطح. وفيما كنت اتساءل بدهشة عـمن سـمح لهذا المخلوق بالدخـول، فـقـد رأيتـه يتـهـادى ويتدحرج فوق الجـدار الخلفي ثم ينحدر عبره. كان مذعوراً، ثم لاحظت ان الجدار الخلفي ذاك كـانت تتكون فـوقه طبقات من فضلات الفيل حتى أن نافذة صغيرة فيه هناك كـانت هي الأخرى تماما مغطاة بتلك الفضلات ومسدودة.

أنا نفسي كنت مـبـهـورة بالاحتمالات اليونجية (نسبة الى يونج) والفرويدية الواضـحـة في ذلك الحلم، لكن قائد المجموعة كان له رأي آخر. فقد طلب مـن الشـاب ان يمـثل لنا الحلم تمثـيـلا، واتضح فـيها بعـد من خـلال سير التـمـثيل ان لافـرازات الفـيل وروثه مـعنى فـريدا ضـمن سـياقات العلاج الجـشـتـالتي. وقد تذكر الشاب ان (بيرلز) كان قد ميز ثلاثة اصناف مما أسماه (نتـاج حـشـو الأمعاء) ـ ومنه افرازات الدجاج ويرمز الى المجتزأ في الحديث مـثل (صباح الخير، كيف حالك هذا اليوم) و(لقد استمتعنا بجو لطيف هذه الأيـام)؛ وافـرازات الـثـور والـبـقـر، وتنطوي على مـعنى التبرير واخـتـلاق المعـاذير، كـالقـول مثلا : (انني لا أستطيع محبة أحد لأن والدتي لم تظهر لي المـحـبـة ابان طفـولتي)، ومن ثم افـرازات الفـيل، وترمـز الى التـفلسف في الأفكار والتـفكير فيها وبما يتصل بالمعاني والنظريات بدلا من تجربتها عملياً. ان هذا الحلم كـان ينبئه بعـبـارات لا لبس فـيـها ولا التواء بأن ما كان يبذله

من جـهـد من أجل ان يسـتبين سبيله في الحياة، انما هو جهد ضائع، ذلك لأنه كـان يبـدد طاقـاته في الاكثار من التحدث عن مشكلاته على نحو مجرد فـتـذهب جـهـوده هبـاء، بدلا من مـواجـهتها والتصدي لها بالفعل وبشكل بناء.

ومـثل آخـر أسـوقـه، وبه ترمز الحيوانات الى مبدأ أو مؤسسة، والحلم في هذه الحـالة يشـبـه حلم (اليس) في خبرة النظر الى المرآة يوم حـسـبت النحل يبـدو لها وكأنه فـيله، والحلم المعني هنا رواه زمـيل لي كـان قـد ترك عـمـلا يمارسـه ليـتخذ له عملا في مجال الأعمال الحرة. وفي وقت قبل ان يتخذ قراره النهائي، كان قد رأي الحلم التالي :

رأيت وكأننا في أرض حـيث يتـعـايش الناس فيها مع حشرات وكأنها تنمو لتـبلغ حـجم حـيـوانات اشـبه بالأفيال. ابتدأت تلك الحشرات باديء الأمر وكأنها اخطبـوطات لزجـة صغيرة الحجم ذات مجسات متطوية ملتوية، كانت تتـشـبث بها في جلود الناس وبهم تلتصق. وقد تقبلها الناس دونما اعتراض، على أسـاس ان تلك المخلوقـات تسـتـخـدم للمـواصـلات عندما تكبر. كان يبـدو عليـهـا وكأنها الأفـيـال الخـرقـاء الضـخـمـة الأجـسـاد المطواعة، وان باسـتطاعـتـهـا التـقاط الناس من فوق الأرض بخراطيمها وحملهم الى حيث يشـاؤون. استـيـقظت صـارخا مرعوبا ذلك لأنني فجأة أدركت بأنني كنت مـسـتـحـوذا علي من جانب تلك المخلوقات وأنها كانت تغشاني تماما، وأنها كـانت تدب فـوق جسمي كله دبيبا فظيعا. انها لم تكن ذات خطورة، وليس فـيـهـا ما يدعو للخطر، وانما كانت فقط مقززة وتدعو للقرف. وكان الناس يتنفـسـون الصـعـداء حـينما يطردونها من فـوق اجسامهم ويبدو عليهم انهم بذلك سـعـداء وكان لسان حالهم يقول : (ياالهي، انه لشيء حسن ان نكون قـد أبعدناها. انه لأمر طبيعي كما نحسب ان يتمرد بعض الناس، ولكنه لمن يمن الطالع ألا نكون جميـعنا مـثلهم متمردين)، ما كان الناس قلقين، طالما بـقـي مـنـهـم هـناك اناس كـثيرون بمـقـدورهم ان يطردوا تلك المخلوقـات

ويبعدوها.

ها هو الحلم ذا قـد عبر تعـبيرا دقـيقا عن كيفية احساسه ازاء عالم التجارة ـ فـهـو حلم كأنه يقـول له دع العـمل في هذا المجـال فـهو يضني بدنك في السنين المبكرة من حـيـاتك ولكنه في خاتمة المطاف سيحملك الى حيث تريد في أيام تقـاعـدك. فـهـو كـان طيلة فترة حـيـاته تسـيطر عليـه (آفـة الأمـان والطمأنينة) وكـيـفـيـة تأمـينهـا لنفسه، وكانت تنساب في ثنايا جسمه، لكنه وجـدهـا وقت حـدوث الحلم، بغـيـضـة لا تطاق مما حـدا به الى آن يطلب العون ويلتمس الشفقة.

البيوت في المرآة العاكسة (في الأحلام)

ان بيـتك هو جـسـدك الأكبر. ينمـو في حـرارة الشمس وينام في سكينة الليل. وكـثيرا مـا ترافق نومـه الأحـلام. فـهـو يحفل بالأحـلام . أفلا يحلم بيـتك؟ وهل يترك الحلم المدينة ويسير الى الغابة أم الى رأس التلة؟

فـالبـيـوت اذن هي امـتـدادات لاجـسـامنا ـ فـهي أجسادنا الكبرى، كما يـصـفـهـا جبران خليل جبران في كـتـابه (النبي)، اذ ان مـعظم البـيـوت كما تتراءى لنا في الأحـلام تنبئنا بشيء مـا عن حـيـاتنا وعن علاقاتنا بدلا من ان تكون مجرد بنايات حـقـيـقية قائمة مشيدة من الحجر والطوب. واننا على أية حـال، فـحينما نكون من حين لآخر مشغولين بمسألة شراء بيت او بناء منزل ونحن في حـيـاتنا الواعـيـة، فـان أحـلامنا بوسـعـهـا أن تبعث الينا برسائل واشـارات ترتبط بقلقنا فـيما يخص هذه البـيـوت. وثمة مثالان طيبان ضربهما لمجـمـوعـتنا (جوزيف)، فتى آخر من اعضاء فريق الدراسة، وهو ينتمي الى طـبـقـة الـعمال اصـلا، وقـد تزوج من ابنة مـدير احـد المصـارف وبقي هو وزوجـته يعيشان مع والديها حتى وجدا بيتا مناسبا لهما.

فـفي الحلم الأول، رأى فـيـه أنه وزوجـتـه كـانا يبـحـثان بلهفة عن بيت ينفـردان فـيه، لكن كل بيت وجداه خلال بحثهما كان يبدو في حالة مزرية.

وكـانت زوجـته ترى انه يحسن ان يظفرا ببيت رخيص الثمن ومن ثم يجددانه ويدخـلان عليـه الاصـلاحـات، لكن جـوزيف كان يشعر بأن جميع البيوت كانت في تلك الحالة وأنها كلها بحاجة الى اعـادة اصلاح وترميم، وان هذا تمامـا خـارج نطاق مـقـدورهما حتى وان كـان صـهـره (والد زوجـتـه) قـد وعـدهما بقـرض من المصرف. ثم أنهما وجدا بعدئذ بيتا بدا لهما مناسبا ولكنه اتضح لهما فـيما بعـد ولدى التـدقـيق في ارجـائه ان أرضيته كانت تالفة تماما، بـيـد أنـه على أية حـال واقع على الطريق العـام المؤدي الى لندن، لهذا فأنهما غـيرا رأيهما وركـبـا الـقـطـار قـافلين الى حـيث يسكنان، ولكن القطار الذي استـقـلاه بـدلا من أن يتـوقف في محطة (فنزبري بارك) كما جـرت العـادة، استمر في سيره متجها الى نهاية (كنجـز كروس) الواقعة في وسط لندن.

مـواجـهـة لـلـتـحـدي الـقـائل أن أحـلامـنا انما تعبر عن رؤانا واننا نحن صـانعـوها ومـؤلفـوها، فـان جـوزيف قد أصّر بأنه جعل فحوى حلمه مجرد اضـغـاث وأنه لا قـيـمة له، واضاف قائلا انه كان في حقيقة الأمر مترددا في ابتياع اي بيت خلال حياته الواعية.

وبفترة وجـيـزة بعـد هذا الحلم، قـد وجـدا بالفـعل بيتا قديما ومهدما نوعا مـا، يقع في منطقـة جيدة، وقد قررا شراءه. ونظراً لما عليه البيت من حال، فلم يكن السـعـر المطلوب عـاليـا، ولذلك كـانا كـلاهما مسرورين بالصفقة سرورا مـعـقـولا. بيـد ان حلم جوزيف التالي قد كشف عن حقيقة مشاعره إزاء الصـفـقـة تلك. ففي هذا الحلم، رأى جوزيف نفسه جالساً في مقصف يتـبـادل الحـديث مع مديره في العمل، والذي أخبره بدوره انه كان قد سمع شـخـصين يتناقـشـان ومما قالاه : أي مجنون هذا الذي خوزق نفسه فاشترى بيـتـا في الشارع (س) بضعف ما يستحق من قيمة وهو ما هو عليه من خلل ونقـائص لم يلحظهـا المشتري. ولما كـان البـيت الجديد الذي اشتراه جوزيف واقـعـا في الشـارع (س) ادرك انه هو المقـصـود بكلمـة (المجنون)، فاستيقظ شـاعرا بالراحة لأن الحلم قد حذره في الوقت المناسب تماما.

فما كان من جوزيف الا ان دقق في مأتي الحلم ذاك، فطلب ترتيب اجراء فحص شامل للبيت. فلم يكتشف فيه شيئاً يدعو للفزع او للخشية ولذلك فقد تم في النهاية شراؤه؛ وهما، هو وزوجته، يعيشان فيه منذ أكثر من عام مضى وأنهما به مسروران. هذا وأن جوزيف قد اعترف بقوله انه ربما رأى ذلك الحلم لأنه كان في واقع الحال يخشى في دخيلة نفسه اعتراضا من زوجته من أجل ارجاء الشراء على حساب ما كان اعطاه من التزام ازاء البائع، وانه في الوقت نفسه لا يريد ان يخسر موقفه امام زوجته ، فهو كان يفكر في حفظ ماء الوجه. وأضاف معلقا، ان مدير العمل في ذلك الحلم انما يمثل اباه الذي كان أشد ما يفزعه فكرة شراء شيء غالي الثمن كشراء بيت مثلا ، وكان دائم التحذير لجوزيف من شر الكواسج Sharks المتربصة ابدا بالناس الأبرياء لتنقض عليهم فتجعلهم لها فرائس (٢٠) . فجوزيف في هذا الموقف قد أدرك ان صدى صوت أبيه في داخله كان هو المسؤول عما كان يساوره من قلق. فالحلم بلباقة وذكاء قد وصف له صوت مديره في العمل، وكان جوزيف مستعدا لأن ينصت اليه، بدلا من انصاته الى صوت أبيه وأوامره ونواهيه، وقيمه التي كان جوزيف قد رفضها وأعرض عنها منذ أمد طويل.

أني من جهتي لم يتسن لي ان مرت بي حالات ترمز فيها بيوت الى اشخاص آخرين (غير ما جاء آنفا) ، وان كانت امثال هذه الحالات في امكانية حصولها قد جسدتها تجسيدا ذكيا اعمال جيمس ثربر (الكاريكاتيرية) الكارتونية والتي تحمل عنوان (البيت)، وهي تمثل صورة بشعة لرجل صغير الجسم يقترب من دار (فيلا) تقع في ضاحية، والدار من ناحيتها أو جهتها الأخرى تصب ماء يرش امرأة سلابة نهابة كانت واقفة هناك تريد التهامه. على انني وجدت في الغالب أحلاما تستخدم البيوت رمزا يعبر عن اسلوب الحياة التي يتعامل معها الفرد الحالم. فبعد انفصام زواجي ، مثلا، كنت قد رأيت عدة أحلام، رأيت فيها بيت زوجي قد اتسع حجما وازداد

بهـاء بها أدخل فـيـه من أنواع التأثيث الجـديد الدال على الرفـاهيـة والترف. فـأيقنت ان هذه «الأحـلام» قـد أومأت بوضـوح وعبرت بجـلاء عن عـمـيق احـسـاسي بأن حـريتي قد أتيح الحصول عليها والظفر بها ولكن على حساب حـرماني من أي نصيب أو حصة في ثروة متنامية يكسبها رجل ناجح.

والأحـلام كذلك تنبيء في الغالب فتذكر شيئاً من هذا القبيل عن اسلوب حـيـاة الحالم نفسه. فحلمي الموصوف في الفصل السابع، بشأن الاختيار بين بيـتين، أحـدهما يقع على قـمـة تلة والآخـر على شاطيء البحر، انما كان في أحـد مـسـتـوياته تعبيرا عن صراع في داخلي على نمطين يتصادعان لدي ازاء الحـيـاة، صراع بين المكوث في البـيت وبين الخروج الى الحياة والعمل، ورغم انه صراع هو أعـمق مما هو عليـه، فـهـو ينطوي على معنى تمحيص للذات ايضاً.

وبما أننا نعـيش في بيـوت يسكنهـا مـعنا أناس آخـرون، لذا فـان البـيت يـمكن في الغـالب ان يتـيح صـورة حلم نافـعـة تعبر عن الزواج او الأسرة والعـلاقـات العـائليـة. مـثـال على ذلك، فان (جوانا)، الموصوف حلمها في هذا الفـصل، والذي رأت نفـسـهـا كأنها تغـتال زوجها بفأس كانت معها، رأت حلما آخـر في نفس تلك الفترة من حـيـاتها الزوجـية غير المستقرة. رأت في حلمـها الثاني آنذاك وكأنها تعيش في قلعة أشبه بالكنيسة وكانت تجتهد في تجـديدها ولكن من غير جـدوى، وكأن شـيئا دائما يحصل ليعرقل جهودها. وفي احـدى لحظات الحلم، دخلت شغالتها فسألتها عما اذا كان يتعين عليها تنظيـف الذهب والفـضـة. ردت جوانا عليها بأن لا حاجة هناك تدعوها لأن تتـعب نفسها، وهي تقول ذلك حانت منها التفاتة فرأت البناية كلها أخذت تتكوم. فـاسـتـيـقظت جـوانا فـزعـة قلقـة بعد ما رأت في منامها تلك البناية تتهاوى من حولها.

هذا الحلم يصـور مـا لدى (جـوانا) في طوايا نفـسـهـا من مـشـاعر تتسم بالتناقض الوجداني (٢١) Ambivalent عما اذا كان ينبغي عليها ان تنقذ

الـزواج مـن الانهيـار وتبـقي عليـه، او أن تنهـيـه وتضع له حـدا، علما بأن عـقلهـا الواعي كـان مـسـبـقـا قد صفح عما كان قد اقترفه زوجها من خيانة زوجيـة. بيـد أن عقلها الباطن كان ينطوي على أفكار مغايرة تماما، اذ كان مـصـمما على انهاء العلاقة الزوجية ، فهو حلم فيه اضافة الى ما كان حلمها الأول قـد أظهـره لها وكيف أراها آنذاك أنها كانت تغتال زوجها بفأس كانت في يدها. كانت جوانا بطبيعة الحال جد مبتئسة عما تعبر عنه خفايا مشاعرها هذه، ولا سيما عندمـا كـانت تدرك بأن الحلم كان كذلك ينبئها بأن زواجها ينطوي على كـثير من الأشـيـاء الثـمـينة، ثم الرمـز اليـهـا في الحلم بالذهب والفـضـة، فـضـلا عما كـان عليه من مغزى ديني وقد رمزت اليه القلعة التي ظهـرت في الحلم انها اشـبـه ببيت العبادة. فالقصة بكاملها، لحد الآن وبهذا القدر ، قد آلت الى نهاية سعيدة ذلك لأن الحالمة قد تمكنت من معالجة هذه الأحـلام وان تتـعـايش مع مخاوفـهـا، وبخـاصـة عندمـا وضعت في اعتبارها مساعدة زوجها.

وثمـة قـصـة أخـرى عن أحـلام أسـهـمت في انقاذ علاقات، رواها أحد المسـاهمين في فريق بحوثي عن الأحلام، وما ذكره عن حلم رأى فيه أنه كان مـضطهـداً فـيما بين زوجـتـه وبين رئيـسه في العمل، وقد مر وصف ذلك في الفـصل السـابع. وبفترة وجيـزة بعـد رؤية حلم الاضطهـاد هذا، رأى حلما آخـر مؤداه انه كان قد عاد من عمله في احدى الليالي فوجد لدهشته أن بيته كـان قـد مـسح من فوق الأرض اثناء غيبته. أخبره الجيران أن مجلس البلدية جـاؤا بعمال فـهـدوه منذ الصـباح الباكر في ذلك اليوم، ولكن ما من أحدهم من كـان يعـرف أين كـانت زوجته. فأوّل الحلم بأنه ليس تعبيرا عن رغبة في انهاء عـلاقـتـه بزوجـتـه ووضع حـد لتلك العـلاقـة مـعها، وانما هي خشية تسـاوره مع انها قد تغادر فجأة تاركة الدار دون سابق انذار اذا ما استمر هو في التـغـيب عن البـيت كثيرا. هذا الحلم قد أبأسه كثيراً بحيث أنه قد اضطر بعـده مبـاشرة الى تغـيير عـمله فـاسـتـبـدل به عملاً آخر أقل تطلبا للجهد

والبراعة.

من الخبرات الشائعة كثيراً في الأحلام هي تلك التي تروي لنا العودة الى مرابع الطفولة. فيرى المرء في الحلم مثلا أنه في بيت أمضى فيه أيام طفولته وصباه. ويرى (هول) أن مثل هذا الحلم يمكن أن يومىء الى رغبة يرمي الفرد من ورائها الى توسيع مجال حياته، بالنظر حتى الى البيت الاعتيادي المتوسط ، ابان الطفولة فيراه رحباً جدا نظراً الى أنه لا يزال جد صغير فيرى كل ما يحيط به ويحتويه كبيراً.

قد يكون الأمر على هذه الشاكلة، لكن خبرتي في هذا الشأن ايضاً تقضي بأن الأحلام الخاصة بالبيوت التي ترمز الى أيام الطفولة، شأنها في هذا شأن الأحلام المتعلقة بالأصدقاء والأقارب الذين تبقى الانطباعات عنهم عالقة في الأذهان منذ أيام الطفولة المبكرة، تشير خبرتي هذه الى أن ثمة شيئاً آخذاً مفعوله يسري في الموقف الراهن للحالم، يذكره بموقف أسبق كان قد مر به من قبل من خلال انغماره في مضمار الحياة. هذا وان حلمي عن الأسد مثلا، مر ذكره من قبل، كانت أصوله قد أرسيت في بيت طفولتي، وأنه حلم كان يشير الى أن الدوافع الجنسية قد بدأت تتحرك عندي وقت حدوث الحلم.

وأسوق هنا مثلا آخر. فـ(جورج) الذي وصفنا حلمه عن الطلاق في الفصل الثامن، قد حلم مرة أخرى، اذ رأى نفسه أنه قد عاد الى بيت طفولته، وقد ألقى زوجته وأمه تعدان في الفرن كعكة بمناسبة ذكرى سنوية عزيزة عليهم أثيرة لديهم. وان زوجته قد قدمتها اليه مزهوة فشكرها بامتنان وأدب جم. غير أن ذهنه كان مشغولا في التفكير بجدران الغرف التي كانت بالفعل تسيل منها رطوبة وهي مشققة في كل مكان تقريبا. وقد أومأ الى تلك الرطوبة والشقوق مستلفتا اليها انتباه أمه التي هونت بدورها من حجم المسألة وأشارت الى أنه ستنجلي بمرور الأيام ونصحته بأن عليه في واقع الأمر أن يشتريه بعقد طويل الأجل أمده احدى وعشرون سنة.

كـان هذا الأول في سلسلة أحـلامـه وقد أظهر له بوضوح انه لم يكن في واقع الأمـر سعيداً بزواجه (ويرمز الى ذلك البيت في هذه الحالة)، وأن الحلم هذا قـد أضـاف رسالة أخرى وهي أن (الأم التي لا تزال تعيش في داخله) كانت تحثه على آن يبتاع نفس النوع من (البيت)، أي بيتا شبيها بذلك الذي عاش فـيـه يوم كان طفلا. وقد ذكر (جورج) ان احدى وعشرين سنة انها هي المدة التي يعـيشها الفرد في بيت أبويه قبل ان يصبح مستقلا عن السلطة الأبوية، فـالحلم قـد وصـفه وصفا دقيقاً، وأن الأم في داخله قد أكدت له بها لا يقبل الشك أن أي انفراط مؤقت سينجلي أمره قبل مضي وقت طويل.

وفي أحـايين أخـرى، يعين الحلم حـالة معينة ترتبط بعلاقة محددة وموقف مـعين وذلك بجـعل الحـالم ببـيت يكون وجـها لوجه أمام منظر له مغزى أو مـشـهـد له معنى. وأني لأذكر أثناء ممارستي للتحليل ووفق المنهج الفرويدي أنني قـد حلمت وكأنني كنت أنظر خـلال نافـذة غـرفـة الاسـتـشارة فرأيت صـفـوفـا أثر صـفوف من البيوت المتشابهة البنية المربعة، وكانت تختلف تماما عما كنت قـد ألفته حين كنت أنظر عبر النافذة الحقيقية لعيادة محللي في الحياة الواعـيـة الصـحيحة. وهذه كانت اشارة واضحة ودلالة صريحة عن احساسي بأن مـستقبلي في التحليل كان قاتما وكالحا ليس كالحا وحسب، بل كالحا على نحـو مـعين اذ في اتاحـتـه منظراً عن حـيـاة تبدو دلائلها انها صعبة وامتثالية ورتيبة.

كـان فـرويد قد ذكر أن البيوت انها ترمز الى الأجسام، وأن أجزاء البيوت ترمـز الى أطراف وأعـضـاء مختلفـة، ومـتـفـاوتة من الجـسم. فـالاسطوانات والأعـمدة، مثلا، يمكن أن ترمز الى السيقان كما هي الحال في نشيد سليمان The Song of Solomon، والكلمات فـيـه تقول : (ان ساقيه تشبهان اسـطـوانـتين من المرمـر راسـيـتين في أوقـاب(٢٢) من الذهب الأبريز). وان البـوابات قـد ترمـز الى تجـاويف الجـسـد وما فيه من فوهات وفتحات، وان الطنف والشرفـات يمكن أن ترمـز الى الثديين أو النهدين، ولعل أنابيب الماء

ترمز الى جهاز التبول، وهلم جرا وما الى ذلك. وينقل فرويد عن حالة امرأة كانت قد حلمت حلما رأت فيه شرطيا وبصحبته جوالان وقد وضعوا ثلاثتهم بعض الدرجات المؤدية الى كنيسة، وأمامها كان هناك مسار يفضي الى تلة. وعلى جانبي الطريق كانت هناك ادغال وآجام وكانت تزداد التفافاً وكثافة اكثر فأكثر كلما ارتقى الطريق وارتفع صعدا حتى اذا بلغت قمة التلة تحولت تلك الأدغال والآجام الى غابة غبياء. ففسر كل ذلك على أسس جنسية وفي اطارها، بما في ذلك الأعضاء الجنسية لدى كل من الرجل والمرأة والاتصال الجنسي. وفيما يمكن آن يكون لهذا النوع من التفسير فائدة لبعض الناس في ميادين التحليل النفسي، غير ان جدواه في عملنا الحالي ليست بنافعة وأني لمتيقنة من أننا سنفقد كثيراً من جوانب التبصر المجدي لو أننا استخدمناه. بل انه ليضر كثيرا بالمرء الذي قد ننسب اليه شيئا من تفسير كهذا، كما سبق لنا أن أشرنا الى ذلك في الفصل السادس، وأن الاساءة الى الفرد لتتأتى من اغفالنا ما ينطوي عليه الحلم من تطبيقات عريضة. فالدعائم أو الاسطوانات يمكن أن ترمز الى (القوة)، وأن البوابات يمكن أن تومىء الى مسيرة جديدة في الحياة، وان شرفات المنازل قد تشير الى شموخ الانسانية وكبريائها، وأن أنابيب الماء الراشحة يمكن أن تدل على فقدان السيطرة على التصرفات الانفعالية، في حين أن رمزية المعابد، والسجون، والثكنات، وما ضارعها، انما هي رمزية واضحة تماما ولا تتطلب كبير عناء لتفسيرها أو تأويلها.

أياً ما كان الأمر، فان ما لدى الحالم من ارتباطات خاصة به، انما هي، في جميع الأحوال ، ذات أهمية بالغة في التفسير. ولعله تظهر البيوت والبنايات في الحلم خالية خاوية تعني بالنسبة لشخص نضوب الفكر وخواء العقل وهو ما يعبر عنه في الحياة اليومية بأنه (خاوي العقل او فارغ العقلية) ولعلها عند شخص آخر تمثل استكشاف ارجاء روحية سامية رفيعة لم يتم ارتيادها في الحياة من قبل. وان التعفن الجاف في المكان السفلي من

الدار قد يعني جفاف الطاقة الجنسية عند الحالم، ولعله عند آخر يشير الى تحذير له بألا يتجاهل الجانب اللاشعوري من الحياة. هذا وأن الخلل البنائي في البيت يمكن أن يعكس احساسا بها هناك من تداعيات جسمية أو خصائص مرضية تبدو بوادرها في الشخصية. وان عدة أفراد في فرق دراستي قد رأوا أحلاما كانت فيها تجري تغييرات وتحويرات على البيوت او تضاف اليها اضافات توسيعية، وهذا يشير عادة الى أن هناك تغيرات في الشخصية قد طرأت باتجاه آفاق الشعور واتساع مدياته، وغالبا ما يصحب ذلك تحسن في الصحة البدنية.

وأنني لأستطيع القول من خبرتي الخاصة، بأن البيت في الحلم انما هو حقا (الجسم الأكبر)، رامزا بذلك الى علاقاتنا، ومواقفنا في الحياة اليومية، والى مجالنا النفسي Psychic Space، وهذا مفهوم سأتناوله بتفصيل أكثر في الفصل القادم.

المركبات من خلال المرآة العاكسة (في الأحلام)

المركبات يمكن أن يكون لها في الأحلام أحيانا معناها الحقيقي، تماما مثلما هي الحال بالنسبة الى الحيوانات والبيوت، ويحصل هذا عادة اذا كان فكر الحالم في حالة حياته الواعية اليومية مشغولا في التفكير بمركبة ما. فعندما بدأت سيارتي تظهر عليها آثار القدم وابتدأت أجزاء من أدواتها وأجزائها تستهلك رحت أحلم باستمرار بحالات العطل الفجائي فيها وبالحوادث الطارئة وغير ذلك، وقد لازمتني إحلامي تلك حتى استبدلت بها واحدة جديدة.

وان لغة المركبات يمكن أن تستخدم كذلك لوصف الناس وبيان خصائصهم، اننا نتحدث مثلا عن (عقلية مصغرة) Mini Mentality، و(جهاز نفاث) Jet Set، و(حافلة بطيئة) Slow Coach . ولعل المركبات تمثل في الأحلام نمطا معينا من أنماط الحياة واسلوبا خاصا في

الحـيـاة الواعـيـة. فـعندمـا غـادرت (جـانيت) البيت، وكانت أصغر اعضاء الفـريق سنا لتـعيش مع صديقات لها في شقة، حلمت بأنها تسير في الشارع وهي عـارية تماما الا من جـرسين من النوع الذي تستخدمه جماعات الهيبية Hippie، كـانا مـعلقين في رقـبـتـها بشريط يطوق عنقها. وكانت مندهشة عما اذا كـان الـنـاس في الـشـارع كـانوا يرقـبـونها، ولكن مما أنعش ذاتها أنها أدركت في قـرارة نفـسـها أن ما من أحد في الشارع كان ينظر اليها ويلاحظها وحـيـنما وصـلـت في سيرهـا ذاك الى سيـارة وجـدتها قـد تحـولت الى عـربة ضـخـمـة، مجهـزة بمطبخ وحمام، فـحـدثهـا خـاطرها أن تسكن فـيـها هي وصـديقـاتها، أو في الأقل استـخـدامـهـا في عطل اضافية في الخارج. فهذا الحلم قـد وصف لها مـا طرأ على حـياتها من تغير اذ انتقلت من حياة مقيدة محددة الى نوع من حـيـاة أكـثـر ديناميـة وحـيـوية، حـيـاة حـافلة بالحـركة والانفـتـاح، وأن عريها في الحلم كان يرمز الى نيتها في أن تحيا حياة منفتحة، حـيـاة من غير قـيـود مـرصـودة بقدر الامكان، بدون أن تصعق أو تصطدم بحـيـاتها الجديدة كثيرا من الناس، وقد ربطت الجرسين الهيبيين باسلوب من الحياة أكثر واقعية من تلك التي كانت تحياها في البيت.

وغـالبا ما تشير المركبات في الأحلام الى الاتجاه الذي تسير فيه العلاقات. وقد روى لنا (ايريك) Eric، أحـد اعـضاء الفريق، الحلم الآتي، وكان قد رأه مـبـاشرة بعـد أن اكـتـشـفت زوجـته علاقة له غرامية بفتاة ألمانية وأصرت على أن يقطع كل صلة لها بتلك الفـتـاة وأن ينهي تلك العـلاقة، وحلمه هو :

صـعـدت في حـافلة بقـصـد الذهاب الى حـيـث يسكن والدي فـوجـدت الحـافلة مـتـجهة الى الاتجاه المغلوط والمعكوس. كنت متشوشا بشأن البنايات الغـريبـة علي غير المألوفـة لدي، وكانت هناك طالبة أجنبية قد تركت مكانها وجـاءت فـجـلـسـت بـجـانبي وحـاولت أن ترشـدني أين كنت أنا من ذلك المكان، وكنت في قـرارة نفسي استـنكر أن يذل انسـان غـريب انسـانا مواطنا

محـلـيـا. ثـم غـادرت تـلـك الحـافلة عند مـفترق طرق فـوجـدت نفسي مع زوجـتي. وكـانت هناك واقـفـة عند مـفترق الطرق ذاك عربة اسعاف وسيارة شرطة لوقـوع حـادث كـان قـد حدث على الطريق. كانت هناك سيدة مسنة ترتدي جلدا أسـود وعلى رأسـهـا قـبـعـة من النوع الذي يرتديه عـادة أفـراد جيش التـحـرير، كـانت ممددة في وسط الطريق، ولدى مـرورنا بها ربتـتـها زوجـتي فـوق رأسـهـا كـعـلامة على التعاطف معها والحنو عليها. حاولنا ان نقطع الشـارع، ولكن سيلا من السيارات كان مستمرا في كل اتجاه. وقد بدا الموقف برمـته بالغ الخطورة بالنسبة لي.

فـالحلم المذكـور قـد أعاد (أريك) الى الأيام التي سبقت زواجه حينما كان يسكن مع أبويه في نفس البـيت، وان حلمـه هذا كما رواه يشير الى أن ثمـة شـيئا مـا في مـوقـفـه الحـاضر يشبه موقفا كان قد عاشه من قبل. وان اريك ليرى في الحـافلة التي اسـتقلها اشارة الى زواجه الذي كان يسير، كما يعتقد، باتجـاه مخطيء، كـان يراه أنه زواج مـتـجـه في جملته وبرمته الى نجاح مهني بدلا من أن يكون مـتـجـهـا في مجمله الى حـيـاة أسرية حميمة مماثلة الى تلك الحـيـاة العـائليـة التي كـان يستمتع بها يوم كان عازبا. وقد ذكر ان صديقته الفـتـاة الألمانيـة كـانت قط قطعت على نفـسـها عهدا له بأن توفر له أسباب الراحـة اذا هو تزوجـهـا، ولقـد بدر منه أن انتـقـد زوجته في مناسبات شتى لاخـفاقها في البر بوعدها وعدم استطاعتها تلبية متطلباته في هذا الاتجاه.

إن مـفترق الطرق في الأحـلام انما هو رمـز شـائع وعـام يمثل حالة اتخاذ القـرار، وأن حلم (ايريك) المذكـور قـد حدد بوضوح تام تصميمه على انهاء اتمام المشـوار (ممثـلا بالركـوب مـعـهـا) مع صـديقـتـه تلك وتجـديد علاقاته بزوجـتـه. وهو من ناحـيـة أخـرى قـد كـان يدرك ان اجـراءه هذا سـيؤذي صديقته الفتاة التي كانت تمثلها في الحلم السيدة المسنة التي تعرضت لحادث على الطريق. فـهـو كـان قبلا يرى فيها موضع هيامه وقد اعتادت ان ترتدي مـلابس من الجلد وانها كـانت تحـاول ان تسـتأثر به وتختاره لنفسها. كل هذا

كـان يتـمـلاه بعين عـقله وبثـاقب بصيرته. وكانت زوجته على علم بالعلاقة تلك وقـد حاولت اكثر من مرة أن تثنيه عن علاقته بالفتاة وأن تحمله على أن يتركـهـا، وكـانت في جميع محاولاتها تلك تؤكـد له بأن الفـتـاة سـتـتغلب على مـصـدر الأذى الذي سيلحق بها جراء هجره اياها. بيد أن الحلم قد كشف عن اهتمام أعـمق كان ثاويا في خبايا عقل ايريك : فهو، كان يفكر في قرارة نـفـسـه، حـتى لو أنهى تلك العـلاقـة بخليلتـه ووضع حـدا لها، فـهل هو وزوجـتـه سيكون بوسعهما ان يتغلبا على التقاطعات الخطيرة القائمة فيما بينهما (ممثلة بالعـبـور الخطير للشـارع في الحلم) وان يجعلهـا تتـوقف وان تفضي في النهـاية الى حياة أكثر ارغادا لهما وأهنأ؟

وقـد أقـر ايريك على نحو ما أنه كان في غاية السرور أن تكون زوجته قد تدخلت في الأمـر، وقـد اعترف أنه وان كـان يحب الفتاة، غير أنه كان أبعد مـا يكون عن التـفكير في أن يتـزوجها. وأن الموقف هذا قد ذكّره بحلم آخر كـان قـد رآه في وقت سـابق لحلمـه الأخير، وكـان قـد رأى في حلمه السابق ذلك ان سـيـارته قـد توقف محركـهـا فجأة قبل أن تبلغ تقاطعا للطريق، مما يدل على احجامه وتردده في أن يتوصل الى اتخاذ قرار يخصه.

انه لمن المهم ان نلاحظ، في الأحـلام التي تظهـر فـيـها المركبات، ما اذا كـان الحـالم هو نفـسه الذي يقود المركبة، أو أنه يرى نفسه مسافرا فيها، أم أنه مـالك المركـبة وصاحبها، وهلم جرا. وهنا حلم امرأة واسمها (ماريون) Marrion، اذ حلمت اثناء غـيـاب زوجـها بعيداً عنها في شؤون يقتضيها عـمله، انها قـد ردت على اعـلان يطلب مـسـاعد سائق في سباق للسيارات يجـري في (ومـنـتـي كـارلـو). وقـد جـاء بـالـقـبـول، وحـينما حضر رجل ليـصطحبها في السيارة الى المكان المحدد فجأة أدركت أنها لا تحسن السياقة. فـأنـبأت الرجل بذلك. لكن هذا لم يزعج الرجل ولم يفت في عـضـده، بل طلب منهـا أن تصـعـد مـعه في سيارته. كانت ترتدي بدلة خضراء ضيقة لا تصلح للسـفـر في سـيارة لمسافات طويلة، ثم عرفت فيما بعد أن دورها كان

يقتصر على أن يقضيا وطرا وليس غير، وان يتم ذلك خلال تلك الرحلة. فهذا الحلم، كما روته، انما يكشف بوضوح عن رغبتها في ان تتخذ لنفسها عشيقا اثناء غياب زوجها، لكن الحقيقة هي أنها كانت مجرد مسافرة فقط وليست هي السائقة، لذا فان هذا يعني أنه وإن كان باستطاعتها أن تبدأ هي العلاقة وتشرع بها كما تريد فان الرجل هو الذي يقوم بعملية السياقة (بتودد اليها)، وانها بوسعها فيما بعد ان تنفي المسؤولية عن نفسها. انها لحقيقة تبعث على الدهشة ان يفضل الناس من ذوي الشخصيات السلبية لأن يكونوا في حياتهم الواعية الحقيقية مسافرين راكبين بدلا من ان يكونوا سائقين.

معظمنا قد عرضت لنا في منامنا أحلام رأينا فيها أننا قد فاتنا أو أوشك أن يفوتنا قطار أو حافلة ناقلة كنا ننوي اللحاق به، وإن هذه تمثل في العادة مخاوف مباشرة وصريحة تماما، مخاوف تساورنا في حياتنا الحاضرة من أننا قد نفقد شيئاً ما ومثال طيب على ذلك حلم ذكرته صديقة لي وكانت خاضعة للتحليل النفسي. فقد حلمت أنها قد صعدت لتوها في عربة قطار كان على وشك مغادرة المحطة. وكان داخل العربة تلك طفل في عربته الصغيرة الخاصة به وفي الطرف الآخر من عربة القطار تلك كان هناك حارس وهو داخل ما يشبه الصندوق. وثم جاءت فتاة تجري مسرعة فوق رصيف المحطة فقفزت الى داخل تلك العربة تماما قبيل فوات الأوان، وهي تردد (حمدا لله على ذلك، كان يمكن أن يكون بالنسبة لي شيء لا يطاق لو أن القطار قد بارح دون أن الحق به فتركني في المكان)، أدركت صديقتي في حلمها أنه لا بد أن تكون تلك الفتاة أم الطفل. وكان الحارس واقفا هناك يراقب كل ذلك من غير اكتراث ودون أن يساعد الفتاة قط. ولقد شخصت صديقتي الحارس ذاك بأنه محللها الذي كان يصر على أنه ينبغي عليها بأن تستمر في مواصلة تحليلها ذاك، وكان من قبل تحليلا مستمرا منذ زمن بعيد وكانت تعتقد انه وصل الى طريق مسدود. فهي كانت في الثامنة

والأربعين من عـمـرها وكـانت جد تواقة الى انجاب طفل قبل فوات الأوان. وان بقـاءها مـستمرة على التحليل ، وخلال فترات التحليل يفترض في الفرد ألا يـقـدم عـلى اتخاذ قـرارات كبرى وألا يجري في اسلوب حـيـاته اليـومـيـة تغـييرات تذكـر، فـان هذا كله كان يعني بالنسبة اليها (فوات القطار وذهابه عنهـا) بقـد مـا يتـعلق الأمـر بانجـاب طفل كانت تتطلع اليه. تبين ان هذا الحلم كـان في الواقع حلما مـسـتـقـبليـا، اذ أنها في الحـقيقة قد وضعت حداً للتـحليل ، وأنها ذهبت الى افـريقـيـا وكتبت لي فيها بعد من هناك ومما ذكرته لي من أخبارها أنها حامل.

وأن المركـبـة في الحلم قـد تمثل في بعض الأحـيـان مـؤسـسة فترمز اليها. فـ(جـوان) مـثـلا كـانت قـد حلمت مـبـاشرة بعد وضعها لطفلها أنها كانت تسـتـقل قـاربا يحملهـا وأفـراد أسرتها وممتلكاتها وأمتعتها الى مكان ما. وكان الأثاث محزومـا على جـانبي القـارب وأنها كانت تخشى عليه من التلف اذا ما تعـرض للبلل. وفـجأة جـعل القـارب ذاك يتمايل فراح الناس يتقافزون منه من كل جـانب. وان شـخـصـا مـا كان يناديها ويدعوها الى أن تقفز خارجة منه، لكنها تماهلت، قائلة أنها ما زالت يتدفق منها الدم. ثم أخذت تبحث عن طفلهـا ولكنهـا لم تجـد له أثراً، فتولاها الفزع من أنه لا بد وأن يكون قد جـرفـه الموج من فـوق سطح القارب ذاك، فاستيقظت من حلمها ذاك وهي في حـالة يأس واكتئاب يمازجهما أسى جراء احداث ذلك الحلم.

فـالـقـارب في الحـلم المذكـور وفـيـه الأثاث والطفل، انما كـان يرمـز الى الـزواج، زواجـهـا هـي بـشكل خـاص. والذي أحـست بأنه أخـذ بالفـعل (يتأرجح) Drift. امـا الناس الذين راحـوا يتـقـافـزون من الزورق ، فانهم يرمـزون في الحـقـيـقـة الى جميع الناس الآخـرون ممن تعرفهم في واقع حياتها اليـومـيـة والذين (غـادروا السـفـينة)، اي أنهم قـد حـصل لهم ذلك فـعـلا بالافتراق أو الطلاق، وأن أصـداء أصـواتهم تتردد في أعماقـهـا تحـثها على أن تحـذو حـذوهم. وهذا أمـر لا قـبل لها بمـواجـهته والاقدام عليه لأنها كانت

تشعر بالضعف وانها ليس لديها ما يوفر لها الأمان. فضلا عن ذلك فانها كانت ترى بأن طفلها قد تجرفه الأهواء، او تدمره الرداء، جراء ذلك الزواج المتماوج المتأرجح.

أما السيارات والقطارات والطائرات، بوصفها آلات للقوة والطاقة، فيمكن أن ترمز الى طاقة الدوافع والنزوات، ولا سيما الدوافع الجنسية منها. والتمثل بالمجزوءة التالية من كتاب (ديزموند موريس): (حديقة الانسان) The Human Zoo، ليمثل الموقف بشكل دقيق:

ان سيارات السباق دائماً تعكس بريق الشجاعة وتنم عن القوة الذكورية، وهي الى حد بعيد تتخذ مظهر الخصائص الرجولية. فهي أشبه بقضيب السعدان (٢٣)، مدببة، توحي بالتأهب للانطلاق الى أمام، منظرها طويل، شكلها لماع، مظهرها أملس، تندفع الى امام بقوة هائلة، وهي في الغالب تكتسي لونا براقا أحمر. وان مثل رجل منتصب في مقدمة سيارة الرياضة هذه مثل تمثال منحوت أمضى النحات او المثّال وقتا كبيرا في تلميعه وتنميطه. كل جسمه قد غاص واختفى فلم يعد يرى منه سوى رأس ضئيل وغير يدين قليلا تتجاوزان في الحجم قضيبا طويلا لماعا. بل وحتى السيارات الأخرى الاعتيادية لها صفاتها القضيبية في المظهر، ولعل هذا يمكن تفسيره الى حد ما لماذا نجد سائق السيارات من الرجال يظهرون طبيعة عدوانية في قيادتهم لسياراتهم ويكونون في الغالب تواقين الى أن يسبق بعضهم بعضا فيتجاوزون بعضهم على الطرقات، وهم يفعلون هذا رغم علمهم بالمخاطر الجسيمة، ورغم معرفتهم بأنهم جميعا سيقفون عند أول اشارة ضوئية مرورية، أو في أحسن الأحوال، انهم سيقطعون في سرعتهم تلك ثوان قليلة خلال الرحلة. فما دواعي تلك السرعة اللاعقلانية اذن؟

ان الطريقة التي يسيطر بها السائق على السيارة في الحلم يمكن أن تنبيء الحالم عن الكيفية التي يرى فيها دوافعه ونوازعه. فاذا ما رأى أنه قد فقد الهيمنة على السيارة، أو حينما يصطدم بمركبة أخرى، أو عندما يصعد إلى

طوار الطريق المخصص للسابلة، او حينما يجتاز اشارة المرور الحمراء، وعندما تنغرس سيارته في منحدر تلة تهوي منها، فان كل هذه تعني في العادة انه يحس في قرارة نفسه ويشعر في أعماق ذاته بأنه مغرق بدوافع ونوازع مستحوذة عليه خارجة عن نطاق سيطرته عليها. وان هو رأى انه قد تفادى حادثا كاد يقع له وذلك بالمناورة بسيارته ببراعة ومهارة فان هذا يشير الى أنه تمكن من التحكم بالدوافع التي كانت تريد أن تنفلت أو كادت. وأن ما يشهر في الأحلام من دراجات نارية، او سيارة بشكل اعتيادي، او طائرات سباق والمباراة، فان كل هذه تدل على ما لدى الفرد من رغبة في ابراز مدى قوته الجنسية واظهارها؛ في حين أن توقف السيارات المفاجيء، أو ما يصيب فراملها من عطل وعطب، او الاخفاق في بلوغ السيارة أقصى حالات ودرجات قوتها المقررة لها في السير، فان كل ذلك يعني ان ثمة صعوبات جنسية يعاني منها الحالم. وأن ما نقرنه في أحلامنا من تشابه بين السيارات في الحلم وبين سياراتنا الحقيقية في حالات اليقظة ليعزز هذه النقطة التي أشرنا اليها وتمثلها بشكل دقيق أغنية كتبها (توم روش) حول صبي يشبه نفسه بماكنة سيارة قديمة وكثيفة فقدت مقودها وذلك بعد أن تحطمت سيارته في مدينة تكساس، فاستحال عليه بلوغ غايته وتعذر عليه الوصول الى حبيبته التي كان يتوق الى لقياها.

بيد أن المركبات لا ترمز دائما الى طاقة الدوافع وقوتها. فأنا مثلا عندما صرت رائدة لفريق البحث، حلمت بأنني قد وضعت جهاز نقل الحركة (Gear) في سيارة (رولز رويس) في الوضع الخلفي. وعندما بدأت تتحرك الى الخلف، أدركت أنني لا أستطيع أن يبلغ قدمي ملمس المتحكمات لايقافها، فرحت انتظر ارتطامها المحتم بالجدار وأنا في حالة هلع شديد. لكنها السيارة توقفت من تلقاء نفسها بالتدريج قبل ان تلامس الجدار. أن هذا الحلم قد وصف على نحو جميل وبلغة الصور مخاوف لدى تتصل بقدرتي على تولي قيادة فريق وريادته وذلك تحولي وتغييري لأدواري وانتقالي

من مـريضـة أو القـيـام بدور مـريضـة في التـحليل والعلاج الى القيام بدور مـعـالجة. وان حقيقة كون السيارة توقفت قبل حدوث اي تخريب يصيبها أو يصـيب الجدار او الاثنين معا، قد اضاف ثقة الى نفسي وعززها عندي بشأن قابلياتي من أجل القيام بدوري الجديد.

يـرى فـرويـد أن مـن يحـلم بأنه يسـتـقل قطارا أو أية واسطة أخـرى من وسـائط النقل، فـانه يمكن ان يدل ذلك على أنه تحـذير مسبق بالموت. واني أنا نفسي لم يمـر بي شيء من هذا القـبـيل خـلال اشتغالي بموضوع الأحلام، لكنهـا الرمزية المتضمنة زورقا يسير في النهر او ابحار سفينة في عرض البحر غـالبـا مـا تسـتـخـدم في الشـعـر كـاشـارة على الموت. واننا لنجـد الشـاعر (لونجـفـيلو) يصف كيف ان (هياواثا)، بعد ان تم عمله في الحياة واكتمل، ينزل قـاربه المصنوع من خشب البتولا الى مجرى النهر ويجري فيه وقت غسق الأصيل. وهذا مقطع من قصيدته يقرأ:

من حفافي النهر طفق الناس
يرقبون الزورق مصعدا يطفو
يطوح به الموج، وبدفـقات من التيار الجارف يغوص،
حـتى لاح الزورق لهم تارة أخرى يعلو
عاليا في ذلك اللجي من البهاء
ثم تواري وراء ضـبـاب كثيف
وكالهلال عندما يبزغ، رويدا رويداً،
غـاب واخـتفى في جوف الأفق الأرجواني السحيق.

هذا، واننا لنجـد جبران خليل جبران في كـتـابه : «النبي»، ومنه سبق لي أن اقـتـبـست، يصف مـوت المعلم بلغـة رمـزية مشابهة لتلك التي تكلم بها لونجـفـيلو. وهنا نجـده، عن طريق اسـتـخـدام السـفـينة رمزا للموت، هو الآخـر يقـرب رمزية البحر ويستعملها بوصفها صورة عقلية مفضلة في الحلم تعبر عن أعماق اللاشـعـور والعـقل الباطن، وبذلك فاننا نجد في هذا تعبيرا

رمزيا في الفلسفة الشرقية عن العقل الجبار The Great Mind الذي يتفهم حكمة الوجود والخلق ويحيط بدقائقها، هذا الوجود الذي منه جئنا واليه نعود.

الا ما أصبر قبطان سفينتي وهو يمسك بمقودها في مهب نكباء وأشرعتها في مخافق ريح عاصف تضطرب حتى دفتها تستوجب توجيها وان قبطاني بهذا يزجرني لألتزم بالهدوء وعلى بحارتي هذه ليست بخافية، وهم الذين أفعمت مسامعهم أصداء أمواج البحر العاتي بتلاطمها. ها هم قد أصاخوا لي السمع متصابرين، وأنهم لن يتصابروا علي أكثر. ها قد غشى الموج شواطيء البحر وتارة أخرى رأمت الأم العظمى على وليدها والى صدرها ضمته بحنان دافق.

تستطيع الأحلام ان تعلمنا الكثير عن غرائب اللغة الرمزية الخاصة بالأحلام، واني ليتملكني العجب في الغالب ما اذا كان الشعراء ـ ودون ادراك منهم ـ انما يستمدون الهامهم مباشرة من أعماق العقل الحالم.

الذات من خلال المرآة العاكسة (الأحلام)

ولكن لسنا جميعنا، على أية حال، على حظ كبير ولا كلنا نجرؤ بما فيه الكفاية لأن نصبح في أحلامنا أننا نبقى نحن كما نحن عليه، وتبقى ذواتنا هي هي، وأن معنى ما نراه من أحلام انما تكمن في ما نحن عليه من علاقات تربطنا بأشخاص آخرين، وما قمنا ونقوم به من أعمال، وبما يحصل لنا في مجرى حياتنا من أحداث، وان النفس الحالمة لتختلف من حلم الى آخر، وانها لتختلف باختلاف المرآة العاكسة الليلية (الحلم) اذ أنها

تعكس الأفكار والمشاعر الخافية، وقد عبرت عن ذلك ما ذكرنا من أمثال مضروبة في هذا الفصل. وما أكثر ما نكون قتلة في أحد الأحلام وتلوذ بنا ضحايا في أحلام أخرى. واننا نقوم بأدوار نشطة فعالة في بعض أحلامنا، وفي بعضها نبدو أمام أنفسنا سلبيين ومجرد متفرجين. وغالبا ما نرى أنفسنا في أحلامنا سعداء، ولكن ما أكثر ما نشاهد ذواتنا قلقين، مضطربين، وخائفين. وبهذا فان الحلم في كل حالة من تلك الحالات ينبئنا عن الكيفية التي كنا نرى فيها أنفسنا في مواقف الحياة الجارية من غير أن ندرك ذلك.

واذا ما تجاوزنا ما نحن عليه من الحدود السوية، كما هي الحال بالنسبة الى (أليس)، فمن المحتمل ان الحلم انما أراد أن يظهر لنا أننا توحدنا تماما تقريبا بالدور الذي رأينا وبالدور الذي نحن نمارسه، إن لم يكن هذا في المواقف كافة، فهو يصدق على بعض المواقف في الأقل. ان أحلاما كهذه تكون عادة نادرة، لكنني أنا نفسي قد اكتسبت تبصرا ذا قيمة طيبة من بعض الحالات التي هي من هذا النوع - والأمثلة على ذلك هي عندما رأيت نفسي شاة تقاد الى الجزار، وعندما ظهرت في حلم أو حلمين وكأنني رجل، وفي أحلام أخرى قليلة كنت، كما في حالة أليس، أرى نفسي فيها ملكة. وعندما حلمت احدى عضوات الفريق وكأنها كانت شبح لجدتها، استطعنا أن نتبين أن في حياتها شيئين: هما أنها أولا ليست واقعية، وأنها ثانيا كان لديها احساس يلازمها طيلة حياتها وهو انها كانت ظلا لجدتها، ليس غيرة أن أحلاما من هذا النوع تدلل في الغالب على أنها جزءا لا يتجزأ من سلسلة متصلة بأحلام أخرى تظهر فيها الأغنام، والرجال، والملكات، والأشباح، وسواها، وهي تمثل اشخاصا آخرين - فهي أجزاء ليست من الأنا، أي ليست (الأنا) كما يجب وأن احلاماً كهذه تستحق تقريبا دائما بأن توضع على محك التحليل المستفيض، وذلك استطرادا مع ضرورة النظر الى داخل أعماق الذات، وبانتهاج طريقة سأتوفر على وصفها في الفصل القادم.

والحقيقة هي أنه حيثما تكرر ظهور الاشخاص في الأحلام أو توالت فيها الأحداث والموضوعات، فانها في تكرارها هذا انما تعكس مشكلات تنطوي عليها تلك الأحداث الخارجية المحددة او المواقف العامة في الحياة الواقعية. وفي الأحلام الخاصة أو الأكثر تخصصا هذه، فمن المرجح ان تكون جميع الصور التي تظهر فيها جزءا من ذواتنا نحن، وأنه لمن المفيد دائما أن نتبين مع أي قسم منها نحن نتوحد ومع أي قسم آخر منها أو الي أي جانب منها نسقط أجزاء ونستبعدها على أنها (ليست الذات) صاحبة الحلم. هذا، وان ما تنطوي عليه الأحلام من معنى ليصبح أكثر وضوحا فقط حينما نتيح لأشخاص الحلم مواجهة (الأنا) فيتصدون لها بحوار مفتوح، لكي (يعبروا عن ذواتهم ويفصحوا عنها) وفق النهج الذي اقترحه (يونج) وفصله باسهاب اكثر (بيرلز).

واني لآمل أن أوضح فيما بعد على نحو جلي، ويمكنني القول هنا الآن، بأن الخبرة تتيح أحيانا فيضا من المعاني الجديدة التي تذكرني بها الآن في هذه اللحظة عبارات القديس بولص المعروفة والتي يقول فيها :

(اننا الآن نرى عبر زجاج، رؤانا معتمة مؤقتا، ولكنها رويدا رويدا ستنجلي، لنكون مع ما نريد أن نستبين وجها لوجه، فالآن أعرف شيئا جزئيا، لكنني فيما بعد سأعرف بوضوح ما هو مألوف تماما مثلما أنا منظور معروف).

هوامش الفصل التاسع

(١) تريد المؤلفة أن توضح بلغة العلم الصراح والمجاز المتاح أن أحلامنا مرآة لحياتنا (المترجم)

(٢) يلاحظ هنا أن المؤلفة ترمي إلى أن وراء حواسنا تقبع هناك كوامن لا يكشف عنها إلا العلم وإن ما لا نعرفه أكثر مما نعرفه (المترجم)

(٣) الدراما النفسية من ضروب العلاج النفي ابتكره مورينو (١٩١٤ ـ ١٩٥٩)، إذ يطلب فيه من المريض نفسياً أن يمثل دوراً في مسرحية قصيرة تكتب خصيصاً لهذا الغرض، ومن خلال تمثيله تستبان دوافعه ونوازعه، كما يمكن بذلك التنفيس عما في طوايا ذاته (المترجم)

(٤) استعملت المؤلفة كلمة Wombie وهي تعني في الميثولوجيا ميتاً يعاد إلى الحياة ولكن من غير قدرة على الكلام وبدون حرية الإرادة (المترجم)

(٥) نوع من المدارس الثانوية بانكلترا (المترجم)

(٦) استعملت المؤلفة كلمة Psyche وهي مبدأ الحياة العقلية وتعني أيضاً العقل بتكوينه المعنوي من حيث التركيب الشعوري واللاشعوري، ويراد بهذه الكلمة كذلك النفس وتكاملها، والمعنى هنا ينطوي على الظواهر الخارقة (المترجم)

(٧) التبطن عملية استدماج نفسي عن طريقها يمتص الفرد ويتشرب في بناء (الأنا) لديه شخصاً أو موضوعاً فيصبحان وكأنهما جزء لا يتجزأ من ذاته ومن تكوينه الداخلي، ومن هذا التبطن استدماج الأبوين في شخصية الطفل. (المترجم)

(٨) يلاحظ أن اسم المعالج هو دومنيان واستخدمت المؤلفة كلمة domin-ion وتعني الهيمنة والسطوة أو السيطرة، وتريدان للتطابق بين الاسم واللفظة المفردة دلالة (المترجم)

(٩) يساكنهما: يشاركهما في السكن ويقيم معهما (المترجم)
(١٠) المقصود هنا هو مساعدة مارك هذا على أن يتجاوز ما يكمن فيه من نزعة طفلية ما برحت كامنة في أعماقه (المترجم)
(١١) استعملت المؤلفة تعبير gritted his teeth ومعناه صَّرت أسنانه صريراً، لكن الترجمة في المتن أدق أداء للمعنى وهو تعبير عربي ينطوي على الكناية عن قوةالبأس والشدة والشجاعة (المترجم)
(١٢) استخدمت المؤلفة كلمة Suppress وكان أوفق لو أنها استعملت المصطلح النفسي لدلالته العميقة (المترجم).
(١٣) تعني افترقت فيما بعد عن زوجها بالطلاق (المترجم)
(١٤) تقصد المؤلفة تخليها عن دورها في الانصراف إلى إدارة البيت ورعاية أسرتها (المترجم)
(١٥) أرادت المؤلفة الربط بين الاسم (كرستيان) وتعني مسيحي من الناحية الحرفية، وبين برنامج صديقها الذي أصبح زوجها فيما بعد (المترجم)
(١٦) يعتمر بعمامة: يضع على رأسه عمامة (المترجم)
(١٧) الانسحاب في علم النفس غير الانطواء الذي هو مركب في الطبع ونمط من أنماط الشخصية. الانسحاب وسيلة نفسية وسلوكية (المترجم)
(١٨) تريد المؤلفة بهذا التعبير المجازي زواجهما كما تم الرمز إليه في الحلم بالطفل (المترجم).
(١٩) نفق الحيوان: أي مات (المترجم).
(٢٠) تعبير مجازي يراد به الحياط في الحياة من تعزيز الناس الأشقيا بالناس الأخيار الأبرياء (المترجم).
(٢١) التناقض الوجداني أو ثنائيةالمشاعر مطلح أدخله في مجالات علم النفس بلولير عام ١٩١١ للدلالة على الميل العقلي الذي تظهر فيه لدى الشخص مشاعر متضاربة في آن واحد مثل الحب والكراهية، الرغبة

والرهبة، الإقدام والإحجام، وتكون هذه الظاهرة لدى المرضى ولدى الأسوياء على حد سواء، والأسوياء أسلم موقفاً في اتخاذ القرار عندما يتعلق بإحقاق حق (المترجم).

(٢٢) أوقاب: جمع وقب وهو التجويف (المترجم).

(٢٣) السعدان أو الرباح baboon من نوع قردة أفريقيا ضخم الحجم، قصير الذنب، قبيح المنظر (المترجم).

الفصل العاشر

تمحيص الذات

كتب الفيلسوف الألماني (فخته) يقول : (لما لم يكن بوسعي تعيير ما في الخارج مما يحيط بي، دعني اذن أغير ما بداخلي مما في ذاتي.) ولعل هذا كان يبدو لأغلب الناس في القرن التاسع عشر، ذلك العصر العظيم، عصر قوة الارادة Will Power وبدء اتساع التكنولوجيا وامتدادها، دليلا على الانهيار العصبي. اما اليوم ونحن نشهد اثر التحليل النفسي وتأثيره يتخلل حضارتنا، فان هذا التأثير قد جعل رقاص (بندول) الساعة ينوس في الاتجاه المعاكس، الى هذا القدر حدا الأمر بكثير من الناس الى أن يضائلوا ويقللوا من مقدار ما يمكن تغييره في طبيعة الأشياء الكامنة في العالم الخارجي المحيط بهم. ولقد حاولت في الفصلين السابقين ان أوضح السبل التي تستطيع الأحلام بواسطتها مساعدتنا على أن نقف على حقيقة هذا الأمر، وذلك أما عن طريق لفت انتباهنا الى خبرات كنا قد تخطيناها في خضم حياتنا الواعية، أو بجعلنا على وعي بالكيفية التي تشكل بها اتجاهاتنا وانحيازاتنا ارجاعنا واستجاباتنا نحو اشخاص معلومين ومواقف محددة.

وعندما نعي امثال هذه الرسائل وتلك الاشارات التي ترد عادة في أحلامنا، فإننا نستطيع ان نتفادى كثيراً من المهاوي والمزالق ، وأن نتصدى بفعالية اكثر لما يواجهنا من مشكلات يومية. وانه لمن الضروري في الوقت نفسه ان نقدر المدى الذي تبدهنا فيه هذه المشكلات وذلك لكي نعكف على دواخلنا ونكشف ما يقبع فينا من مواطن ضعف، وعدم اتزان، وصراعات، وسواها من عوامل أخرى تضافرت فجعلتنا أقل كفاية مما ينبغي ان نكون عليه. وفي هذا الفصل سينصب اهتمامي على تبيان الكيفية التي يمكن بها للأحلام لأن تساعدنا لا لفهم المشكلات الداخلية فينا

فحسب، بل لتمكننا كذلك على استبانة المصادر الكامنة في الطاقة النفسية، وهي المصادر التي بدونها فان أي جهد يبذل (لتغيير ما يمكن في دواخلنا وفي اعماقنا) يعد جهداً ضائعاً ولا جدوى منه.

ان اعتبار الحلم صورة تحكي واقعا بشكل مجسم والنظر اليه على هذا النحو يجعلنا نعي حقائق ما لدينا من مشكلات داخلية، كما اوضحت ذلك في الفصل السابق. وفي حالة الربط بين حلم معين وبين صور عقلية تجدّ للمرء في الحياة، فاننا نتمكن بذلك في الغالب من اكتشاف كيف ان حياتنا لما تزل بعد تهيمن عليها (تراكيب) كائنة في التكوين النفسي للفرد ـ وهذه تتمثل في أصوات الأباء، والأخوة والأخوات والأقارب ، أو أي اشخاص أخرين مروا بنا في مستهل طفولتنا المبكرة ممن كانوا يملون علينا ما يشاؤون بطرائق تماما غير موائمة لشخصياتنا ابان الرشد. وان صوراً أخرى من الأحلام ترينا واجهات أو جوانب لشخصية كنا قد أهملنا جوانبها تلك، أو أنها تظهر لنا حقائق دوافع كنا قد كبتناها وطردناها من حيز الشعور نظراً الى أن الأصوات الداخلية فينا نبهتنا الى ان الدوافع تلك كانت مخجلة أو تتسم بالخطورة . ولكي نتبين الجذور الكامنة وراء مشكلات كهذه، علينا اذن ان نميط اللثام عن الطاقة المطلوبة من أجل اجراء التغيير الداخلي فينا والنماء اللازم لنا، وان لي من خبرتي ما يسمح لي بالقول بأن الضرورة تقتضينا بألا نقف عند ظواهر الأمور، بل علينا أن نستشف ما يمكن وراء الصور المباشرة للحلم، ولا يكون ذلك عن طريق إفتراض وجود محتوى كامن Latent ، مموه كما ذكد فرويد، وانما عن طريق فسح المجال للصور العقلية للحلم لتتحدث عن نفسها وتعبر عن مكنوناتها، كما سبق لنا أن بينا في النصف الثاني من الفصل السابع.

والاسلوب الفني المتبع في هذا الشأن انما هو قائم على الفرض القائل ان جميع صور الأحلام انما هي جزء لا يتجزأ من ذواتنا، صور كنا قد انكرناها او استبعدناها لأننا وجدناها تؤلف تهديداً للصورة الشعورية التي نحملها

عن ذواتنا في دنيا الواقع. لذلك فاننا نعمد في الغالب الى دفع تلك الصور العقلية الشعورية الى خارج (حدود الأنا Ego) التي تكوّن الجو العام الخاص بالوعي الشعوري، نطردها ونحن نقول لأنفسنا، أو يقول الواحد منا : (ذلك لست انا). واننا لنجد كثيرا من الناس في واقع ثقافتنا يتنصلون من الجانب الضعيف الواهن من ذواتهم، مما يعتبرونه (جبناً) وشيئا لا ينم عن (رجولة) فيما نرى أخرين ينبذون الجوانب العدوانية والجنسية فيبعدونها عن شخصياتهم معتبرين اياها لا تتسم بسمات الاسماع غير ان (الأنا) وان كانت تناهض هذه الصفات وتستنكرها، فانها ـ أي الخصائص ـ لا تبرح مكانها فينا إذ تمكث في محلها هنا داخل مجالنا التكويني النفسي وانها تبقى جزءاً لا يتجزأ منا. فهي، اذا ما استخدمنا عبارات يونج، تشكل (الظل) لأنفسنا، بل ان يونج قد ضغط المبدأ العلمي هذا اكثر الى حد انه ذهب الى القول بأن تحت المظاهر الاجرامية الخارجية، يختبيء هناك زعماء الرايخ الثالث في المانيا وهم يتظاهرون بأنهم تملأ جوانحهم الرقة الحنانة والعاطفة الفينانة. ثمة اختبار بسيط يمكّننا من اكتشاف بعض الجوانب المنكورة في ذواتنا هي أن نسأل أنفسنا عما نمقته أشد المقت في الناس الأخرين، ذلك لأنه من المؤكد تقريباً أن نجد الشيء نفسه يجيش بعيداً في اعماق نفوسنا تحت مستوى الوعي الشعوري منا، وانه فقط يتربص هناك لاقتناص الفرصة لكي يقفز الى الأعلى تعبيراً عن نفسه على المكشوف. وانه دائما ليفلح في ذلك من حين لآخر وذلك حينما يكون العقل (غافلا)، وعند ذاك نقول ان الشخص قد تصرف تصرفا مغايراً لما هو مألوف منه من سلوك رزين . وان معظم الناس، كما يقول بيرلز، لينفقون وقتا طويلاً ويستنزفون جهداً جليلاً في سبيل تحاشي الأشياء التي يخشونها في انفسهم بحيث لم يتبق لديهم الا النزر اليسير من الوقت للاستمتاع بحياتهم، وانه فقط عندما تتوفر لدينا الرغبة الأكيدة لاستعادة الأجزاء المغتربة من شخصياتنا واسترجاع ما وظفناه من طاقة في قمع تلك

الأجـزاء المنحّاة، حـينئذ فـقط يصـبح باستطاعتنا ان نكون حقا نحن انفسنا كما ينبـغي ان نكون، وان نظل اناسـاً مـتكاملين تنتظم شـخـصـياتنا الصورة الكلية Whole.

وهنا عند هذه النقطة بالذات، فـانني انصح القـراء الذين يعنيـهم الأمـر كـثيراً ويجدون فـعـلا في تطبـيق تجربة النظر الى دواخل الذات مما يعنيهم من شأن أحـلامـهم بأن يعودوا الى النصف الثاني من الفصل السابع، اذ انني لا أرغب في تكرار وصف مـا كنت قـد ذكـرت من قـبل . وسأكـتفي هنا فقط بتلخـيص القـواعـد العـامـة المطبـقـة، واني لراغبة هنا ان أؤكد بأنني في هذا المجـال سأقـتـفي آثار (بيرلز) وتبصر انه بصـدد مـا أداه وفق اصـول العلاج الجـشـتـالت وتفـسير الأحـلام حسب ذلك النهج، على أن ما أفدته من آراء (بيرلز) لا يعني بالضرورة بأني سأطبق كل مـا جـاء به الجـشـتـالتـيـون بنصه وفـصـه. وفي نهاية هذا الكتـاب توجـد قـائمـة بأسـاليب التطبيق الجشتالتي وفنياته باستطاعة الراغبين في اتباعها الرجوع اليها.

ينطوي الحلم احـياناً على كثير من الاشخاص والصور تعج فيه وبها يحفل بحيث يصعب على المرء ويشق عليه ان يعرف من اين يبدأ. واني من جهتي ابدأ عـادة بأن أفسح المجال لأكثر اشخاص الحلم وضوحا لأن يتحدثوا عن أنفـسـهم بأنفـسـهم ومن ثم أجري مقابلة بين كل اثنين منهم حتى أتبين أن اثنين منهم حـقـا تحـتـدم بينهما مـواجهة حقيقية ويحدث بينهما صراع ظاهر، وعندئذ اعـرف أنني قـد عـثـرت على شيء ذي بال وله أهميـتـه. وانه لأمـر مألوف عـادة ان يكون ثمـة شـخص، اسماه بيرلز (المتـحكم)، وهو يضـارع الى حـد مـا فكرة فـرويد عن الذات العليـا، فيبدأ هذا الشخص باخضاع، وتعنيف، واصـدار الأوامـر، الى شـخص آخـر يتـقـمص دوراً عبر عنه بيرلز (المنفـذ أو المسـتـخذي) ـ وهذا الأخير يمثل جانبا من الشخصية نخجل منه عـادة فنحاول جاهدين استبعاده ونفيه خارج حدود الأنا.

فـفي حلمي الموصـوف في الفـصل السـابع، الخـاص بالبيتين احدهما على

شاطيء البحر والأخر فوق تل، كانت الصورتان الواضحتان في الحلم تعبران من غير شك في ذلك الحلم عن البيتين ومنهما كانت البداية لي في أن أبدأ بتفسير ذلك الحلم بالذات، لذا فانني شرعت باديء ذي بدء باستنطاق البيت المطل على الشاطيء ليفصح عما بضميره، وحالما ذكر انه يؤوي أسرة تبغض البحر وتخشاه، أيقنت أنني قد كشفت غطاء عن اصطراع خبيء. وبدلا من أن أدعو البيت الذي تراءى لي قائماً فوق التل ليتحدث عما بدا له، فقد استحضرت العائلة (وهي في واقع الأمر لم تظهر في الحلم نفسه) وكذلك البحر استحضرته ايضاً وجعلتهما يواجهان أحدهما الأخر، ولهذا فانني وجدت نفسي بصورة مباشرة تقريباً وسط معركة حامية يشتبك فيها الجانب المتحكم في داخلي والأخر المستجيب المنفذ، وبينهما تلك الأسرة وهي تعنف البحر لتماديه في الهياج وعدم استقراره واخلاده الى الدعة والهدوء. وسرعان ما اكتشف في خضم الصراع الانفعالي هذا بين التحكم الزميت والتعبير الطليق كنت قد غربت الجانب الأخير هذا فأبعدته دون وعي مني، ولذلك أدركت انه يتعين على الآن أن استرده واعيده الى مكونات شخصيتي. ان رسالة الوجود في ذلك الحلم قد تجلت فأصبحت واضحة عندما قال البحر (وهو يرمز الى انفعالاتي) ، (ان لي الحق ان اعرب عن ذاتي وان اعبر عنها)، وما ان تلقيت هذه الاشارة، حتى جعلت مهمتي حيالها ان أنقلها معي حيثما كان ذلك ممكنا في مجرى حياتي اليومية.

لو اتفق ان مثلت هذا الحلم تمثيلاً ضمن جماعة محددة، لأكتفي رائد المجموعة بذلك وترك المسألة تنتهي هناك، وهذا احتمال قائم، ولأكتفي باشارة واحدة لها وجودها في الحلم وحسب بيد أنني لم أكن بضمن جماعة، وكنت بصورة أساسية مهتمة بما في الحلم من اشخاص، ولذلك فقد قررت الاستمرار على استكمال المسرحية Drama . ، لقد حفزني الى ذلك بصورة خاصة الشخصية التي كانت تمثل (الريح) او الزوبعة التي اهاجت البحر وجعلته يتراقص، لذلك فقد دعوته ليتحدث عن نفسه بنفسه. وكان هذا

على نحـو مـا اكـثـر أجـزاء الحلم أهمـيـة، وبخـاصـة بعـدما عرفت أنني في محـاولاتي لطمس انفـعـالاتي، انما كنت في الحـقـيـقـة أنكر واقع الطاقـة التي منحـتني الحـيـاة. وغالباً ما يحدث ان يرد ذكر شخص معين أو صورة محددة في الحلم بشكل عـارض او على نحـو غير مـبـاشر، أو أن يكون مـتـضمناً في الحلم وداخـلا في تضـاعـيـفـه، فـاذا به ينطوي على اشـارة أو رسـالة بالغـة الأهمية بالنسبة للحالم، كما ستجلو ذلك الأمثلة المضروبة في هذا الفصل.

ان احدى المنافع الهامة المجتناة من تطبيق الاسلوب الجشتالتي الفني المتبع في تمـثيل الحلم واتاحـة الفـرصـة أمـام الصـور المتـضـمنة فـيـه لنفصح عن مكوناتها، هي انها تسمح لنا لأن نتوحد مع (الأغراب) Aliens ، القابعين في تـركـيب تكويننا النفسي، وأننا في الواقع نكون حـينئذ أقـدر على تحـسس مـشـاعـر اولئك الأغـراب بـدلا مـن ان نتـحـدث فـقط حـديثـا فكريا عن احـاسـيـسـهم، مـثلما يحصل غـالبا في التحليل النفسي. فعندما تحدثت مع صـوت البـحـر (وهو يمثل المتنفس الانفعالي لحالتي)، أخفي أنني قد بكيت حـقـا، وذلـك لما انتـابني من احـبـاط، ذلك لأنني أحـسـست ان الصـوت المتـحكم بي في داخلي (وتمثله الأسرة القـاطنة البـيت على الشـاطيء)، سوف لن يفـسح لي المجـال لأن انهاري راقـصة على امتداد الشاطيء ذاك (وهو هنا يمـثل مجال حـياتي) . وبعبارات أخرى أقول خبرت فعلا احباطاتي كأشد ما يحسـه حـيـوان حـبـيس في قـفـص من مرارة القيد وقسوة التوتر، وهو بطبيعة الحال، شيء يختلف تمام الاختلال حين يحس المرء بمشكلته ويعرف مكابدته اياها عما يتلقـاه من تفـسـير لها بارد جامد يتولاه نيابة عنه شخص آخر. لك ان تشك في حـقـيـقـة التـفسير والتأويل، ولكن ليس بمقدورك أن تماري في نفي الخبرة حـينما تنبثق من أعماق كينونتك أنت.

ان الموضـوع الذي كان يلح علي أن أختار بين أحد البيتين، كان موضوعا قـد تكررت رؤياه في أحـلامي عـدة مرات خلال مسرى حياتي، وكان ذلك دائما يحدث عند نقـاط حـينما يكون مجال حـيـاتي مـهـددا. وكـان هذا مؤشرا

واضح المعالم وهو نذير بأنه قد أطل برأسه من مشكلة داخلية جذورها ضاربة بعيدا في اغوار النفس، وانها ليست مشكلة عارضة ناشئة عن ظروف طارئة ومصدرها العالم الخارجي. واننا لنجد اسلوب الفن الجشتالتي يكاد دائما تقريباً يتيح دراماتيكية عندما يتبع في حالة تكرار نفس الموضوعات في الأحلام او حينما يظهر نفس الاشخاص في مناسبات مختلفة في تلك الأحلام، ولا سيما عندما يكون اولئك الاشخاص من النوع الملغز او الخيالي مما لا نصادف امثالهم في وقائع حياتنا اليومية. وفي هذه الحالات، انه لمن المؤكد تقريبا أن هذه الصور وهؤلاء الاشخاص انما يمثلون اجزاء بارزة من ذواتنا، وانهم ليستمدون معظم ما يزخرون به من طاقات من اعماق التكوين النفسي عندنا، حتى وان كان المحرك والمسرع لنشاطهم يتأتى من مواقف خارجية كائنة في البيئة. والأمثلة الآتية المستمدة من احلام اعضاء فريق الدراسة الذي يعمل بمعيتي ومن ميدان أحلامي الخاصة بي، كلها توضح كيف أستعمل انا شخصياً أساليب الفن الجشتالتي من اجراء استقراء ما في (الدواخل) ومن ثم الكشف عما اسماه (بيرلز) الاعيب (تعذيب النفس) The Self - Torture Games، التي تمتص معظم ما في تركيبنا النفسي من طاقة فتستهلكها واني بايجاز شديد، لأشعر بأن فهما للطريقة والمنهجية ليتأتى بصورة أساسية من متابعة التعرف على ما في الأمثلة نفسها من محتويات، ولكني أثبت هنا دليلا مقتضباً بشأن الخطوات الرئيسية المتبعة في استعمال الأحلام والافادة منها من أجل استرجاع الجوانب المفقودة او المغتربة من جوانب شخصياتنا. وهذه الخطوات هي:

١ـ دع الصور المتباينة في الأحلام تتحدث عن نفسها، حتى ينجلي هناك جانب متحكم وأخر منفذ.

٢ـ ان ما يشتجر بينهما من عراك ينبئك عن طبيعة الصراع أو لعبة تعذيب الذات المتضمنة في الحلم.

٣ـ ان طبيعة الجانب المتحكم تتيح لك دليلا به تهتدي الى ما في شخصيتك من نقيصة محددة ـ اي ان هناك شيئا ما أنت ترغب عنه ولكن يتعين عليك ان تستعيده وتقر بوجوده.

٤ـ اجعل الجانب المنفذ يواجه الجانب المسيطر ويشرح له حاجاته ومتطلباته، وهذا الاجراء من شأنه ان يسمح لرسالة وجود الذات ان تعبر عن ذاتها. فهي كائنة في الحلم ولكنها تتطلب الاعراب عن نفسها.

٥ـ استرجع (الكنز المطور The Buried Treasure واستكمل الجشتالت (الكل) ودعه يتبوأ مكانه الصحيح في الشخصية.

٦ـ وأخيراً، فانني أكرر فأقول : ففيما نجد المعالج الجشتالتي لا يميل الى استعمال كلمة (لا شعور)، مفضلا عليها استعمال لفظة (اغتراب) Alienation، فانني من جهتي استخدم الكلمتين بشكل متناوب للتدليل على جوانب (المجهول الداخلي) The Inner Unkown الشاوي هناك في اعماق شخصياتنا.

بالتروي والانتظام والمثابرة تكسب الرهان

ان حلم جوزيف المذكور في الفصل التاسع، مثل جيد على ما يمكن ان يضيفه فن الجشتالت الى سبل معالجات النظر عبر المرآة العاكسة المعبرة عن الأحلام. ففي هذا الحلم بالذات كانت جهود جوزيف وزوجته في البحث عن دار لهما تنتهي دائما بالاحباط، وان رحلتهما انتهت بهما بالعودة الى بيتهما القديم بقطار تجاوز بهما المحطة التي كانا يريدان النزول فيها. ولذا فان جل طاقة الحلم قد تولدت من العالم الخارجي ذلك لأنهما كانا في حقيقة الأمر يبحثان عن بيت في ذلك الوقت. ولدى النظر الى الحلم واعتباره صورة فانه في الواقع قد كشف بوضوح عن أن جوزيف كان يتلكأ في شراء بيت لأنه كان يظن أن من مثله (أو هكذا كان يحدثه صباه القابع تحت اهابه) لم يكن معتاداً على امتلاك بيت خاص به واليه تعود ملكيته. بيد انه عندما

فسح المجال لبعض الصور المتضخمة في الحلم في التحدث عن الذات والاعراب عن نفسها، فان مشكلة أبعد غورا قد بزغت وأطلت برأسها.

لقد اعاد جوزيف ، باديء ذي بدء، سرد الحلم فقصه على مسامع المجموعة بصيغة الفعل الحاضر (المضارع) لكي يعيش خبرته بحاضرها الآن وبوقتها الحالي ثم أني طلبت منه بعدئذ أن يتصور بأنه هو نفسه القطار وان يخبرنا لماذا (تجاوز محطته المرسومة المحددة)• وهنا تحدث فقال :

لقد اجتزت محطة فنزبري بارك وتجاوزتها لأنني قطار سريع. فأنا اتوجه توا ورأسا الى غايتي في كنجز كروس، ولست معنيا بالتوقف في محطات صغرى تتوسط بين البداية والنهاية. واذا كانا حقا يرومان النزول عند فنزبري بارك، كان ينبغي عليهما ان ينتظرا القطار البطيء الذي من شأنه التوقف في كل محطة وفي جميع المحطات. فليس بوسعك ان تستقل قطارا سريعاً وتتوقع منه ان يقف في كل محطة من أجلك.

ثم طلبت من جوزيف ان يتخيل نفسه قطارا بطيئا وان يكلم القطار السريع. وعند ذاك أنتقل جوزيف من الكرسي الأول الى الكرسي الآخر المقابل للأول وجعل يقول :

انا ما اصطلحوا على تسميتي قطارا بطيئا، وليس من حقك ان تستخف بي أو تزدريني . قد تكون أنت أخف حركة وأسرع ، تهف هفيفا فتمر مارقا عبر جميع تلك المحطات، متباهيا بنفسك، لكنني أنا في النهاية أفضلك كفاية (كفاءة) ذلك لأنني اهتم بكل اولئك الناس الذين يبتغون النزول قبل محطة كنجز كروس. انك لا تتورع فلا تتوقف ولا تقيم للناس أي اعتبار. واذا ما بقيت على سيرتك هذه سريعا كل الوقت، فلا بد أنك تكبو ذات يوم في هذا الزمان ثم تحرك جوزيف الى الكرسي الآخر وجعل يجيب :

القطار السريع : حسن يبدو على الناس أنهم يحبونني، وأني لم أتسبب في أي حادث حتى الآن. وأني لأعترف أنك نافع لبعض الناس، لكنك في

الوقت ذاته أنت ممل بطيء تجرجر نفسك متثاقلا، وكأنك فيل عجوز يلهث منقطع الأنفاس. فهذا عصر النفاثات، وأنت به تدري .

القطار البطيء : لعله عصر النفاثات، وانه لهذا السبب إذن علينا أن نحافظ على شيء من العقلانية والتعقل في هذا العالم - انه الجنون بعينه ان يطيش كل واحد فيندفع اندفاعا غير ملتزم على النحو الذي نرى. وعليك أن تتذكر حكاية عيسوب (أيوب Aesop) عن السلحفاة والأرنب - بالتمهل والتروي والمثابرة يكتسب الرهان في السباق. لقد كسبت السلحفاة الرهان وأحرزت السبق في ذلك السباق لأنها استمرت في الحركة على مهلها، ثابرت ببطء ولكن بثبات وثقة، فيما كانت الأرنب حريصاً على ان يسرع الخطى والجري السريع لذلك فقط وقع في كثير من المزالق والمآزق . حتى انه من فرط الغرور سولت له نفسه فنام، وهذا أمر يذكرني بأنك كثيرا ما تقف متخما لا تريم في داخل النفق خارج حدود أو نطاق النهاية أو المحطة النهائية، ذلك لأن تلك المحطة النهائية متخمة بالناس وبهم مكتظة، ولذلك فان اي راكب في داخلي سيسبقك الى محطة كنجز كروس ويغلبك في الشوط، كما فعلت السلحفاة. ولهذا فأني أقول :

من يتأن وللناس يتمهل

فأنه في المال يربح وبه يضرب المثل

القطار السريع : طيب، انك قد أحرزت نقطة، بيد أني ما فتئت أحسب ان لي ثمة مجالا في مكان ما.

نلاحظ هنا تناوبا في الأدوار جذابا. فالقطار السريع ابتدأ الكلام هنا ممثلا في الواقع صوت زوجة جوزيف، التي كان في حقيقة أمره يشعر حيالها بالنقص والقصور، ولكن ما أن استمر الحوار بينهما وحمى وطيسه حتى أصبحت للقطار البطيء اليد العليا فاتخذ دور المسيطر، فراح يلقي على القطار السريع (المنفذ) درساً في الأخلاق، محذراً اياه من مغبة مخاطر السرعة مما قد لا يدع لوجوده في الحياة مبرراً. ان ذلك الجانب من شخصية

جـوزيف الذي وطده بالصلة بتلك الفـتـاة والذي يمثل لديه رغبة في التسرع والتألف انما هو جـانب مجانف تمامـا لخلفـيتـه الاجتماعية ومغاير لها، ولكن يثـوي في أعماقـه هناك صـوت هو عنده أوهن من الجـانب المحـاذر الذي لا يـكف عن أن يذيع دواخل ذاته خطبـا رنانة تنطوي على كل مـا في قـصص (عـيسـوب) من قـوة بيـان وحـجة برهان ان الجانب المنفذ يستطيع عادة ان يعبر عن ذاته بطريقـة ملتـوية وغير مـباشرة، وفي حالة جوزيف بالذات فان هذا الجانب (المنفذ) قد فعل ذلك عن طريق اسقاط ذاته Projecting على زوجـة جـوزيف نفـسـهـا واختارها هي بالذات. ولذلك فان جوزيف عندما تناوب دوري القطارين السريع والبطيء انما كـان في لسـان الحال وكأنه يقول لـزوجـتـه (أنت كـوني المتسرعـة، وانا اخـتـار أن أكـون البطيء المتأني، وأننا كلينا مـعـا سنكون وحـدة مـتكاملة وبانتـهاجه هذا السبيل، فقد تفادى كل مـسـؤولية تقتضيه تغييرا في واقع شخصيته وتستوجب منه ذلك.

وعندمـا بحث جـوزيف هذا مع افـراد المجـمـوعـة وناقشه معهم تبين ان حكاية عـيـسـوب هذه بالذات انما هي جـزء لا يتـجـزأ من احداث طفولته، مـعـززة بذلك مـا في خلفـيـة الطبـقـة الاجتماعية التي اليها ينتسب من حذر شـديد ومـا تأخـذ به هذه الطبـقـة نفـسها من حيطة وتحوط وما يسور حياتها من قلق، ولقـد بلغ به الأمـر حدا انه لم يكن ليقدم على اتخاذ قرار قط مخافة ان يتـهم بالتـعـجل والطيش. وأن جـوزيـف نفـسه قد أقر بواقعه انه لم يكن ليـتـوصل الى قـرار نهائي بشأن أي شيء لم يكن في الحـسبان فيغير من مجرى الحـال. ولقـد ذكـر انه كـان متردداً في ان يشتري بيتـاً في الوقت الحاضر لأنه كـان يشـعـر انه اذا مـا انتظر فترة أطول فـقد يجد بيتا مناسبا وبسعر مناسب ايضاً، بل لعله يربح في يناصيب أو الرهان على كرة القدم، مما يسعفه ماليا فـلا يخوض تجـربة قلق الاسـتـدانة او اقتراض مـال لابتياع بيت يريده. وانه من الجـهـة الأخـرى، كما ذكـر، كان يخشى ان تموت زوجته أو تهجره وعند ذاك يكون شراؤه للبـيت خـسـارة ومـضـيـعـة للوقت! واضـاف يقـول انه في

دائرته كـان دائماً يقـدم عـمله قبل او في الوقت المحدد وذلك ليتحاشى حالة قـد يلغي فـيـهـا رئيسـه العـمل المطلوب او يعترض فـيكون قـد وفر الوقت اللازم (وهذا مـا كـان يفـعله رئيسه احيانا، مما يعزز في جوزيف من عصاب ومـا لديه من قلق). ومـا اسـتطاع يوما ولا كان بمقدوره ان يحجز مقدما من اجل عطلة يمـضـيـهـا او ان يقتني مسبقا بطاقة لدخول مسرح خوفا من أن يطرأ مـا ليس في الحسبان فيحول دون تنفيذ مأربه وتحقيق موعده. كان يبدو جليـا ان (الحـافلة البطيئة)، وهي هنا ترمـز الى اسقاطات صوت والديه التي مـا تزال قـابعـة في اعماقه، كانت تشل من ارادته وتعرقل من انطلاق سجيته وحـيـاته فـينعكس ذلك بالتـالي على الذين حـواليـه، فكانت تلك الأصوات الهامسة في أعماقه باستمرار تذكره بأن (الغرور يسبق السقوط) Pride Comes Befall، وتملي عليه أن : (عجلة اكثر، وسرعة أقل) More Speed Less Haste;، تلك عبرة أولى.

ان هذه الأصـوات التي تعـتـمل في تضـاعيف تركيبة التكوين النفسي انما هـي اصـوات مخادعـة ذلـك لأنهـا تـعـمـل بـشكل مخالف للعـرف ومجانف للقـواعـد، وكما هو منتظر، فـانها تحـملنا على أن نسـتـجـيب لما يواجهنا من مـواقف بطرائق نمطيـة جـامـدة دون ان نعي ذلك. وأن طريقة التصدي لها (للأصـوات) انما يتم بمـجـابهتها بوجهات النظر المناهضة لها حالما هي تطفو عـلى سـطح الشـعـور، وفي حـالة جـوزيف لعل هذا يعني مما يعني، ترديد العبارات المنطوية على عظات وعبر مثل :

(من حزم أمره تجنب العثرة).

(لا تؤجل عمل اليوم الى الغد).

Nerer Put Off Till Tomorrow What You Can Do To-day

وهذه هي الطريقـة المتبـعة من المعالجين بالتنويم المغناطيسي، ممن يتكون عـلاجـهم بصـورة اساسية من تغذية العقل المسترخي بايحاءات مضادة. وقد

شجعنا نحن في فريق الدراسة ، جوزيف أن يمثل (الحافلة البطيئة)، وذلك بأن يمنح القطار السريع شيئا اكثر مما لديه من طاقة وها هي النتيجة:

القطار السريع : مهلا، مهلا، رويدك دقيقة واحدة. انك لا تستطيع ان تخرج بمغنم من كلامك هذا. فأنا لا أتسمر في مكاني متعطلا في النفق كما تزعم، واني لأوفر منك نفعا واكثر فائدة لأناس ينتوون الذهاب توا الى نهاية مطافهم وغاية شوطهم عند منتهى توقفي هناك، أضف الى هذا، فأن ما رويت من حكاية - عن الأرنب والسلحفاة - لهي حكاية سخيفة لأنها تظهر وكأن من المسلم به أن تكون الأرانب دائما مخلوقات مأفونة غبية، وهي في الحقيقة ليست كما تظنها أنت. ولو أن الأرنب قد ذهبت الى نهاية الشوط رأسا وبلغت هدفها، كما ينبغي أن يفعل أي أرنب حصيف، لغلب السلحفاة من غير شك ولأمضى بقية يومه في الراحة والاستجمام لأستمتع بالبهجة وانه لمن الخير ان يكون الواحد قادراً على السرعة وان يكون بمقدوره الاسراع لأنه سيكون بوسعه دائما الابطاء اذا اقتضت الضرورة واذا هو شاء، ولكنك اذا كنت دائما بطيئا، فمن العسير عليك ان تحث الخطى وان تزيد من سرعتك مهما اجهدت نفسك.

القطار البطيء : ن . . . ن . . . نعم. أحسبك على صواب، ولكن ينبغي أن تقيم كل حالة حسب جدارتها وبما تستحق من تقييم بذاتها هي. أني لأغبطك ويجدر بي أن أقر بأني أحيانا أغبطك.

هذه حالة يستلم فيها الجانب المسيطر حالما تمت مواجهته بالادانة الحقيقية، ادانة هي أقرب ما تكون الى الاقناع، وفيها يرى (بيرلز) طريقة من طرائق احداث التوازن في بنية الشخصية. ولذلك فقد اقترحنا على جوزيف بأن يتذكر هذا الحوار دائما حينما واجهه أو عندما يواجهه موقف عليه ان يتخذ فيه قرارات في قادم ايامه المستقبلة وانه يتوجب عليه ان يتصرف تصرفا عقلانيا حسب سياق المشكلة التي تواجهه. وانه بهذه الطريقة وحدها سيتعلم بأن اتخاذ القرارات بشكل سريع تترتب عليه نتائج

ايجابيـة، ولا تنجم عنه نتـائج مأسـاوية. وهذه هي العـمليـة التي يسـمـيها المختصون بعلم النفس التعزيز (أو التدعيم) الايجابي Positive Rein-forcement. وهي العـمليـة التي يعترف بها اليوم بأنها تؤلف اساس التعلم الناجح بأكـمله. فـجـوزيف حتى هذه اللحظة قلما سمح لنفسه باتخاذ قرار سريع، ولذا فـهـو قد حرم نفسه من فرصة التصدي لما كان يخالجه من ربقة وهـم مـؤداه أن القـرارات السريعـة تفضي حـتما، حـسب وهمه، الى عـواقب وخـيمة. وهذا توهم محض مرده الى خيال جامح لا اساس له.

الطاقة والحيوية مصدر سرور دائم

ان حلم جـوزيف وحلمي عن (البـيـتين) كليـهما كـان حـالة واحـدة وقد اسـتمدت قصة الحلم الكاملة فيهما الطاقة من عالمنا الخارجي والداخلي تقريبا بنفس الكمـيـات. فـهما أشبه بعالم أليس) في المرآة العاكسة، كلاهما ينطوي على أشـيـاء عكست احداث الحـيـاة الخـارجـيـة على نحو رمزي مشوه، كما عـكـسا اشـيـاء أخـرى أقل وضـوحـا في مـعناها مما اتاح أسـاسـا لدلالات موجودة حقيقية تمت بصلة الى حـيـاة الحـالم ، وان تـلـك الـدلالات او الاشـارات يمكنهـا ان تـتـحدث عن نفسها اذا ما سنحت لها الفرصة . على أن الأحـلام تتكرر من حين لآخر وأنه لما يجردها من معناها اذا ما نظر اليها على انها مجرد صـور، وانها عندئذ يتـعـذر تفـسيرها حـتى في حـالة الاستعانة بطريقة التداعي الحر Free - Association وفي مـثل هذه الحـالات فان الركون الى اسـتـخـدام طريقة الاسلوب الكلي (الجستالت) يكون أجدى من أجـل الظفـر بالمعنى المنشـود، وأن لي من خبرتي مـا يؤيد أنها طريقـة أو أنه اسلوب قلما يخفق في توفير نتـائج مرجوة.

ولقـد روى (جـاك) الى فـريق الدراسة حلما حسبه لا معنى له حينما تملاه كـصـورة ونظر اليـه على اساس من هذا الاعتبار، لذا فقد طلب منه أن يعيد سرده بصيـغة الفعل المضارع تمهيدا لبدء العلاج على طريقة انتهاج الاسلوب

الكلي (الجشتالت)، فذكره كما يلي :

أراني في جنوب فرنسا محاولا اعداد نفسي للعودة الى مكان ما في أفريقيا كنت مقيما فيه عما قريب ومؤخراً، حيث تكثر العناكب الكبيرة والتي تدخل معك فراشك، وما أن تلج معك الفراش حتى تقف في منطقة من جسمك هي منطقة الضفيرة الشمسية(٢) وهي تبدأ تخمش مكانا لها ثلاث مرات، انه نوع من الطقوس تؤديه، وما أن تقوم بعملها هذا ثلاث مرات حتى تموت كما هو شأن النحل بعد أن يلسعك. هناك عدد كبير من العناكب، فما أن تهلك مجموعة منها حتى تحل مجموعة أخرى محلها، وليس بمقدوري أن أتصور لماذا أحب العودة الى تلك الأشياء البشعة، لكنني أشعر مضطراً بأن أستقل أول طائرة تريد الاقلاع لأتوجه الليلة الى هناك.

كل ما استطاع (جاك) ان يستنبطه بواسطة الاقتران من حلمه ذاك هو أنه يحب أشعة الشمس والمناخ الاستوائي Tropical Climate ، في الجنوب، هذا وإن لم يسبق له الواقع الذهاب الى افريقيا. اذ كان فكره دائما مشغولا بفكرة أن أفريقيا انما هي القارة المظلمة، وانها مكان بدائي مخيف، فكانت بالنسبة اليه عامل اجتذاب وابعاد، تجتذبه وتطرده. فهو لم يكن تواقا لحياة الحشرات والزواحف الكائنة هناك، لكنه ظن ان هذا لن يحول دون ذهابه اليها اذا ما واتته الفرصة للذهاب الى هناك حقا. لكنه لم يكن بمقدوره قط ان يلتمس لنفسه او أن يجد في ذاته اي ارتباط يقوم في نفسه لما قامت به العناكب في الحلم من حفر في الضفيرة الشمسية، اذ كانت تقوم بذلك ثلاث مرات ومن ثم تموت، وذلك بصرف النظر عن أو بمعزل عن حقيقة أنه لديه فكرة بأن الضفيرة العصبية تمثل مركز الجسم للطاقة العصبية Nervous. ومن الواضح ان العناكب في هذا الحلم قد جاءت أو طفت على سطح هذه النقطة، لكنه لم يعرف لماذا، ولم يكن بوسعه أن يتبين ماهية العناكب تلك أو أن يستبين هويتها بأية درجة من درجات الوضوح او الحقيقة. ولقد زعم أن العناكب انما ترمز للجنس ارتكازاً الى الرأي القائل

أن الذكـور منهـا تموت بعـد اخـصـابها الاناث التي تأكل الذكـور منهـا بعد عـمليـة التلقيح. ولم يكن بوسعه ان يتذكر شيئا من احداث يومه الماضي مما يحتـمل ان يكون سـبـبا في قدح شرارة ذلك الحلم الغريب، ولم تكن في ذهنه أية فكرة تحمله على الظن لماذا حدث حلمه ذاك في ليلته تلك.

طلبت من جـاك ان يضع افريقيا في الكرسي المقابل لكرسيه وان يتحدث اليها. وقد قال :

اني أحب شـعاع الشمس فيك، وأحب فيك المدى الفسيح وحياة الفقر، والحـيـاة الموحـشـة، وانه سـيكون تغـيـيرا مـدهشـاً ورائعاً لأن أتيك بعد حياة الرتابة والكآبة والضنك التي أقـضـيها هنا وأنا أؤدي كل هذا العمل الفكري المضني. واني لأبدو لا اسـتطيع تحـريك جـسمي او الاحساس به هنا ـ وكل مـا أقـوم به هنا هو ان أجلس خلف منضـدة وأمضي النهـار كله هكذا، ثم انصرف عـائدا الى البـيت ليـلا وأنا منهك فـلا أقـدر أن اسـتمتع بشيء حقا والشيء الوحـيـد الذي لا أحـبـه بقـد ما يتعلق الأمر بك هي تلك العناكب اللعينة الكريهة.

لذلك فـقـد طلبنا من جـاك أن يتحدث الى العناكب وان يستكشف منها مـاذا كـانت باعتقادها تفعل هناك. وفيما كان جاك ينتقل من كرسي الى آخر ، تارة يمـثل دور العناكب وطورا يتـحدث عن نفسه، فقد ترتبت على ذلك المحاورة الآتية :

جاك : أي جحيم تصنعون وأنتم تفسدون أيام عطل الناس؟

اننا لا نقـدر على أن ننام وأنتم تدبون فـوقنا خلال الليل. لماذا لا تعودون أدراجكم الى الأدغـال والآجـام مـوطنكم الأصلي، وتدعوننا وشأننا؟

ألعناكب : انه لمن صلب طبيـعـتنا أن ندب فـوق أجساد الأناس. انكم لتـجـتذبوننا. واذا ما رقدتم ساكنين دونما حراك فأنكم لن تحسوا بنا.

جـاك : لكنكم لسـتم طبيعيين بطريقة ما. فأنا لم أصادف عناكب مثلكم من قـبل، كأني بكم انما تقـومـون بطقـوس خـاصـة محددة في منطقـة الضفيرة

الشـمـسـيـة. ان لكم لمهمة ما، ويا ليتني أعرف ما هي . أنتم لستم بحال عناكب حـقيقيين، أنتم بالأحرى بمظهر زائف وخراصين.

العـنـاكب : أوه، حـسنا. والآن سنعترف. انك على صـواب وفـيما قلت محقـا. اننا لسنا عناكب حـقـيـقـية. اننا من صنع الحكومة الأفريقية لنمتص طاقـتكم العـصـبـيـة كلهـا وأنتم نيام وذلك لكيلا تبددها في اليوم التالي على نـشـاطات لا طائل فـيـهـا. الهواء الطلق هنا يجعلك تمرح وترقص، تسـبـح وتركب الخـيل وسـواها، وتنغـمر في اعمال جنسية فيها اسراف. وعندما تقوم بثـلاث جـولات من تجـاربنا وكلهـا حـافلة بالطاقة الكاملة. فأن ميكانيكيتنا تتـوقف فـتظنوننا قـد مـتنا، ولكن لا شيء يعـدو الحقيقة سوى ذلك. وتأتي العـاملة في الصـبـاح لتكنسنا فنرسل الى دار الحكومة حيث تضخ طاقتنا من داخلنا لنسـتـخدم في تشغيل الحاسبات (كمبيوترات) وهكذا دواليك ومن ثم تعـاودنا في الليلة التـاليـة قـوانا وطاقـتنا لتـبدأ الدورة السابقة من جديد. انه لشيء بديع ورائع ألا تظن هكذا، أيها الفتى؟

جـاك : اني لأحـسـبـه شيئاً شائنا. فأنا هنا لغرض عاجل ألا وهو لأمتع نـفـسي وأنـتـم تـوافـونـنـي وتعترضـون طريقي قـبل نيل مأربي. ولكن لم هم يتصرفـون بشكل مخادع هكذا؟ فأنا لست غـبيا ولا أحمق واستطيع مساعدتهم في حاسوباتهم هذه بدلا من حملهم أياك على أن تزعجني فتضايقني.

ثم أننا طلبنا من جـاك أن يتـحـرى السـبب لماذا كـانت الحكومة تتصرف على نحـو غير مـعقول ولا مقبول هكذا؛ فما كان الا أن رد موظف يقول :

الموظف : هذا بلد بدائي جـدا وأخشى ما أخشاه هو أنكم أيها الناس لا تدركـون كـم هو الأمـر خطير ان طريقـتكم في الحـيـاة هي أفضل من حياتنا وطريقـتنا نحن ـ انكم انظف، والطف، وألمع ذكـاء وأكثر انضباطا. وما من تقـدم يمكن أن يحقق عقليا كان هذا التقدم أو روحيا، اذا ما تبعثرت الطاقة وتبـددت في سـبيل السعي وراء متطلبات جسمية عابرة والسبب الكامن وراء عـدم اسـتطرادنا في التـقـدم انما يتـمـثل ببساطة في أن المواطنين لا يدخرون

الطاقـة للضرورة لما تفعلون أنتم أيها الناس؛ فهم ينشرونها على سطح الجسم وهم يستـهلكونها كـذلك، وهـم لذلك ينفـقـون وقـتهم كله في غمار الحواس وحدها. فنحن اذن نحتاج أناسا يمدوننا بالطاقة، طاقة نستخدمها عند ذاك في عملية بناء المدينة.

جـاك : لمـاذا لا تـطـلـبـون منا العـون بدلا من أن تصبروا على كل هذا الأذى من العناكب؟

الموظف : ذلك لأننا ، يا عـزيزي، نحـتـاج الى طاقـتكم كلها، وأنتم لا تـعطوننا عن طيب خـاطر الا بعـضـهـا ولا تمنحـوننا الا جـزء منهـا. فما أن تشرعـون بامـتـاع أجـسـادكم هنا حـتى تنصرفوا الى هذا الامتاع انصرافا تاما وتمـضـون هكذا، فـيترتب على هذا ان يكون الضـيـاع من نصـيـبنا جميـعنا. فـيتعين علينا جميعنا ان تكون لنا على أجسادنا وأنفسنا سيطرة مطلقة لكي لا تنفلت الأمور فتضيع الأشياء من أيدينا.

وهنا عند هذا الحـد، تذكـر جـاك كم كـان أبوه مـولعـا بالفلسفة الشرقية Eastern Philosophy وكم من مـرة سمعه يردد على مسامعه أهمية عدم بعثرة الطاقة الحيوية Vital Energy للجـسم من أجل متطلبات شهوانية. وكان قد عرض على ابنه صورا تمثل اليوغانيين(٣) Yogis الذين يظن أنهم كـانوا يقطنون جـبـال الهملايا منذ قرون عديدة خلت، وكانوا قد تعلموا عن طريقـة ممارسـة (اليـوغـا«٤») سر حـياة الخلود. كما تذكر جاك كذلك عبارة محبـبـة اليـه كـان أبوه قـد اقتبسها من سيرة الناسك الهندي (راماكرشينا)، اذ يؤثر عنه انه قـال (اذا مـا لامـسـتني امرأة، فأنني أمرض. اذ أن ذلك الجزء من جـسـدي ليـؤلمني ألما مـتـواصلا وكأنه قد وخزته سمكة قرناء) وهو تشبيه لا يختلف قط اخـتلافا كبيرا عن فزعه من خشيته لسعة العناكب.

فـعندما قام جاك بتمثيل الحلم تمثيلا على هذا النحو وبهذه الطريقة ولدى سماعـه صـوت نفسه حقيقة وبشكل عملي وهو يردد كلمات ابيه مع ايمانه بها وقناعـتـه بمـضـمـونها، كل هذا قـد أمـاط اللثام وكشـف له كيف أن حياته

كـانت محكومـة بدخـيلة كـائنة في ذاته، دخـيلة جـامـدة، وهي من الوجـهة الأخـلاقـيـة سادية(٥) استبدادية حالت بينه وبين ان يستمتع في حياته بمتعة جـسـمـيـة تامـة. ظاهرياً كان يتباهى بأنه نشيد وفعال من الناحية الجنسية، ولكنه عندمـا يضـغط عليـه فـريق البـحث للادلاء بمزيد من التفاصيل كان يعترف اعترافـا ضـمـنيـا بأن كـامل اللذة تخونه ولم تكن في متناول يده. وقـد لام اباه على كل ذلك، وقـال انه في الليلة السـابقـة للحلم ان أباه كـان قـد ذكره بقراءة: مزاوجة الجنة والجحيم، للشاعر (بليك) Blake . وفـجأة خطرت لي فكرة أنه ربما كـان ذلك هو المنبـه لحـدوث مـا كـان قد رأي من حلم، ولذلك فـقد ناولته نسختي من كتاب (بليك) وطلبت منه أن يقرأ فيه علينا. فجعل يقرأ:

الكتب السماوية أو المدونات المقدسة كلها قد تمخضت عما يلي :

(١) في حـيـاة الانـسـان يوجـد عنصران حـقـيـقـيـان، ألا وهما: الجـسم والروح. (٢) ان الطاقـة، ووصـفـهـا بالشر، انما هي الوحـيـدة المشـتـقة من الجـسم، والعـقل وما يوصف به بأنه خير، انما هو صنو الروح.

(٣) ان الله سـيـعـذب الانسـان عـذابا ابديا خـالدا ان هو اتبع شـهواته المنبثقة من طاقاته، غير ان نقيض ما جاء ذكره هي الحقائق الاتية:

١- ليس الانسـان منفصلا عن نفسه. ذلك لان ما يدعى بالجسد انما هو جـزء لا يتـجـزأ من الروح وانه تم استـشفافه بواسطة الحواس الخمس، وهي المداخل او المنافـذ الاساسية للروح في هذا العصر.

٢- ان الطاقـة هي الحـياة الوحيدة، وان مصدرها هو الجسم، وان العقل هو الحـدود الخارجية المؤطرة للطاقة.

٣- ان الطاقة انما هي بهجة دائمة.

وافق جـاك على ان هذا كـان تقـريبـا هو المنبـه المسـؤول الذي احدث في نفـسـه تلك الزيارة الليليـة الى (افـريقـيـا)، ارض الحـواس، هذا وان ابيات الشاعر (بليك) قـد اومـضت في نفـسـه احساسا دفينا بالصراع حول الطريق الامـثـل لاسـتـعمال الحـواس والـطاقـات، ذلك لأنه، جـاك، وان كـان هو

يخالف اباه ولا يتفق معه شعوريا بشأن فلسفته، فانه في واقع الامر لم يستطع اقتلاعها من بنية نظامه وتكوينه النفسي لذا فقد طلبنا منه ان يستمر في الحوار ذاك، وان يواجه (الموظف) بجرأة هذه المرة، ولهذا فقد صرخ قائلا:

انكم تنغصون علي حياتي ايها الاوغاد، في كل مرة احاول فيها الاستمتاع بحياتي، تأتون فتتدخلون لتجعلوا مني اشعر بالتأثم واحس بالذنب، لتعكروا علي بهجتي، ان لي الحق في ان امتع جسدي، وانكم لن تحولوا دون ذلك بعد الان.

ولقد طلبت من (جاك) ان يواجه كل فرد من افراد الفريق على حدة موجها اليه هذه الجملة الاخيرة ومرددا اياها في وجهه بالتعاقب حتى نقتنع جميعا بانه يعنيها حقا. ثم أننا تحلقنا حوله، مدعين باننا العناكب ومتظاهرين له باننا نمثلها، وشجعناه على أن يشق له طريقا من بينها، وقد فعل ذلك بطاقة كبرى. ولم يكن الغرض من هذه التمارين والتطبيقات هو اتاحة الفرصة لاحاسيس جالك للانتقال من خلال قدرته او لكي تتمكن طاقته من الاحساس بوجودها- اذ لم يكن يخطر لنا علي بال لان نغير ما بداخله بمثل هذه البساطة- وانما كان غرضنا ان نمده باحساس يعي من خلاله مشكلته لكي يكون متيقظا لمواجهة تلك (العناكب) الوهمية، (والتي تمثل عناصر الكف الروحية الممثلة لاوامر والده ونواهيه) العناكب التي تتراءى له حيثما تصورها مستقبلا تحبو في حنايا نفسه لتمتص طاقاته، فيتمكن اذ ذاك التصدي لها عند اول احساسه بها تدب في ثنايا جسمه. وبهذا فانه، سيتمكن والامل يحدوه، وبكل تفاؤل، من ان يجعل ذاته طليقة من اسار الانكماش والوسواس، وان لذته المتزايدة ستمنحه (تعزيزا ايجابيا) من اجل الاستمتاع بنمط من الحياة المسترخية يكون معها حرا في اتخاذ قراره وفي استطاعته الاختيار وتقدير امره بشأن الإقدام على الحكم الصحيح متى يمكن ان يسمح لحواسه الجسمية بالتمتع ومن يجب ان يكفها عن اندفاعها

بقصد اتاحة المجال والاهتمام بنشاطات اخرى نافعة وذات جدوى.

ان مشكلة جاك انما هي مشكلة عامة في المجتمع الغربي، ذلك لاننا نتعلم منذ بواكير الطفولة فيقال لنا ان اجسادنا بشكل او بآخر انما هي مدعاة للخجل او انها خطيرة وعليه فان متطلباتها ينبغي الحد منها والسيطرة عليها. هذا وان فرويد نفسه قد اعتقد بان (التسامي) sublimation في الطاقة الشهويةerotic energy وتحويلها الى تساوقات ومتابعات نفسية بناءة فأنه- التسامي-يمثل الامل الوحيد، بل انه وحده فقط يمثل هذا الامل للمجتمع المتمدن، وهذا الصراع القائم بين التعبير الحر وبين التعبير المهيج للطاقة الشهوية انما هو صراع يمثل نشاطاً جنسيا وهو ينزع الى ان يتخذ سبيله دونما وازع وهذا مخالف لقيم الانسانية ولذا فان التسامي والارتقاء الى (اشياء سامية راقية) كان قد توضح توضيحا جميلا في احد تطبيقاتي على الاحلام وتجاربي عليها. واول متطوع لاجراء التجارب عليه كان مختصا من بالعلاج النفسي، وكان من النمط الخجول، وقد ذكر انه في الليلة السابقة لمقابلتي اياه كان قد رأى حلما بعد ان واجه جماعة مواجهة او مقابلة.

اذ قال: (اكتشفت ما روعني وهو انني قد اقترفت مضارة bigamy. ثم ان قسا كاثوليكيا متزمتا حياني وصافحني). ومن خلال محاورات اجراها مع (القس) تبدى له صراع مثيل بالصراع الذي يعانيه جاك نفسه. وقد انبأه القس بصوت هادىء بطيء، بارد، ولكنه ينم عن قسوة وتعنيف، بانه اذا ما تمادى في اطلاق العنان لطاقاته الجنسية فإنه يكون بذلك قد عرض نفسه الى عقاب الحرق بنار جهنم يمكث فيها خالدا الي الابد. وقد تبينا فيما بعد ان الصراع قد اثاره في نفسه ما حدث له في الليلة السابقة للحلم وهو انه كان قد التقى بامرأة في جماعة دراسة اخرى، وقد قبلها ولكنه لم يحس ازاءها بما يثير غرائزه. ولذا فقد ارتأينا ان هذا الانتصار الاخلاقي الذي حققه وغلّبه على حاجات الجسد قد استحضر في نفسه ما

يمثل العنصر المتحكم ممثلا بالقس الذي صافحه وان مصافحته تلك انها يمكن ان تكون ضربا من ضروب التهنئة.

ولقد اتضح مما قصه من تواتر حاصل في حلمه انه كان في غاية الاحباط جراء عجزه عن الابانة عما في نفسه علي نحو دقيق ووفق نسق رشيق وعلى نحو فني، وقد شعرنا كلنا بان طاقته الابتدائية كانت تتبعثر هباء منثورا في صراع عقيم محتدم بين الجانب المتحكم لديه وبين الآخر المستخذي: بين النزوع الى التسامي في الطاقات الجنسية وبين التعبير عن الذات كما ينبغي، وانه كان في موقف يحاول فيه التوصل الى التوفيق بين هذين الجانبين المتصارعين المتعارضين، وانه كان في حيرة من امره عما اذا كان بمقدوره ان يتبين ذاته وان يستكشف في ثناياها مواطن جديدة للابداع الفني. فهو يرى مثلا ان الانغمار في الاثارة الجنسية لا تعني بالضرورة المشروعة. وان الخشية كل الخشية انها تكمن في التجاوز على حدود المحرمات مما يمكن ان يفضي الي العربدة والابتذال، فيترتب على هذا التحلل الأجتماعي بحيث تصدق عليه ما دعاه بيرلز (كوارث متوقعة)، ويبدو ان هذا يحدث في حدود ما تقوم به عقولنا عندما لا نقوى شعوريا علي مواجهة الأشياء ومجابهة المواقف. وقد عبر فرويد عن ذلك بقوله ان نزواتنا تعبر عن ذاتها فتكون في الغالب اشد عنفا مما ينبغي ان تكون في حقيقتها، وان عنفها اشد عنفا مما ينبغي ان تكون في حقيقتها، وان عنفها هذا نابع من الحيلولة دون السماح لها بالتعبير عن نفسها، وانها لا تكون على هذه الدرجة من العنف فيما لو ارخي لها العنان بعض الشيء(٦).

فضلا عما تقدم، فان اولئك الذين ينغمسون في حمأة سلوك من الفواحش، سواء ما ظهر منها وما بطن، ليسوا بالضرورة متخلصين من صراع يستعر في دواخلهم فيقاسون منه بشكل او باخر. بل انهم جميعهم دونما استثناء يضجون بالشكوى من متحكم امر داخلي يعتصرهم بالكبت فيتحرك في دواخلهم باستمرار مهددا متوعدا اياهم، وان ما يتحتم على

ذلك من صراع يمتص طاقاتهم المبدعة مثلما يمتص طاقات اولئك الافراد الذين يعانون من الكف الجنسي(٧). وخير مثال على ذلك هو جاك نفسه. فحياته الجنسية، حسب ظواهرها، تبدو طليقة تماما، وان ما في داخلها من صراع محتدم بين جانبيه المتحكم والمتنفذ، في هذا المجال قد اطل برأسه عندما كشف عنه بجلاء حلمه المذكور، فاتضح انه كان في الواقع لا يزال تحت وطأة معوقات داخلية، وهنا تجدر الاشارة الى ان السبيل الى الصحة لا يتأتى عن طريق الانكار المتزمت للغريزة او من خلال رد الفعل بالاتجاه المعاكس، بل انه يتسنى من خلال وعي تام او في حالة تقبل عقلاني لحاجة تتطلب تعبيرا مقبولا في مواقف مشروعة وامتناعا واجبا في مواقف اخرى.

وحتى اولئك من بيننا من يظنون، كما يظن جاك، اننا (اسوياء)، يمكن ان يصابوا بصدمة عنيفة فيدركون انهم يكبتون ما لديهم من طاقة جسدية خشية من خوف او تفاديا لعار قد يلحق بهم. وقد تجلى لي هذا بوضوح تام من خلال عمل فريق كان يقوم باجراء تمارين في مجال مباحث الطاقة الحيوية لاختبار التدريب على طبيعة الحساسية- وهي تمارين كانت مصممة خصيصا لاطلاق الطاقات الحبيسة في اطار اجسادنا جراء ما كانت قد تعرضت له من كبت انفعالي كان مفروضاً علينا ابان الطفولة. ما ان شرعت بتمرين قمت به بنفسي، وكان يتألف من الوقوف بوضع معين مع إثناء الركبتين والتنفس بعمق وبانتظام، حتى شعرت بحقيقة هي ان جسمي كله بدأ وكأنه ينضح بطاقة وجدتها مفعمة بلذة متميزة واضحة. وخلال استمرار جسمي على تلك الوضعية صرت اشعر بعد فترة من الوقت انني اتعرض الي رعب لا تفسير له وغير مبرر يسري في اوصالي انتهى بايقاف ما كنت احس به من قبل من اهتزازات. فما كان مني الا ان ندت مني صيحة (يااللعار!)، وكانت صيحة استلفتت انتباه جماعة الفريق مما حمله ان يعلق (انها هفوة فرويدية) واضاف حقا انه بسبب احساسي بالخجل تعذر علي ان استمتع تمام الاستمتاع بملذات جسدي في الأيام والاعوام الخوالي. وعلى

التـو اتبع التـمـرين هذا بتـمـرين في (السـيكودراما) التمثيل النفسي(٨) على المسرح، وهو تمرين قـمت به بتـمـثيل دور طفل يستجيب فيه الى تأنيب من أم لائمـة وقـامت بدور الأم احـدى عضوات الفريق، فتبينت انني ابلغ ذروة الغـضب والهيـجان كلما نطقت (أمي) بالفاظ مثل: (انت ايتها البنت، انت يا بنت اخـجلي من نفـسك) فـهـذه هي ومـضـات واضحة انعكست في ايام طفـولتي وانها فـعـلا لم تمدني بتبصر انفعالي واضح ومباشر عنها سنين طويلة اخـضـعت خـلالها نفسي للتـحليل النفسي، رغم مـا امـضيناه من اوقات في احـاديث مطولة عنها لكننا ندور حواليها فقط ولم ننفذ الى الصميم منها.

هناك شيء آخـر قـد تعلمـته وانا ضمن جماعة بحث الطاقة الحيوية ذلك هو ان احـتـبـاسي التنفس وحصره برهة وجيـزة او وقتا قصيرا انما هي طريقة شـائعـة لايقـاف اي نوع من انواع الاحـسـاس الجسدي، وان هذا قد ذكرني على نحـو واضح بحلم كان يتكرر كثيرا وقد اعتدت على رؤيته في نومي. اذ كنت اراني في هذا الحلم المتكرر مـستلقية في سرير وعلي الارض بجانبي ممدد رجـل وعلى الجـانب الاخـر يوجـد قـفص فـيـه حـيـوانات صـغيرة، وهي في العـادة تتألف من فئران وجـرذان بيض، وهذه الحـيـوانات كانت تهرب من قـفـصـهـا ذاك وتبدأ تجري فوق جسدي. ولما كان حتى في الحلم يبدو لي ان هذه الحـيـوانات يجب ان تبـقى حـبيسة في قفصها كنت اتجمد وانكمش على نفسي واكـاد احـبس تنفسي تمامـا الى ان يقوم ذلك الرجل بالتقاطها من فوق جـسـمي واعـادتها الى القـفص. واحـيـانا كنت احس وكأن الحـيوانات تلك كـانت تسـتـقـر معا على صدري بحيث لم اتمكن تماما من التنفس، فاستيقظ واحـس بالاخـتناق. ومـا كـانت لدي في حـينه ادنى صـعـوبة في الربط بين مـدلول الحـيـوانات في الحلم وبين الدوافع الجنسـية عندي وهي دوافع كانت قـد استـحـوذت عـلي في وقـت من الاوقـات، بيـد انني كنت مـضطرة الى التـحكم فـيها والسيطرة عليها. غير اني، مع ذلك، قد اخفقت في ان ادرك على التـو بان حلمي ذاك كـان يحاول ان ينبأني بلغة مصورة جلية كيف كنت

في حـالة اليـقظة اجـاهد للتحكم في مشاعري الجسدية والسيطرة عليها- يوم كنت اتحكم في احـتـبـاس انفـاسي وكـيف كنت احس بانني متجمدة. ولهذا فـان تمارين الطاقـة الحـيـوية قد شفتني من الحالة هذه ومعها انقطعت تلك الاحـلام. كـان بمقدوري ان اتعلم هذا الدرس ابكر منذ سنين كثيرة مضت لو كان قد تأتى لي في حينه ان افهم احلامي بشكل تام تماما.

سيدة للحرق

لعل أليس حـالة يمكن التمثل بها على الاصوات الداخلية التي تحول دون الاحـسـاس بالبهجة داخل النفس هي تلك الحالة التي قد تم الكشف عنها في ذلك الحلم الاستـثنائي الواضح وفيه، كما رأينا، ترابطت سلسلة احداث ثلاثة كـان قد ذكرها (بيتر)، وتم وصفها بجلاء تام في ثنايا الفصل التاسع، ومـا ورد في ذلـك الحـلـم كـيـف ان شريف المدينة قطع يدي ذلك الهندي. وكـان بيتر هذا، الي حـد مـا، بالنسـبـة الى فـريق البـحث لغـزا محيرا. فهو مـتـزوج منذ سـتـة عشر عـاما، وقد دأب على التصريح بانه شغوف بزوجته واطفـاله مكرس وقـتـه لهم وانه حـدب عليـهم. ورغم اعـتقاده الراسخ بان زواجـه كـان زواجـا تحكمه روابط وقيم سماوية لا انفكاك منها، فانه كان في بواكير ايام زواجـهما يصر على ان تكون لكل منهما هو وزوجته حياته الخاصة به يحيـاها كل منهما كما يشـاءان. ويبـدو ان هذا كـان من طرف واحد، من جـانبـه هو فـقط، فـبـعـد عدد من السنين، وبعد ولادة اطفالهما، اضطرت زوجـتـه الى ان تهجـره، مـعلنة انها لم يعـد بمـقـدورها احـتمال خياناته لها. واسـتطاع بيتر، اخيرا، اقناع زوجـتـه بالعـودة الى بيـتها واطفالها على وعد منه بان يضع حـدا لعـلاقـاته الغرامية وانه منذ ذلك الوقت قد اغدق عليها المال والعناية والاهتمام والانتـبـاه، مـقـدمـاً اليها كل اسباب الرخاء ما خلا الشيء الحـقيقي الذي كانت تريده وتتمناه- الا وهو الأمانة والأبتعاد عن الخيانة.

ومنذ ذلك الوقت حـجب بيتر حـقـيـقة علاقاته الجنسية عن زوجته، وان

هو لم يخفهـا على اصـدقـائه، امـا زوجـتـه، فـانها بدورها انصرفت تماما الي العناية بشـؤونها العـائلية، وقد امتنعت عن الارتباطات الاجتماعية، وجعلت ترفض ان تولم لاصـدقـائه او اسـتـقبال زملائه في بيتها، ثم انها كرست جل اهتمامـهـا الى اخـضـاع نفسها الى تحليل نفسي طويل الامد باهظ التكاليف. اضف الى هذا، فـانها راحت تقنعـه بان اي وصال جنسي لمن جاوز الاربعين انما يدخل في باب الدعـارة والقـذارة. اما بيتر فانه رفض من ناحيته الاصغاء الى مجادلـة اعـضـاء الفـريق الذين اظهـروا له انهم كـانوا على قناعـة بان مـا يـتـبـجـح بـه من حب لزوجـتـه واخـلاص لها لم يكن الا نوعـا من الكذب والتـمـويه. واصر على مـوقف اتخذه لنفسه وهو ان صديقاته من الفتيات في حـيـاته انما يمـثلن بالنسـبة له فقط رضاء واشباعا لحاجاته الجنسية التي حرم منهـا في بيـته. وموقف اعضاء الفريق ذاك ادهشه، اذ انه ما لبث ان وقع في غـرام فتاة هجر على اثر ذلك بيته، وطلب الطلاق من زوجته.

على ان مـا جد من احداث جديدة في حياة بيتر لم تكن لتحقق له ما كان يحلم به من نجـاح، فـهـو وان ابتـعـد عن زوجـته، الا انه لم يزل بعد تحت سـيطرتها. اذ ان زوجـتـه اصرت على ان يعـود في نهاية كل اسبوع الى البيت ليرعى شـؤون الاطفـال، وهذا معناه انه كان يترك صديقته (كلير) وحدها في الشـقـة، وكـانت زوجته لا ترضى منه الا بالمرتب كاملا، الامر الذي جعله يعـيش عـالة على صـديقـتـه الفـتاة، كل هذا جرى وما كان الطلاق وشيكا بعـد، ومـا كـان من غير الطبـيـعي ان تنهش الغيرة قلب صـديقـته (كلير)، وهي عـضـو في فريق البحث، اذ ابتأست من تصرفه حيالها، فعالنته بانها ما كـانت تحـسب يومـا انها بعـد ان هجـرت حياتها الرخية مع زوجها، جاءت لتـجـد نفسـهـا عنده (عند بيتر) محظيـة وفي الدرجـة الثـانية من الاهتمام في حـيـاته. وقـد الحت عليـه على ان يقطع لزوجـتـه واطفـاله قـدرا معقولا من دخله وان يصر على الطلاق ويعـجل فيه. وهنا عند هذا الموقف كان بيتر قد حلم بالآتي: (كنت وزوجـتي وكأننا كنا نسـتعد للذهاب لحضور عقد قد ان

يقوم باجراء مراسيمه كانون سمث، وكان يداخلني انطباع بان عقد قران ذاك كان يخص ولده. وبشكل من الاشكال لم يكن بمقدورنا- لا أنا ولا زوجتي- ان نهيء نفسينا، وما كان بوسعنا كذلك ان نتوصل الى قرار بشأن اختيار الملابس المناسبة في الوقت الذي بلغنا فيه المكان، وجدنا حفل القران كان قد بدأ، وهناك التقينا بفتاة من الطبقة المرموقة، كانت جالسة بين ابنة زميل لي وبين سيدة صحفية ناجحة وقد اخبرتنا انها هي الاخرى كانت قد فاتها ان تحضر عقد القران في وقته الملائم).

يتابع بيتر رؤياه فيقول:

(ثم يتغير، المنظر، اذ اجدني وزوجتي في غرفة نوم وكنا كلانا جالسا كل واحد منا في فراش مزدوج والسريران متقابلا الطرفين وكل منا يواجه الاخر. تدخل الفتاة من الطبقة الاجتماعية المرموقة علينا الغرفة وتشرع في تقبيلي، عند ذاك شعرت برغبة جنسية لكنني تمالكت نفسي اذ فكّرت ماذا عسى ان تقول زوجتي، وما ان تنحت الفتاة جانبا حتى رأيت زوجتي وقد تقبض وجهها جراء فظاعة ما رأت وما داخلها من خوف وخشية وقلق، وكانت تعض اسنانها على رسخها لتكتم صرخة تكاد تفلت منها من شدة الغيظ والغيرة. وقد تولاني الفزع لادراكي بان تعبيرا كهذا من جراء الغيرة الحادة هو امر (مخالف للقانون) وانه بالتالي يوجب عقابا صارما طلب منها ان تتوقف عن ذلك، ولكن كان ذلك، بعد فوات الاوان).

ويتواصل حلم بينز، اذ يضيف: (وجدتني بعد ذلك محمولا بصورة خاطفة الى مكان اخر وفي زمان مغاير، حيث شاهدت زوجتي يحكم عليها لجريمتها تلك من قبل ملك وملكة وثنيين يجلسان على عرشيهما، وهنا عند هذا الحد فقط وجدت انها لم تعد معترفا بها بانها زوجتي، وهنا تبين ايضاً ان جريمتها لم تكن ناجمة عن الغيرة. بل انها هندية من الهنود الحمر وانها من سقط المتاع وكل جرمها انها اصبحت مسيحية. وانها حكم عليها بالحرق مع طفلها، وكنت اراني كبير ياوران ذلك الوثني، وكنت معنيا

بارضـه، وكنت ارتدي مئزرا ابيض أتلفع به، وكنت وبقـيـة كـبـار الحـاشـية الملكيـة نلتـمس ذلك الملك لانقـاذها من الموت، وان كنت اعرف بان عملي ذاك كـان بـالـغ الخـطـورة لظني بانهم قـد يشكون في اني مـسـيـحي ايضـا. فـانـبـطـحـت امـام الملكة ارضـا على نحـو لا يخلو من وضع جنسي مـبـهم غـامض، غير ان الزوج والزوجـة الملكين كـانا يشرحـان الموقف فيذكران بان لا اسـتـثناءات لما كـان يجب ان يطبق لان ذلك كـان يدخل في حكم قانون ثابت لا يمكن تغييره؟)

فـهـذا الحلم، منظورا اليـه كصورة وما يرتبط به من احداث يتضح لنا ان بيتر قـد تذكـر بانه كـان قد تزوج منذ ستة عشر عاما مضت وتم تزويجه على يد كـانون سـمث وانه اسـتـذكـر كـذلك بانه كـان يومـذاك يعـمل للكنيسة بـاخـلاص حـتى ان بعض الناس كـانوا احـيـانا يطلقـون عليـه إبن كـانون (المفـضل). لهذا فـقـد اصـبح جليـاً بان مـا رآه من عقد قران في الحلم كان يشير الى عـقـد قـرانه هو، وانه كـان قـرانا يقاومه في حقيقة الامر فاستقرت احـداثه في ذهنه، وكـان عـقـد قـران لم يتم قط بالفـعل ولم ينفذه في حينه. وهذا هو مـا يوضح، ولو جـزئيـا، الاتجـاه الغـريب لبـيتر ازاء زواجه وموقفه من حـيـاته الزوجية. فقد استطاع ان يظهر تمجيده لفضائل الزواج في الوقت الذي بقي فـيـه باستـمرار غير امين على علاقاته بزوجته ذلك لانه لم يكن في قـرارة نفسـه مـقـتنعـا بزواجـه من زوجـتـه تلك. فعلى هذا المستوى الخفي المكتـوم من تفكيره، اعـتبر نفـسـه قد عقد مع زوجته صفقة وهي ان يوفر لها الراحـة ولاطفـاله الرعـاية، مـقـابل عـدم اعتراضـهـا على اهتماماته الجنسية الخـارجيـة. ولهذا فـان الحلم قـد اظهـر شـعـوره نحـو زوجته اذ حسبها قد جلبت الى نفـسـهـا (العـقـاب) وهو عـقاب الحرق، اي انها احرقت حياتها فـاخـفـتها من حياته من غير ما انذار من جانبها اليه فحصل ما حصل دونما اختيار منه.

امـا الـقـسم الثـالـث من الحلم فـقـد بدا بالغ الغـرابة وباعـثـا على حيرة

شـديدة. ان بيتر كـان يعـرف بوجهة نظر فرويد القائلة بان الملوك والملكات يرمـزون في الاحـلام الى الاباء والامـهـات عـادة، لكن الحاشية الملكية التي رأى اعـضـاءها في الحلم لم يكن ثمة بينها من الشبه ما يشير الى احد ابويه، وهما كـلاهما ميت وقت رؤيته حلمه ذاك، كما انه لم يكن هناك في الحلم اي شبـه بـين زوجـتـه المرفـهـة وبين تلك الهندية الحـمـراء التي بدت في الحلم مـشـعـثـة. وقـد وجد فريق البحث ان ثمة ما هو لافت للنظر ذلك ان هذا الحلم قـد تراءت فـيـه امـرأة هندية حمراء كـانت على وشك ان تحـرق، بينما تضـمن حلم بيتر السـابق شيئاً مخالفا اذ ان هنديا كان قد قطع يديه شخص من احـد اصـحـاب رؤوس الاموال في ذلك الحلم السابق. ولقد بدا واضحا في هذا الحلم كما في الحلم الذي قـبله، ان جميع الاشـخـاص في الحلمين انما يـمـثـلـون جزءا مـن بـيـتـر نـفـسـه. ولهذا فـقـد وجـهنا سـؤالا الى (الملك الوثني)(٩)وطلبنا منه جـوابا لماذا هذا القـانون التـعـسفي ضد المؤمنين بالله، فانبري بيتر للجواب اذ قال:

(لا نـسـتـطيع ان ندع هذا الدين يدنس ارضنا، انه دين ينطوي على هذه الفكرة السـخـيـفـة وهي ان نأخـذ انفسنا بانفاق وقتنا كله لرعاية الشحاذين والمقـعـدين الذين لا يسـتحقون البقاء في الحياة، بدلا من ان ننصرف، نحن الاصـحاء الاقوياء، الى ان ننعم بما تزخر به الطبيعة البدنية من مباهج وجمال وطاقـات، فنحن بالنسـبـة لنا، حينما نكبر ونصبح عاجزين فاننا نقتل انفسنا دون ان نحس بالالم، وان هولاء المتـدينين يصـيـبـون مجتـمعنا بالعدوى مثلما المرض وانهم يفـسـدون علينا بهجتنا. بل انهم يقولون لنا ان الجنس حرام ما لم يكن مـقترنا بروابط الزواج).

هذا الكلام المذكـور فيما مر يوضح بان الملك الوثني هو على النقيض تماما من مـوقف والد بيتر المتـوفى، الذي كـان له مـوقف مـتـشـدد ومتزمت حول الجنس ومـا يتـصل به. اضف الي هذا فـان والد بيتر هذا كـان لا يكف عن الوعظ والتـحـدث عن الاشتراكـيـة في المسـيـحـيـة وعن واجب الالتـزامـات

العـاطفـيـة نحو الفقراء والمحتاجين معلنا بانه ما من احد يحق له ولو للحظة واحـدة ان ينعم بالمتـعة والبهجة وهناك ولو شخص واحد يعاني في هذا العالم من الفـاقـة والعوز، هكذا ينبغي ان يكون الامر فكيف اذا عرفنا بان في الهند وحـدها مـلايين الاشـخاص يموتون جوعا. ولهذا فان الحلم في مجمله يوضح ان جـزء مـن تكوين بيتر قـد كـشف عن رد فـعل عنيف ضـد مـواقف ابيـه المتـشددة وانه لرد فعل يبين ضربا من ضروب التعويض الداخلي عن الاب، فـمـوقف بيتر في الحلم هو مـوقف معارض تماما؛ فالفضائل التي كان يدعو اليـهـا والده- فظهـرت حـقيقة بواطن بيتر في حلمه- البقاء للاصلح والموت للضـعيف، وقد تجلى ذلك اكثر في حياته الحقيقية، اذ اصاب بيتر حظا كبيرا من النجـاح في مجال العمل، وما يملكه من بيت كبير في ضاحية مزدهرة من ضـواحي المدينة، ومـا وفره لابنائه من تعليم خاص عالي التكاليف، وانفاق لا محدود من المال اغـدقـه على زوجـتـه، وفوق هذا كله حياة جنسية طليقة. ولكن بالنسـبـة لهذه النقطة الاخيرة بالذات- الحرية الجنسية- اظهرت زوجته ضـعـفـهـا حياله وانه عليها ان تتلقى العقاب بالموت طبقاً للقانون كما تجسم ذلك في الحلم.

وعندمـا طلبنا الى تلك المرأة (المشـعـثـة) ان تتـحدث دفاعا عن نفسها لم يسـتـغلق علينا الامـر وبخـاصـة عندمـا اعلن بيتر عنها فوصفها بانها خرقاء وانها مـضطربة فـلا تدري ماذا يجري حولها، وقد خطرت لاحدنا خاطرة بان طلب من بيتر ان يسـتـعـيد حادثة الحلم في خياله الان وان يتمثل لحظة كان هو وزوجـتـه في السرير وان يخبرها بانه كـان ينوي هجـرها (وقـد رمـز الحلم الى ذلك بالحـرق) جـزاء لاخـلالهابما كـان قد تم بينهما من ميثاق. وهنا يأتي دور الزوجـة التي اجابت والدموع ملء عينيها:

الزوجـة: كـيـف تجـرؤ ان تفـعل هذا بمـخلوقـة لا حـول لها بائسـة وقـد منحـتك اعز ايام حياتها. فأنت ما اكتفيت باذلالي في تصرفك مع صديقاتك من الفـتـيـات الاخـريات، بل ها انت قد اقدمت على هجر اسرتك. اعمل

اقل مـا نتـوخـاه منك ان تعـمله تعمله لنا- انك تسمي نفسك وتطلق عليها انـك ملتـزم بشرائع السماء: اليس كـذلك؟ اذا كنت تؤمن بها تدعي فـانهض بواجـبك اذن نحـو زوجـتك المسكينة؛ البـائسة الضعيفة. ان البر والاحسان يبـدآن رحلتهما من البيت اولا، اليس كذلك!

بـيـتر: ولـكـنك افـضل مني حـالة. فـانا من جـهـتي تركت لك البـيت وحـدك، ومـا فـيـه من محتـويات واثاث، وكـذلك السيارة فضلا عن مرتبي كله، فماذا تبتغين اكثر من هذا؟

الزوجـة: لكن هذا كـان لدينا من قـبل. (وهنا تغير صـوتها وقـد خالطته الحـدة وشـابتـه نبرة التـهـديد والوعـيـد) فتابعت حديثها وكلامها تقول: لا، لا، يجب عليك ان تفـعل غير مـا انت فـاعل ويتوجب عليك ان تعدل من وضـعـك. اذا كـنـت تريد الابتـعـاد عنا فأنه ينبـغي ان توفـر لنا مـزيدا من الضمانات الاضـافـية والرفاهية التي تعوض لنا ما نحن فيه من وحشة العزلة والفـراق، هيىء لنا مـثـلا بيـتا في الريف، ووفر لنا سيارة اكبر يقودها سائق خاص، عدة مناسبات من العطل نقضيها في الخارج كل عام، ونريد يخنا اذ ان ذلك شيء لطيف. فـانت كما تعـرف تريد كل هذه الاشـيـاء لنفسك فوفر مـثلهـا لنا. واذا انت قـررت البقاء معنا فهي لك. اننا لا نريد ولا نحب ان نحـرم مما ذكـرت ولا ننوي ان نعـاني من الحـرمان منها لمجرد ان شقراء قد سلبـتك اللب واستـحـوذت على عـقلك. انك لا تسـتحق ولا يحق لك ان تسـتـمـتع بلحظة واحـدة من السـعادة حتى تتأكد من انك قد حققت لنا ما يعـوض علينا الحـرمـان. ومنذ الان اذهب واعـمل، بل اعملا انتما الاثنان، حـتى ابلغكما متى قضيت حاجاتي وارتضيت.

بيتر: الا ترين ان هذا ليس بمعقول.

الزوجـة: اغير مـعـقـول تقـول! انني لست غير مـعقولة. انا اعرف ماذا اعني. التـفـت هنا. اذا كنت بضربة لازب قـد كسبت مليوني جنيه، فاني لن ارضى بأقل من ٩٩٪ منهـا، لا تجـادل. وعليك ان تعـرف جـيدا انني من

الان فصاعدا فلن اقبل بشيء ادني من القمر، ولكن شهامتي تأبى ان اكلفك ذلك.

من ذلك تبين بوضوح ان زوجته لم تكن في وضعها بالنسبة الي حياته بالامر الهين، ولم تكن بالمسكينة المغلوبة على أمرها بل كانت في الحقيقة مسيطرة، تلتزم بالقواعد الاخلاقية، مهيمنة علي نحو يبعث علي التأنيب، لوامة، وهي خصائص كانت قد ترسخت في اعماق نفسه من جراء تنشئته الابوية ومن بعد تعززت بصورة غير عادية بفعل الطلبات الباهظة واللاواقعية من جانب زوجته بالذات. وهذا هو ما وضح وكشف كثيرا من الجوانب الملغزة من حياة بيتر والتي كانت من قبل غير معروفة. فهو كان قد تزوج من زوجته هذه مخالفا بذلك نصيحة كانون سمث وأصدقاء اخرين اسدوها اليه بالا يفعل، وقد بنوا نصائحهم اليه على اساس انهما- بيتر وزوجته- غير متكافئين، كان دافعه الحقيقي الداخلي وراء زواجه الذي اراده كما كان يهوى فلم يكن، هو ان تكون له (اسرة قيمة) مناسبة يحول اليها جزء من التزاماته ولا تكون انانية فلا تطالبه بمزيد، وبذلك يتسنى له ان يوفر لنفسه قسطا لا بأس به من ثمرات عمله فيكون لذاته حياة من البذخ والفخفخة. فمن ناحية البذخ والاسراف الخاص كانت زوجته ندا مناسبا له تماما، فهي من ناحيتها كانت لا تكف عن الالحاح عليه بطلب المزيد من العناية بها والانتباه اليها، فكانت بالنسبة اليه وسواسا خناسا وهاجسًا لا ينقطع، وكانت دائمة الشكوى بأنها مسكينة الحال رغم ما كانت تتقاضاه من مرتب اجراه بيتر عليها، كل هذا جعل بيتر بل اتاح له ان يشعر بان كان ينهض بقسط اوفر من التضحية الذاتية دونما حاجة حقيقية تدعوه الى حد اطعام الهنود الجائعين. فهي كانت بديلا خاصا عن الهنود، بل انها لبديل مناسب، ذلك لانها عن طريق الحافها في الطلب لرفع مستوى حياتها المعيشية، فان بيتر هو الاخر كان قادرا على رفع مستواه ايضا من غير ما شعور بالذنب.

كـذلك فـان هذا الحلم قـد كـشف عن الجـذور الحـقـيـقـية الكامنة وراء الاهمال الـغـريـب الـذي بدا من بيتر نحـو كلير، واعـراضـه عن حـاجـاتها الانسـانيـة، رغم حـقـيقة انه في احد مستويات اعماقه كان شديد الحب لها. فـعلى مـسـتـوى اللاشـعـور والعـقل اللاواعي كـانت في موقع الارض الوثنية الحـرام من حـيث المتـعـة الجنسـيـة اللا ملتزمة، وانها بوصفها ملكه وثنية لها سطوتها اذن كـان يجب ان تأمـر وتسـوس ولا تسـاس، وظيفتها ان تشير ولا تنفـذ. وجـد بيتر نفـسـه في حيص بيص: فهو حينما جاء ليعيش معها وتجرأ على ان يعب من مـتع ارادها في وقت كـانت فـيه هناك (مسكينة مغلوبة على أمـرها) تعاني من (حرمان لا يطاق)، كان على بيتر ان يتخذ موقفا ما، فهو امـا ان يتـخلى عن ملذاته (فلا يعود هنالك وثنيون يعملون ليل نهار بلا كلل يضـايقـون اناسـا يلتـزمـون بقـيم السماء- كما كان الرمز في الحلم)، واما ان يحرق من حـيـاته (اسرته الملتزمة بالقيم) حلا والى الابد. هذا هو كان التوجه في الحـلـم. وقـد بـدا بـيـتر في الحلم ذلك الذي يمـثل دور كـبير الوزراء او الوزير الاول، مـتلفـعا بجلباب ابيض (وهو رمز الى انه في قرارة نفسه بريء وصـافي النيـة في مـا يتخذه وما اتخذه من قرارات)، وما كان منه حينما انبطح ارضـا امـام المـلـكة الوثنيـة (وهي تمثل في الحلم كلير)، وكـان يتضرع اليـهـا لتبـقي على حـيـاة المتـدينين، وكـان الجـواب ان (لا)، وهو يمثل قرار كلير ويعبر عن اصرارها، وان هذا يعكس في تضـاعـيـفه اعفاء بيتر من اية جريرة في القتل.

كـانت الجلسـة مـثيرة للغـاية، وقـد اظهرت اوجه الخلاف الكبيرة بين كل من بيتر وكلير، وكـان كل منهما يرى الامـر من وجهة نظر مخالفة لوجهة نظر الاخـر. ففي احد المواقف وخلال المناظرة، التفتت كلير الى بيتر وقالت له: (ولكنني، يا حـبـيـبي، انا لا اطلب منك ان تحـرق عـائلتك، وان مـا اطلبه منك هو ان تكون عـقـلانيـا وان تكون منصـفـا بشأن المصروفـات والنفقات وان تسـعى الي الحـصول على الافتراق بالطلاق). وان العقل الواعي لبيتر قد

ادرك هذا بطبيعة الحال، وكان متحمسا له، بيد ان العقل اللاشعوري لديه لبث معطلا في وجه (القرار المفجع) المدمر القاضي بالتخلي عن كل ما ملكت يمينه، بل واعطائه الي (الهنود). ولقد شجعنا بيتر على ان يواصل الحوار ويتابعه مع زوجته الثانية في قرارة نفسه وان يصارحها جهارا بأنه ليس في نيته التزحزح عن موقفه وانه لن يوافقها على مطالبها اللا واقعية. فهي في باديء ذي بدء اصرت على نيل حقوقها كاملة، ولكنها تراجعت عندما انتصب بيتر واقفا وصرخ في وجهها قائلا (ما لم تكفي عن تخريفاتك هذه فسوف تنالين حقوقك- واقصد بها ادنى حد منها فقط، الاقل الاقل منها وليس اكثر، اني لست على استعداد بعد هذا للاصغاء الى خزعبلاتك، ولا احب ان اسمع تخرصاتك وحماقاتك)، وعند هذا الحد، بدأ الجانب المسيطر يخفف من غلوائه ويحد من سطوته مما اتاح لبيتر ان يستشعر بالرضا وان ينعم بالراحة وان يتحسس بقدر معقول من اصول معاملة الاخرين ويكيفية انصافهم في الوقت الملائم. فاذا استطاع بيتر ان يستمر علي الاحتفاظ بمثل هذا التوازن في ثنايا نفسه، فبمقدور كل واحد، وبخاصة هو نفسه، ان يفيد من هذه الخبرة، ولكن بيتر كان منشطر الذات بين بواعث التدين القيمي السامي التي تتطلب التضحية الكاملة بالذات، وبين نوازع (الوثنية) التي تتوق الى النهم والاباحية الجنسية، وهذا الانقسام الكامن في طوايا نفسه كان يقض مضجعه فافسد عليه حياته وحياة كل من حوله.

ان ما يسميه بيرلز بعملية (التمركز) ليست بالامر الهين. فحينما يبدأ الفرد يعمل فترة طويلة من طرفين متعاكسين من طرفي القطب الواحد، فان الأمر يستغرق منه وقتاً طويلا قبل ان يدرك ان ثمة احتمالات وامكانات اخر تقع بين النقيضين. ان مثل هذا الادراك انما تواتينا اشراقاته ببطء وذلك بعد ان نعمد بقوة ارادتنا الى تغيير سلوكنا ازاء العالم خارج ذواتنا متحدين اي استبصار ملتو او اي توقع سيء فلا نأبه لما قد يصيبنا، فبالنسبة

الى حالة بيتر (Peter) فـهذا كان يعني انه ما كان ينظر الى زوجته نظرة فيها ازدراء بوصـفـهـا مـشـعثة مهملة خشنة الطباع، بل انه رآها بعين اخرى، اذ وجـدها امـرأة كـانت مطلقـة وانها جـديرة بالعـون فـاحتواهاوتقبلها من هذا الجـانب بالذات. كما انه نظر اليـها نظرة شخص خليق بان ينتشل من وهدة مـا تعرض له في ظروف طرزت عليه ولا يد له في صنعها، فهي نظرة انسان حـري بان يحيـا باطمئنان، فـهو قد خلصها من وحشة عزلتها ومن مصاعب شقائها ، انه قد حقق عملا مزدوجا. اما زوجته كلير (Clare) ، فكانت بـطـبـيـعـة الحـال قـد راودتهـا اول الامـر شكوك فظنت به الظنون، غير انها غيرت رأيها بعـد مـا تيـقنت من صـدق نواياه فـاطرته وحمدت له صنعـه وقد بانت لها جديته في الامر.

ترتبت على قـصـة بيتر هذه نتـائج مـشـجعة وحافلة بالامل، اذ ذكر بعد مـرور ثلاثة شـهور، حلما اخر يحمل في طياته ان ثمة تحولا داخليا وتغيرا من نوع مـا قـد بدأ يحصل اذ رأى في حلمـه هذا والده وقـد بعث من موته فراح يلومـه ويوبخـه على حـيـاة العـربدة التي يحيـاها مع امـرأة غـجرية مضحيا بمسـؤوليـاته تجـاه اسرته ومـتـخليا عن التزاماته العائلية المستقرة. فهذا بحد ذاته جـانب نافع دون شك، ذلك ان مـعنى (الاب) قـد اسـتيقظ في اعماق بيتر، وكـان هذا لب المشكلة اسـاسـا، فـقـد بزغ هذا الاب بشكل شـخص مـاثل امـام عـيني بيتر في الحلم، وهذا هو رمـز الضـمير القـوي في داخله، وهو ضـمير (١٠) كـان يشـعـر بوخـزاته كلما اسرف في لذائذ الحياة وانصرف اليـهـا. ولعلهـا هذه هي اول مـرة يواجـه فيها بيتر اباه وجها لوجه في الحلم يـقـول لـه بصريح العبـارة: (انت تعلم يا والدي ان الامـر ليس كما يتراءى لك. ان الاسرة امـورها على مـا يرام، وان حـيـاتي مع (كلير) ليـست حياة عـربدة او تشرد كما قـد يبـدو. ثم ان كلير ليـست بغـجرية مشردة، بل هي الانسـانة التي احـبـها واريد لها ان تشاطرني الحياة، ولا اتوقع منك ان تفسد علي زهو الحـيـاة بعـد الآن). اسـتـيـقظ بيتر بعـد هذا الحلم وكأنه قد كسب

معركة وانتصر فيها، وان هذا هو ما كان بالفعل في حقيقة الامر، وفي تعابير علم نفس الجشتالت، فان تفسير ذلك هو ان شيئا من طاقة الذات المسيطرة(١١) كانت قد انتقلت الى الذات الخانعة الخاضعة، الامر الذي اعاد بعض التوازن الى النظام النفسي الكلي، فلو ان شيئاً من هذا القبيل قد حدث في كل مرة وكلما جد موقف كهذا الموقف من المشكلات، لتمكن بيتر من أن يجد مجالا للعاطفة والراحة والهناءة في مجرى حياته.

اصطحاب فرويد في رحلة

ان تمثيل الحلم على وفق خطى علم نفس الجشتالت واسسه يفضي في الغالب الى الكشف عن الطاقات التي كانت في واقع الامر مكبوتة منذ ايام الطفولة بينما لا تتيح اتباع اسلوب التفسير وفق معالجات التحليل الاعتيادي الا تبصرا عقليا نظرياً في مضامين المشكلة المتوخاة، حتى وان كان هذا يمكننا من تقصي الاثار الكامنة للحلم، تقصيا مثمرا نجد بواعثه متخفية هناك في صدمة الولادة التي تتسبب في تكوين اسس الاضطرابات الحاصلة. ولعل خير مثال اسوقه هنا بشأن التفسير الفرويدي للحلم، واحسبه بلا مواربة تفسيرا صحيحا، وان لم يكن من الوجهة العلاجية مجددا، هو التفسير الذي كنت قد وصفته من قبل (انظر الفصل السادس، تحت عنوان وجهة نظر فرويد بشأن الرمز في الحلم)، اذ رأيتني الى ذلك الحلم انتظر وانا في حالة قلق بالغ وصول الملكة ودخولها بسيارتها من البوابة الخلفية لقصر (بكنجهام)، وكان التفسير المقبول والذي يحمل علي القناعة قد تم تعقبه والتماس اسبابه الى خبرات كامنة كانت دفينة من ايام طفولتي يوم كانت والدتي تحقنني بحقن شرجية اقتضتها حالتي الصحية. لا يخالجني ادنى شك في ان التفسير ذاك كان سليما وانه ينسجم وكثيرا من المفاهيم المألوفة، بيد اني لم استطع ان اتبين في حياتي الواعية ثمة اية رابطة تصل بينه وبين هذا التأويل اذ انني ما ساورني اي احساس باللذة لمجرد

تذكري واستحضاري لفكرة الحقنة الشرجية، واني لم يخطر لي على بال حتى تجربتها ذاتيا او تعاطي السحاق. هذا فضلا عن اني لم أكن لاعاني مما يعرف بالاعراض العصابية الاستية المعروفة، كالترتيب الوسواسي القائم على الحصار القهري(١٢)، والتقتير(١٣) غير المبرر، وان كانت الامانة تقتضي ان اقر بانني كنت في بعض الاحيان شموسا عنودا. ولعل اقرب تفسير تتفق مراميه ووجهة النظر الفرويدية في التأويل، هو انها كانت كل حالاتي تلك تعبيرا عن انفعالات حبيسة كانت تمور في داخلي وكنت اعانيها. وان هذا انما هو تبرير عقلي يرفدني بتبصر عن الكيفية التي انا عليها، واني في واقع الامر لم تكن لدي مطلقا ادنى فكرة عما كان يتعين علي ان افعله بشأن مشكلتي. على اني حينما طبقت التقنية الجشتالتية على هذا الحلم تمخض الموقف عن نتائج باهرة ومدهشة.

اذ شرعت باجراء حوار مع (الملكة)، سألتها خلاله عن اسباب دخولها في موكبها من البوابة الخلفية وعدم دخول موكبها من الباب الرئيسية الامامية كما هو شأن الملكة عادة، اي ملكة،أجابتني بصوت مختلج متهدج:

الملكة: آه يا عزيزتي، نعم اعرف اني الملكة لكني اتمنى احيانا لو لم اكن ملكة، وعليَّ ان اعترف باني استمتع بالسلطة وبالملابس الفاخرة، كما استمتع بان لا اقوم بما تقوم به النساء من عمل في بيوتهن مثل غسيل الملابس وسواه، بيد اني كم اتمنى بان لا اكون موضع الابهة والتكريم في جميع الاوقات ذلك لان هذه الطقوس تبعث علي الارهاق. وانها لمملة ذلك لاني لا ادري ماذا يجري في العالم من حولي. فالمحيطون بي لا يدعون لي مجالاً للاختلاط بالناس- اذ هم يرددون على مسامعي انه امر غير مناسب. ذلك هو السبب الذي يدعوني الى ان انسل بسيارتي من الداخل الخلفي للقصر- فهو مدخل ضيق والسيارة تنساب فيه علي مهل وبهدوء. فالناس هناك يتجمهرون عند ذلك المدخل وقبالته، فيكون بمقدوري ان احادثهم بل وحتى مصافحتهم في بعض الاحيان. وهذا ما يجعل المحيطين بي يجن

جنونهم تماما حين يعرفون ذلك.

وهنا قاطعت نفسي بنفسي لاستفسر منها ماذا تعني بالضبط بكلمة (انهم وهم) فردت الملكة انها تعني بذلك موظفي القصر، الذين كانوا متشددين تشددا مزعجا فيما يتعلق بالمراسيم فطلبت اليها ان تعترف بمواطن الهفوة من جانبها كما يراها موظفو القصر من وجهة نظرهم، فكان الحوار التالي:

موظف القصر: حقا يا جلالة الملكة ان هذا الامر بالغ الرداءة فكم من مرة كنا قد حذرناك وقلنا لك بان الالفة تزيل الكلفة وتوجب الازدراء؟

ان الناس سيسيئون اليك اذا انت اقتربت منهم اكثر وسمحت لنفسك بالظهور دائماً وكأنك بشر مثلهم. وايا كان الأمر، بوسعك ان تعتمدي على ما نقوله لك، اذ ليس ثمة شيء تتعلمين منهم- فهم اغبياء متبلدون، وأنهم تستوطنهم الامراض، واننا نعرف ذلك لاننا نحن انفسنا كنا قد عشنا بينهم في يوم ما. لكنك انت- تختلفين كل الاختلاف، اذ انت قد ولدت في هذه الدنيا مختلفة، وعليك ان لا تنسي هذا ابدا. اننا نؤدي واجبنا ونقوم بما في وسعنا من اجل حمايتك من هؤلاء الحيوانات وهذا هو اسلوب مكافئتك لنا ولهذا يتعين عليك ان تخجلي من نفسك.

الملكة: يا إلهي ، يا إلهي، ويا للعجب، ماذا عليَّ ان افعل؟ ولكن مهلا. اجل، احسب انك على صواب، غير أني احتاج متنفسات احيانا، احس باني بحاجة الى متنفس اشعر باني في عزلتي مقطوعة عن الحياة أظن احيانا باني على وشك الوقوع فريسة الى الجنون في حالة استمراري على إتباع اسلوب الكلام الهذب المنمق وفي حالة الاستمرار على النظافة المفرطة وانتهاج السلوك المبرمج واتباع إسلوب الأفراط في اللياقة، فهلا تريدون لي يوم فراغ واحد احيا فيه واتصرف كما اشاء؟

الموظف: بكل تأكيد كلا يا جلالة الملكة، فانت هنا في خدمة بلدك، ولست في حل لكي تنغمري في حاجاتك الشخصية الصغيرة، فلا يمكنك الجمع بين النقيضين. وعلى هذا فاما ان تلبثي هنا وتسلكي كما ينبغي

وتتصرفي كما يجب واما ان تذهبي الى صفوف الغوغاء الى الابد، واننا من جانبنا لا نحسبك تحبذين ذلك.

الملكة: لا لن افعل، انك على حق تماما فلن افعل، ولكن بهذه المناسبة- لا تتمادوا ولا تثقلوا عليّ كثيرا، سأكون طيبة واعمل بما تقولون وافعل بما تشيرون، (أطرقت الملكة تفكر قليلا) واستطردت تقول في قرارة نفسها سأحاول الانسلال احيانا وانا متخفية. وبهذا يكون افضل لي ذلك لان الناس لن يعرفوا من اكون ومن انا وبهذا يتسنى لي ان اتعرف عليهم على نحو افضل.

نجد هنا عندما نطبق اسلوب التقنية الجشتالتية ، كما وجدنا من قبل في حالة احلام كل من جوزف وبيتر، نجد تبادلا في الادوار يبعث على الدهشة ذلك ان الشخصية التي تبدو لاول وهلة خاضعة متواضعة- وتشير الى خضوعها وتواضعها الرموز الدالة على القطار البطيء وذلك الهندي المتشعث والخدم... الخ- نجد هذه الشخصية قد تحولت إلى عنصر مسيطر متسلط. فبالنسبة الى حالتي مثلا يكمن التفسير كما بالنسبة الى حلم بيتر في ان الموقف كان بالغ التعقيد اذ يعبر عن شخصية متناقضة في عملياتها الفكرية. فامي مثلا يمكن ان تكون الملكة في حياتي ايام طفولتي، لكن هذه الملكة لم تكن مجرد رمز بسيط للسلطة فهي نفسها كانت شخصية شديدة الانقسام، اذ كانت شخصية قد جاءت وتحددت من بيت شديد الفاقة وكانت قد قطعت كل علاقاتها الانفعالية وصلاتها الوجدانية بتلك الخلفية التي منها تحدرت وقد صنعت ذلك تحدوها رغبة جامحة من اجل تكوين حياة عائلية لا تخضع لمقاذير واوضار الفاقة والفقر والمتنفع. ولهذا فان ما تبطنته في داخلي من والدتي المتسلطة وعن سلطتها التي كانت تلزمني دائما بان اسير على الاستقامة والزم نفسي بالنظافة، وان اكون هادئة وشديدة الانتظام، كل ذلك لم يكن قط ليتمثل الذات الطبيعية لأمي، وانما هو يعكس القوة المسيطرة المخيفة الطاغية في حياتها فترسبت اشباحها وخيمت

على حيـاتي، مما يعني ان صـورة الأم ارتسـمت في فكري واستمرت فتمثلت على هيئة ملكة كـانت هذه الملكة نفسـهـا تحت هيـمنة مـتشددة من جانب (موظفي القصر).

وقـد تعـزز ذلك اكثر بحقائق كانت هناك منها على سبيل المثال انها كانت تـصـدره امـي لي مـن اوامـر ونـواهـي ايـام طـفـولـتي قـد توالت على ذهني فـتـواردت بصـيـغـة مـا كان مطلوبا مني ومتوقعا ان اقوم به حيث كان يتعين عـلّي ان اتـصرف تـصرف مـلـكـة وان يكون سلوكي دائما، ولقـد تأتى لي ان تلقـيت مـا سلط الضـوء على نحـو مـدهش على مـا ذكـرت بعـد مرور فترة طويلة على دراسـتي للاحـلام وفق منهج الجـشـتـالت، وذلك حينما اخبرتني والدتي عـرضـا بقـصـة فحواها انها ايام طفولتها كانت ترقب العالم من حولها فترى دنيـا الارسـتقراطيين يمرون من امامها بملابسهم الفاخرة وهم يمتطون العـربات دونها احـسـاس بالحـسـد من احد. فهم كانوا من عالم خاص بهم قـائم بذاته، كما ذكـرت والدتي، وقـالت انها كانت تعرف بانها تختلف عنها تمام الاخـتـلاف عنهم . وقـد آلت على نفـسـهـا ان تجـعل اطفـالها مستقبلا يـعـيـشـون ويـنـتـمـون الى عـالم خـاص بهـم وهـو عـالم يـعـود الى دنـيـا الارسـتـقـراطيين، ومـا ان تزوجت حـتى ابتـاعـت مـعطفا مبطنا بالفرو لكي يلبـسـه اول طفل يأتيـهـا. واني ما ولدت في حقيقة الامر الا بعد مرور ثلاث سنوات من زواجـهـا، لكن المعطف كان بانتظاري هناك- فانا قد ولدت الى مـعطف مصنوع من جلد فرو الفاقم(١٤) وكنت قد شجعتني ان ارتفع بناءا على ذلك الى مـقـام ملكة ارتفاعا يعطيني امتيازا على كل من في البيت. ومع هذا كـان علي في نفس الوقت ان اطيع الاوامـر وان اكـون محكومة من والديّ على نحـو اكـثر وبشكل ادق مما كان يخضع له معظم الاطفال الاخرون عادة وذلك لكي أمـتثل الى ما كانت تطمح اليه امي من مستويات دقيقة متشددة في السلوك القـويم ومتطلباته المتزمتة.

لهـذا فـاني قـد ورثـت الانـقـسـام الداخلي من امي، لكن الفـارق هو ان

حاجاتها الانفعالية كانت قد ارغمت على الاحتباس تحت وطأة السيطرة المتزمتة نظرا الى ان تلك الانفعالات كانت مرتبطة بالذكريات الاليمة في حياة المضض الوضيعة ايام طفولتها والسكن الفقير الذي نشأت في كنفه، في حين اني قد تمردت على الأنا المستحذي تماما مثلما فعلت الملكة المسيطر عليها وتمردت كما مر ذلك وفق الحوار الجشتالتي. فحين كنت في سن الطفولة، كثير ما كان يجدني اهلي اتحدث الى منظفي الشوارع وعمال القمامة والمتشردين، وهلم جرا، امر كانت تهتم به امي كثيرا اذ ما كانت تريدني ان افعل ذلك، وما ان تمكنت من الاعتماد على نفسي حتى غادرت البيت وشققت طريقي في الحياة فطفت حول اوروبا، وكنت احدث نفسي وفي ذهني مقاييس والدتي، وانا امسح سلالم مقصف فرنسي في الساعة السادسة من صباح كل يوم او عندما كنت اجتهد في ان اكسب خمسة فرنكات زيادة وذلك بان امسح من على وجه الارض ما كان يتجشأ به المزارعون السكارى- ذلك اني كنت الملكة بين عامة الناس متخفية بزي لا يعرفني احد، وبعد سنوات قلائل عدت الى بيتي ثم استقر بي المطاف بان تزوجت وعاودت منهجي الملكي المناسب في الحياة، فزوجي الان يتكلم بلسان موظفي القصر حينما وجدني اقوم بشيء يعتبره هو خارج نطاق الذوق وخارج حدود العادة.

ان الصوت المسيطر في داخلي، وهو صوت مقتبس في اساسه من والدتي، كان بطبيعة الحال اشد قسوة من الصوت الحقيقي لأمي او صمت زوجي. ففي وقت الحلم يبدو ان الصوت الملكي الخاضع في داخلي كان يتوق الى التعبير وهو تعبير كان يلتمسه في الحلم، وان حدثا ما خلال حياتي الواعية لا بد له قد اطلق في داخلي سلسلة من الافكار التي عادت بمشكلتي الى الوراء الى ايام المنشأ الاصلي لتلك المشكلة. فمن المحتمل ان تكون امي، وانا في حالة طاعتي الظاهرية لها وللحياة الرتيبة الجامدة لاوامرها المرموز لها ب(قواعد القصر الملكي)ومن ذلك مثلا حقني بالحقنة

الشرجية، كل هذا يمكن ان يكون قد تمثل بصورة خفية واتخذ صورة صياغة الى درجة ان يكون لضيق حياتي كلها فتقمصت امي في داخلي من الناحيتين الجسمية والانفعالية حتى بلغ حدا الى اني كنت استجيب تلك الاستجابة التي تظهر في الحلم التي تعيد اليه تلك الذكريات من التشتت العميق والاضطراب الفكري من ايام حياتي العقلية الفظة لو اني كنت أحلل حلمي ضمن فريق من الجماعة، إذ طلب اليّ قائد الفريق ان اقف امام الجماعة لامثل دور موظفي القصر واقول شيئا كالآتي مثلا:

ان لدي من الحاجات المحددة ما يتعين علي ان احققها وان احدى هذه الحاجات هي ان اطلق العنان لنفسي كما اريد احيانا فانت انت، وانا انا، وانا هنا لست موجودة لكي اجاريك على وفق هواك ولكي احيا حسب توقعاتك وتطلعاتك فانا الان فتاة ناهد، واني عازمة على ان اتولى مسؤوليتي بذاتي واتدبر شؤوني بنفسي، فانا لن أتخفى او اتسلل لواذًا من الباب الخلفي لكي استمتع بحياتي، وانما اتحدى واتصدى للمتاعب فافعل علانية وعلى المكشوف ما اعتقد انه موائم ومناسب من غيرها ما اكتراث بالمصاعب.

بعد ان أخضعت تفاصيل تبادل الادوار في الحلم المذكور آنفا الى التقنية الجشتالتية وقد ربطت تفاصيل حلم اخر كنت قد حلمته بعد مرور عامين من الحلم الاول، اتضح في الحلم الاخر هذا اذ رأيتني فيه وكأني انا ملكة حقا وكان الحلم هذا قد حصل في مكان ما في هولندا حيث كنت هناك في عطلة ترويحية، ورأيتني في حلمي هذا ادخل كتدرائية فخمة استعدادا لتتويجي، وما أن بدأ التبويق، حتى شاهدت الناس من حولي يغدقون علي ابتساماتهم على نحو ينم عن لطف عميق. ولما أن نظرت الي نفسي وجدتني ارتدي بدلة صيفية وفي قدمي حذاء من فرو كبيرالحجم. داخلتني دهشة لموقفي ذلك اذ لم اكن اعرف ماذا اصنع: هل اعجل في الخروج لاستبدال الحذاء ام امكث في مكاني وأدع الاحتفال جاريا علي مسراه والناس يفضلون

في حقيقة الامر ملكة تخلو من مثالب لكنها إنسانة بل ملكة مكتملة دائماً ومتزمتة ومن غير اخطاء، ولحظتها حدثت نفسي ما لم اكن انا نفسي دقيقة متكاملة فلا يكون بمقدوري ان اطالبهم بالدقة والاكتمال.

هذا الحلم يكشف على ما اظن، اني كنت في حالة تحسن ابان السنين المنصرمة في فترة ما بين الحلمين. طفقت احتل مكاني كملكة ليس عن طريق تفضيلي على المجموع العام والاخذ باللياقة المقننة على حساب العلاقة الانسانية بل على سبيل اللاعصمة من الاخطاء المتمثلة في اقسام الدفء الحيواني (الاحذية) المبطنة بالفرو، في ثنايا مولكيتي. وانه لمن الملفت للنظر والدهش ان يتم حلمي هذا في هولندا (ومن معانيها الارض المنخفضة)، واكثر تحديدا وتخصيصا انها ارض استعيدت من البحر بعد ان انحسر عنها، وهو رمز جميل اذ يعني استعادة الوعي الشعوري بعدما كان غائصا مغمورا في اللجة تحت الاعماق السحيقة.

وملخص الحلم في الوقت ذاته يكشف عن جوهر لعبة تعذيب الذات. فان انا، مثلا، فرضت علي نفسي متطلبات (مثلما فرض موظفو القصر علي الملكة) فأني في الوقت نفسه افرض مثل هذه المتطلبات على الاخرين. فاذا اصررت على ان تعيش الذات الخاضعة في داخلي لترتقي الى ارفع توقعات الذات العليا بين جنبي، فأني اطلب مثل هذه المطالب من الناس الاخرين المحيطين بي في هذا العالم الخارجي الذي اعيش فيه. وعندما يحصل الصراع في داخلي بين الذاتين، فلا تستطيع الذات الدنيا الارتقاء الى مستوى طموح الذات العليا يحصل ان اسحب من العالم او يعتمل الصراع النفسي في طوايا ذاتي وان حصفاء الناس قد ادركوا حقيقة هذا الامر فوازنوا بين مرامي الذاتين، ، ذلك لانهم لا يريدون، وهم على صواب، التفريط بتبديد طاقاتهم النفسية حينما يحتدم الصراع في دواخلهم بين الذاتين.

فانا مدينة لاحلامي التي اعادت لي نوازع انسانيتي ومكنتني من تقبل هيأتي واخطائي اني لا احس باني شخص اكبر ولدي طاقة متدفقة فحسب،

بل انها كـذلك جعلتني احتمل من هم حولي وجعلت الحياة في نظري حافلة بالسماحة فتقبلت غيري كما تقبلني الاخرون. وعلى مستوى حقيقة احاسيسنا الداخلية، لا ينبغي لنا ان ننشد الاستقلال الذاتي المسموح به وفق القيم من والدينا فقط، وانما ينبغي علينا ان نخفف عنهم الاعباء ونريحهم ايضاً. والأمر لا يختلف كثيراً عما عبر عنه(١٧) بليك في اسطورته الذاتية، حين قال:

كل انسان يزهو بقوة الصولجان،
وانه محتّم عليه في تباريح الزمان،
حين تبزغ في ضميره انسانيته وتستبان،
يقذف في قاع البحيرة بذلك الصولجان.

شيء ما كريه في السرداب

الاحلام التي يبدو فيها الناس او الاشياء حبيسة في صناديق، او في سراديب، او في زنزانات، تكون احلاما مناسبة بوجه خاص للعلاج وفق اسس الجشتالت وعلى هدي منها ذلك لان المسجونين فيها يمثلون، بلا خلاف تقريبا، كنزا دفينا ومطمورا يجب العمل على استخراجه واستخدامه لملء ما تركوا في شخصياتنا في فراغات كنا قد نسيناها فتراكمت في مطاوي النسيان. وكان احد هذه الاحلام الجذابة والمثيرة قد حصل لي في حياتي الخاصة فيما مضى من الوقت، وقد اعقبته، شأنه شأن الحلم الذي رأيته ورأيتني فيه ملكة كما مر ذكرذلك من قبل، احلام اخرى مماثله ومتماثلة احلام مكنتني من قبل رؤية ما كان يجري، مع مرور الوقت من تغير في مسرح(١٥) حياتي العقلية والنفسية. اما حلمي ذاك، وانا اقصه وارويه بصيغة الحاضر، فهو كما يلي:

اراني في سرداب بلا أبواب بصحبة امرأة عجوز كان مظهرها يوحي وكأنها ساحرة وهي تناشدني بان امكث معها واني احب ان اذهب لكنني لا

ادري اي منفـذ ممكن استطيع النفاذ منه. اما هي فتتابع مناولتي اقداحا من الـشـاي، وهـي تـعـرف تمـام المـعـرفـة اني ارغب اشـد الرغبـة في الذهاب والمغـادرة، غير انها تحـاول اقصى جهدها من اجل استبقائي معها. وفي المآل تسـتـجيب لاصراري على الذهاب والخروج من ذلك المكان وفي نهاية المطاف وكـآخر وسيلة قدمت لي تفاحة وطلبت مني ان اقبلها لقاء هذه التفاحة اراني اسـتـشف خطرا، بيد أني لا أظن ثمة اذى كبيراً هناك. ولما ان هممت بقضم التـفـاحـة، رأيتني انقل بسرعـة الى باب ظهـرت فـجأة تفضي الى شعاع من النور الوهاج.

اني وأن كنت قـد رأيت هذا الحلم منذ وقت طويل قـبل ان اتخذ من علم النفس مـهنة، فلم اجـد يومئذ صعـوبة تذكر بشأن تأويله وذلك من خلال التـداعـيـات ومـا لدي عن حياتي من تجارب وخبرات اذ سرعان ما شخصت تلك بانها تمثل أمي التي كنت وقـتـذاك انظر اليـهـا وكأنها سـاحـرة مستأثرة مـعـوقـة حـريصـة بشكل غـريب تحب دائما ان تسـتأثر بي وتستبقيني لصقها مـتـشـبـثـة بي، كنت اراها في قـرارة نفسي وكأنها سـاحرة حيزبون يمكن ان تذهب الى ابعـد مـدى والى حـد ان تسـقـيني السم لكي ابقى قـريبـة وتحت هيمنتها (ففي قصة سنو وايت Snow White، مثلا ترتدي الملكة الخبيثة رداء اسـود لتـتظاهر وكأنها راهبـة فـتـقدم الى ربيبتها(١٩) تفاحة مسمومة). وقـد فسرت شـعاع النور الوهاج الساطع بانه الفريق او الجماعة المتدينة كنت قـد انتـيـمت اليـهـا لتـوي، واحـسـست ان الحلم كان ينبئني بانني سارتقي مـتـجـاوزة ذلك الالتـصـاق العـصـابي الذي كـان يقيدني ومن تلك التبعات العـصـابيـة المريرة. فهذا بحد ذاته كان تبصرا انار لي السبيل، اذ لم اكن من قـبل وفي ما مضى من الوقت واعية لهذا الدافع القوي الباعث الحافز.

بيـد ان جملة اسئلة لبـثت هناك من غير اجـابات تنير جـوانبها، من ذلك مـثـلا، طالما انا تخلصت من ذلك السرداب واحكمت اقـفال بابه خلفي وفي داخلي امي السـاحـرة، فلماذا كنت اذهب الى زيارتها واعـاود الذهاب اليها؟

لماذا هممت بقضم تلك التفاحة مع علمي واحساسي بانها مسمومة؟ ولماذا كانت تبتغي تسميمي؟ ولكي اظفر بما يريحني من اجابات، وبعد تخصصي بعلم النفس، رحت اطبق تقنيات علم نفس الجشتالت، فتوصلت الى النتائج الاتية:

أن(١٧): لماذا تريدين ان تسمميني؟ فأنا جئت لزيارتك لانني احس بالعطف عليك والشفقة من اجلك وإنّي لأعتبرها فظاظة منك بأني تقومي بمثل تلك اللعبة القذرة تجاهي.

المرأة: لكنك لا تعرفين شيئاً بعد، فانا امرأة عجوز مسكينة وها انذا ما برحت سجينة هذا السرداب القذر الموحش منذ عشرين عاما، وما من احد جاءني لزيارتي او ليراني فيه، فلا شعاع من ضوء ينفذ الي هنا ولا تدفئة تريح اوصالي، والرثية(١٨)قد اشتدت وطأتها علي ومفاصلي تكاد تتيبس. فلا احب ان تغادريني خشية الا تعودي الي مرة اخرى بعد عشرين سنة تترى. وايا كان الام، فلا تسيئي الظن بي، فالتفاحة ليست بمسمومة. انك قد ضخمت الموقف كله وبالغت فيه وخلطت في سوء الظن بيني وبين زوجة الاب الشريرة في قصة (سنو وايت) ان تفاحتي لا تحتوي الا على عقار خال من الاذى وكل ما فيه انه يشيع فيك النعاس لتنامي، حرصا مني على ان ابقيك معي هنا فترة اطول. ولا انوي قتلك ابدا.

وعند هذه النقطة بالذات، تدخل شعاع الضوء والنور الوهاج، مقاطعا ذلك الحوار ليقول:

الشعاع: اياك ان تصدقي كلمة واحدة مما تقول. انها كانت بطبيعة الحال بصدد تسميمك فأنا اعرفها كثيرا ما هي ومنذ أمد بعيد مضى وثقي بما اقوله لك وبه احدثك ان هذه الساحرة الماكرة جد خطيرة. والا فما سبب حسب ظنك، احتجازي اياها في السرداب؟ أني اعرفك جيدا فانت سرعان ما تستجيبين وتنقادين وانك لساذجة، وأنت تحسنين الظن بالناس دائماً وترين في قرارة نفسك خير ما فيهم دونما حساب لدخائل نفوسهم. فما

عسـاك ان تفـعلي من غيري وانا حـارسك والرقـيب عليك، ومـا عساك ان تـصنعي، لست ادري، ولا يمكنني ان اتصـور او اتخيل فلولاي لكنت الآن ممدة مـسجاة فوق بلاط هذه الارض، اليس كذلك؟

آن: بلى. . . بلى. . احـسب الامـر كما تقول، لا ريب، شكرا لك، انا مـدينة لك على اهتمامك بي. وكل مـا في الامـر انني شـعـرت بالاسف على احـتجازها هنا وحيدة منفردة، وما كان في وكدي اي اذى او اساءة.

الشـعـاع: نعم، انك لا تفـعلين هذا. فانت لا تقومين باي ايذاء، وهذه هي اسس مـشكلتك عليك ان تفكري اكـثر. فانت لا تدركين خباثة العالم من حـولك كما افهمها انا. فما ان تمنحي الواحد من الناس انجا حتى يأخذه الطمع فـيطلب بعـده مـيلا. فهلمي تعالي معي واصحبيني، وسترين انه لن يحصل لك مكروه بعد الآن.

المـرأة: أتوسل اليك بان لا تذهب وتتركني مـرة ثانيـة هنا ارجـوك خـذني مـعـك. واعـد وعـدا لا احـنـثـه بـالا يصـدر مني اي ازعـاج بعـد اليـوم. كفاني. . . فأنا لا يمكنني ان احتمل مزيدا من. . . . .

آن: (وهي توجـه الكلام الى الشـعـاع). نعم دعنا نأخذها معنا، فلنا أن نأخـذها مـعنا، ولنخرجها الي خارج السرداب لترتاح شيئا قليلا.

الشـعـاع: لا، بكل تأكيد لا. . . مستحيل. انه لامر غير وارد البتة. انها لا يـوثـق بهـا ولا يـركن اليـهـا فـلا تشـعـري بالأسى ولا تأسـفي على هذه الحـيـزبون(١٩) الشـمطاء. وعلى نفـسـها جنت براقش(٢٠) انها لا تريد ان تتـعظ، ولا تبـتـغي ان تتـعلم الاعـتماد على نفـسـهـا- فهي دائماً تتوق الي، وتتبـاكى على اسـتـجـداء العطف. يتعين عليها ان تتعلم كيفية الاعتماد على النفس قبل اطلاق سراحها.

آن: لكنهـا لن تتـعلم كـيـفـيـة الاعـتماد على النفس اذا انت ابقيتها رهن الاحـتـجاز هذا. عند هذا الحد من المسرحية، تكونت لدي صورة عن نفسي وكأنني طفلة صـغيرة مـرتبكة مـشـوشـةاالذهن تتلوى على الارض بين هذين

المخلوقين وهما يتصارعات من اجل الاستحواذ على معطيات روحي والهيمنة على نفسي، وانا بينهما لا ادري ماذا افعل، ولما كان كليهما يؤلفان جزءاً واحداً من كيان ذاتي، فقد بان لي الان انني موزعة بين صوتين: صوت يزتيني من داخلي ويناديني بضرورة الاعتماد علي نفسي، صوت يلح علي باستمرار وكأنه يقول: (يجب عليك ان تتعلمي الوقوف على قدميك معتمدة على نفسك وعليك ان تستقلي بذاتك عن الناس الاخرين). وصوت اخر يقرع اذني يأتيني من تلك المرأة المتمسكة بي وكأنها تصرخ باعلى صوتها: (اني احتاج منك الحنان والعناية والدفء). وبعبارة اخرى، فاني قد وجدت نفسي في ما يسميه ر. د. لينج R.D. Laing ب(الانشوطة) او (المشكلة) او (العقدة) Knot. ولعلها مشكلة تجذرت في داخلي من ايام طفولتي حينما كنت من ناحية بحاجة الى رعاية امي، وما كنت من ناحية اخرى اتوق اليه من تحرر وتخلص من سيطرتها علي. ويذكر لينج في كتابه (Knots) المتضمن قصائد من الشعر المنثور، شخصا فيصفه وصفا ينطبق على الموقف الذي انا فيه انطباقا دقيقا، حيث يقول:

كان ذاك في زمان تقضى حين كان جاك طفلا غرا عن امه ما استطاع (جاك) انفكاكا، وان هو احس عنها بعدا كان امض خوفا وارتباكاً وبعد، فحين شب عن الطوق واقتدر راح الي الاستقلال عن امه يتوق ويجيل النظر فما افزعه اذ تشده الى أمه ذكريات لم يعد يطيق احتمالا لصيقا بها اذ لا يطيب له المستقر.

ان هذا ليبين بكل وضوح كيف ان الصور العقلية التي تسهم في مجال عقولنا للوالدين تكون صورا منقسمة، وان ما يحصل من انقسام في عقل الطفل كما في حالتي في اقل تقدير، انما هو انقسام دواعيه قائمة في واقع الحال في عقل احد الابوين، وان تداعياتي المباشرة المرتبطة بالحلم المذكور، تظهر بطبيعة الحال ان المرأة العجوز إنما ترمز الى أمي، وانا من جانبي اقاوم طلباتها المتسلطة، وان محتوى الحلم ونشاطه انما يعكس مقدار محاولتي

للتهرب من طلباتها الملحفة تلك، وقد ادركت بصورة مبكرة ان هناك جانبين متصارعين في شخصيتها، يرمز لاحد الجانبين النور الوهاج وهو ليس بعيدا في رمزيته عن موظفي القصر الذين يصدرون توجيهاتهم العنيفة الي الملكة كما في الحلم السابق لحلمي الاخير هذا ويرمز للجانب الاخر هذه المرأة الحزينة التي تلتمس مني وتبحث عندي عن الحب والحنان وحين كنت ما فتئت طفلة، اتذكر انني قد اصابي ارتباك مأتاه ان امي كانت قد اقترحت علي بصيغة الجزم مبدأ الاعتماد على النفس والانفصال بالذات، وكانت في الوقت نفسه تؤنبني وتوبخني لعدم حبي اياها بما فيه الكفاية حسب تقديرها هي.

وكان قراري بشأن حل هذا الصراع يتمثل في ان اقاوم كلا من متطلبات امي وسعيها الى الحنان وكذلك استبعاد مشاعري الخاصة بالاعتماد عليها من ناحية، ومن ناحية اخرى يتعين علي ان اصطف بجانب النور والوهاج المنبعث من الشعاع. وقد انتهجت اسلوبا في السلوك اخذت فيه على عاتقي صفة الثقة بالنفس والاعتماد على الذات وان أنهي مسألة الاعتماد على الغير. على ان هذا لا يعني التنكر لاواصر مقتضيات صلة الرحم كما الزمت بها القيم الانسانية.

واني بهذا لا انحي باللائمة على والدتي، اذ ان لعبة تبادل الملامة لا تجعل المرء بمنأى عن المشكلة التي هو بصددها. فأنا حين الوم والدتي مثلا، فهي بدورها تلوم امها، وهكذا تمتد الحال فتصبح هناك سلسلة من حلقات اللوم الى مالا نهاية. فالاباء، ومهما يصنعون، فانهم من الهفوات بحق ابنائهم غير منزهين انهم بشر فهم اما أن يكونوا جد صارمين او جد متسامحين، وانهم اما جد متجهمين متزمتين، او لعلهم يكونون جد منشرحين. والحق، ان الامر هو كما قال اوسكار وايلد (Oscar Wild): (يبدأ الاطفال في باديء الامر يحبون اباءهم ثم إنهم بعد فترة يشرعون بتقييمهم، وفي النهاية، فقلما، ان هم ارادوا، يسامحونهم) ولكننا حتى نبلغ

مرحلة التسامح معهم واعفائهم من مسؤولياتهم تجاهنا، فاننا نتصرف ازاءهم تصرف الاطفال: فبالنسبة لحالتي، مثلا، كان يجدر بي ان اقف امام شعاع النور الوهاج (وهو رمز استقلالي عن امي) واقول: (انني الان فتاة ناضجة. كفّي عني توجيهاتك التي هي بالاطفال اليق. اذا انا رغبت في النزول في ذلك السرداب لارى تلك المرأة هناك، فيجب ان افعل، وما لاحد علي من سلطان ليمنعني، وانك لا تستطيع الحؤول دون نفاذ ارادتي). وبعبارة اخرى، ساختار بملء ارادتي متى اكون ضعيفة ومتى اكون قوية، ومتى ازجي الحب، ومتى أعتزل الاخرين فاكون قد تجاوزت الفطام. ويذكر بيرلز (Perls) ان مسامحة الوالدين واعفاءهم من مغبة مسؤولياتهم تجاهنا هي من اصعب مراحل العلاج النفسي، وعقب هذا الحلم بفترة رأيت حلما أخر يرتبط بالاول ارتباطا وثيقا، ففي هذا الحلم الاخير رأيت وكأن سكرتيرة زوجي في العمل، (ديانا)، وهي على جانب من الاناقة والكفاءة غادرت العمل لمواصلة دراستها، فعيّن بمكانها امرأة متصابية غير كفوء، عصبية واسمها (تلي)، (هذه كانت في حقيقة الامر احدى سكرتيراته سابقا). فما كان مني وانا في حلمي ذاك الا ان غضبت اشد الغضب وثرت في وجهه، لانني تذكرت وانا في حالة حلم، كيف كانت هذه المرأة تأتيني الى البيت وتضايقني بكثرة شكواها مما بها من ضيق نفسي يلازمها وكانت تطلب من باستمرار وتحاول جاهدة ان اقدم ما تريد من عون نفسي لما هي غارقة فيه من مشكلات متصلة. كان هذا الحلم قد حصل عندما واجهني زوجي بالخيار بين البقاء في البيت وبين العمل، وهو اختيار كان يتعين على ان اتخذ فيه قرارا بنفسي، ويبدو من مجريات الحلم ان القلق الذي عشته قبل اتخاذ القرار قد ايقظ في داخلي واقع الأتكال المتمثل في الساحرة العجوز القابعة في السرداب (وتركد لها في الحلم تلي، السكرتيرة المرعبلة)، كما اثار ذلك الحلم في داخلي حقيقة الاعتماد على النفس، المتمثل في اشعة النور المتوهج، (وترمز له في هذه الحالة ديانا)

وهي تحـزم امـرها اسـتـعـداداً للرحـيل. ولعل اختياري ل (ديانا) لتقوم بهذا الدور انما هو تكثيف condesation ، وتجـسـيم للفـتاة نفسها ول (ديانا) احـدى الهة الرومـان، وهي الهة الصـيد عند الرومان وحامية النساء والمدافعة عنهن عندهم- انها الهة تحـرر النسـاء. احـسست وقتذاك مقدار الفزع الذي اخـذ بلبى وتملك نفسي من جميع اقطارها فـقـد شـعرت بمدى وطأة خسران زوجي ان انا خـالفت رغـبتـه في البـقـاء في البـيت، وشـعرت كم انا كنت مـعـتـمـدة عليه من النااحية الانفعالية، وكم انا اخشى وحشة الوحدة، وهي كلهـا انفـعـالات جـعلتني اتقـبل طلب زوجي مني للبـقـاء في المنزل وكانت مـساعدة المحلل الذي استشرته عكس ما هو مطلوب. فهو قد المع الى نفسي (الحـقـيـقية) قد ارتفعت فظهرت على السطح وما علي الآن الا ان افتش عن السـعادة وتحقيق ذاتي في زوايا حياتي العائلية والبيتية.

ان مـا اخـفق ذلك المحلل في تفسيره وان مـا علمني اياه العـلاج حسب المنهج الجـشـتـالتي فـيما بعد، هو ان المرأة العجوز والتي تعد عالة، لم تكن لتـمـثلني او تعكس ذاتي الحـقيقية، وانما كانت تمثل جزءاً مني فقط هو ذلك الجـزء الذي مـا كان يمكن ان يكون رافضا وعنيدا لو انه اتيح له التعبير عن نفـسه يكبت او يكبح فترة طويلة. فلو اني تمكنت من تقبل ذاتي ومشاعري الـطـفـلـيـة الاتكاليـة، لو اني تعلمت كـيف ادمجهـا في ثنايا تكويني النفسي الكلي، لاسـتطاعت تلك المشـاعـر ان تكشـف عن نفـسـهـا في صورة سلوك يعبر عن الدفء والحنان واحـاسـيس المحـبة للاخرين، ولما كانت على النحو الذي تجلت فـيـه وهي تمثل مـشـاعـر مـسممة تتسم بندب الذات، ومفعمة ومـشـحـونة بانفـعـالات تسلطيـة وسـاسـيـة طردت من داخلي كل احساس بـالامـان وبهـذا يـكون محللي في محاولتـه حملي على ان اعترف بوجـود الجـانب الممـثل ب (السـاحرة العجوز) من ذاتي وان اتقبله، قد اخفق تماما، وكانت نتـيـجـة محاولته ذات تأثير عكسي، حيث اخفق في ما كان يتوخى فلو كانت تلك الساحرة هي انا الحقيقية، هكذا ظننت لكان من الاجدى اعادتها حالا

الى قبوها واحكام قفل باب السرداب برتاج اضافي. وبناء هيكل تلك الافكار قائم في بنية تكويني النفسي وهو قابع هناك وقد احكم عليه الرتاج حتى تسنى لي التخصص بعلم النفس وركزت اهتمامي على تقنيات علم نفس الجشتالت فادركت ان ما كان يقض مضجعي ان هو الا وحشي من صنع خيالي وان الساحرة انما صنعتها اوهامي، ولو اني دمجتها في كيان ذاتي لما صدر منها ايذاء لي. وهنا عند هذا الحد، رأيت حلما اخر، وضح لي هذه النقطة على نحو رائع.

رأيتني في هذا الحلم املك بيتا كبيرا واجرت غرفتين اثنتين منه. ففي الغرفة الكبيرة الامامية ذات التهوية الكافية والتي تتخللها الاشعة الوافية، المطلة على منظر خلاب والمزودة بتدفئة مركزية، في هذه الغرفة كانت تسكن (تلي) بينما كانت تسكن، في غرفة خلفية صغيرة، لا يزيد حجمها على مهجع، فلا نافذة لها، ولا تدفئة فيها، شريكة لي في العمل المانية ذات كفاية عالية، اسمها (رجينا) رأيت وكأن (تلي) تدفع اجرا قدره ثلاثة باونات، في حين ان (رجينا) تدفع لي لقاء سكن غرفتها الصغيرة ستة باونات، لا يمكنني ان اتصور لماذا لم تتذمر رجينا، مثلما اعتادت ان تفعل في حياتها الحقيقية، بل هي بدلا من التذمر كأنها كانت تذكر بانها يندر ان تكون في مكانها هذه الايام بدعوى التزاماتها في عمل جديد مرموق يدر عليها مبالغ طائلة من المال.

ما ان محصت مغزى هذا الحلم، حتى ادركت تارة اخرى اني قادرة على التعرف بان تلي انما تمثل الساحرة العجوز التي كانت قد ظهرت في الحلم الاول في سلسلة الاحلام المتعاقبة هذه، الساحرة التي تركت قبوها المغلق لتحتل افضل غرفة من البيت في الطابق العلوي منه. واني استبدلت باشعة(٢١) النور الوهاج هذه المرة، رجينا بدلا من ديانا، ورجينا هي فتاة اخرى ذات كفاية عالية، وقد بدت في هذا الحلم، رجينا وهي تظهر احسن جانب فيها بدلا من النكد ولا لاحقتني في تقديم العون لها ومحاولة اقحامي

في مشاكلها، وعندما دعوت رجينا لاستوضحها كيف تحس إزاء الموقف، اجابت.

رجينا: حسن، ليس من الانصاف بطبيعة الحال ان تستوفي اجارا مني يساوي ضعف ما تستوفينه من تلي، وان غرفتي تفتقر الى النور والتدفئة. غير أني ليس لدي من الوقت ما يكفي لاتحدث عن تفاهات كهذه ثم ان ليس لدي متسع من الوقت لابحث عن غرفة اخرى غيرها. ساصرف النظر عن هذا الامر حاليا واعايش هذه الترتيبات في الوقت الحاضر نظرا الى اني اسكن في الغرفة هذه سوى ليلتين من الاسبوع فقط. اما تلي فانها تسكن في غرفتها كل الوقت لانحراف صحتها مما لا يتيح لها الخروج في الوقت الراهن، لذا يفضل ان تسكن غرفة مستوفية شروط السكن على نحو افضل، وساعمل ما في وسعي لمساعدتها على تجاوز وعكتها. وانه لما يقع ضمن اهتماماتي ان اعينها باي طريقة ممكنة ذلك لانها في حال من السأم في ما هي الان، اليس كذلك، فهي دائمة الشكوى جراء ما فيها من رثية (روماتيزم)، ومما يكتنفها من اشياء. وارجو ان تستخدمي شيئاً من اجاري لشراء ما تحتاجه من حاجيات وتقديمها اليها. وما هذا الا اجراء مؤقت حسب، اذ اني لا استطيع احتمال ان تعيش طفيلية علي الى ما لا نهاية. فعندما تتماثل للشفاء وتتحسن صحتها يصبح بمقدورها الاعتماد على نفسها والعناية بشؤونها كاي فرد اخر سواها.

يبدو واضحا الآن اني قد انتقلت الى مرحلة اصبح فيها جانب ذاتي المسيطرة اقل تحكما وتشددا مما كان عليه، وان كان لا يزال مرعبا الا انه اقل ارعابا وان هذا الجانب من ذاتي اخذ ينظر الى الجانب المستخذي من ذاتي انه مريض ضعيف بحاجة الى المساعدة، بدلا من كونه يمثل ساحرة عجوز متسلطة خطيرة ينبغي انقاذي من قبضتها. وقد فسرت ما كانت تعطيني اياه من نقود بانه طاقة نفسية Psychic Energy ، بدأت تعود بالانتقال التدريجي من جانب شخصيتي الباردة المتعنتة والممعنة في

استـقـلاليـتها المعتدة بذاتها، فراحت تتحول الى واقع طبيعتي الدافئة بالقوة والفـعل وهي طبـيعتي المحبة للآخرين، بعدما كانت قد توارت منذ امد بعيد فـقطنت ظلمات ذلك القبـو المغلق. فكأن رجينا كـانت تقـول لي ينبغي ان نستـخـدم هذه الطاقة لاستعادة التوازن النفسي، وليس لابقاء تلي عاجزة وفي حـالة اتكال في مـا تبـقى من حيـاتها، والتي الان استـنبطت تلي بشأن هذا الترتيب، فاجابت:

تلي: لا يمكنني ان اعبر لك كم اما مـغـتـبطة باطلاقي من ذلك القبـو المتـهـرىء الرطب، وقـد حاولت ان اخبرك ان البرد فيه قد امرضني، لكنك لم تـصـغـي الي، وكـنـت عـلى وشـك فـقـدان بـصري لمكثي في الظلام فترة طـويـلـة، ويلزمني بعض الوقت لتـتـحـسن حـالتي الصـحـيـة، وارجـو ان تحـتـمليني، وكل مـا اتطلبـه، ولفترة وجـيـزة، ان اجلس قرب المدفأة لانعم بـدفء حـرارتهـا تـسري في اوصـالي، واحـب في هذه الايام ان اطل خـلال النافـذة فـاحـدق واحـدق لامتع نظري، اذ طال علي الامـد ولم أر من قبل فـضـاء ولا لونا يبـهـجني فـاني احب ان اعـوض عما لحق بي من حـرمـان، واريدك ان تأتي وتجلسي بقـربي وان تحـدثيني بما يسليني، وان تفعلي ذلك بين حين واخـر واني لعلى يقين من انني سـاتحـسن بسرعـة، وبهذا لا اكون بعدها عـبئا ثقـيـلا فترة اطول. وسأتمكن ابان مـدة وجـيـزة من الاعتماد على نفسي والعناية بشـؤوني، فـهي لا تبـدو الان خطيرة، واني لاثق بها تقـول، واشـعة النور هي الاخـري تثق بها ايضـاً، او في الاقل يمنحـهـا فـرصة الاعفاء من الشك فـيـهـا وان هي اخـفـقت في ان تلتزم بوعدها ، وتحافظ على نواياها او في ان تصبـح عـبئا، فان رجينا لها بالمرصاد لحملها على الحركة واعادة توازنها اليـهـا. وفي المآل فـان الثـقة بالنفس وان مقدارا كافيا من الاستقلال انما هي خـصـائص ممتـازة، واني لا ارغب في خسرانها ولا احب التـفـريط بها، ولكن في الوقت نفـسـه سيكون ثمـة مما يبعث في نفسي راحـة كبرى اذ احس بان حاجتي الى اناس اخرين لم يعد ما كنت اعتقد بأنه امر يدعو الى الخجل.

هذه السلسلة من الاحلام تكشف مرة اخرى بوضوح كيف يعمل العقل اللاشعوري بشكل متعاكس مع التوقعات الفاجعة والامال المتعارضة وانه ليتعين تدريبه على العمل وفق مقولة خير الامور اوسطها، فقد كنت طيلة فترة ممتدة انكر مسألة اعتمادي على غيري واتكاليتي واستهجن ايكال قضاء حاجاتي الى سواي، واخذت ذاتي بالثقة بالنفس، وبالرواقية، وبالاستقلالية، واستسخفت أولئك الذين من حولي وخدعتهم واستغفلتهم وجعلتهم يعتقدون بما قلت وبما اصررت عليه بأني استطيع ان اعنى باموري وبأني بوجه عام قادرة على ان اهتم لشؤوني الذاتية. وان الساحرة العجوز قد احست بوضاعة نفسها وبحقارة سلوكها المدمر المتمثل بالانهيارات العصبية الخفيفة وبالاتهامات الموجهة الى الاخرين باهمالي والاعضاء من شأني. وهذا ما حير اصدقائي وافراد اسرتي ذلك لانهم كانوا يعرفون مقدار ازدرائي اولئك الذين يعجزون عن الاعتماد على انفسهم او الذين كانت تبدو في سلوكهم اي علامات مما يدل على ضعفهم في مواجهة المواقف الصعبة، فاللعبة التي لازمت مسلكي وتصرفي كانت واضحة المعالم وهي لعبة عامة. اذ كنت انتظر من الناس ان يقرأوا اعماق افكاري ويتبينوا غائر احاسيسي بما يشبه طريقة التخاطر وقراءة الافكار. ولقد ادركت ان هذه اللعبة عصي على الناس ان يتبينوها وان يدركوها ولهذا صممت على ان اتوصل الى الجواب المعقول لمواجهة مثل هذه المواقف هو ان يجعل حاجاتنا مكشوفة للاخرين ومعلومة لديهم، وان نمنحهم الفرصة لان يفعلوا الشيء ذاته، وانه يتعين علينا جميعا ان نتحمل المسؤولية كاملة كما يترتب على ذلك من قرارات تتخذ بهذا الشأن.

البروفيسور بيتر بيكنسفيلد Peter Beaconsfield، الجراح والعالم الامريكي، كتب موخرا في مجلة (العلم الجديد) يقول: (ان تكون جاهلا بوجود مشكلة قائمة، فامر مفهوم، اما انك تتجاهلها بعد تشخيصها وتهملها، فامر مرفوض). هذا يوضح حقيقة مشاعري بشأن ما لدينا من

صراعات داخلية تكشف عنها احلامنا وان حالتي في مجملها تقوم على اساس التعامل مع هذه المشكلات ومواجهتها وذلك يتم عن طريق ايقاظ الحياة الداخلية فينا وتنبيها لكي تؤدي وظيفتها على نحو اتم وبشكل سليم. لكن ما فينا من عادات مستحكمة لا يتم كسر طوقها بسهولة، وان جانب الذات العليا المسيطرة لا تتخلى عن هيمنتها من غير معاناة ومتاعب يواجهها الفرد. وهذا ما وجدته بالفعل يعتمد في ذاتي، اذ كان هناك صراع قائم بين الذات العليا والذات الدنيا، وكان التصارع بينهما قائماً والعراك محتدما وساحة معركتهما هي نفسي، وكل هذا كان غائبا عن مجال شعوري، اني اكتب هذا الكلام وانا الان راقدة في المستشفى محاطة بعناية ورعاية ولطف الاطباء الجراحين والممرضات بعد اسبوعين من اجراء عملية جراحية صغيرة لورم في الغدة اللمفاوية، وكان يمكن ان تتم بسهولة ولفترة في المستشفى اقضيها اقصر مما رقدت، كان كل هذا يمكن ان يتم لو اني لم استمع ما حدثتني به الذات المسيطرة فزينت لي اهمال الامر حتى تفاقم.

ثم ان الحل الاخير في سلسلة هذه، وإن لم يشر الى تمام الاكتمال في داخلي، فانه يقدم أملاً يوحي بان ثمة تغيرات ايجابية سائرة الى الاحسن واني بمرور الوقت اتعلم كيف اتصرف بعقلانية، وانه لما يدعو الى الاهتمام هو ان الحلم الاخير قد اختار رجينا- واسمها يعني الملكة- اختارها لتلعب دور الذات المسيطرة، وهذا يختلف عما كنت اراه في سلسلة احلامي التي قبل الحلم الاخير هذا وذلك لان الملكة في سلسلة احلامي السابقة، كانت ذاتي الخاضعة، فهل هذا يعني ان عنصري القوة والضعف في داخلي قد توحدا ليكونا نوعا من انواع الوحدة المتكاملة القائمة على الاستبصار الذكي؟ وهل يمكن ان تكون هذه هي الخطوة الاولى في ما يسميه يونج الطريق الى (التفرد)(٢٣) وهو كما يصفه بقوله: (العملية التي يصبح فيها الفرد بمقتضاها وحدة نفسية منفردة بخصائص بها يتميز، وحدة ذات معالم

محددة، متفاعلة، غير مجزأة، فهي كل لا يتجزأ) واظن أنه يمكن ان يقول بيرلز بأنني قد استكملت في ذاتي تكوينا جشتالتيا كليا. اني لارجو ان اكون كذلك.

زائرون من الفضاء الخارجي

في اعتقادي ان الاحلام تأتينا من عالم قصي لتزور النفس اثناء النوم- هذا ما قاله شيلي.

عندما بدأت بالنظر الى احلامي وفق مسارات علم نفس الجشتالت، ادركت انني طيلة ايام حياتي كنت قد كبت او ابعدت ما كنت اعده، خطأ، من الجوانب الضعيفة في شخصيتي، سلسلة احلامي التي كنت اراني فيها (ملكة) توصلت الى ان استبين اخطائي البشرية اذ ما من انسان معصوم عن الخطأ، وقد أفضى هذا إلى بلوغ نمط من انماط الحياة المسترخية، وقد تعلمت كذلك من سلسلة احلامي التي رأيت نفسي فيها وكأني (ساحرة) بان ارسي قواعد المحبة والعلاقات الحميمة دونما خوف من ان اكون منبوذة او غارقة الى الاذقان في متاهات او اوهام فكلتا السلسلتين من الاحلام كان رالتركيز فيهما على مشكلة الضعف في داخل شخصيتي وان الحلمين اللذين سانهي بهما هذا الفصل يضيفان بعدا اخر الى القصة التي لم تنته بعد. فهذه الاحلام التي حلمت بها وكأنها قد شطحات من مستوى عميق من مستويات التكوين النفسي وقد جعلتني مستيقنة بان شيئا بالغ الاهمية كان قد حدث. وكلا الحلمين اللذين اقصدهما هنا هما حلمان ذوا طبيعة (يونجية)(٢٤) واعني بذلك انهما يحتويان طبيعة ميثولوجية تحمل خصائص الاساطير لم اكن قد الفتها من قبل في احلامي السابقة لكنها وجدت صداها في ثنايا نفسي بوصفها تمثل ذاتي الانثوية او انها تمثل الدليل الروحي في داخلي، حصل الحلم الاول مباشرة بعد ان شرعت بالدراسة وفق الخطوط الجشتالتية وها انا ذي اقص هنا بصيغة الحاضر:

انني قد طردت اوريل- وهو رجل بدائي يعلق على صدره قلادة لماعة شفافة مصنوعة من الكرستال والبلورات- لكني اكون قد طردته بسرعة فاعود واسترجعه من جديد. انه يجوب العالم السفلي الخفي واني اعرف انه سيكون له سلطان على ذلك العالم طالما هو يعلق هو على صدره تلك القلادة، فهي للتأثير والتجميل، وانا ارى نفسي اقوم بطقوس وامارسها من اجل استعادته الي عالمنا هذا. فما كان مني الا اني بدأت اتلفظ بالفاظ وابتهل بابتهالات واردد تعازيم مثل (ايها الاصدقاء ايها الاحباء الطيبون. . .) فما كان مني الا ان اخذت اتبين امرأة ذكرني منظرها بـ(ليدي ماكبيث) اراها على مسرح وهي تتقدم نحوي وتعلو وجهها ابتسامة. فتخبرني وهي تقهقه ضاحكة باني من المحتمل الا اكون جادة في استفادة اوريل وعندما اؤكد لها باني جادة ولست هادئة، فانها تلتصق بالجدار التصاقا على نحو ينطوي على شيء كثير من الفزع المطلق.

حينما ننظر الى هذا الحلم بوصفه صورة، فلا ارى عندي اية فكر عمن يكون اوريل هذا او لماذا انا طردته ونفيته، لكنني تعلمت من احلامي ان اي فرد يتم احتجازه او ابعاده انما يمثل دائماً على وجه التقريب ذلك الجزء المستبعد من الشخصية وهو الجزء الذي يجب ان يستفاد ويستحضر، وهذا ما يبدو اني اعمله تماما في الحلم او ما يبدو انه يتمثل لي في الحلم وهي عملية تزعج ليدي مكابيث ازعاجا كبيرا وليدي ماكبيث هذه في حلمي ترمز الى صفات القوة والطموح والعنف والقسوة. فمن الواضح ان فزعها من ان يكون لدى اوريل نوع من انواع الهيمنة عليها جعلها ترتعب واحسست في داخلي بانها كانت تخشى ماضي القلادة من سطوة وان لم تكن لديه علاقة بين خوفها والقلادة. ومع اني اصف اوريل بانه (انسان بدائي) في الحلم، فهو يبدو لي ملاكا اكثر من كونه كما وصفت، ويبدو اني كنت في الحلم انادي على الارواح ذات الطبيعة الخيرة حين كنت انادي (لاصدقاء الاحباء) لكي يساعدوني في العثور عليه، فالحلم كما وصفت انما يمثل قصة

اسطورية تامة فهو لذلك نموذج في التطبيق من اجل العلاج على وفق السياقات الجشتالتية، فانا باديء ذي بدء اسأل اوريل من يكون هو، فيجيب:

اوريل: انا ملاك، واني اجوب العالم السفلي الخفي، كنت اقوم بمهمة حراستك حينما كنت صغيرة وانك كنت تحبيني حينذاك كثيرا. انا قادم من الشمس- اتذكرين انك تحبين الشمس؟ أنك تذكرين يوم كنت لا تزالين جد صغيرة وضعت يديك على وجهك وحجبت عينيك بكل يديك وقلت لي انني ما كنت من الحقيقة في شيء. وقلت كذلك انك لم تعودي تثقين بي وطلبت مني ان ابتعد عنك والتواري عن انظارك. فانا لم اتوار في واقع الامر لكني انقطعت عن ان اكون موجودا من اجلك.

آن: لا تكن سخيفا، فما من احد يثق بالملائكة الحراس في هذه الايام انك تغيظني وتزعجني، ومع هذا فانه لشيء حقيق اني قد احسست وشعرت بوجود شيء ما يكتنفني حينما ذهبت اجوب اوروبا، وقد احسست في اكثر من مرة واكثر من موقف بان هناك يدا خفية كانت تمتد لتنقذني من مواقف عصيبة. فهل كنت تقوم بذلك؟ لا ليس الامر كذلك بطبيعة الحال، اذ ان الامور كلها كانت تبعث على السخرية. فانا متخصصة بالعلوم وبعلم النفس خاصة، وانك من هذه المثابة لا تستطيع القيام باي شيء ولا يسمح لك بذلك.

اوريل: نعم انا الذي كنت هناك، اذ كنت معك الوقت كله، انظري هنا وانتبهي لما اقول، الا يكون في صالحك ومما يساعدك ان تسميني ذاتك النفسية الانثوية او ان تدعيني باي اسم اخر ينم عن احترام، فليس ثمة في الامر فرق كما تعرفين.

آن: حسنا، نعم احسب ان الامر كذلك، وايا كان الامر، انك يا اوريل لفكرة محببة جميلة، لكني ما زلت محتارة بشأن قلادتك، اهي سحر تحمله؟

اوريل: انها تعـود اليك يوم كنت طفلة، ومنذ اليـوم الذي طردتيني فـيـه اخـذتها مـعي. وقـد ادركت يوم ذاك انك ستعيديني اليك، وان القلادة هذه هي الرباط الذي يوصل بيننا.

آن: انـا لست مـتأكـدة تماما مما تعنيـه بهذا القـول، ولهذا يتـعين عليّ ان اطلب من القـلادة توضيح نفسها والافصاح عن هويتها وذاتها.

القـلادة: اني قـلادة من الكرسـتال، واني براقة شفافة، وباستطاعتك ان تنظري من خـلالي، فـانا اتلقى الضـيـاء ثم اعكسـه بالوان كـثيرة. اني لماعة وجميلة، فأنا لست قـوية كـالماس ولست رقـيـقـة كـاليـاقوت، ولكني صافية ونقـيـة، وامـا صـفـائي يتـلاشى فـيـه التنفج والادعاء والبهرجة مثلما يتوارى دراكـيولا اما الصليب، اني ملك لك.

حـينما نترجم مـعنى الحلم بتـعابير منمقة، نجد انه يطلب مني ان استعيد من المؤهلات مما نسـمـيـه احـيـانا البراءة والنقـاوة والاسـتـقـامـة والاستجابة المفـتـوحـة الى الاخرين وللحياة بوجه عام وكل هذا يكاد يكون من المسلم به بان هناك عنصر خير في كل انسان حتى في الاشخاص الذين يتسم سلوكهم بالعنف والعنجـهـيـة، وهذه كـانت بعض خصائص سلوكي فيجعلني اراعي حـيـاتي، فكانت تتمثل فيه بعض جوانب اللامبالاة والخشونة وبعض جوانب التردد وبعض جـوانب القـسـوة وهذا مـا تراءى لي في احلامي من ذلك مثلا ليـدي مـاكبيث هي تمثل جانب شخصيتي في تطلعها للقوة. وليدي ماكبيث كـانـت لا تتـورع في القـيـام باي شيء من اجل تنفـيـذ مأربها وان هذا شيء لازمني منذ ايام طفـولتي.

وعندمـا اطلقت العنان الى ليـدي مـاكـبـيث لتـتحدث عن نفسها اصبح واضـحا انها ما كانت تقر نظرتي الى الحياة اذ كانت تتطلب مني الاندفاع بلا ضـوابط، وعندمـا حصل الصراع في داخلي وهو صراع حصل بين ما أنا عليه مـن إنـدفـاع بـاتجاه تـنـفـيـذ المأرب باي ثمن وبين ترددي في احترام بعض الاعـراف الاجـتماعـيـة فـانها تركـتني وشأني وان توجـهـاتي والتـزامي بالقـيـم

جعلني ارعوى واندمج بالعلاقات الانسانية.

وابان حلمي الذي رأيت فيه اوريل، فان ليدي ماكبيث وهي تمثل مكانة ذاتي العليا في حياتي كلها، قد امكن ازاحتها عن الطريق لتخلي المكان الى رغبتي للاعتراف في الجانب الضعيف من شخصيتي وبخاصة بعد ان بدأت اتناول بالتحليل مواضيع الاحلام ايقنت ان ما من شيء يمكن ان يكون بغير مواطن ضعف في التكوين النفسي ولا سيما في شخصيتي، وان ليدي ماكبيث كانت بطبيعة الحال تقاوم الى حد الجنون من اجل الحيلولة بيني وبين الاستجابة المطلوبة لمتطلبات الحياة العامة، فهي كانت تنكر عليّ ذلك وتلح عليّ بان انصرف الى المسؤولية العلمية وان ارفض اية اعتبارات تتعلق بالمشاعر وبالمشاكل الانسانية ذات العلاقة بالعمل والزواج والطلاق وما الى ذلك، فهي في داخلي تمثل هذا النوع من الصراع بين ان استجيب لندائها وبين ان استجيب لما هو مطلوب في الواقع. فهي قد تكون على حق من جانب ولكن للحياة متطلباتها ايضا. وكل هذا الذي رأيته في احلامي والذي يراه الناس في احلامي انما يعبر عن اتجاهات كائنة في التكوين النفسي عند الانسان وهو يفسر حقائق ويكشف عن أن ثمة اشياء في الارض والسماء هي اسمى واعمق معنى مما يدخل في فلسفات معظم المحللين والاكاديميين النفسانيين.

وقد تبينت فيما بعد ان اوريل كان حقا ملاكا اذ انني وجدت في (الفردوس المفقود) للشاعر جون ملتن انه يشير الى ما يصف به اوريل بانه (الموكل بالشمس) او (الوصي على الشمس) فيصفه قائلاً بانه الروح ذو النظرة الثاقبة النفاذة في السماء. ولعل اسم اوريل قفز الى ذهني من قراءاتي للفردوس المفقود ايام كنت طالبة في المدرسة. ولكن كيف بقي مختبيء في ثنايا فكري طيلة تلك الفترة، وما قفز الا في الفترة الاخيرة ليظهر في احلامي، وقد قررت ان اخذ بنصيحة اوريل وان اعتبره يمثل الجانب النفسي او الروحي من حياتي وهو الجانب الايجابي والذي يمثل كما يذكر

يونج اذ يصبح (وسيطا يمثل الخبرة الروحية في حياة الانسان حيث انها تتطلب وتكتسب معنى جديدا).

لا يمكنني ان اجزم الى اي مدى كنت قد افلحت في ايقاظ اوريل واستعادة صورة القلادة، لكن الحلم التالي الذي وصل بعد اشهر قلائل من حصول الحلم الاول، يشير الى انّ هناك نوعا من التحول الحقيقي كان قد حدث في حياتي. ففي هذا الحلم:

رأيتني بصحبة جماعة من الناس في سفينة فضاء، وان السفينة هذه قد هبطت على ارض غريبة في فضاء خارجي، ثم تنفتح فتحة صغيرة فيها يدخل منها رجل يشبه الامير ارثر كما جاء وصفه في مسرحية (الصباح الباكر) التي كتبها ادوارد بوند Bond فيأخذ ذلك الرجل بالتحديق فينا ويبدأ يتفحصنا، ثم يتكلم الينا بلغة غريبة اعرف عنها بانها مزيج من الانكليزية واليورية Uri ولتكن هذه اللغة ما تكون وان بمقدوري ان افهم شيئاً قليلا منها لو انني احاول التركيز عليها، يشير ذلك الرجل اليّ ويطلب مني ان اتبعه، وينتابني الدهش فاتساءل كم يكون الوقت انذاك اذ لم ادري هل الوقت متقدم او متأخر، واني اذ اتبعه خارج المركبة الفضائية فيخبرني بانه سيكون دليلا لي انه سيطوف بي حول العالم الجديد ليطلعني على ما فيه من عجائب.

لدى تأمل هذا الحلم بوصفه صورة، فانني استذكر بان شخصية آرثر في مسرحية (الصباح الباكر) تمثل النفس او كما اعتقد وحسب مصطلح يونج انها اسم اخر من اسماء الذات الذكرية عند المرأة. وان مرافقي الذي اصطحبني كان يتكلم بلغة اليوري وهي لغة تذكرني باوريل الذي كان بمثل الملاك الذي كان يحميني وهو يمثل ذاتي الذكرية Animus . لهذا استطيع تأويل حلمي هذا بانه رحلة عبر الفضاء- وهذا يعني استكشاف المجال النفسي الداخلي الواسع الممتد في ثنايا ذاتي وطوايا روحي وشخصيتي انه رحلة استشكافية فيما وراء الحدود والتخوم المحدودة للذات Ego ، انها

رحلة الى عـالم جـديد، الى حديث يتعين عليّ ان اواجه ذاتي التي كانت حتى الان مستبعدة ويتعين علي ان اتقبلها وان اتوحد معها.

اني لست متيـقنة مما يعنيـه هذا من مجمل مـواقف حـياتي كلها او كيف سـيؤثـر في وجـودي الخـارجـي. وان جـل مـا اعـرفـه هو أنني قـد تنبـهت واسـتـيـقظت من سبات وانّي فرحت باحساس يغمرني مع شيء من النشاط والمـرح والبـهـجـة، وكأن شـيئاً مـا قـد اطل بنوره فـاضـاء جـوانب حـيـاتي الداخلية فحصل في داخلي من التبدل الايجابي مما حملني على ان اتحدى ليدي مـاكـبـيث يوم كـانت تطلب مني ان اتخلى عن مثل هذه الخبرة المستنيرة، يوم كـانت تلح علي في داخلي بان اطرح هذا جـانبـا مـعـتبرة اياه نوعـا من انواع الـتـعـبير عن الرغـبـة في ان تكون الانثى مـثل الاب او الاخ ولعل كـلا من يـونج وبيرلز يعبر عن هذا بالقـول بانه كـان هناك نوع من انواع الامـتـداد في الشـعـور يسـتـبـان في تكامل المتناقـضـات وفي تداخلهـا وتفاعلها، فلهذين المـحـللين ان يقـولا مـا يبـدو لهما من رأي، بيـد اني أشـعـر انه لا يمكن ان نتـجـاوز ذلك وان نبـتـعـد فـيها وراءه. ان احـلامـا كهذه احلام تنشأ وكأنها جـاءت من اغـوار بعيدة في طبقات التكوين النفسي والحياة الداخلية، ينبغي ان تقـبل كما هي وان تقـبل فـيها تشير اليـه ومـا ترمز اليه وما تعبر عنه. اي ينبـغي تقـبلهـا على انها احـداث روحـيـة لا تخلو من بعض الغـمـوض وانها خـارقـة للطبـيـعـة، انها احداث تمر بنا بوصفها خبرات ونبلوها في النوم فهي قـابلة لان تكون تجـارب اكـثـر من كـونها خـاضـعـة للتأويل، وان الامر في حقيقته كما يعبر عنه يونج:

(ان مـا يحدث داخل نفس الفـرد، حينما يتم الربط بين محتويات الشعور الماضـيـة وبين حـالات الشـعـور الحـاضرة، انما هو شيء قلما يمكن وصـفـه بالكلمات، فـهـو شيء يحسه الفرد كخبرة، انه تحسس، انه حالة ذاتية تتعذر عـلى الـنـقـاش والوصف، فنحن لدينا احـسـاس خـاص عن انفـسنا ونحن

نعرف شيئا ما عما عليه، وتلك حقيقة تتجاوز حدود الامكان والمعنى الذي نريد وانها لعصية على الشك، وسواء قد حصل التغير في داخل الانسان نتيجة للتكامل الداخلي عنده ام لاي سبب اخر، وايا كانت طبيعة هذا التغير فيه، فالامر يبقى من غير شك ايمانا ذاتيا واعتقادا نفسيا. . . وان الواقعيين من المعالجين النفسانيين والمحللين النفسانيين المعنيين بالعلاج النفسي لا يسعهم بحال من الاحوال ان يغفلوا حقائق من هذا الضرب مما ذكرناه. . .).

هوامش الفصل العاشر

(٢) الضفيرة الشمسية مجموعة اعصاب متشابكة في اعلى تجويف المعدة (المترجم)

(٣) الذين يمارسون رياضة اليوغا من الهندوس (المترجم)

(٤) رياضة جسمية يمارسها رجال الدين الهندوس والاعتقاد من وراءها ترويض النفس وتطويعها للابتعاد عن الرغبات المحرمة (المترجم)

(٥) السادية تعني القسوة والتلذذ بايقاع اذاها على الناس الاخرين (المترجم)

(٦) اي اطلقها على سجيتها دونما وازع (المترجم)

(٧) الكف الجنسي يحصل لاسباب نفسية وقد يستخدم احيانا مرادفا للبرود الجنسي ويكون هذا الاخير من بين اسبابه (المترجم)

(٨) استخدمت المؤلفة تعبير Pyschic drama وتريد بذلك المسرحية النفسية اي التي تكتب عادة من اجل غاية بعينها، والتعبير هذا قريب من تعبير Psycho drama الذي جاء به مورينو كما المحنا اليه في هامش من الفصول السابقة (المترجم)

(٩)الملك والملكة الوثنيان وبقية الحاشية من عبدة الاوثان، كل اولئك رموز تعبر عما في نفس بيتر من التواءات وانحرافات ازاء القيم الزوجية التي كان ينبغي عليه الالتزام بها نحو زوجته (المترجم)

(١٠) الضمير هو الرقيب وهو اذا ما عمل بحق ووجه اعمال الانسان الى الخير فانه يستحق الوصف بانه محكمة عليا عادلة متنقلة (المترجم)

(١١) مرّ شرح ذلك في هامش سابق من هذا الفصل بالذات (المترجم)

(١٢) الترتيب القسري او القهري او الوسواس الاستحواذي حالة نفسية يضطر الفرد الملازمة له ان يرى كل شيء حسبما يريده هو، ووفق نظام توحي به اليه ذاته، فاذا ما رأى مثلاً ورقة خارجة قليلا عن بقية الاوراق

الاخـرى فلا يرتاح حتى يراها مصفوفة تماما كما البقية، وهكذا (المترجم)

(١٣) المقـصود به نفسيا التقصير بحق النفس (المترجم)

(١٤) حـيوان الفقمة المعروف ومن جلده يتخذ فرو ثمين (المترجم)

(١٥) توكـد المؤلفـة في هذا على ان احـلامـهـا كانت في الغالب تنبئها بما سـيأتي في مـسـتـقـبل حـياتها وانها وجدت ذلك حقيقة لا غبار عليها مما اثر حـتى في مسرى واقعها النفسي (المترجم)

(١٦) الربيـبـة: ابنة الزوج او ابنة الزوجة وكذلك الربيب (المترجم)

(١٧) أن هي المؤلفـة نفسها (المترجم)

(١٨) الرثيـة: بفـتح الراء مشددة وسكون الثاء وياء مفتوحة داء المفاصل والرومـاتيـزم (المترجم)

(١٩) التعبير المستعمل The Old bag ويراد به امرأة بشعة قذرة الملبس (المترجم)

(٢٠) مـثل عـربي يؤدي المعنى المطلوب، وقـصـة المثل معروفة وقد وردت ملخصة في مجمع الامثال للميداني (المترجم)

(٢١) في اللغـة العـربيـة البـاء تدخل على المتروك، والقـرآن حافل بامثلة تـكشف لنا عن ذلك وتبصرنا (المترجم)

(٢٢) حديث الذات الى الذات (المترجم)

(٢٣) يستخدم يونج كلمة individuation ويريد بها التفردية او تفرد شـخـصـيـة المرء فيدرك معها بانه يتميز بسمات وخصائص فيعي ذلك بفعل صـفـاء وعـيـه الشـعـوري ويرى يونج ان هذا يحقق للمـرء شيئا من تكامل الذات ويكون احد الاهداف التي يسعى اليها كل فرد (المترجم)

(٢٤) نسـبة الى يونج (المترجم)

القسم الرابع

التطلع الى المستقبل



الفصل الحادي عشر

قوة الحلم في مجال المجتمع

ثمة بين شباب اليوم اعتقاد واسع الانتشار مؤداه ان النوع البشري ابان العقد المنصرم من الاعوام قد ولج ابواب عهد جديد. وهم يصنفونه على اساس من الفكرة القائمة على التنجيم المستمدة مما يسمونه برج الدلو aquarious الذي من ابرز ملامحه هو الافتراض التقليدي القائل ان تحري (الكلي الروحي) لا يكون فقط مختصاً بالقلة من الناس وخاصة بهم، وانما يكون وسيكون موضع اهتمام الجميع ومن لدن الجنس البشري كافة. وانه لعصر يخمن ان يتوقف فيه، كذلك اعتماد الناس على المؤسسات المجتمعية كالمعابد، والمنازل،(١) او المجتمع ككل، وانما سيلتمس الناس واقع وجودهم الحقيقي، في كونهم افراداً يتواصلون بعضهم مع بعض على اساس من الروح القائمة على الانفتاح والحقيقة. فانا ليست لدي فكرة عن التنجيم، ولكني ارجو انها تنطوي على ما هو صحيح فيما يتعلق بالعصر الجديد New Age ، كما يراه الشباب، ذلك لان الناس ما لم يبدأوا يتعلمون مزيدا من المعرفة عن بواعثهم الداخلية المحركة لسلوكهم وما لم يسعوا الى تحقيق مزيد من الذاتية Self-hood الواضحة، فانه ليبدو من غير المرجح ابدا ان يكون امام الجنس البشري كبير امل في مستقبل يتوقون إليه ويمكن ان يطاق بحكم مفاجآته الخافيات. وإنّي لاعتقد انه من المحتمل ان تكون اخريات القرن العشرين هذا حافلة بمختلف ضروب التجارب وباساليب جديدة من شأنها ان تنهي عوامل فهم الذات والنمو الانفعالي، واني لعلى يقين من ان الاحلام سيكون لها دور جسيم تضطلع به في هذا المجال.

وفي هذين الفصلين (الختاميين)، ساوضح شيئاً من السياقات العملية

التي يمكن ان يتم فيها ذلك- اعني قوة الاحلام في الحياة- سواء على مستوى البيت او في تعلم ما يمكن تعلمه خارج نطاق الاسرة، وسانتهي الى القاء نظرة تأمل على المستقبل، ذلك لاني في الوقت الذي اعرف فيه جيدا ان استخدم الاحلام لغرض توضيح مشكلات الحياة اليومية المتعلقة بطبيعة العمل والعلاقات بين الناس إنّما هو امر فعال، واني كذلك لاعتقد واثقة ان هذه إنما هي البداية لما يمكن ان تنبه إليه في المآل قوة الاحلام بالنسبة لحياة الانسان.

وانّي لعلى يقين تام من أن الاعوام القليلة القادمة ستشهد نمواً سريعا في تلاحم جماعات كبيرة لتكون فرق عمل علاجية وتربوية من مختلف الانواع، ومنها تضافر جهود الناس الاعتيادي من الاسهام في رفع مستوى المعرفة بالذات وتفهمها، وكذلك لغرض تنمية الشخصية والنمو الشخصي، وفي الفصول الاولى من كتابي هذا، كنت قد وضحت كيف يمكن ان يتسنى لمثل هذه الجماعات الافادة من الاحلام وسبل استخدامها. واني لارى، على اية حال، ان ليس ثمة على الاطلاق اي نوع من انواع التحديد الذي يجب ان يحدد طريقة تطبيق الاحلام او نوعيتها على جماعات خاصة بعينها تحت اشراف موجه مدرّب تدريبا سيكولوجيا، ذلك لان ما اوجزته في ثنايا حديثي في هذا الكتاب، من تقنيات، يمكن ان يتم استخدامه من جانب اي فرد من الناس، واعتقد باننا سنراهم في يوم ما وهم يلعبون دوراً متزايداً في كل من الاسرة وفي حياة المجتمع، وفي المنظمات الدينية، بل وحتى في عالم الاعمال والادارة(٢) والسياسة.

والسؤال الان: كيف سنجد وقتا لكل هذا في عالم هو في عجلة متزايدة من امره؟ الجواب، بطبيعة الحال، يكمن في حقيقة اننا اذا اردنا حقا ان نعمل شيئاً ذا بال، فما علينا الا ان نخصص جزء من وقتنا لما نريد، مبتعدين بعض الشيء عما لا يجب ان نغرق فيه الى الاذقان من حيث الاستمرار بلا انقطاع في الاعمال المنزلية ومن حيث الانغماس من غير تأمل

في الحيـاة الاجتماعيـة، ومن حيث الاسراف في الحفلات والاحتفالات دونما ضرورات، وفي اللـهـاث وراء جمـع المـال، وذلك لاننا ان نحن جـعلنا لهذه الامـور الاسبـقـيـة في حيـاتنا الشـخـصيـة وفي شؤوننا العميقة من حياتنا الـعـصرية، فـان اندفـاعنا في هذا الاتجـاه لن يؤدي بنا الا الى الانتكاس على رؤوسنا في مـهـاوي الكارثة. والحق، اني لاعـتـقـد بان كـثيرا مما نقوم به من نشـاط محموم في حياتنا اليوم انما هو مجرد هروب مما لا نقوى على مجابهته من مـشكلات شـخـصية تبدهنا في سياق حياتنا اليومية. ولي ان اذكر ان المعالج النفساني الامريكي ايريك بيرن Eric Berne قـد اسدى الينا جميعاً خدمة جليّ عندمـا تحـرى في كـتـابه... مـا يتـعاطاه الناس من العاب، مقدار ما ننغـمس فـيـه جميعـاً مما يسميهايريك بيرن بلعبة (الانهاك)، اذ كثيراً ما نقوم بمـهـام لا مبرر لها البتـة، وانما نقـبل عليـهـا ونقـوم بها لكي نؤثر في اولئك الـذيـن من حـولنا (وفي انفـسنا) ومـا ننهض به من انقطاع(٣) كلي للواجب على حسـاب الاسرة من غير مـوازنة عـقلانية معتدلة بين الجانبين، وما ذلك الا لـكـسب عطف الاخـرين ولتـوليـد احسـاس بالراحـة النفـسيـة ولنيل استـحـسـان الغير، هذا فـضـلا عما ننزع اليـه من تخفيف من وقوع الذنوب وتوالي الاخـفـاقات في الحياة.

هذا وان جون رين- لويس John Wren Lewis كـاتب بريطاني مـعروف، وكان قد التقط المفهوم الذي اورده بيرن، فطبقه رين- لويس على الحـيـاة الصناعية، في بحث اسماه (الالعاب التي يلعبها رجال الاعمال) نشرة عام (١٩٧٠) في مجلة (المجتمع الجديد) New society ذهب في بحثه ذاك الى حـد يقترح اقتراحـاً مـبنيـا على خبرة امتـدت عبر عـدة اعوام امضاها في البـحث بوصـفـه مـتخصصا في الصناعة ان ما يهدر من وقت ضائع(٤) على مـثل هذه الفعاليات لهو اكثر بكثير بالفعل مما على الاعمال الشيقة حقا. وان بتي فريدمنBetty Friedman من الامـريكيـة، رائدة حركة تحرير المرأة، قـد اولت مـا ذهب اليـه بيرن، عناية خـاصة، فأوضحت في كتابها: (اسرار

المرأة) مـا كـان قـد ذهب اليه مستعينة بدراساته عن حركة الزمن فاكدت ان اكـثـر مـا ينفق من طاقـة في العمل البيتي انما هي طاقة زائدة لا ضرورة لها، ولذلك يمـتـد العـمل البـيتي فيستغرق الوقت المضاع كله. وهي تخلص الى القـول (ان الوقت المطلوب من اي امـرأة لانجـاز العـمل البـيتي انما يتفاوت بصـورة عكسـية مع ما يواجهها من تحر ناجم عن عمل اخر يلزمها انجازه). وبعـبـارة اخـرى، ان المرأة عندمـا تكون لديها اهتمامـات أخـرى ومـشـاغل اضـافـيـة، فـان عـمل البـيت الذي كـان يسـتـغـرق انجازه من وقتها ست سـاعات، يلزمها الان لانجازه ساعة واحدة فقط.

ومـن خـلال خبرتي يمكن ان اقـول بان هذا صـحـيح بكل تأكـيـد، ولا يصـدق هذا على عـملي في البـيت فحسب بل انه ينطبق ايضاً على ما اقوم به من بحث، وعندمـا كنت اقـوم بعـمليـة التأمل ومراجعة النفس منذ سنوات عـدة خلت، كان معلمي يصر على ان امضي ما يقرب من ثلاث ساعات في اليـوم في هذه الرياضـة النفـسـيـة في مـراحلها الاولى. وعندما اعترضت على ذلك على اسـاس عـدم امكانيـة توفير ما يمكن من الوقت، فقد اكد لي بان عـملي لن يتأثر بحال من الاحوال وانه أكد ذلك لا من ناحية العمل فحسب بل هو قـد أكـد لي ايضـاً ان عملي سيتحسن كما ونوعا. وقد وجدت انه كان محقاً تماما، اذ انني قد اكتشفت من يومها ان هذا التحسن كان يحصل عندما كنت اقـتطع جزءاً من الوقت لابحث في ثنايا احلامي الليلية في مطلع نهاري في اليـوم التـالي. وعندمـا كنت اتوصل الى تفسير مرض او استلهم تبصراً ذا مـعنى ودلالة، فـاني اشـعـر بحـالة من الوجـود يمكن ان اصـفها بانها شيء اقترب الى اليـقظة الروحيـة- وهي مـا يسـمـيـه بيرلز (الاشراقـة) وهي حالة تكون فـيـهـا الطاقـة النفـسـية قد تحررت فانبعثت في نشاطها في جميع خلايا الجسم، حاملة معها حيوية متدفقة تمكن الفرد من استنجاز مهماته اليومية. انها خبرة تجـعل الفـرد على صلة وتماس مبـاشر مع ذاته ومع كل حواسه، مما يمكنه من مـواجـهـة العـالم من حـوله مـبـاشرة وليس من خلال حجاب من

التخييل(٥) والاسقاط(٦).

لعل جزءاً من احجامنا عن مواجهة حياتنا الداخلية يعزى الى خرافة واسعة الانتشار مفادها انه من الخطورة بمكان ان نذهب بعيدا في سبر اغوار العقل وان نغوص فيه بحثاً عما في تلك الاغوار والاتاويه، لاننا بعملنا هذا قد نحرك كل انواع القوى الضارة الفاسدة فتنطلق من عقالها فتجعلنا مهتاجين مسعورين. وارى انه يتعين على المختصين بالعلاج النفسي والتحليل النفسي التصدي لهذا الخوف غير المبرر، وعليهم تقع مسؤولية كبح جماحه، واني قد وجدت من خلال خبرتي انه خوف مبالغ فيه الى مقدار قد تجاوز كل الحدود. فحين ما من احد ينكر ان هناك اناسا مرضى يتعذر عليهم مواجهة مشاكل الحياة وينبغي ان ينصحوا بان لا يرتادوا او يحاولوا استكشاف العمليات اللاشعورية بمفردهم بدون خبير في الامر يرودهم الى ذلك، فانه يوجد هناك اناس من الاذكياء وهم من الكثرة الكاثرة، اناس اسوياء على جانب كبير من الثقافة السيكولوجية وأنهم لعلى جانب كبير من القدرة التامة التي تمكنهم من تحري ما في احلامهم على وفق الخطوط المقترحة في هذا الكتاب. لقد آن الأوان لان تكشف اسرار الأحلام (Secrets of Dreams)، فتنشر على الملأ وان تستعمل كوسيلة فعالة في مساعدة الذات خارج نطاق العيادات الاستشارية، على انه يلزمني ان اكرر هنا تحذيراً سبق لي ان ذكرته من قبل الا وهو ان اي امريء يجد احلامه مقلقلة، ولا سيما عندما يشعر انه غارق فيها وانها تكاد تغمره، فانه يتوجب عليه في هذه الحالة ان يسعى الى طلب المساعدة من مختص محترف.

قوة الحلم في مجال الاسرة

كنت انا واعضاء الفريق الذي يعمل معي قد بدأنا حملة من اجل التوعية بالاستخدام الواسع لقوة الحلم في الحياة اليومية وذلك عن طريق تشجيع اطفالنا لان يذكروا لنا اي حلم من احلامهم التي يمكن ان يروها، على

نحو يجعلهم يفكرون بان مغامراتهم الليلية هي شيء له اهميته ويتم تشجيعهم هذا منذ بداية وجودهم. فاذا ما استيقظت ابنتي من نومها على اثر حلم مزعج، فاني بدلا من أن استبعده من ذاكرتها واعيدها الى نومها وانا اردد على مسامعها الفاظا مثل (لا تقلقي انه مجرد حلم) فاني بدلا من ذلك، كما قلت اسألها سؤالا اشعرها فيه بانها كانت تحدث نفسها فاسألها مثلا لماذا كنت تتحدثين الى نفسك بمثل هذه القصة المخيفة اثناء نومك. واذا هي ذكرت لي حلماً مستغرباً، فاني اسألها لماذا هي كانت تفكر في نومها بمثل هذه الافكار المضحكة او الباعثة على السخرية. واني دائماً اشجعها على ان تتفاعل بتلك الاحلام واطلب منها ان تتعامل مع اشخاص الاحلام وخصائصها وفق قواعد علم نفس الجشتالت وقد وجدت من خبرتي ان الاطفال يجدون في هذا متعة كبرى.

اعتقد اننا اذا شجعنا الاطفال وحملناهم على ادراك اهمية الاحلام منذ بواكير اعمارهم، فانهم سينشأون وهم مشبعون بفكرة ان الاحلام ليست مجرد اشياء تحدث لهم على نحو غير متوقع، وانما هي خيالات هم انفسهم يقومون بها ويصدر عنهم في نومهم لكي يحدث انفسهم بانفسهم عن شيء له اهميته. واذا نحن شجعنا اطفالنا على ان يفكروا باحلامهم بهذه الطريقة، فاني اعتقد باننا سنمكنهم منذ بواكير اعمارهم من ان يتعاملوا مع احلامهم بيسر وسهولة واننا سنزودهم بما يوصلهم على نحو طبيعي اكثر الى مضامين حياتهم الداخلية، مما يتيح لهم لان يتعلموا تقبل ذلك الجانب من طبيعتهم وهو ما اعتدنا في نشأتنا ان نخفيه في حياتنا لما يترتب عليه من عواقب وخيمة.

واني لاعرف عدة اسر ممن تخصص مساءاً من كل اسبوع من اجل تبادل الآراء الجماعي العائلي، وخلال هذا الوقت فان كلا من الابناء والآباء يفصحون عن شكاواهم، ومآسيهم، وما لحق بكل منهم من الآخر من ضيم، ويعبرون عن استحساناتهم وشكرهم بعضهم نحو بعض ويحاولون

ابان ذلك ان يتوصلوا الى نوع من انواع التسوية الطبيعية المرضية لجميع الاطراف. واذا ما اخفقت الخطة خلال الاسبوع التالي، فان شيئاً اخر يتم اقتراحه من اجل التوصل الى حل في المناقشات المقبلة، وان الاحلام تستعمل في هذه المقابلات والمواجهات العائلية وجلسات المصارحة بصورة منتظمة من اجل اظهار الاحاسيس وعرضها بشكل مكشوف ولولاها لما تم التعبير عن تلك المشاعر على نحو واضح وبشكل مكشوف.

وفي احدى جلسات المصارحة العائلية هذه مثلا ذكر صبي يبلغ الخامسة عشرة من العمر حلما رآه مباشرة بعد جلسات المصارحة الاسرية تلك، اذ رأى في ذلك الحلم رجلين يبرمان صفقة من الاعمال. وكان احد الرجلين يدلي بمعلومات والآخر كان يسجلها في دفتر، واثناء قيامهما وتصافحهما بالايدي، استعدادا لتوثيق الصفقة كما يفترض، رأى ذلك الصبي الارض تنشق فجأة وتبتلع الرجل الذي كان يدلي بالمعلومات، ادرك الحالم ان متعاطي تلك الصفقة كان مزيفاً وانه كان يخدع الزبائن ليحملهم على الثقة به، وكان يأخذ المعلومات منهم ومن ثم بكل هدوء يفرغهم مما لديهم، ان الافتراضات الحاصلة في ذهن ذلك الصبي الى ان يقرن بين ابيه وبين ذلك المتعاطي للصفقات. فراح يتشكك في ابيه وساورته مخاوف من ان اباه قد يستخدم المصارحة والامان خلال جلسات المواجهة العائلية لا لكي يقيم علاقات اسرية اكثر تفاهما واوثق صلات، بل ربما هو يستخدمها كطريقة من طرق حملهم على الكشف عن مواطن الضعف في شخصياتهم مما يحمله على الا يتورع في استخدام ذلك الضعف سلاحا يشهره ضدهم فيما بعد. وسرعان ما نبه ذلك الحلم بقية افراد العائلة ودق ناقوس الخطر بين صفوفهم. الامر الذي جعلهم يقولون انهم ايضاً استشعروا شيئاً من الخوف نفسه وتوجس ريبة من ابيهم ولكنهم لم يشاءوا ان يفصح عما ساورهم من تخوف! وعندما تمت مناقشة الحلم في اطار الاسرة بصورة جماعية، وعد ابوهم ان يرقب سلوكه الخاص به لما قد يبدر عنه من علائم تدينه وعما قد

يصدر من احكام اخلاقية وادبية غير ملائمة، وقد خول الاطفال كامل الصلاحية بان ينبهوه على ذلك اذا هم شعروا بان صراحتهم قد تمت الأساءة اليها من جانبه مرة ثانية.

يعمل الحلم في الغالب كواسطة لنقل المشاعر الخفية من فرد الى اخر، وقد مر بي في حياتي اعداد من الافراد ممن يلعبون (لعبة الاحلام) تماما بنفس الطريقة التي يلعب فيها لعبة التنس. كأن يكون احد الاشخاص قد رأى حلماً، فيرمي في حلبة المقابل له وشريكه في اللعبة، وينتظر ارجاع الرمية وعودتها اليه. واني اسمي هذه الالعاب (ثنائي الحلم)، وهو نوع من انواع الاتصال غير اللفظي يتم بين شخصين ويحدث عادة تحت مستوى الشعور الواعي وفيما دونه وهو يعكس عادة الافكار والمشاعر والمخاوف بين الشخصين اللذين يتبادلان ذلك الثنائي ومما لا يمكن بدون ذلك ان تكون تلك الجوانب الوجدانية الخفية قابلة للظهور، وقد تلقيت مؤخراً رسالة من رجل كان هو وزوجته يحضران جانبا من اعطاء دروس عن ثنائي الاحلام. وفي تلك الرسالة يخبرني ان ذلك الثنائي في الحلم كان مسؤولاً عن اتخاذهما قرارا وزوجته بالانفصال عن بعضهما، وكانا متزوجين منذ سبع سنوات واثناءها بدأ الزوج (سام) باتخاذه فتاة خليلة، اما (لوسي) زوجته، فقد كانت جد مكتئبة بطبيعة الحال وقد اصابها ما اصابها جراء ذلك لكنها بعدما تبينت بوضوح انه لم يعد في القوس منزع وان لا صلة لها في الامر بعد كل الذي حصل حاولت ان ترضي زوجها وان تجعله يفعل ما يشاء لتحول دون فسخ عقد الزواج، وابقت على علاقة مخلصة بينها وبين سام على ان يصدقها القول في كل شؤونه. كما انها انتزعت منه في الوقت ذاته وعدا بان لا يأتي بصديقاته الى البيت عندما تكون هي خارج المنزل في شأن من شؤون العمل الخاص بها (وكانت شؤون عملها انذاك غالبا ما تأخذها خارج البيت معظم الوقت). وان سام هذا قد استجاب لها ووافقها على طلبها، ذلك لانه لم تكن لديه الرغبة في الافتراق.

يبدو ان الاتفاق، باديء الامر، كان قد جرى على ما يرام اذ انه برم برضى لوسي وكانت تحب ان تعرف عن مغامرات سام، وان كانت لا تفضي بالمرارة والمضاضة كلما قص عليها شأنا من حياته الخاصة تلك على ان (سام) بعد مدة اخذ يفقد الاهتمام بالنساء وكان يبدو عليه الهدوء والكآبة مع شيء من نكد المزاج. وبعد ذلك توالت عليه سلسلة من الاحلام كانت تفسر في مجملها ما طرأ عليه من تغير في المزاج. ففي بعض هذه الاحلام مثلا يرى نفسه مع امرأة تبحث عبثا عن الحب، او هو يفتش عنه، او انه يرى نفسه اثناء التودد الى المرأة يجد هناك ما يقطع عليه خلوته او انه كان يرى في بعض تلك الاحلام وكأن سلوكه يستهجنه الناس جميعا. وفي احد احلامه تلك رأى فتاة تقوده الى خيمة وخلال وجودهما في داخلها رأى ان الخيمة شفافة وانهما يظهران من خلالها ويريان ما وراءها. ان جميع هذه الاحلام قد كشفت بوضوح عما يكتنف سلوك سام من محرمات عامة ما كان ينبغي لسام ان يتعاطاها وان هذه الاحلام كانت تحمل في طياتها عوامل الكف الجنسي لسام والبرود الجنسي لديه فراح يلوم لوسي لانها فرضت عليه قواعد الشرف والامانة، وان كان اقتراحها في حينه يبدو معقولا عندما ابدته اول مرة وقد ادرك كذلك انه قد فقد وعده لها بان لا يصطحب خليلاته الى البيت بغيابها، واعترف لها ان وجد ما طلبته منه انما يمثل تضييقًا لا ضرورة له يحد من حريته حين تكون بعيدة عن البيت. وعندما استبان معنى احلامه راح يتهم لوسي بانها كانت تريد الحيلولة بينه وبين ما كان يتوق اليه من علاقات غرامية وانها باقتراحاتها وقواعدها، التي كان يبدو انها غير ضارة كانت تريده ان يسلك السبيل القويم لكنه لم يكن متقبلا ذلك منها.

اما لوسي فقد انكرت من جهتها اية نية من جانبها تتوخى من ورائها افساد الامور عليه، وكانت تصر انها في الحقيقة كانت تعتقد بالابقاء على العلاقة الشريفة فيما بينهما وانها كانت ترمي الى المحافظة على فعالية الزواج

حيـا تحت وطأة تلك الظروف الصعبة، وانها كانت تهدف الى المحافظة عليه بقـدر ما كانت تكره سماعها منه قصص علاقاته الحيوانية. وفي حلم تال لها رأته على اية حـال، رأت فيـه ان مـا كـانت ترمي اليه في يقظتها من مقصد نبيل لم يكن في أقـصى اعماقـهـا هو مـا تتـوخـاه في واقع الامـر. اذ رأت في حلمـها انها وعددا اخر من النساء كن عاريات وهن مكبلات بقيود مثبتة الى جـدار كـهـربائي، وكـان هذا القضيب تصدر عنه صدمات كهربائية شديدة الايلام لها، ومع هذا او بخـلاف ارادتها ورغما عنهـا، كـانت تشـعـر بالتهيج الجـنسي، ان هـذا الحـلم قـد جـعل من الواضح انها لا هي ولا سـام كـانا صـادقين في دوافـعهما الداخلية بشأن ما ذهبا اليه من ابقاء على علاقة صادقة شريفـة فـيما بينهما؛ وان الحـقـيقة تكمن، في جزء من جوانبها في الاقل، هي انها لدى سماعـهـا بقصة زوجها عليها من شؤونه المعروفة تلك كانت تهيجها جـنسـيـاً وانها كـانت تثيرها بدلا من ان تجـعل ظلالا من ظلال العـلاقـات الكئيبة تخيم عليها في علاقاتها به.

هذا وقـد قـررا مـواصلة العـلاقـة الحـمـيمة، احساسا منهما بانه لا يمكن ارجـاع عـقـارب السـاعـة الى الوراء، وقـد رأى سام حلماً اخر وفيه كان يرى كأنه هو ولوسي مـعـاً يركـضـان ليلحـقـا بقطار ليأخـذهما الى (فيل(٧) ايف شـام) في غـرب انكلترا. استطاع سام ان يقفز الى داخل عربة القطار عندما كـان على وشك التـحرك ومد يده الى لوسي ليساعدها على الصعود الى داخل العـربة، وبدلا من ان تمسك بيـده، ابتـدأت بمناولته حقائب الملابس والرزم التي مـعـهـا، وبدأ يرصـهـا علي المقعد، وهو في نفس الوقت كان يناديها ان تـترك منـاولـتـه تـلك الحـقـائب والرزم وان تصـعـد في القطار. وكـان لغـزا بالنسـبة اليه وهو في الحلم اذ كان يريد ان يتبين وان يعرف من اين هما جاءا ومن اين جـاءت تلك الحـقـائب والرزم، اذ لم تكن لديهما تلك الحـقـائب ولا تلك الرزم عندمـا كـانا يسرعان باتجاه القطار. الا ان لوسي لم تنتبه الى تحذيره لترك تلك الحـقـائب والرزم وتصـعـد الى القطار، ولهذا فـان القطار قـد غادر

المحطة بدونها. وبعدما تحرك القطار مغادرا المحطة ادرك سام انه- لم يكن متوجها الى (فيل ايف شام) ابدا، وانما كان ذاهبا الى (فري بورغ) وهو مكان مختلف.

ولدى تأمل الحلم كصورة تعبيرية وبتحمل كامل المسؤولية عما تعنيه محتوياته، ادرك سام انه قد بلغ المرحلة التي كان يريد فيها ان يترك لوسي وراءه وان يسافر بمفرده. وقد قرن الحقائب والرزم وذلك بربطها بالممتلكات والحاجيات والمسؤوليات كالايجارات ومستلزمات التأمين ونفقاته وما الى ذلك مما كانت لوسي قد حملته اياها واثقلت كاهله بأعبائها منذ بداية زواجهما عندما كانت الامور سارة ورخية. وقد تذكر سام انه كان من قبل يشير الى لوسي فيصفها بانها حواء (Eve) التي اغرته فاجتذبته اليها، مما يفسر لماذا هما كانا في الحلم ذاهبين الى فيل ايف شام)، اي ان الزواج من اجل مآربها الخاصة. وان القطار الذي كان حقا ينوي ان ينقله الى (فري بورغ)(٨) انما يمثل انه كان في اعماق ذاته ينزع الى الحرية (Freedom)، لكن نفسه الحالمة ادركت انه حتى لو افلح في ذلك ونجح، فانه هو وحقائبه، التي ترمز الى المسؤولية والالتزامات المالية، وكلها قد تراكمت عبر السنين، كل ذلك لن ينتهي به في نهاية المطاف الا بالعودة الى رحاب بيته والعيش مع زوجته لوسي.

ان هذا الحلم قد اساء بطبيعة الحال الى لوسي، وهي بدورها كانت لها استجابتها عبرت عنها بحلم يعكس وجهة نظرها عن الموقف هذا. اذ رأت كأنها وسام قد سافرا في عربة نوم في قطار متوجه الى اقصى الجنوب من امريكا، وفجأة تذكرت أنهما لم يدفعا اجرة الرحلة هذه ولم يكونا قد ابتاعا تذاكر السفر، وفي غمرة الخوف من ان المسؤولين في القطار قد يعاقبونهما على فعلتهما تلك، قالت الى سام: (دعنا نعد الى النوم ولنر ما بعد المسافة التي نبلغها قبل ان يكتشفوا امرنا، وعند ذلك سنقول لهم باننا قد غلبنا النوم فتجاوزنا النهاية التي قصدنا اليها في رحلتنا). ثم ادركت انهما لم تكن

لديهما اصلا تذاكر سفر لاية غاية ينويانها في رحلتهما، فراحت تقلق كلما امعنا في مضيهما في السفر جنوبا مروراً ب (جورجيا) احدى مدن الجنوب في امريكا- وبلغ القلق منها غايته الى حد الاهتياج حول ما سيطلب منهما دفعه عن اجور السفر مما قد لا يحتملان دفعه بعد ان يبلغا نهاية الرحلة.

فسرت لوسي الرحلة الى اعماق الجنوب بانها تمثل استكشافا وارتيادا لاعماق التكوين النفسي الذي كانت هي وسام يتبادلانه عن طريق الاحلام- وانها في الحقيقة قد ربطت بين (جورجيا) وبين العقل اللاشعوري الذي، لسبب خاص بها، كانت تشير اليه في الغالب فتسميه (جورج). فالحلم كان يخبرها بانها قد شرعت في الغالب في رحلة ما كانت مهيأة لها ولا لتبعات متطلباتها. وعندما شرعت هي وسام بتحري محتويات أحلامهما وما ترمي اليه احلامها، حصلت لديها القناعة بان هذا النوع من المشروع يمكن ان يوثق علاقاتهما ببعضهما وان يفضي الى الجمع بينهما على نحو أوفق، ولكن بعد ان يبينّ لها ان ذلك كان يقذف بهما بعيدا عن بعضهما باتجاه الافتراق فانتابها الهلع والفزع اذ شعرت ان قواها الانفعالية لم تكن من الرقة بحيث تمكنها من مواجهة هذه المهمة الصعبة. ان ثمن الحقيقة كان باهظاً فايقنت انها ما كانت لتقدم على رحلة كهذه لو انها ادركت قبلا ان خاتمتها هي خاتمة محزنة. وادراكا منها بانها لا تستطيع ان تقفز من القطار ولهذا فانها التفتت الى شيء أخر وهو انكار الحقيقة عن طريق (اغماض الاعين)، والتغاضي عن ادراك واقع حاصل بالفعل الا وهو انهما هي وسام كان ينبغي ان يفترقا منذ امد بعيد- وهذا يفسر في الواقع ما ورد في الحلم (استيلاء النوم عليهما في القطار فتجاوزا او ليتجاوزا المدى الذي كانا يقصدانه في سفرتهما).

وتوالت عليها- سلسلة اخرى منن الاحلام كانت ترى نفسها فيها تحاول الاتصال بسام عبر الهاتف لكنها لم تتلق جوابا من الطرف الاخر مما عزز حدسها بان اية اتصال حقيقي بينهما كان قد انقطع فكانت سلسلة الاحلام

التي رأتها تعبر عن احاسيسها ومشاعرها انها لم يعد بمقدورها بعد ان تخترق الطريق لتبلغ الهدف في الوصول اليه.

وفي آخر حلم من الاحلام الثنائية كان قد حصل قبل افتراقهما، وفيه رأى سام ان سفينة فضائية قد هبطت تحمل اليه رسالة مفادها ان لوسي قد ماتت. استيقظ من نومه يشعر بالحزن، لكنه كان يعرف عن الاحلام ما يكفي فما اراد ان يعترف بما في هذا من نبأ وماذا كان يخبره وان كان يعرف مسبقا ما هي متضمنات هذه الاحلام لكنه مع ذلك ما كان يريد ان يعترف في قرارة نفسه، اي انه لم يشأ ان يقر في دخيلة نفسه بان احساسه الأساسي نحو لوسي كان قد انقطع وانتهى وجوده. كلاهما كانا يقاومان فكرة الاقرار بانهما يستطيعان العيش على نحو افضل بوجود الآخر، غير ان هذا الحلم قد اقنعهما ان عليهما ان يفترقا. وفي رسالة بعث بها سام التي كتب فيها يقول انهما وان وجدا خط الافتراق امراً صعبا باديء ذي بدء، لكنهما قد تمكنا من تجاوز الازمة بعد ذلك بصورة سليمة وانهما، في واقع الحال، اكثر سعادة وانهما يعيشان كصديقين ويحيى كل منهما حياته الخاصة كل على حده وان حياتهما الآن اسعد مما كانا يعيشان معا بصفتهما زوجا وزوجة، اذ انهما ايام ارتباطهما معا قبل الافتراق كانا يحاولان عبثا ان يروض كل منهما نفسه ليرتقي الى مستوى توقعات الطرف الاخر ومتطلباته، فيبدو ان تمازج مؤهلاتهما وتفاعلهما بدلا من ان تؤدي الى تنمية النماء المشترك والمتبادل بينهما، كانت سببا في خنق ذلك النماء الامر الذي انتهى بهما الى الافتراق والجفاء.

اني لا اقترح هنا ولا اكرس اية فكرة يفهم منها ان الناس ينبغي ان يقوم الأمر بينهم على اتخاذ قرارات تترتب عليها اجراءات قاسية كالافتراق والطلاق، ان تغير العمل او اي عادة من الجهة الاخرى او المعاكسة لروح المجتمع معتمدين في ذلك على اشارات يتلقونها من احلامهم التي يرون، ان ما ادعو اليه هنا هو ان الاحلام يمكن ان تجعلنا على وعي بمشكلة

مـعـينة، وهي بالتـالي تؤدي بنا الى ان نتصدى لتلك المشكلة اسرع مما لو اننا اغـفلناها وفـات عليها الاوان. ،كما اشرت من قبل، كان يمكن لزواجي ان ينتـهي الى مـا انتـهى اليـه من نهاية حتمية اسرع مما كان مع تفادي كثير من الشـقـاء ومن اضـاعة الوقت في تبادل الاتهامات، لو انني اوليته اهتماما كافيا لاحلامي.

والحق، ان الاحـلام لا يمكنهـا فقط ان تساعد في انهاء العلاقات العصيّة عـلى الاصـلاح، ولكنهـا تسـتطيع كـذلك ان توطد اركـان تلك التـذمـرات والشكاوى التي من شأنها ان تعـمل في الخفاء تحت مستوى الوعي الشعوري اذ يـتـم ذلك عن طريق الكشف عن الدفين وتصـحـيح التـفـاهم واصـلاح الاخطاء، كما وصـفت ذلك من قـبل في فـصـول مـاضية، وغالبا ما يتم ان هذه القـوى الخـفية المدمرة عندما يكشف عنها وتكون واضحة للعيان، فانها يمكن في هذه الحـالة التـوصل الى حل مـشترك يقـوم على الاخـذ والرد وعلى التـفـاهم المقـبـول، اضف الى هذا، فـان مثل هذه العلاقات المتجددة تهيج عـادة نـوعـا من انواع الحـيـوية ذلك لانه يصـبح بمـقـدور الزوجين ان يجدا طريقة سليمة جديدة من اجل العيش معا تظللهما محبة احدهما للاخر.

وفي خـتـام حـديثي عما يتـصل بالناحـيـة العـائلية والمنزلية فاني اقترح على ربات البـيـوت ان يؤلفن فـيما بينهن مجمـوعـات صـغيرة يتبادلن فيها خبرات احلامهن ويناقشن خلالها ما تكشف عنه تلك الاحلام من مشكلات. فكم من نسـاء في مجتـمـعنا اعـرفـهن وقد غسلت ادمغتهن بان تقبلن انه يتوجب عـلـيـهـن في حـيـاتهن فـقط تكريس طاقـاتهن الى شـؤون البـيت والاطفـال وحـسـب، في حين كـان بوسـعـهن في واقع الحـال القـيـام باعمال يتمثل فيها الابداع تمتـد الى العـالم الخـارجي وراء حـدود منازلهن، واننا لنسمع، مرة تلو الاخـرى، ان ربات البـيـوت حـينما يمـثلن احـلامهن في جماعات ويتعاملن مـعـهـا وفق مـبـاديء علم نفس الجـشـتـالت، لسماع صـدى صوت الزجر والنعـيق يصـدر من الذات العليـا المتـحكمـة المسيطرة (آتيا من همهمات الام

ايام الطفولة، ومما ينشر في المجلات تحت وطأتها الذات الدنيا الضعيفة حينما تعترض بمسكنة لتقول انه لا يكفي فقط انفاق جل الجهد وقوة الطاقة كلها على اعمال المنزل بمفرده والاهتمام بالاطفال وحسب، اني لا اعني بما اقوله هنا ان قوة الاحلام وتأثيرها يجب ان يدفع بحشود النساء على التو لان يندفعن بحثا عن العمل خارج حدود منازلهن، وان هذا قد يدفع باولئك النساء اللاتي هن غير راضيات عن حياة المنزل او المتقاعسات عن واجباتهن البيتية، فيتوجهن توجها يستمددن وحيه من قوة الاحلام، فهذا وان يكن فيه شيء من الحل النافع المؤقت، الا انه لا ينبغي ان يتخذ ذريعة في هذا المجال. والنقطة الاساسية هنا هي انما الاحلام في الغالب وسائل وفيها دلائل، وهي تمدنا بامارات تشير الي السبل التي يمكننا بها استثمار طاقاتنا المكبوتة على نحو افضل، وهو ما يمكن ان يتم من جانب معظم النساء سواء داخل حدود المنزل او حواليه، ومثلا على ذلك نذكر: المطالعة، الكتابة، الرسم، التعليم، بل وحتى تكوين جماعات صغيرة لمناقشة الاحلام! وبعد، فان عصر الفراغ بات وشيكاً بحيث حتى الرجال سيجدون في يوم ما انفسهم متفرغين من العمل وعليهم ان (يقوموا بعمل شيء وينفعهم) وما عساه ان يكون اكثر جدوى واعم نفعا من استثمار قوة الاحلام في ارشادنا الى ماهية ذلك الشيء البناء؟(٩)

قوة الحلم في مجال دور العبادة

ان اوضح بيئة لتطبيق قوة الحلم واستخدامه، خارج نطاق البيت، هي المؤسسات الدينية، ذلك لانها من العوامل التقليدية في المجتمع لحماية الحياة الداخلية لكل من الفرد والمجتمع والجماعات فيه على حد سواء. واني لارى ان انحسار تأثير المؤسسات الدينية في العالم الغربي خلال القرن المنصرم لا يعزى كثيرا الى الشكوك اللاهوتية الناجمة عن تقدم العلم، فهي لا تعزى الى شيء من ذلك، بقدر ما يرجع ذلك الانحسار في حقيقة الامر الى فشل تلك المؤسسات الدينية في ان تقدم للناس ما هو عملي بالفعل لتمكينهم من فهم انفسهم على نحو افضل ومن ثم تمكينهم من فهم ما يكشف عما في حياتهم من مشاكل الحياة. والحق، انه لمما يدعو الى التأمل ان نجد معظم المؤسسات الدينية في الغرب ابان هذه الحقبة من الزمن تستخف بالعلاقة الوثيقة القائمة بين الدين والاحلام على مر العصور.

على ان رجال الدين اليوم ابتدأوا في كل مكان يتنبهون لما استجد من مواقف فراحوا يتحرون كل وسيلة ويطرقون قنوات جديدة من الفعاليات والنشاطات التي من شأنها الاسهام في خدمة الحياة المجتمعية، منتفعين من العلوم الحديثة، ولا سيما الاساليب النفسية الفعالة، وكثير منهم قد شرعوا بتلقي تدريب مهني محترف في فن الارشاد النفسي وفق المعايير الفرويدية واليونجية وكلها تتعلق بكيفية فهم الاحلام؛ ولكنني اعتقد ان قوة الحلم اكثر استثمارا في رحاب دور العبادة وعلى نحو اوفى مما هو عليه الآن ومما تم تأمله حتى الآن.

وفي مقالة نشرت مؤخراً في (التايمس) اللندنية، دعا احد قادة الكنائس الانجليكانية البارزين، وهو الكاهن جوزيف مكلوك، دعا الى ان الصلوات الاعتيادية في الكنائس يجب تجديدها وتعزيزها بشيء من ذلك

مثلا الحوار والنقاش بدلا من الاقتصار على الطقوس التقليدية. واكد انه هو نفسه قد طبق ذلك فوجد الناس مما يثير اهتمامهم حقا ويشغل بالهم هو بحث ما يتعلق بامور تمس حياتهم مباشرة مثل: (حياة الانسان الداخلية وما يتصل بكرامته، وبمكانته، وما يرتبط بطبيعته، وبمصيره واهدافه، وما يقرن بالحكمة الذاتية التي تمكن الفرد من فهم نفسه (نفسها) بصورة اعمق، والمضي بكفاية اوفر بشأن ما يمت الى حياة المرء بصلة لها علاقة بمشكلاته الحياتية. ان ما هو مطلوب بشكل اجلى مما يتوجب على رجل الدين ان يقوم به هو معرفة ما في اعماق الانسان وما يرتبط بحياته النفسية، وان يكون على اطلاع على ما يشغل بال الفرد، وان يكون رجل الدين كذلك على شيء من المهارة والمعرفة بتقنيات تشخيص مشكلات شخصية الفرد وكيفية التعامل مع تلك المشكلات).

وان السبيل المرتجى في اسداء الخدمة في هذا المجال يمكن ان تتاح من خلال المناقشات الجماعية وان التئام جماعات لتدارس محتويات الاحلام وما تعنيه للانسان، امر لا يخلو من فوائد مؤثرة، وان يتم عمل هذه الجماعات على وفق ما وصفت في هذه السياقات، ولعل العمل في ذلك يستنجز في دار قائد فريق الدراسة والمناقشة او في دور العبادة. وان مثل اللون من العمل العلمي يتطلب قدرا كبيرا من المعرفة النفسية المحترفة لتكون النتائج انجح وابرع. وان ممارسات نافعة كهذه من شأنها جعل الجميع مكشوفين امام انفسهم وبعضهم امام بعض، وان مصارحة الذات لهو افضل ضمانة ضد الكبت الذي لا يكون في محله.

ولكن هل الناس مستعدون لان يفعلوا مثل ذلك؟ واني من ناحيتي كونت ارائي الخاصة بصدد اتجاهات رجال الدين حول الافكار الجديدة تتجلى بوضوح من خلال حلم شاركني في جانب منه الاسقف السابق ب (ولوليش Woolwich) ، والدكتور جون روبنسون G. Robinson ، وسوف نستعرض جانبا من تعليقاته في هذا الحلم كنت اراني والدكتور

روبنسون واقفين وجها لوجه ونكاد نقترب احدنا من الاخر الى حد الألتصاق، لكنه يحجم ويبتعد وهكذا كانت تتكرر منا هذه الحركات، حتى بدا عليه الاحراج، ثم زايلنا اهتمامنا بما كنا نقوم به، فانهى مقاربته مني بان مد يده وصافحني بشكل رسمي شكلي ثم انصرف واختفى.

ان هذا الحلم يكشف على نحو واضح وجيل وبلغة مصورة عن طبيعة الاخفاق في الاتصال من اي نوع بيني وبين رجل الدين وانه كان يبدو في الحلم محرجا على اساس ان اتصالا من هذا النوع يفشي ما لا يليق، وان مسألة المصافحة الشكلية انما تعزى الى ما في شخصيته من برود وهنا يجدر ان اشير الي ان الدكتور روبنسون في حل مما ذكرت في الحلم ومما ادى الى حصوله، ذلك لانني لم اكن قد رأيت او قابلت الدكتور روبنسون منذ ما يزيد على ثلاثة اشهر قبل وقوع الحلم، ولعل رؤيتي له، انه يرمز الى جماعات اللاهوت ممن يهدفون الى تجديد توجهات وفعاليات المعابد، ولكنهم حسب تقديري لم يستكملوا بعد مؤهلاتهم الأنفعالية التي هي بحاجة الى ازدياد في استكمال جذوتها.

ارجو ان يكون حلمي غير صحيح حول ما ذكرت، واني لارجو ان يتصدى بعض رجال الدين لمستجدات التجريب ويأخذوا بمبدأ تدارس الاحلام في جماعات وهو سبق ان أسميته ب (جماعات المواجهة) التي تقوم مناقشاتها على اساس المكاشفة والمصارحة. واعتقد انهم اذا هم فعلوا ذلك فان مواعظهم التي تدعو الى المحبة والصفاء تكون أكثر تأثيراً واشد فعالية مما هي عليه في الوقت الحاضر. وفي فصول سابقة من هذا الكتاب كنت قد أشرت الى احلام رواها لي بعض جماعات الدراسات التي اتولاها، فذكروا انهم جراء تسامحهم تعرضوا الى مشاكل؛ من ذلك مثلا ان (جوانا)، وقد مرت قصتها وقصة حلمها (في الفصل التاسع)، انها عندما سامحت زوجها على مغامراته، رأت نفسها في الحلم انها قتلته بفأس كانت معها، وهذا يبعث على القلق على اساس انه ما من احد قد يدرك كيف يمكن توجيه

الدعوة الى الوفاق والوئام والمحبة بحيث لا يساء استعمالها من جانب من لا يعرف كيف يوجه تصرفه. وان احلاما قد ذكرت في ثنايا هذا الكتاب (في الفصل العاشر). وهناك من الاحلام قد وردت في الكتاب وهي تنطوي على السبل التي يمكن ان تفضي الى بعث الحياة في عظام وهياكل المعابد ودور العبادة عامة ونفخ روح الحياة الجديدة فيها.

وكانت هناك سلسلة اخيرة من الاحلام رأيتها وكنت اراني فيها دائماً جائعة ولم استطع خلالها العثور على اي شيء اكله. ولقد فسرت هذا عملا بالاقترانات والتداعيات، بان ذلك كان يدنو الى فكري والى مخاوفي من اين قد اجد ما يشبع رغباتي، اذ كنت بأمس الحاجة الى زاد فكري وبعدها رأيت حلما وجدتني فيه احضر قداساً يقدمه رجل كهنوتي معروف، وبعدها ذلك وجدت نفسي في حلم اخر وانا احس فيه بنهم شديد الى الطعام وقد جاء من قدّم ذلك الطعام ولكن ما ان مدت الأيدي اليه حتى رأيت الطعام تتلقفه من أطباقه قبل أن تصل يدها اليه او تتناول منه شيئا. شعرت اني كنت وحيدة، واقف بمفردي في مواجهة الموقف، وانا احس بالحرمان ولا اعرف ماذا افعل، وعلى حين غرة ظهر لي (تم Tim)، وهو رجل الدين الذي ذكرته قبل تحليل الحلم، ظهر وهو يقدم لي طعاما فاخرا بكمية وافرة منه، قدمه لي وناولني اياه وهو يبتسم. فاستيقظت من حلمي وانا مبتسمة لان الحلم كان يخبرني ان (الأله سيمنحني من آلائه) .The Lord Will Provide

وان الباريء قد فعل هذا، إذ اعقبت ذلك سلسلة احلام رائعة جديدة، ساصفها في الفصل القادم بايجاز، ولقد امدتني تلك الاحلام بافكار اضافية تتعلق بقوة الحلم- بوصفها قناة يمكننا في الحقيقة ان نتلقى خلالها هذه المؤثرات المتعلقة بالالهام الابداعي، وهي المؤثرات التي يرجعها الناس بشكل تقليدي الى القدرة الالهية.

قوة الحلم في مجال النظام التربوي

لعل الجانب الروحي يمكن ان يكون انسب سياق من خلاله نسلك الطرق الرحيبة لقوة الاحلام ذات الفعالية الراجحة في دنيا التربية، حيث تطل علينا من منافذنا ذريعة كثيرا ما تتردد الا وهي ذريعة: قلة الوقت الاضافي، وهي كثيراً ما يردد ذكرها كلما اقترح المرء اضافة اي شيء جديد يراه الى مناهجنا في ايامنا هذه. فما ان يرد ذكر شيء جديد حتى يتم التصدي له بكل الوسائل وبشتى الذرائع. ففي بريطانيا مثلا حيث تتم اجتماعات الصباح الالزامية في المدارس، ما فتئت يؤكد عليها بوصفها جزءاً من طقوس روحية تجري عليها تجارب لامكان معرفة اي السبل يجدر اتباعها لتكون تلك الاجتماعات والتجمعات الصباحية اكثر جدوى، وهي في جميع الاحوال افضل مما اتذكره من تلك التجمعات الصباحية التي كانت سائدة في الأيام الكالحة من ايام تلمذتي في المدرسة تلك. ان حقيقة كون العالم اصبح جزءاً لا يتجزأ من خلفية الطفل المؤثرة فيه تأثيرا مباشرا، سواء عبر التلفاز ام عن طريق ازدياد اعداد الاطفال المهاجرين ولا سيما من اقطار غير مسيحية، هذا كله جعل الموقف من ناحية التربية الروحية اكثر تقبلا، وهذا مما يوجب تعميمها لتشمل مجالات اوسع مما كانت تسير عليه الطرائق التقليدية المعهودة. ثمة اتفاق كذلك يرمي الى ان تكون المناقشات جزءاً لا يتجزأ من الدراسات والتدريسات داخل الصفوف، مع التأكيد على ما تمت به التربية الروحية هذه من صلة، وما تنطوي عليه من نفع عميم، الى جميع المسائل العملية في الحياة. وفي ما يلي اشوق مناقشات لبعض الاحلام اوردها يمكن الافادة منها على غرار غيرها من الاحلام التي اقترحتها في

مجال قـوة الحلم في اروقة دور العبادة.

فهذا موضوع خصه جون رين لويس G. Wren Lwis بمساحة واسعة وفسيحة من كتابه: ماذا نقول للاطفال-What Shall We Say to chil dren، بسط فيـه مـا يمكن ان يفيـده كل من المعلمين والتـلاميذ على حد سـواء من مجمل اسـتعراض الآراء الروحية التي يمكن ان تستمد من حوارها الـطـاقـة الروحـيـة المؤثرة التي توجـه بالتـعـاون مع التربيـة، نوازع الضـمير ومـعـرفـة قيم الحقوق والواجبات، مستفيدة من مناقشة الاحلام لتجد لها في هـذا الـسـيـاق مـكـانا مـلائما لا ريب، متـهـجـة بذلك اصـول علم نفس الجشتالت.

وان التـجـمـعات المدرسية الصباحية، سواء كانت ذات طابع ديني كما في بريطانيـا مثلا ام ذات نزعة مدنية، فانها لا تكون في الغالب مناسبات تبعث على الضـجـر بشكل مقيت، ومع هذا كله فهي لا تخلو من فوائد تأكيد حياة الانتماء الاجـتماعي المنطوي على الحس الجماعي. وكـثير من مدارس اليوم قد ابتكرت تجـارب من شأنها افسـاح المجـال للتلاميذ انفسهم للقيام بفعاليات من ابتكاراتهم يسـهـمـون فـيها بشكل فعال، بدلا من الابقاء على الاساليب القـديمة التقليدية. اذ يختار التلاميذ من بينهم جماعات لها نشاطات متميزة، فـيـتـناولون الانشـاد مـثـلا، وترديد الترانيم، او اخـتـيـار مـتطوعين من بين صـفـوفـهـم يقـومـون بابراز فـعالياتهم الشخصية، او قراءة قصائد مختارة من نظمـهم هم، او قـراءة مـا اعـجبهم مما نشر في الصحافة او في كتب قرأوها فأثرت افكارها فـيـهم بوصف محتـوياتها نماذج مـتـمـيـزة، ومـا الى ذلك من تنويع يدرأ الملل، ويجدد الحـيـوية، ويبـعث الثـقة بالنفس. وهنا، كما يبدو مـرة اخـرى، مناسـبـة جديدة يمكن من خلالها تخصيص تلك اللقاءات او التـجـمـعـات المدرسية الصباحية لتقديم نماذج من الاحلام ومناقشتها والقيام

بتـمـثـيلهـا وفق المنحى الذي سـبـق لي ان وصـفت. ان فـعـاليـات كهذه سـتـؤول، بطبـيـعـة الحـال، الى مـا يشـيع البهجة والنشاط والابداع في جو المدرسـة اليـومي، واعـتـقد انه، فضلا عن ذلك، يكون على جانب كبير من المكسب العلاجي النفسي.

اعـتـقـد ان الحـيـاة المدرسـية اليوم بحاجة ماسة الى تأكيد اكثر واغزر على التربيـة الانفـعـاليـة، وانه لمن دلالات الانحراف ان نشوة قيمنا الاجتماعية اذ يتـصدى احدنا بالقول ان مناهجنا مثقلة بالمواد الاكاديمية التي تستنزف من الوقت، مما لا يسـمح بالقـيام باي اصلاح في التربية الانفعالية. وعندما يثار مـثل هذا الاعتراض فلنا ان نسأل انفـسنا: ما عسى ان ينتفع منه المجتمع او ان يجنيـه من فـائدة حـينما يرسل ابناءه الى جـامـعـاته لكنهم لا يلبـثـون ان يتعرضوا الى الانهيارات العصبية Breakdowns، بمـجرد دخولهم اليها، واعـداد الطلبـة الذين يصابون بذلك في ازدياد؟ وما جدوى تدريس التلاميذ والطلبـة كـافـة وتعليـمـهم كـيف يفكرون، في حين ان مجمل حـيـاتهم كلها سـتـبـقى مـهـملة فـلا يتم تنويرهم او تبـصيرهم بكيـفـيـة وعيهم الأنفعالي والعـاطفي ، فـلا يعـرفـون كـيف يفـهـمـونها ولا كيف يتعاملون معها حتى الآن؟

وكـاجـراءات عـمليـة اكثر فاني احب ان ارى ممارسات وتجارب تُجرى كل يوم وذلك ببـدء حـوار في الصـفوف على غرار (حوار المصارحة العائلية) التي سـبق وان ذكـرت من قـبل، يشـارك في هذه المصـارحـات كل من التـلاميذ والمعلمين وفـيـهـا يعبر كل عما بداخله من مـضـايقـات او مـا يستشعره من اسـتملاحات واستحسانات. وان عمل الحلم في هذه الحالة يمكن بكل يسر وسـهـولة دمجه في هذه الجدوى وفي هذه المنهجية الروحية، وهذا من شأنه ان يـمـنـح اليـوم المدرسي زخما من النشـاط المجـدد وحـبـا في العـمل، ويمكن

تكريس كل ذلك تقريبا الى ما في العالم الخارجي الذي يكتشفه الجميع. ويلزم كلا من المعلمين والتلاميذ، في هذه الحالة، المشاركة في سرد احداث احلامهم اذا كانت تنطوي علي عناصر وعلاقات مشتركة مناسبة، وبالتالي فان المعلم سيتمكن من مد يد العون للتلميذ الذي يعاني من مشكلة عائلية تطفو على السطح وقد كشفت عنها الاحلام.

اما في التعليم العالي، فاني ارى ان مناقشات الاحلام ينبغي ان تؤلف جزءاً منتظما في ألصفوف وتتخذ طابع دراسات عامة، وهنا يمكن للاحلام ان تقوم بدور فعال من خلال تمكين الطلبة من استكشاف مشاعرهم الحقيقية حول ما يرغبون فيه في مستقبلهم من مهن واعمال، وذلك بالافصالح عن احاسيسهم بصدد انواع معينة من العمل.

اعتقد ان التلاميذ في المدارس والطلبة في الجامعات، اذا ما اتيح لهم مجال التعبير بحرية عما يدور في خلدهم من مشاعر من خلال لقاءات تتم في مجموعات للمصارحة او الحوار او المناقشة، يحضرها معلموهم واساتذتهم، فان كثيرا من ململات الطلبة المدمرة المتسببة بشكل رئيسي عن جمود اصاب البني العقلية في اعلى مستوياتها فتحجرت، هذه كلها يمكن تفاديها عن طريق اطلاق عناصر المرونة العقلية في ارقى مراتبها وابهي مستوياتها(١٠).

قوة الحلم في مجال الاعمال والادارة

اذا كـان ثمـة وهـم خطير في القول بان التربية بوسعها اغفال شأن الجانب الانفـعـالي في الشـخـصية، فان هناك وهما اكبر خطورة في الادعاء بانه يمكن اهمال الجـانب الانفعالي هذا في دنيا العمل في وقتنا هذا، والعلة تكمن في ان مـا يتـخـذه الناس من قـرارات لا تقتصر اهميتها عليهم وحدهم وانما تتعدى حـدودها فـتـؤثر في حـيـاة اعـداد ماثلة من الناس الآخرين. فاذا كان ثمة، مـثـلا، رئيس عمال في مـعمل انتاجي، يقعده قلقه المستحوذ عليه عن مراقبة مـا يجري في وحـدته بدقـة، او اذا كان هناك جندي يخشى ان يصارح رئيسه عما يخالجـه من ارائه ونظرياته الخـاصـة به وبشـؤون جنديته، اذا حصل شيء من هذا كله، فليكن مـعلوما ان امة بكاملها ستعاني من نتائج ما يترتب على ذلك التـقصير الناجم عن تفريط رئيس العمال والجندي بواجباتهما.

اذ الشـعـب كله سيـتضرر. اننا دائماً نحـاول، بطبيعة تصميم نظم الكون أن نجـد ضمانة ضـد هذا النوع من الاشياء التي مرّ ذكرها تواً، ولكن فليكن مـعلومـا ايضـاً ان ما من منظومة او نظام في المال يمكن ان تكون افضل من البشر الذين يبـدعـونها ويؤلفـون روحها، ويترتب على ذلك فانه ما من نظام يسعـه اغـفـال حـقـيـقـة جوهرية هي ان يستخدمهم في حيات لأنهم ليسوا بـآلات مـسـيرة في ثيـاب ألبشر، وانما هم كـائنات بشرية لهم احـاسـيـسـهم ومـشـاعـرهم ومـشـاكلهم الخـاصـة. فالاهتمام بالمسائل النفسية في المنظمات الصناعية والادارية هي ليست فقط مسألة (مصلحة هيئة ادارية) بعينها، بل انها، فـضـلا عن ذلك، هي ايضاً جزء لا يتجزأ من ألكل المتكامل الدينامي لـذلـك الـتنظيم. واننا قـد بلغنا الآن مـرحلة من التطور، يكون من الجنون المـحـض بـمـكـان من جـانب المجـتـمع ان هو تغـاضى عن الاعتراف بهذه الحـقـيـقـة. نظراً الى ان نتـائج ما قد يرتكب من اخطاء يمكن ان تؤدي الى

كوارث.

بدأ علم النفس الصناعي الحديث يعترف بهذا الامر الى حد ما وتبين ذلك واضحاً في دراسات دوجلاس مكريغوف Doglas Macregov ، اذ توضح ان دوافع الناس في الحياة الصناعية الحديثة ونوازعهم قلما تحدوها الرغبة للحصول على مزيد من المال فقط، لكن الامر يعزى كذلك الى الكل المركب الكامن وراء علاقاتهم الشخصية التي تربطهم بغيرهم في مجال العمل وتنظيم الحياة بوجه عام. ويبدو لحد الآن ان ما يقوم به اناس من مهام تخص حياتنا الصناعية او الادارية انما هي اجراءات بطيئة لا تتناسب والمتطلبات النفسية الجديدة التي تمليها روح العصر. وأنّ الجماعات الكبرى واساليب الحساسية المتعبة قد اخذت تثبت وجودها في مجال التدريب الاداري في كثير من المنظمات الكبيرة والى حد بعيد، لكن ما تكشف عنه من تبصر ما فتيء يعد بالنسبة الى الرقيق القلب شيئاً لا يختلف عن الترف في كثير او قليل،كل هذا يجري بصرف النظر عن حقيقة ان الدافع الاساس انما يراد به في العادة محاولة حمل المستخدم للتكيف الى ما هو قائم بدلا من تغيير المنظومة او تكييفها لتناسب الكائنات البشرية انفسهم.

اعتقد ان الامر لعلى جانب من الاهمية العلاجية والتربوية بالنسبة للمجتمع ككل فيما لو أنّ جماعات المصارحة تم تأليفها واخذت في الحسبان اهمية الحلم ومكانته في المجتمع وامكن استخدام ذلك في ميدان الصناعة والاعمال بوجه عام وعلى اساس منتظم دائم. وكما اوضح جون رين لويس، مقدارا خياليا من الوقت يهدد في ممارسة العاب من اجل ابعاد الاحساس بالغيرة، والخوف، والقلق، والشعور بالذنب، ومن اجل اشباع الطموح، ودرء الاحباط، وبدافع الحاجة الى الاحترام والتقدير، وهلم جرا، وان هذا الوقت المهدور، هو الذي يمكن توظيفه في اغراض اكثر بناء واجدى نفعا كالعمل الجماعي او العمل ضمن جماعات مثلا.

وقد روت، احدى عضوات فريق الجماعة التي اشرف عليها، واسمها هيلين حلما مسليا وفيه كشف النقاب عن كيفية اضاعة جزء من وقت العمل في المكتب بما لا طائل تحته. رأت في هذا الحلم انها كانت جالسة خلف مكتبها مشغولة بالكتابة على الآلة الكاتبة عندما سمعت صوت جرس التحذير في الدائرة يرن. وحالا كان كل واحد في الدائرة قد قفز من مكانه بما فيهم هي نفسها، فكان كل واحد يركض على غير هدى في ارجاء الغرفة وكل يحرك يديه عشوائيا، ويرمي بذراعيه يمينا وشمالا، وهم جميعا يرتطم الواحد بالاخر، وجميعهم يرتطمون بالاثاث، وكل منهم يفتح ادراج الملفات ثم يغلقها بغير هدف، مندفعين الى الممر خارج الغرفة ثم العودة اليها مسرعين، وكان المنظر بوجه عام يعطي انطباعا عن حالة من الفوضى والفزع. فتوقف ذلك الهياج فجأة كما قد بدأ فجأة، فوجدت نفسها جالسة خلف مكتبها بهدوء وكأنّ شيئا لم يكن. ثم ان جرس تحذير اخر قد رن، وان نفس ما حدث في المرة السابقة قد حدث في هذه المرة، سوى شيء واحد وهو انها هي نفسها كانت لها حرية الاختيار والتصرف في هذه المرة، فجازفت بالخروج من المكتب، مدفوعة بدافع حب الاستطلاع فراحت تستطيع تحديد المصدر الذي يؤدي الى دق نواقيس التحذير تلك، وبعد كثير من التحريات، اكتشفت ان الرنين كان يصدر من مكتب مدير المبيعات، وانه كان يدقه في كل مرة يدخل فيه ألمدير التنفيذي أو يقترب من ذلك القسم.

ذكرت هيلين ان الحلم قد ابان لها بوضوح فكشف عن احساس بالفزع يبدو انه كان يسيطر على المكتب كلما دخله مدير المبيعات وطلب بيانا بواجب كان قد طلب انجازه وبحثه عما كان يتم من عملهم ويبدو ان كل عمل في المكتب كان يتوقف بالفعل على تحضير وتهيئة ما يطلبه المدير. وان حقيقة الامر هي ان شخصاً واحداً فقط في تلك الدائرة كان قادرا على اتمام العمل بمفرده ينجزه بهدوء وكفاية عالية، اما الباقون فكانوا قد تعلموا انهم

ما يتمونه من عمل انما يكون وفق طقوس رتيبة عقيمة ويظهرون انهم يعملون والواقع هم ليسوا كذلك، ولكن لمجرد اقناع المدير بانهم يعملون وان ما طلبه من عمل كان موضع اهتمامهم، كما كشف الحلم كذلك عن احساس هيلين بان هذا المدير كان في واقع الحال:

يخاف من رئيسه الاعلى وكان خوفه هذا مستحوذا عليه، وكان هذا الخوف، باعتقادها، في غير مكانه وانه غير واقعي، بدليل ان الرئيس الاعلى هذا كان يستوقفه العمال ويتحدثون اليه عن شوونهم الخاصة، وهو ما لم يكن من قبيل التلهي بالالعاب ولا كان الرجل ممن يتلهون باللعب. سألنا هيلين اذا كانت لها رغبة في ان تشارك بافكارها واحلامها مع مدير المبيعات وبعد تفكير عميق استجابت للطلب. وقد وجدت النتيجة مذهلة، فهي تبينت انه بدلا من الاستغناء عنها وطردها من العمل، وهو احتمال كان قائماً، فان المدير نفسه كشف عن انه ادرك بانه لم يرغب في التأثير على مسؤوله الاعلى وانما كان يحمله المسؤولية لاتجاهاته اللامسؤولة في تسيير شؤون العمل وتنظيم اموره. وهي نظرة ماكرة كانت تساور المدير نحو رئيسه الاعلى. ومنذ ذلك الوقت اخذ كل من هيلين والمدير نفسه يديران حوارهما الخاص بهما بشكل شخصي في ما بينهما، بما في هذا احلامهما المشتركة، لكنهما لم يتوصلا بعد الى امكانية توسيع نطاق حوار المصارحة اكثر، وقد شعرنا جميعنا- فريق العمل بالارتياح واعتبرنا ذلك بداية طيبة.

ان خبرتي الخاصة تعزز ما توصل اليه هول (Hall) من استنتاج وهو ان احلاما كهذه، والتي تحدد حقيقة مواقف العمل نفسه، هي احلام نادرة نسبيا، ولكن عندما يعمل الناس في اداء عمل بشكل جماعات متماسكة، مثل لجنة مديري الاعمال، او هيئة ضباط في مؤسسة عسكرية، فان علاقاتهم ببعضهم تصبح جزءاً من حياتهم الشخصية تماما مثلما هي العلاقات في شؤون العمل، فينعكس ذلك في احلامهم. ومثال على ذلك، فان هاري (Harry)، وهو رجل اعمال في فريق الدراسة الذي تحت اشرافي، رأى حلما، رأى فيه وكأنّ زميلا له جونز (Jones)، وهو مدير

ايضا كان يدور في الدائرة وفي يده ابرة زرق تحت الجلد وهو يحقن كل واحد في المكتب حقنة تحت الجلد ولكنه كان يقوم بذلك بدون غرض صحي محدد. وعندما جاء دور هاري وتم حقنه جعله ذلك يفقد وعيه. وكان يشعر بانه يضعف رويدا رويدا وعندما احس انه اوشك على الموت، مد يده طالبا النجدة والعون فشعر بان جونز قد امسك بها وهو يقول له بصيغة التأكيد، (لا تقلق، يا فتى، سافعل ما في وسعي).

هذا الحلم كشف لهاري نوعا من عدم الارتياح كان يحسه منذ زمن في داخله ازاء جونز. وهو لا يدري لماذا كان لا يرتاح لزميله جونز هذا. وجونز من جهته، كان على حد تعبير جون رين- لويس الملائم، ينظر اليه ويعتبر نفسه (الاب الكبير) Big Daddy للشركة، فكان دائم الحث لجميع العاملين في الشركة بما فيهم، زملاءه المديرين، ان يرجعوا اليه في طلب مساعدته، لتسوية مشكلاتهم الشخصية وما يساورهم من قلق يمس حياتهم في العمل، وانه كان اكثر من مرة قد عنف هاري لانه لم يكن يراجعه بشأن اي شيء. اظهر الحلم بوضوح حقيقة شعور هاري ازاء جونز، اذ كان يحس بان نزعة جونز نحو الخير ما كانت صميمية تماما وان ما كان يقوم به جانز هو بقصد الايقاع بالناس من اصدار تعليمات جديدة يعرف مقدما انها ستسيء الى بعض الناس في محيط العمل فتضايقهم، ومن ثم ينشر افاويه انه بصدد احداث تغييرات، وذلك من قبيل الثرثرة الشخصية منه، وهكذا دواليك، ومن ثم يعمل على تسوية ما احدثه وتسبب فيه من قلق ومخاوف لضحاياه. اتضح لهاري ان جونز كان في الواقع يلعب لعبة خطيرة وغايته الهيمنة على من هم معه في محيط العمل، فكان يقدم متعمدا في الأعتداء على التابعين له. لا ادري في هذه الحالة الى اي مدى يكشف الحلم عن حقيقة خلف جونز ولا اعرف الى اي مقدار كان احساس هاري ازاء جونز، احساسا غير عقلاني في جزء منه، لكني لا انفي ان ثمة جرثومة من الحقيقة تكمن في الحلم ككل. فلو ان هاري كان بمقدوره ان يشاطر جونز جزءا من حلمه، وهو ما لم يفعل، لترتب على ذلك (ثنائي في الحلم) من امتع ما يمكن توقعه وذلك حسب الصيغ التي سبق وان ذكرتها قبلا، ولأفضى هذا كله الى توضيح في تقدم لحقيقة العلاقة بينهم، العلاقة التي كان يمكن ان

يكون لها ابلغ الاثر على ادارة وتسيير دفّة عمل رئيس كعملها ذاك.

يبدو لي انه من الاساسي بالنسبة لنا ان نتلمس في المستقبل طرائف اكثر تمكننا من الانتفاع من قوة الحلم وتأثيرها المباشر على حياتنا العملية، بدلا من محاولة التظاهر بان هذا النوع من وجودنا انما يعود الى منظر منفصل تماما عن مناظر حياتنا الشخصية، منظر كأن انفعالاتنا لا تدخل في حيرة، وان نحن عددناه وكأنه عبث او شيء تافه، او نظرنا اليه وكأنه ضرب من الترف، فان النظرة هذه من جانب مجتمعنا ستكون من قبيل الاسبقيات او الأولويات الزائفة التي لا تنم عن تعمق في التبصر. والمسألة كما عبر عنها جون رين لويس، ان رجال الاعمال وموظفي الادارة، حينما يخنقون مثل هذه الآراء بقولهم المكرور، (ان هذه المؤسسات ليست بمؤسسات صدقة واحسان)، انما يقومون في الحقيقة بدور (المارد الخشن)، وذلك لكي يقنعوا بعضهم بعضا ولكي يقنعوا انفسهم بذلك، ويضيف رين- لويس قائلا (ان الصناعة والتجارة يمكن ان تسير بصورة اكثر كفاءة لو ان ادارتها تمت بوعي تام على اساس انها مؤسسات خيرية... ذلك لان اعلى مردودات الانتاجية انما تتأتى من اناس يعملون معا بمحض ارادتهم في جو تسوده الثقة المتبادلة).

قوة الحلم في مجال العلاج النفسي

ان قـوة الحلم مألوفـة، بطبـيـعـة الحال، لدى كل مختص بالعلاج النفسي محترف، لكني اعـتـقد ان ما استجد من افكار جديدة ابان عقد مضى او ما يقـرب من ذلك امكنهـا ان تبـعث حـيـاة جـديدة في اجواء غرف العيادات الاستـشـارية التي تعج عـادة بحـالات الرهاب الاحـتـجـازي(١١). ومن الجـديد في هذا الشأن هي طريقـة بيرلز بصـورة خـاصة، وتقنيته تتلخص في تمثيل الحلم وهي تقنيـة ذات قـيـمـة كبرى اذ تضع المريض امـام احـاسيسه وجـهـا لـوجـه وبـصـورة مـبـاشرة. وان الـيـونـجـيـين(١٢) كـانـوا من قـبل يستخدمون اسلوبا مماثلا يقوم على (الحوار الذاتي الداخلي) dialogue in-terior، لـكني احـسب ان تقنيـة بيرلز قـد طورت الموقف هذا، وذلك بان ادخلت حـركـات الجـسم ونشـاطه في الصـورة، فـجـعلتنا على وعي بالوقفة والجلسـة مـثـلا، وبالاشـارة والايماءة، وبالتـعبير وما الى ذلك، كل هذا يتم ونحن نقـوم بتـمـثيل مـوقف من المواقف. وارى انه قد زودنا بنموذج عملي ابـسـط نوعـاً مـا يقضي بعـرض المتـضـادات ودمجهـا في آن واجـد في كـيـان الشـخـصية. بتعبير اخر يمكن الكشف عما في الشخصية من متناقضات ثم اعادة تحديدها وتكاملها لينجم الانسجام.

ومن خبرتي تبين ان الفـرويديين راغبون(١٣) عن استخدام تقنية من هذا النوع، لانها تنطوي على تدخل فـعـال من جـانب المعـالج، وهذا التـدخل حسب اعتقادهم يفسد مسألة (التحويل) Transference، او الانتـقال، وهي عـلاقة حدسية وليست واقعية يبقى فيها المحلل النفساني محايدا فيحاول الابتـعـاد عن إقـحـام نفسه في مشاعر المريض واحاسيسه، بقدر المستطاع، بحـيث ان المريض يسـتـخـدم محلله كشاشة بيضاء يسقط عليه جميع خيالاته وأوهامـه. ومن رأيي، ان قلة ان انعـدام التـواصل الانفـعـالي الحـقـيـقي بين

المريض والمعالج يعمل علي الحاق الاذى اكثر مما يفضي الى احداث خبر يرتجى. ومن خبرتي في حالتي الخاصة، فان الامر قد ادى الى حلقة مفرغة كنا ندور فيها انا ومحللي لمدة سنوات متلاحقة، انا من ناحيتي اتهمه بانه اشبه بجدار اصم، وهو من ناحيته يتهمني بانني لا اختلف عن ذلك ايضاً وكأنني جدار من قرميد! وفي الوقت الذي لا اذكر فيه ان تقنية الانتقال والتحويل يمكن ان تكون ذات جدوى مع نوع خاص من الناس وفي بعض الحالات والظروف، فاني اشعر في ذات الوقت انه في الغالب اشبه بلعبة يرمي بها المحلل على المريض، وان المحلل يضمر في قرارة نفسه توقعا مأساوياً بان ثقله سيزول عن المريض حالما يثوب هذا الاخير الى صوابه، وحالما يبدأ المريض يسهم بالتعاون مع المعالج ويعود له احساسه بانه انسان من جديد. والحق، اني لأعتقد بان العكس هو الصحيح، واني لأتذكر هنا القصة الممتعة التي ذكرها يونج يوم كان هو وفرويد يحلل كل واحد منهما احلام الاخر. وفيها ان فرويد كان قد روى احد احلامه الى يونج وطلب منه تفسيرًا له، وقد رد يونج بالقول انه لا يستطيع تأويله من غير مزيد من المعلومات عن حياة فرويد. فرفض فرويد على أساس انه ما اراد ان يخاطر بهيبته. فكتب يونج يقول معلقا (انه في تلك اللحظة قد خسرناها كلها). ان مغزى القصة يجب ان يتذكره جميع المعالجين يحملون في اذهانهم توقعات تقوم على اسس مأساوية.

إنها لمشكلة قائمة ومستمرة في العلاج النفسي ان يجعل المريض يكون حقاً وبالفعل على تماس مع مشاعره واحاسيسه فهو في الغالب يتحدث عن حياته ومشاكله فقط ولكن من غير ان يتحسس ابدا خبرات اي من إنفعالاته، وان مجرد الحديث حول الحياة والمشكلات، كما يعرف ذلك كل معالج، انما هو امر لا جدوى منه، من وجهة نظرنا يرتجى للمريض من تغير ونمو في مسرى حياته الشخصية. انه لمن الفآلة المطلقة ان يقف المعالج عند طرف سرير الفحص من جهة رأس المريض ويأخذ يردد عليه عبارات

مثل (انت غاضب علي. . .) او: (انت تشعر بان امك لا تحبك. . .)، وما شاكل ذلك، فهذا لا ينفع فيه، ما لم يشعر المريض فعلا انه يتحسس كل ذلك باحاسيسه وانه يعيشها انفعاليا، وانه يتعامل مع خبراته وجدانيا. والموقف حقا كما يؤكده ولتر بونيم Walter Bonime ، (يجب ان يحس المريض أحاسيسه بنفسه؛ يجب ان يحسها بذاته، وان يستشعرها، وان يتحسس احاسيسه باحاسيسه). انه حينئذ فقط يكشف اعماق انفعالاته الغائرة تحت كيانه الخارجي العقلاني والرائق.

ان بونيم هذا يشجع مرضاه على ان يعبروا عن احاسيسهم باحاسيسهم وانه يستخدم في غرفة العيادة الاستشارية عادة مفردات من الالفاظ يستخدمها مرضاه عادة في حياتهم اليومية. وان الالفاظ التي يستخدمها في العادة مرضاه في حياتهم العامة وفي احاديثهم الخاصة، يشجعهم على استخدامها مهما كانت متدنية(١٤) في مستواها، لان المرضى في هذه الحالة يعيشون مجرى خبراتهم واحاسيسهم وانها توضح حقيقة علاقاتهم اليومية. هذا وان الاسلوب التقني الجشتالتي يؤدي هذا الغرض ويحققه بصورة الية (اوتوماتيكيا)، فاننا، بدلا من ان نتحدث حوله ونصفه وصفا لفظيا، نكون قد عشنا احداثه بالفعل فنعبر على سجيتنا من وضعنا الطبيعي، فلا تلبث احاسيسنا ومشاعرنا ان تطفو على السطح وتقفز الي العيان، فتكون في الغالب مصحوبة بهزة وجدانية تهزنا باتقادها وقوتها.

ويتحدث بونيم كذلك عن فوائد تجميع المفردات الشخصية لكل مرض، والتي تعتبر نوعاً من انواع اللغة الاختزالية لوصف سمات الشخصية في صيغة رمزية، وقد وجدت من خلال عملي مع الفريق ان اعزل الذات العليا عن الذات الدنيا: الذات المسيطرة عن الذات المسيطر عليها، انه عمل ذو فائدة خاصة وفق التقنيات الجشتالتية، والفائدة هذه تتجلى من خلال استخدام اللغة الاختزالية هذه ممثلة بالألفاظ الخاصة بكل مريض. فزوجة جوزيف، مثلا، كلما وجدت زوجها متلكئا في إتخاذ قرار بصدد ما

يريد الاقـدام عليـه، تسارع فتسأله: (هل هو حقا قرار صعب الى هذا الحد بحـيث يتطلب كل هذا التـفكير، ام انها الاعـيب اللاشـعور القديمة اخذت تلعب لعـبتـهـا ثانية؟). وان جاك الذي كان يحلم بان العناكب تفسد عليه حيـاته الجنسيـة. كان احيانا يذكر الى فريق العمل اذ يقول: (ان العناكب اخـذت تهاجمني مـرة اخـرى)، وان كلير كلما احـست من بيتر اعراضا عنها واهمالا لهـا، كـانـت تـذكـره بقـولها بانها ليـست ملكة وثنيـة وانما هي كـائن انسـاني بحـاجـة الى الحب والاهتمام والعناية بها. واني من ناحـيـتي، حـينما ارفض مـسـاعـدة تقـدم لي او عندما انتقد اناسا اخرين لعجزهم عن الوقوف على اقدامهم، فاني اتأمل فاسأل نفسي: (هل تلك هي آن التي تتكلم او انه شعـاع الـضـوء الـوهاج يتـحـدث؟)، وهو سـؤال قـد اعـاد لي في الغـالب إحـسـاسي فـيـجـعلني اتوحـد مع مـشاعري واحاسيسي (كل هذه التفاصيل مـذكـورة في الفـصل العـاشر). وان التقنيات الجشتالتية يبدو لي انها اساليب قـيـمة وتنطوي على ما هو عملي للوصول الى هذا النوع من اللغة الاختزالية، وهي طريقـة رائعـة واقتصادية من طرائق الاتصال والتفاهم.

وفي سـياق قيامي بالكتابة والقاء المحاضرات حول الاحلام، فاني غالبا ما اسـوق امـثلة اسـتقيها من تأويلات وتفسيرات نقوم بها ونجربها ضمن اعمال فـرق وجماعـات العمل الخاص بالاحلام والتي تعمل معي. وأنّي قلما يتاح لي الافـلات مـن مـواجـهـة سـد مـتراكـم من التأويلات والتـفـسيرات المغـايرة والبـديلة والتي تكون على مـسـتـوى جـيـد في الغالب لا سيما ما يصدر عن محـلـلين ومـعـالجين كـانوا قـد حـبكوها في ضـوء نظريات كـونوها مـسـبـقـا ونظريات لا تخلو من خـصـوصـيـة مزاجية. فكان الواحد لا يتوانى ان يقول مـثـلا: (لا يسـعـني الا ان افكر بان حـلم زوجك السـابق وهو ينشيء كنيسة في ارض بور ويقـيم حـواليـها مسلات واعمدة ناتئة الا انه يعبر عن مشاعره الجنسيـة وفي كل دلالات رمـزية على نواياه ومـا يضـمـر ومـا يفكر). او قد يقـول آخـر منهم : (ان حلم زوجك ذاك وهو غير مـا ظهـر فـلا يعبر عن

سفر انما يعبر في حلمه هذا عن رغبته في المضاجعة . . .) اما اليونجيون، فانهم اميل الى تعقيد اكثر في التعبير والرمزية، فقد يواجهك الواحد منهم بالقول مثلا: (اشعر ان جوزيف في حلمه قد قرن نفسه بالعربة البطيئة لانه لا يريد في حقيقة امره الوصول الى كنك كروس) وان هذا، افتراضا، ينطوي على قهر للسهوات وقتل لنزعتها.

انا دائماً اصغي باهتمام الى التفسيرات البديلة واني ارحب بما يطرح من اقتراحات وانتقادات بناءة، فاضعها في ما بعد امام الحالم اذا كان لا يزال عضوا مستمرا ضمن جماعة فريق العمل. لكن جوابي الاعتيادي دائماً هو ان الحلم انما هو ذلك صاحبه، وانه- الحلم- نتاج فريد ينشأ من شبكة واسعة من ذكريات الحالم ومن اعماق شعوره ومن تداعياته، وان حلمه في نهاية المطاف، انما هو ذو معنى على اي وجه يجد هذا المعنى وما يؤول الحلم اليه. واذا كان ثمة ناقد يصر على الاعتراض ويتمادى في النقد، فاني اقول له: (تلك هي رحلتك، ولا تلق بها على كاهلي) ومن ثم فاني امتع الحاضرين بقولي لكم ان تفسروا حلم الناقد في صيغ وعبارات تلائم شخصية الناقد ومشاكله!

واني كذلك اذكر المعالجين النفسانيين بكتاب: تفسير الاحلام Dream Interpretation(وقد سبق لي ان اقتبست منه) تأليف المختص بالتحليل النفسي، توماس فرينش Thomas French، والمختص بعلم النفس اريك فروم Erik Frommوكلاهما ينتقد رفاقه المحترفين نظرا الى ان زملاءهما في طريقة تفسيرهم للاحلام يأخذون بالطريقة (البروكرستيزية)(١٥)؛ وتتألف من انهم يأخذون من احلام المرضى فقط ما يلائم بشكل مناسب نظرياتهم ثم هم يتجاهلون البقية منها. فبالنسبة الى فرينش واريك، وان التفسير لا يكون مكتملا ما لم يتم تدبر الحلم ككل Whole والنظر اليه كوحدة متكاملة (على وفق خطوات هول وطريقته من حيث النظر الى الحلم كصورة تامة زائدا ما يرافقها من تداعياتAssociation وما لم يجر ترتيب الاجزاء

المختلفة منه بشكل منتظم سوية على نحو ما يتم في تنظيم وتنسيق احجية الصورة(١٦)المقطوعة Jigsaw puzzle. ومما قاله فرنش واريك، (نحاول ان نجعل تفسيراتنا تأخذ شكلها من الالفاظ النابضة بالحيوية والتشبيهات الزاهية التي يدلي بها المريض نفسه فبدلاً من إقحام نظرياتنا وجعلنا نؤثر على التفسيرات، نأمل، بدلا من ذلك ان نستخدم الاجراءات التفسيرية معيارا بل محكا متجددا ابداً لتمحيص نظرياتنا والتحقق منها)- ان هذا لتحذير حي ما من معالج نفساني يستطيع تجاهله.

واني ما اعتدت قط ان افرض تفسيراً على طلابي، وان قولي هذا ليس بانكار دفاعا عن النفس، وغالبا ما اجدني عندما لا تكون لدي ادنى الماعة عما يمكن ان يكون عليه الحلم او ما يعنيه حقا وقبل ان نبدأ بتحليله، فاني اغير فكرتي توا وقبل ان نسير فيه الى النهاية. واني لاذكّر نفسي باستمرار ان اية نظرية اروم صياغتها، فاني استمد اسسها مما يعنيه الحلم بالنسبة لي ومما كنت قد حلمته، لكن ذلك ليس مما يعني بالضرورة نفس الشيء بالنسبة الى الحالم. فللحالم خبراته واحاسيسه ورأيه. وكتب بيرلز بهذا الشأن وبشأن الحياة العامة وبصدد جهد المرء بشكل خاص، اذ يقول: (لا تدفع بماء النهر دفعا، فانه يجري بنفسه). ولقد جعلت من هذا القول قاعدة ذهبية في تفسير الاحلام، واني لاعتقد بان لكل حالم الحق ان يصر على ذلك. وفوق هذا كله يلزم المعالجين النفسانيين ان يأخذوا بمأثور القول الذي يردده الهنود الامريكيون: (إحترم احلام اخوانك)(١٧)(١٨).

هوامش الفصل الحادي عشر

(١) إشارة الى الأسرة .... (المترجم).
(٢) استخدمت المؤلفة لفظة governmemt ومعناها حكومة ولكن ترجمتها كما في المتن أوقق .... (المترجم) .
(٣) وفي الحديث الشريف ما يذكّر الفرد بضرورة الأعتدال لمواصلة العمل في الحياة، لأن الأنهاك قد يخل بالأتقان والحديث الشريف : (المنبتّ لاظهراً أبقى ولا أرضاً قطع). (المترجم).
(٤) تقصد المؤلفة الأنغماس في اللهو ..... (المترجم).
(٥) التخييل حيلة دفاعية للهرب من مواجهة الواقع فلا يعود المرء بذلك قادراً على التمييز بين الحقيقة والوهم. (المترجم).
(٦) ألأسقاط حيلة دفاعية يحمي بها المرء نفسه من مشاعره غير المقبولة فينسبها الى الآخرين وذلك بأسقاط تللك المشاعر على غيره، ولأنها تؤدي إلى خداع الذاكرة فأنها تضّر بتوافق الشخص مع محيطه الاجتماعي وبعلاقاته الاجتماعية..........(المترجم).
(٧) Vale Evesham (أيف شام)اسم علم وهي مؤلفة من (Eve) وتعني حواء ، كما تعني مساء ، عشاء ، اليوم السابق لحدث معين . و (Sham)ومن معانيها: خدعة رياء، شيء زائف، كاذب، يحتال على، يزيف . ومن مدلول الكلمتين تأتي معاني التورية في سياق الحللم (المترجم).
(٨) الكلمة الأنجليزية هي (Freebourg)وهي أسم علم، ولكن التلاعب بالألفاظ في محتوى الحلم يظهر حقيقة واقع الحلم كما في المتن، والواقع يحمل على تجزئة الكلمة إلى (Free)أي : حرر،

غير مشغول بشيء، ومنها (Freedom) بمعنى حرية، و (Bourg)وتعني مدينة صغيرة أو قرية، فيكون معناها مدينة الحرية .... (المترحم).

(٩) تجدر الأشارة إلى أن المؤلفة في سياق حديثها في تضاعيف كتابها هذا تؤكد على أهمية الحياة الواعية للأنسان في مجرى نشاطاته اليومية الأجتماعية بوصف الشعور بالعنصر الفعّال في صنع الحضارة، غير أنها تؤكد في الوقت ذاته أهمية الشطر الأخير من الحياة العقلية الا وهو اللاشعور، وجزء منه يظهر في الأحلام فلا ينبغي تجاهله أو أغفاله ....(المترجم).

(١٠) يجدر بالمربين من معلمين وأساتذة جامعات ممن يهتمون بمثل هذه الأفكار أن يقرأوا : تعليم الأنسان من أجل تعلم الأنسان، تأليف جورج أ. براون (١٩٧١)، (المترجم).

(١١) Claustrophbia رهاب الاحتجاز أو الخوف من الأماكن المغلقة، ويبدو بشكل جلي عندما يتراءى لمن يعاني منه أن لا مهرب مما يقاسيه، وأنه لا منفذ للهرب، وهو خوف لا شعوري وهو يظهر عادة عندما يكون هناك منبه يثير خبرة كانت مكبوتة لها علاقة بالموقف (المترحم).

(١٢) أتباع العالم النفساني السويسري كارل غوستاف يونج، والذين ساروا على خطاه في التحليل النفسي (المترجم).

(١٣) رعب عن الشيء عكس رغب فيه. اذ إن رغب عنه تعني تركه وعزف عنه (المترجم).

(١٤) الالفاظ المستخدمة يستحسن ايرادها لأنها لا تقدم ولا تؤخر شيئاً .... (المترجم).

(١٥) نسبة إلى بروكرستيز، وكان لصاً اغريقياً خرافياً، تذكر عنه الأساطير أنه كان يقطع من أطوال سيقان ضحاياه لتتناسب وطول

السرير الذي ينامـون فيـه؛ فذهب عمله هذا مثلاً ينطبق على كل عمل قسري. . . . . . . (المترجم).

(١٦) أحـجيـة مؤلفة من قطع من الخشب صغيرة يتعين ترتيبها بحيث تشكل صـورة محددة المعـالم، وهي كـثيراً مـا تكسب الطفل مـهـارة السرعـة والدقة. . . . .(المترجم).

(١٧) ورد ذلـلـك في مسـتـهـل هـذه الـترجمـة تحت عنوان : قـالوا في الكتاب. . . . .(المترجم).

(١٨) بعـد أن أنتـهت المؤلفة من كتابة الفصل الحادي عشر هذا ، كان كـتـاب بيل شـولتز الموسوم : كل فرد إلى هنا، أو الّي هنا كل فرد Every body comes Here وقـد ضـمّنه مـؤلفـه مقترحات عـملية نافعة تتعلق بتوجيهات تهتدي بهاجماعات المصارحة المفتوحة في مـعـالجـة مختلف شـؤون الحياة . انه كتاب ممتع ومبصّر بمعرفة حقيقية الذات (المترجم).



الفصل الثاني عشر

ما وراء الحالة الثالثة

نظراً الى أن من حق كل حالم ان يصر على واقعية ما في حلمه الخاص به من خبرة عرفها بنفسه وتجارب مرت به في رحلة حياته، ومن حقه الا يستمع لاي شخص اخر بتفسير حلمه على هواه، فاني لمستيقنة في الوقت نفسه من أنه يتعين علينا أن نحمل على محمل الجد تلك الاحلام النادرة، اللافتة للنظر، التي تبدو انها اكثر من مجرد انعكاسات لما يجري عادة في حياتنا اليومية من صراعات وتناقضات، ولقد حاولت جاهدة في هذا الكتاب ان اكون جد واقعية بشأن ما يمت بصلة الى الاحلام وما يتعلق بها. ذلك لان ما قمت به من دراسات قد اكدت الاستنتاجات العامة التي تمت في ميدان بحوث الاحلام وما خلصت اليه تلك البحوث منذ عام (١٩٥٣)، اذ اكدت هذه الدراسات ان معظم الاحلام ذات طبيعة مماثلة لما تمخضت عنه تلك البحوث او الدراسات، وقد اوضحت ان احلاما كهذه يمكنها ان تسدي الينا خدمة بالغة الاهمية، اذ هي تضعنا وجها لوجه امام انفسنا للتعرّف على دخائلنا، فتجعلنا على وعي تام بما يجري دائماً في اعماقنا من عمليات ما اكثرها وهي تأخذ مجراها وتفعل فعلها تحت مستوى ادراكنا الشعوري. ان ايماني الراسخ على اية حال، هو على وجه الدقة كما تعلمنا حتى الآن كيف نستخدم احلامنا بهذه الطريقة او تلك، فأن ما يترتب على الوعي الذاتي من تنام وتطور يرجح ان يفتح امامنا آفاقا عن احلام اكثر غموضاً تحصل لنا في حياتنا، احلام كانت قد استأثرت في الماضي بانتباه اشد لندرة نوعيتها وغرابتها. لذلك فأني اعتقد بها أن المجتمع سيفيد في الأعوام القادمة من الأحلام وما تنطوي عليه من قوى خفية، فائدة اكبر وانه سيوظفها لصالحه بشكل افضل على النحو الذي سبق لي وان وصفت

حتى الأن، فأننا سنجد ان حالة الوجود الثالثة هذه لها انواع اخرى من القوى الكامنة فيها كذلك، وأنها تفضي الى ما وراء ذاتها فتؤول الى مد وعي الانسان وتوسع آفاقه بأساليب على نحو لم يكن الانسان قد حلم بها بعد ولم تطرأ له على بال في اغلب وجوه فلسفة الحياة الحاضرة.

احلام الالهام الابداعي

ان قصص الأحلام التي استأثرت، خلال القرون القليلة المنصرمة، بمعظم الانتباه واستحوذت على الاهتمام هي تلك التي حصلت فيها حالات الهام ابداعي خلال النوم او في احلام اليقظة (١) (reverie)، ومثال على ذلك قصيدة الشاعر كوليرج؛ الموسومة ب(قبلا خان) Kubla Khan؛ ونظرية اوتو لوي otto Loewe ؛ الخاصة بالانتقال الكيميائي للنبض العصبي، وكذلك رؤيا كيكول kekule ؛ اذ حلم حلما رأى فيه حية تبتلع ذنبها، مما اوحى اليه بعلامة تشير الى حلقة تركيب البنزين، فعن طريق هذا الحلم اكتشف معادلة او حلقة تركيب البنزين والعلاقة بين اجزائه، وعن طريق الاحلام تعلم احد المختصين بالطب النسائي فاكتشف يربط بيده اليسرى عقدة جراحية في اعماق التجويف الحوضي، هذا وغير ذلك كثير من الحالات الاخرى. واني لاعتقد بان هذه الظاهرة، على قلتها وإمتاعها في الوقت الراهن، ستغدو فيما بعد اكثر انتشارا كلما تعلمنا كيفية تنقية عقولنا من العقد العصبية التي تمتص طاقاتها وتستنزف حيويتها. ولنعلم ان القلق عدو للابداع لدود، وان عقولنا لن تكون حرة لتتعامل بابداع مع جميع ما يدخلها وتتلقاه اثناء الحياة الواعية، الا عندما تنزاح عن طريقها كل هذه العوائق. وان الموقف هو كما ذكر المحلل النفساني لورنس كوبي Laorence Kubie ؛ في كتابه: التشويه العصابي لعملية الابداع، اذ اوضح انه لمن الوهم، بل لمن تمام الخطأ الظن

بان الابداع الفني يتأدى نتيجة لما هناك من عصاب، يقينا ان بعض الفنانين عصابيون لا ريب، لكن انجازاتهم الابداعية هذه رغم ما لديهم من رواسب انفعالية عالقة، هي في الحقيقة ليست ناشئة عن حالاتهم العصابية، فلا علاقة لما ابدعوه من فن رفيع بتلك الحالات في واقع الامر.

لعل اغلبنا لا يتسنى لهم ان يؤلفوا قطعا موسيقية كبرى او ان ينظموا شعراً متميزاً، او ان يقدموا اختراعات رئيسية، او يبتدعوا نظريات علمية مرموقة، لكني واثقة من ان لدى معظمنا طاقات عقلية ابداعية هي في الوقت الحاضر ثاوية فينا لكنها غير مستثمرة، ذلك لاننا ننفق معظم طاقاتنا العقلية في حلبة صراعات نفسية لا ضرورة لها فنبدد كثيرا من قوانا في متاهات علاقات تمويهية مدمرة. وان خبرتي لتدل على أننا كلما تعلمنا كيف نستخدم قوى احلامنا لتخليص انفسنا في الاقل من بعض هذه الحلقات المفرغة المغلقة، وجدنا المزيد من الامثلة الخاصة بالالهامات الابداعية التي تكشف عنها احلامنا، حتى وان كانت تلك الهامات ضئيلة العدد نسبيا.

احلام ملهمة كهذه ليس بالضرورة انها تنطوي على شيء خارق يرتبط بعقل النائم اكثر مما يمكن ان تنطوي او تكون عليه بعض المكنيات التي سبق لي وأن بحثتها في فصول مبكرة من هذا الكتاب. ان الالهام الابداعي لا يتأتى من العدم ولا يأتي من لا شيء، فانه اشبه بالبركة، يسمح فقط للعقل المهيأ الذي سبق له أن اعد نفسه فتأثر بحقائق متناسقة والهامات جمة، وافكار كثيرة، ضمها الى بعضها ونسقها وهضمها. ان لحظة الالهام غالبا ما تطرأ كومضة في حالة الحياة الواعية. عندما يحدث فجأة ان ينتظم بكل شيء فتبدو ثمة اشياء جديدة مترابطة مع بعضها على صورة نسق عامر بالمعنى وله دلالة ومغزى، ويحصل هذا عادة عندما يكون العقل مسترخيا رائقاً غير متوتر. ولعل بعض الالهامات التي تتراءى للعقل وتطفو على الذهن وقت حدوث الاحلام لا تكون من نتاجات العقل النائم الحالم لتوه قط، وانما تكون قد تمت صياغتها مسبقاً في خلفية العقل خلال النهار،

فتبقى هناك كامنة غير منظورة ولا ملحوظة مغطاة تحت خلفيات اللفظ اليومي حتى يرين النوم ويغشى النائم فتجد فرصتها مواتية فتظهر وتتجلى.

وثمة، في واقع الحال، من الناحية الاخرى، يمكن ان تكون هناك عملية من عمليات التكامل ونمط من التحري والبحث تكون جارية النشاط وقائمة المفعول خلال فترة الحلم نفسه، لكني، في كل الاحوال، لا ارى ثمة حاجة تستدعي اثارة تأويلات خاصة اكثر من تلك المتضمنة في ذلك النوع الغريب الخارق من اعمال التحري الناشط اللاشعوري في كل ما يتعلق بمواقف الحياة اليومية وهو ما سبق وصفه في الفصل الثامن.

تعلم كيفية التعامل مع الاحلام (تأويلها)

اكثر انواع قوى الاحلام غموضا وابهاما، والتي تثير مشكلات فلسفية ونفسية مهمة بشأن الطبيعة الدقيقة المحددة بصدد الشعور الحالم، هي تلك التي تمكنا بواسطتها اتباع خطوات لمعالجة محتويات الاحلام عن طريق انتهاج عمليات على ايجاد واضح المقصد واهداف اثناء اليقظة. وقد صادفت هذا الاحتمال اول مرة منذ عدة سنين خلت قبل ان أختص بعلم النفس، عندما كنت أنتمي الى جماعة تطلق على نفسها جماعة (الطريق اللامتناهي) ، ومؤسسها رجل أعمال امريكي، أسمه (جويل غولد سمث) وكان يعالج مرضاه وفق اسس علمية فيها مسحة روحية، وكان يقول لنا ويعلمنا ان نتعامل مع المشكلات الجسمية والنفسية عن طريق (معرفة الحقيقة) المتعلقة بتلك المشكلات، واعني انها مشكلات لا سلطان لها علينا في واقع الامر، لو لم نكن نحن انفسنا سمحنا لها بذلك لتدخل مسرح حياتنا.

لم تكن لدي في ذلك الوقت اية مشاكل، ولكني كنت في الغالب اعاني من أحلام مفزعة كنت ارى خلالها قتلة غرباء يطاردوني فلا اتخلص منهم

ومن مطاردتهم لي حتي استيقظ مذعورة عندما احس وكأنهم يحيطون بي من كل جانب فيحاصروني ويضيقون علي. وقد طرأ على بالي أن أية أسئلة تعن لي واحب ان اثيرها حول تطبيق فلسفة (غولد سمث) على مجرى الحياة الواعية، لينبغي لهذه الاسئلة ولهذه الفلسفة كذلك ان تنطبق على ما أرى من احلام، لذلك عقدت العزم على ان انوي قبل النوم في كل ليلة، وحينما يتراءى لي اولئك المطاردون، ان اتصدى لهم بالتحدي التالي . (لا، انتم، ليس، لكم، علي من سلطان)، وسرعان ما كانت تستجيب لذلك نفسي الحالمة، وان لم أكن أدرك وقت سريان الحلم انني كنت في حالة حلم، (وهذه ظاهرة سأبحثها عما قليل)، وبهذه الطريقة وجدت في ثنايا نفسي كثيرا من الشجاعة في ان انكفيء على اولئك المطاردين لي بشكل متعثر باديء الاول، ولكن الثقة لدي قد تنامت، حتى الفيتهم اما انهم يحجمون عن التقدم نحوي فيتوقفون في مساراتهم حيث هم، او انهم كانوا يتلاشون كما هي حال (دراكيلا) أمام الصلبان، او انهم يتحولون الى اصدقاء يتوددون الي. وبعد فترة وجيزة، فان هذه الاحلام المخيفة قد انقطعت تماما.

وان عددا من افراد فريق دراساتي عن الاحلام قد جربوا هذا التمرين بانفسهم عندما كانوا يتعرضون للكوابيس، وكانت نتائج ما توصلوا اليها شبيهة بتلك التي كنت قد توصلت اليها أنا. ولعل المكنية المحتواة في تضاعيف الاحلام مشابهة لتلك التي تحصل في كثير من التجارب وكلها توضح كيف يمكن ان يتأثر محتوى الحلم بايحاءات يتم غرسها بوسائل شتى، وهذا كله يتراكم قبل ان يأوي المرء الى فراشه، وقد اخذت انا من جهتي اغرس في ذهني، عن طريق التكرار الخيالي، برنامجا ينص على اني حينما يسرع يطاردني اولئك المطاردون الغرباء المخيفون، بان التفت نحوهم واقول لهم مرددة: (قفوا مكانكم، دونكم عني، اليكم عني، فانتم لا قوة لكم علي)، وقد ضمنت هذا البرنامج برنامجي الذي اثبته في جميع برامج

الاحـلام التي يتراءى فـيها غرباء مفزعون، وقد أجدى ذلك وافاد.

لا يلبث ثمـة سـؤالان فلسـفـيـان محيران تمخـضت عنهما هذه التـجربة، الاول مـنهما هو: كـيف يتـسنى للعـقل الذي يتـولى هذه المهـمـة، ان يدرك اولئك الذين واجـهـتهم خلال الحلم، هم في الحلم غرباء وليسوا الاشخاص الحـقـيـقـيين الذين الفت لقـياهم في دنيا الواقع؟ هذا من ناحية، ومن ناحية اخـرى، ما هي العلاقة بين الذات الحالمة التي تحمل في ثناياها الحل الخاص بحـقـائق الحـيـاة الواعـيـة، وبين العناصر المتضمنة في الشخصية الحالمة التي تتمخض في الحقيقة عن اشخاص غرباء يظهرون على مسرحها؟

فـعلى المسـتـوى النفسي، اذا كنا نتقبل ذلك، واني لمتأكدة من انه يجب ان نتـقـبله، ان الغـرباء في الحلم بالنسـبة لي انما هم رموز يمثلون قوى انفعالية يفـرزها عـقلي، واذا ما تحدثنا في حدود مصطلحات التوازن النفسي الداخلي، ينشأ السـؤال: فما هو مـعنى ومـغـزى اهميـة تعلمي مواجهة اولئك الغرباء، بوصـفـهم غـرباء أثناء النوم، بدلا من ان نعـمـد خـلال الحـياة الواعية، الى مـواءمـة ومـعـايشـة الانفـعـالات التي عنهـا ينشأون فـيظهرون نتيجة لها في الاحلام.

ان هناك، كما يبـدو، احـتمالين مـتـعـارضين، . فمن ناحية ان يكون هذا يمكن هذا النوع من انواع مـعـالجـة الحلم، مـهما كـانت هذه المعـالجة نافعة كـوسـيلة في خـضم التـجارب القائمة في معالجة الكوابيس، يتوفر على تناول الاغـراض والمقـاصـد، بدلا من مـواجـهـة المشكلة الحـقـيـقية، وهذا معناه الارجـاء الى وقـت آخـر، ارجـاء الى يـوم يتـاح لنا فـيـه التـوافق مع الصراع الانفـعـالي الذي كـان في وقـت مـا فـعـلا، ثم راغ فـتنحى جـانبـاابان الحياة الواعـيـة. وذلك هو أحـد الاحـتمالين، والاحـتمال الآخر، من جهة اخرى، يمكن ان تكون عـمليـة الاتحاد قد نبهت فاحدثت النشاط والعمل في العقل النائم، فـاوجـدت ضربا من ضروب العـمليات التي تؤدي بدورها في الواقع الى تـغـيير مجمـوعـة الدورات المتناوبة في الدمـاغ، وهي الدورات او الدارات

circuits التي يتولد عنها برنامج تنظيمي عجيب في دماغ الانسان، وان الشخص الذي يتعلم ان يعالج صراعا يحصل له على المستوى الرمزي خلال النوم، فانه في الحقيقة، وعلى غير وعي منه، يتجه الي مواجهة ذلك الصراع على المستوى الانفعالي، بوصف الرمز تعبيراً عن انفعال متخف لامر ما. واني لمتيقنة من ان هذا يصلح ان يكون مستقبلا موضوعا لبحث بالغ الاهمية، ولكني لا اعتقد اننا نستطيع الان التصدي له قبل ان نصبح متضلعين تماما في هو مألوف وشائع من جوانب قوى الاحلام.

ان حقائق مهمة في البحث وفق هذه الخطوات ستتوفر من الدراسات التي أجراها كلتون ستيوارت Kilton Stewart عام (١٩٣٥)على قبيلة (السينوي) المعروفة. فهذه القبيلة التي تصفها الادبيات الاناسية anthropological literature،(٢) بانها على جانب من الديمقراطية كبير، وهي تدعي انها لم تعرف في اوساطها انواع الصراع الداخلي في صفوفها منذ مئات السنين، وتذكر أنها تركن في صحتها النفسية ركونا قويا الى تفسير الاحلام(٣) وتدبر مضامينها والافادة منها. ان أفراد قبيلة « السينوي) هذه يعتقدون بان الصور العقلية images، التي تظهر في الاحلام انها تمثل جزءاً من شخصية الحالم، وان الصور هذه تتألف من قوى نفسية متخفية بازياء واشكال ظاهرية خارجية (مثال على ذلك وضع الغرباء الذين ظهروا في احلامي)، وان افراد تلك القبيلة يخامرهم شك في ان كل فرد منهم يجب ان يتعلم منذ بواكير طفولته كيفية السيطرة على هذه القوى الخارجية والتحكم فيها. فهم، مثلا يعلمون اطفالهم منذ الصغر أن عليهم، اذا ما تعرضوا في الاحلام، الى (ارواح) spirits معادية، فأن مهمتهم يجب ان لا تقتصر على مواجهتها فقط، بل عليهم في الحقيقة ايضاً ان يهاجموها، معتمدين في هجومهم ذلك على (أرواح في الحلم)صديقة لهم، (ولعلهم يعنون بذلك الجوانب السليمة السوية في الشخصية)، لتساعدهم تلك الارواح الصديقة على طرد الارواح الشريرة، ولكن

عليـهم، على اية حـال، ان يتسلحـوا بسـلاح الشـجـاعة وان يصمدوا وأن يحاربوا مـعـتـمـدين على أنفسهم، حتى يصلهم المدد من الارواح الصديقة. ان اعـتقادهم هذا يتلخص في أن الحالم اذا ما قتل الصورة المعادية التي تظهر له في الحلم، فأن روح تلك الصـورة شـتظل دائماً فـتـبـدو طائعـة مـذعنة او تكون في خـاتمة المطاف حليفة لنفس الانسان. فهم يقولون ان الاشخاص في الحلم يكونون اخسـاء وخـبـثـاء بمـقـدار مـا أنت تخشـاهم وتخاف منهم او تتراجع امامهم.

قـبـيلة (السينوي) هذه تعلم اطفالها كذلك انه يجب عليهم الا يخافوا من الاحلام التي يرون فيها انفسهم كأنهم يهوون من حالق او يسقطون فيها من شـاهق، بل عليـهم ان يتركـوا انفـسهم تنطلق في الحلم على سجيتها، حيث سيـجـدون في النهـاية ان حلم السـقوط ذاك قد تحول الى الحلم تحليق لذيذ وممتع. واني أنا نفسي قـد جـربت هذه التـجـربة فـوجـدتها عملية تماما. وان كلتـون سـتـيـوارت يذكـر أنه عبر فترة من الزمن قـد وجـد انه باستعمال هذا الضرب مـن الاسـلوب التربوي المسـتـمـد من الاحـلام، قـد أمكن تحـويل احلام القلق لدى أفراد قبيلة (السينوي) الي احلام متعة وبهجة، ذلك لأنهم مـهـيأون لذلك تهيئة نفـسـيـة ذاتيـة، وان تأثير ذلك على السلوك الواعي في حيـاتهم اليـومـيـة كـان نافـعاً وناجحاً، ذلك لانهم اناس مسالمون على نحو عـجيب، وحـياتهم مليئة بالحيوية، غنية بالفعاليات، مفعمة بالامر الشعبي (الفـولكلوري)، وبالموسـيقى والرقص الايقاعي. الحق، انهم في واقع الحال يسـتـعـملون اسـاليب التـعامل مع احلامهم من اجل تنبيه حياتهم الابداعية وايقـاظ مـا هو كـامن فـيها. فهم ، مثلا، يعلمون اطفالهم انه يجب عليهم دائماً ان يعـودوا الى الحـيـاة الواعـيـة مما يرون في احـلامهم بفكرة ابداعية من نـوع مـعـين يـأتـون بهـا مـن مجال الاحـلام الـتـي تتراءى لهم في المنام. ومما يقـولونه لاطفـالهم ان عليـهم اذا ما وجدوا انفسهم في الحلم وكأنهم يحلقون، يتـعين عليـهم ان يحاولوا التـحليق الي مكان مـا، وأن يقـابلوا ارواحا هناك،

وان يجلبوا معهم رقصة ايقاعية جميلة، او يأتوا بقصيدة معبرة، او يأتوا بعمل او فكرة ابداعية من نوع معين. وهذه الافكار المجلوبة الجديدة يشارك فيها في صباح اليوم التالي بقية افراد القبيلة، التي بدورها اما ان تقبلها مع ثناء فتدمجها في ثنايا نشاطاتها لتكون جزءاً من مقومات حضارتها، او تستبعدها مع تحذير رقيق للحالم بان عليه ان يجتهد في المرة القادمة لان يؤدي دورا افضل! وبهذا فاني متيقنة بأن هناك الشيء الكثير مما يمكننا ان نتعلمه من هؤلاء الناس، وان مسألة الحلم في مجمله وككل، وكيفية تناوله، لهي مسألة موضوع جذاب يغري بضرورة البحث فيه في المستقبل الآتي.

الحلم الشفاف

الحلم (الشفاف)، وسمي هكذا، لا لانه واضح بصورة غير اعتيادية، وانما هو وصف كذلك لان الحالم يعي وقت عملية الحلم ويدرك انه يحلم وفي حالة حلم، وهو يحس بنفسه انه يمتلك تمام ما نسميه الشعور الاعتيادي في الوقت الذي يرى فيه نفسه مع تام اليقين بأنه نائم في فراشه. وهذا النوع من الحلم يسمى احيانا (حلم التعرف) او المعرفة، dream of knowledge وهو من وجهة نظري، عنوان مثير (دراماتيكي) مناسب لظاهرة هي من غير شك اكثر اثارة.

واني قد رأيت، خلال السنين القليلة الماضية، عدة احلام شفافة، ولذلك فاني استطيع ان اتحدث من منطلق خبرة وان اثبت حقيقة الواقع التجريبي لهذه الظاهرة. ففي احد هذه الاحلام رأيتني اتحدث الى جدتي، ولكن سرعان ما ادركت، وأنا في حالة الحلم تلك، انها كانت قد توفيت منذ سنوات كثيرة خلت. فهذا الادراك، وأنا حالمة، جعلني اعي بأنني كنت احلم، فاستيقظت. وفي حلم شفاف آخر، وجدتني قتلت في غارة

جـوية، ووجـدت نفسي ومن كانوا معي (في الجانب الآخر) من المكان الذي حـصلـت فـيـه الـغـارة، ادركت اني لم اقـتل، لكني رحت اشكو من الم في ذراعـي الـيسرى، وعند ذاك اخـذت احـداهن تتـحـسس في حـقـيـبـة يدها فـاسـتـخرجت قنينة تحتوي اقراصاً، ناولتني واحدا من تلك الاقراص وهي تقـول لي انه سيـشـفي الالم، فما كـان مني الا ان انفجرت ضاحكة، لأنني ادركت ان الأقراص المخففة للألم لا تنفع (الجسم الوهمي) astral ، وقد تلت ذلك في الحـال فكرة خـامـرتني مـؤداها، (ربما انا لست ميتة، وأنما أنا حالمة)، وما أن تأملت هذا اللغز المبهم حتى استيقظت من نومي.

ان احـلامـا كـهـذه، ومنهـا حـشد ضخم متراكم، وموثق في كتاب الفته سيليا غرين (celia green)، بعنوان: (احـلام شـفـافة)، تبدو كلها انها احـلام توضح ان العـقل الحـالم ينطوي، في بعض المناسبات في الاقل، على بـعض الخبرات التي ليـست هي في اي حـال من الاحـوال مجرد انعكاسـات للحـيـاة الواعـيـة الشـعـورية او انعكاسات لحياة اليقظة. وهنا يطرأ سؤال: ترى مـا هي بالضـبط طبـيـعة هذا النمط الجديد من الشعور الحالم، وما هو مـعنى اية نشـاطات قـد تزمع الاقـدام عليـها حالما ندرك اننا حالمون واننا في حـالة حلم جـار وأخـد مسراه؟ ثمـة شيء يبـدو مؤكدا، الا وهو أننا نمتلك القـوة التي تمكننا من تغـيير عـالم احـلامنا بطرائق يمكـن ان نطلق عليـها في الحياة الواعية ، حياة اليقظة، مصطلح طرائق (سحرية) magical ، فقد روى لي احـد فـريق دراسـة الاحـلام، مثلا وجد فيه نفسه يسير وسط منظر طبـيـعي مـغطى بالثلج مـتـجـمـد، وكـان يشعر انه يرتجف من شدة البرد. فـخطرت له فكرة، وهو في حالة حلمه ذاك، الفكرة تقول: كم يكون ذلك المنظر جميـلا لو ان الوقت كـان ربيـعـا، وفي ومـضـة ادرك انه انما كـان يحلم فـصـمم على ان يحسبه ربيعا فتخيله كذلك، وان يجعله في عين عقله ربيعا. فما كـان، وهو يلقي بنظرته تلك علي ما هناك من ثلج وجليد، الا أن يكون المنظر اخضر والجـو دافئا، فتحول كل شيء على التوالي إلى ما اراد.

فما كـان هو فاعلا بالضبط يا ترى؟ لو أن هذا الحلم الخاص بتغير المنظر الطبيـعي علي النحـو الموصـوف، كـان قـد حـصل، ولم يكن حلماً شـفـافـا لفسرته طبـعـا كما هو متبع في هذا الكتاب، لفسرته بالقول بأن ما حدث انما هي حـيـاة انفـعـاليـة مـتجمدة وقد تحولت الى حياة دافئة، ولقد عرفت من خـصـوصـية حياته فيها بعد ان هذا هو ما كان قائماً بالفعل، وان هذا ما كان حـاصـلاً في حـياته؛ ولكن السؤال هو: هل كان بمقدوره ان يفعل اي شيء بمـحض ارادته ليـجعل ما حصل في الحلم يحصل بالفعل وليجعل ما حدث يحدث؟ أم أنه كـان وكأنه يحرك عـصـا سـحـرية كـانت في يده تمكنه من أن يتـفـادى مـواجهة برودة كامنة في طبيعته ؟ طالب أخر روى لي انه كلما حلم حلما يرى فـيـه نفـسـه محلقـا، فيدرك على الفور انه انما يحلم وكان يرى ذاته قـادرا على القـيـام خـلال الحلم باعمال وحـركـات بهلوانيـة مـصحوبة بمتعة جـسـدية كبيرة ومستمتعا خلالها بخفة جسمه الحالم. أكان هذا عمل ابداعي ام انه عمل هروبي؟

فـمن المؤكـد ان معظم ما تم من تجارب ممتعة انجزت في هذا المجال تنزع الى المحـافظة على جـعل الحلم مستمرا مع يقين المجرب بأن الشخص النائم هـو في حـالة حلم، ولكن دونما تدخل في حلمـه. وهذه الطريقـة شـبـيـهـة بطريقـة يونج المتـعلقـة بما اسماه ب(الخيال الفعال)، وتقع ضمن اطار الحلم نفـسـه، فـلا يجري احـداث خـيالات مفتعلة لجعل الحلم مستمرا في نشاطه حـتى لحظة اليقظة. فلو أن الطالب الاول من الطلاب الذي ورد ذكر حلمه قـبل قليل، قـد حلم مـرة ثانيـة بمنظر طبيعي متجمد فانه يكون من الممتع حـقـا بالنسبة له لو انه سمح او اذا هو سمح لنفسه، بالاستمرار على السير فـوق الجليـد المتـجمد، لو سمح بذلك واستمر لتبين اين ينتهي به المطاف، في حين يكون مـثل تلمـيذي الثاني في حلمه مثل افراد قبيلة السينوي، يحلق الى مكان ما، بدلاً من الأنغمار في اعمال بهلوانية.

ان تحـري هذه الاحـتمالات يمـثل جزءاً من منهجية جديدة في البحث قد

انتهجتها. وكنت قد ذكرت قبلا انني رأيت سلسلة من الاحلام مرت بي تشير في مجملها الى قلق كان كامنا في اعماق عقلي وان مصدر هذا القلق يعزى الى ما كان يساورني من هواجس لازمتني مردها الى ان ذهني قد ينضب معينه من افكار تمكنني من المضي في بحوث اوفر واغزر، وفي خاتمة سلسلة تلك الاحلام، حلمت كأن (لورد(٤)بومنت)Lord beaumont، زارني وقدم لي طعاما طازجا، وقد فسرت ذلك بأنه توكيد لي نابع من داخلي يطمئنني بان (الرب الخالق سيمنحني رزقا). ان ما منحني اياه الخالق (او ما كان كامنا عندي في اللاشعور الابداعي في اعماقي) كان يتمثل في الحقيقة في سلسلة من الاحلام الشفافة التي اتاحت لي الفرصة لان ابحث ما يترتب من نتائج تأتت من محاولتي القاصدة الرامية الى ان أنتهج في بحوثي في الاحلام منهجا مماثلا لمنهجية يونج او طبقا لخطوات الجشتالت ووفق خطوطها نفسها في تأويل الاحلام. وسيكون هذا موضوع كتاب آخر غير الكتاب الحالي. لكن الحلم الاول من سلسلة الاحلام الشفافة هذه، والذي سأنقله فيما يأتي، كان حقا ملفتا للنظر وجديرا بالملاحظة.

كان الحلم هذا قد اوردت جذوته محادثة جرت، في ليلة سابقة للحلم، بيني وبين صديقة لي مختصة بعلم الاناسة(٦)، وكانت هذه الصديقة قد سمعت حديثا لي في المذياع، فذكرت لي انها تغبطني وتحسدني على قدرتي في تبسيط افكاري وتوصيلها الى الرأي العام، واضافت انها ليس بمقدورها ان تستجمع قواها الفكرية على نحو كاف لتبسيط افكارها على النحو الذي استطيعه أنا. وكنت وقتئذ قد استشفيت من حديثها ان جهودي في نشر معرفتي وشهرتي بين الناس، لم تكن محترمة من الناحية الاكاديمية. كأنها كانت تلغز في كلامها بأنني ابسط ارائي للعامة ولكني اكاديميا لست على ما يرام حسب ظنها الباطن. هكذا ظننت بها. لكن عقلي الشعوري الواعي قد نحى هذا الظن واطرحه جانباً على اساس قاعدة العنب الحصرم(٧) الذي لم تستطع هي الوصول اليه. على انه من الواضح ان عقلي اللاشعوري الباطن

لم يكن في تلك الليلة بالأنا الأعلى المسيطر الاكاديمي في داخلي الماثل (أهو ممثل بالبروفسور ما كبث؟).

حلمت تلك الليلة كأنني كنت اتناول العشاء مع جماعة من النفسانيين المتشددين نوعاً ما المتزمتين، عندما انبرت فجأة امرأة من وراء المائدة فراحت تبادلني اتهامات مليئة باللوم بسبب عزوفي عن عالم النخبة الاكاديمية، والتخلي عن مكانة النخبة والانحدار، حسب اتهامها، الى مستويات متدنية تتمثل في العمل اليومي في صحافة يوم الاحد. وقد اعترضت على اتهامها ذاك، ورددت عليها بان ما قالته كان مجرد مبالغة ومحض مغالاة، وذكرت في معرض ردي ان للانسان العادي الحق بشيء من افكارنا في اقل تقدير، لا سيما انه يدفع ضرائب يذهب قسم منها لمنفعة دعم ما نجريه من بحوث. وعندما بلغ الجدل هذا الحد، فما كان منها الا ان بصقت عبر المائدة وهي تقول: اننا قد جلبنا على المهنة سوء السمعة، وان علينا ان نبقي على البقية الضئيلة الباقية من هيبتنا وسلطتنا، وما الى ذلك من كلام. وقد ثارت ثائرتي، وبلغ مني الغضب حدا واستبد بي الى درجة هممت معها بان أضربها او كدت، وما ان ادركت هذه الرغبة حتى ايقنت بمنتهى الوضوح انني كنت في حالة حلم وانني كان بوسعي ان انفذ تماما ما اردت، ذلك لان الاجسام الحالمة، كما ادركت وقتئذ، لا تتأثر بالاذى ولا بالايذاء.

فما كان مني الا ان مددت قامتي عبر المائدة فامسكت بشعرها ولكمتها في وجهها لكمة اسقطت اسنانها الامامية. وقد حملني الحماس هذا الى الاندفاع في العنف اكثر، ونشوة حماسة لم أشاهد لها في نفسي من قبل مثيلا سحبتها على الغرفة سحبا وهناك طرحتها ارضا ورحت اضرب جسمها بنفس تلك الحماسة ضربا مبرحا، وهي ايضا، بطبيعة الحال، كانت تقاوم وتقاتل، واني حتى هذه الساعة التي ادون فيها وقائع الحلم احس وكأن في وجهي ما يشبه الخدوش والخرمشة من اثار اظافرها، وما فتئت احس كأن

في ظهـري مـا يشـبه آثار مسامير الجزمة. وعودة الى الحلم، ادركت عند ذاك ضـعف قـوتها في النهـاية، ثم انتهى الاقتتال وتوقف. ثم تغير المشهد وانا ما لبـثت في ذلك الحلم نفسـه، اذ وجـدتني في غـرفة اخرى أسير باتجاه تلك المرأة نفسـهـا، وقـد تحولت إلى هناك وهي ترتدي بدلة ممرضة. واثناء سيرنا الواحـدة نحو الاخرى، ذكرت نفسي بان يتعين علي الا اغير احداث حلمي الشـفـاف ذاك تغـييراً سـحريا، بل علي ان ادعها تسير تلقائيا حسب مسارها الطبـيـعي، وان ارقب مـا عسى ان تكون عليه النتائج؟ لاحظت انها اخذت تبـتـسم، ورأيت اسنانها الامـامية قد عادت الى مكانها من الفم؟ ثم افردت لي ذراعـيـهـا على سـعـتـهما تعـبيرا عن ودادتها نحـوي وصـداقـتـهـا لي، ثم احـتضنت كل واحدة منا الاخرى وتعانقنا.

استـيـقظت من حلمي ذاك وانا احس بالراحـة احـسـاسـا كـثيرا، وكأن جـانب الاسـتـحذاء الانساني لدي قد احتج في داخلي على التحكم المسيطرة الاكـاديمـيـة، على نحو قد استحضر ما كان كامنا في داخلي من طاقة، وقد اطلعت هذه الطاقـة باتجاه التكامل- طاقة لم احس قوتها في فكري فحسب، بل سرت حـيـويتـهـا في اوصـال جسمي كله بصورة قلما احسست بمثلها في حياتي من قبل، وهي نادراً ما تحصل من خلال الحوار (البرليزي(٨) -Perl sian)، الذي يتم في حـالة اليـقظة على المسـتـوى اللفظي كـاجـراء شفاهي فـقـط. ان هذا الاكـتـشـاف لما يمكن ان يسـمـى ب(بنيـة الحلم) او هيكل الحلم، الذي يتم من خـلاله التنفـيس عن التـوتر الجسمي من غير ان يكون هناك اي اذى يلحق باي فـرد اخـر، يبدو انه اكتشاف وثيق الصلة بالافكار التي تعـتـقـد بها قـبيلة السينوي، كما أنه يعكس صدى فكرة قديمة غامضة مـؤداها ان الحلم الشـفـاف يمكن ان يمـهـد السـبـيل الى (حـالة رابعـة من حـالات الـوجـود) كـائنـة فـيما وراء الـنوم، بواسطتـهـا يتـمكن المرء من بناء (جـسـد روحـاني) له المقـدرة على الارتقـاء فـوق الحـيـاة الاعـتـيـادية وتجاوز مـداها. وهنا يمكن ان تتـوفـر آفـاق جـذابة بوسـعها ان تفضي الى مزيد من

البحوث، وان الخطوة الاساسية الاولى في هذا المجال بالذات هي ان نستبين كيف ندرب انفسنا ونروضها في حدود قدراتنا لكي نستفيد من الاحلام الشفافة. وهذا شيء شرعنا في نطاق فريقنا الدراسي، بدراسته بالتداخل مع اهتمامنا الواقعي بالاحلام بوصفها وسيلة تمكننا من اماطة العوائق عن دروب الحياة.

احلام التصعيد(٩) (الانتشاء)

منذ سنوات خلت عندما كنت طالبة، رأيت حلما يختلف تمام الاختلاف من حيث النوع عن اية خبرة مرت بي سواء قبل النوم او اثناء اليقظة التامة. اذ رأيت نفسي في ذلك الحلم واقفة في شرفة البيت الذي يسكنه والداي، اطل منها على الحديقة، وكانت الحديقة في اتم إزهارها ورونقها، وفجأة رأيت الحديقة حفلت وملئت بنوع من الحياة جديد كل الجدة. رأيت الازهار والاشجار كأنها حقا تتنفس بطاقة ملحوظة بادية للعيان بوضوح وتشع بالوان غريبة غير مألوفة، فكل شيء بدا وكأنه يرقص في الطبيعة واحسست بان جسمي جعل يشارك الطبيعة الراقصة في رقصها ذاك بدت لي تلك الخبرة انها استمرت دقيقة، او دقيقتين، ثم عادت الحديقة بعد ذلك الى سابق حالتها الطبيعية الاولى، وما كانت عليه من جمال، ثم استيقظت بعد هذا من نومي، لبث هذا الحلم عالقا بذاكرتي على صورة خبرة فريدة واستثنائية خارقة الى وقت متأخر جدا عندما اخذت اشارك في بعض بحوث التجارب الخاصة بالعقاقير المخدرة، وعند ذاك رحت ادرك واحس بان دماغي صار، بطريقة غريبة، ولمدة لحظات قليلة، في حالة اشبه بل مماثلة لتلك الحالة التي يحدثها عقار ال (L.S.D) ،(١٠) ، وعقار الميسكالين(١١)، وكانت حالتي اشبه الى حد ما الحالة التي تحدثها الحشيشة(١٢).

وأبرز اثار هذه العقاقير هو انها تجعل المناظر والمشاهد، وكأنها تتنفس او

تتحرك، وكأنها تنبض بالحياة القوية، مما يجعل اجمل مناظر الطبيعة تبدو وكأنها عديمة الحياة اذا ما قورنت بتلك التي تلوح لمتعاطي تلك المخدرات؛ فتعطي احساسا غير طبيعي كأنه يشارك ما يحيط به من مشاهد اهتزازاتها وحركاتها ورقصاتها. بتعبير اخر، تصبح حالته الوجدانية على غير طبيعتها الحقيقية . انني خبرت ما اسماه تشارلس تارت (CARLES TART)، في كتابه بعنوان: (حالات الشعور المتغيرة)او المتبدلة (ولم يكن منشورا بعد يومذاك)، ب(احلام العلو) او التصعيد، لكن الحالات التي ذكرها في كتابه، كانت تصدر فقط عن اناس يمرون بتلك الخبرات بعد تناولهم عقاقير مخدرة ابان حياتهم اليومية، في حين ان حلمي المذكور كنت قد رأيته ولم اكن قد تناولت شيئا من تلك العقاقير. وهذا من شأنه ان يتيح امكانية تدريب العقل على ان يحقق حالة وجدانية خارقة من غير حاجة الي تناول عقاقير علي الاطلاق.

وقد رأيت عدة احلام من احلام التصعيد هذه، وكان ذلك اثناء وبعد فترة اجراء البحوث والتجارب على اثر العقاقير، وان احد تلك الاحلام ما برحت اتذكره بكل وضوح وانه لما يزل بمثابة لغز بالنسبة لي. ففي هذا الحلم رأيت نفسي في جزيرة وسط صحراء مع عدد من الاصدقاء، وقد هبت علينا عاصفة. وبينما كنا واقفين نراقب لمعان البرق في عرض السماء ونلاحظ امواج المياه وهي ترتطم بالصخور، خطرت على ذهني فكرة هي: (اتمنى لو معي شيء من الحامض)، ان امنيتي تلك قد تحولت الى حقيقة في الحال، وقد رأيتني بلغت مكانا عاليا وانا في حالة الحلم.. وفي اقل من لمح البصر وجدتني ارقص، واومض، وازمجر مع العاصفة، فبدأ لي وكأنني امتزجت بالوجود من حولي، فصرت كأنني جزء منه، في وسطه، في بؤرته، وعندما استعدت حالتي الاصلية في الحلم، التفت الى اصدقائي وقلت لهم: (انكم بحاجة الى حامض لتروا الشيطان وسط العاصفة)، فهزوا رؤوسهم اشارة منهم توحي بفهم ما قصدت، ثم استيقظت من

نومي وانا احس بالنشوة والزهو على نحو يفوق التصور ويتجاوز حدود الاعتقاد، انه احساس بقي حيا في نفسي لمدة عدة ايام. وهنا في هذه الحالة ايضا شاهد اخر يدل على ان حالة التصعيد الوجداني يمكن ان تتحقق من غير حاجة تدعو الي تعاطي العقاقير ففي هذه المرة جاءت في حالة (تصور عقلي) واستحضار صورة عقلية mental image ، لمادة ال(L. s. d.)، وقد نجح التصور العقلي وافلحت الصورة العقلية في استجلاب خبرة من الحلم الوجداني.

لعل انواعا معينة من الاحلام، بما فيها احلام التصعيد، لا ينبغي بالضرورة ان يتم تقييمها في حدود التبصر النفسي او باستعمال تعابير الالهام الابداعي، فنبدأ بان نستمد من تلك الاحلام ما نستمد ونستخلص منها ما يزيد، ثم نروح نعكسه على الحياة الواعية فقط، وانما ينبغي النظر اليها ايضا على أنها خبرات قائمة بذاتها. اذ فما الذي يحول دون ان تحتوي احلام الحياة عندنا، شأنها في هذا شأن حياتنا الواعية، على خبرات هي غايات في ذاتها، وما المانع من ذلك- كما هو الشأن في النظر الى مناظر خلابة او مشاهدة صور جميلة، او الاصغاء الى الموسيقى، او التحدث الى الناس، او الاندماج في محبة الاخرين- فما هو الحائل دون اعتبارها هكذا، بدلا من مجرد عدها وسائل الى شيء اخر؟ وبعد، فان الطبيعة، كانت ولا تزال سخية فيما يتعلق باوقات احلامنا، وبوسعنا بكل تأكيد ان نوفر لانفسنا قليلا من ذلك الوقت من اجل متعة جمالية اصيلة خالصة لا شائبة فيها.

ان ابرز حلم من هذا النوع مررت به بلوته كخبرة بعد ان انتهيت من بحث اجريته بشأن العقاقير وتأثيراتها- وكان ذلك بفترة وجيزة بعد ان وعدني (الرب) بان يلهمني افكارا جديدة. تراءى لي في ذلك الحلم وكأنني استيقظ، واغادر فراشي، واتجول في ارجاد الغرفة، كل شيء كان يبدو طبيعيا وعلى ما يرام، باستثناء وجود شباك كبير من جهة الجدار الداخلي، وهذا التفاوت جعلني ادرك بانني لست في حالة يقظة، وانما كنت احلم.

حدثت نفسي، بأن استذكر نصيحتي التي طالما اسديتها لسواي بضرورة مجاراة مثل هذه الاحلام، دونما محاولة لمعالجة وتناول الاشياء نفسها او المساس بها، وحدثت نفسي خلال ذلك بان انظر الى الخارج من خلال ذلك الشباك الذي كنت ادرك واعرف تماما انه لا وجود له في الواقع، فشعرت وانا في احداث الحلم باحساس معين يبعث على الضحك والسخف، كل هذا وانا في وضعي ذلك. وان ما اثار دهشتي، وانا في الحلم، هو بدلا من النظر عبر ذلك الشباك الى غفوة نوم ابنتي كما كنت اتوقع، وجدتني اجيل النظر واحدق عبر ارض خضراء فسيحة مغطاة كلها بازهار الاقحوان، وهي تمتد على مرمى البصر بما يبدو وكأنها غابة وراءها، تتخللها ازهار زرقاء اللون جرسية الشكل.

بقيت في موقفي ذاك دقائق قليلة مشدوهة، وكأني فقدت الاحساس بالزمان والمكان، شعرت وكأنني واقفة على شباك من شبابيك البيوت الانجليزية الجميلة وقد زينته يد صناع وسوت ارضه بالخضرة والنفاسة. وعندما حولت نفسي اخيرا من تلك النافذة والتفت الى الوراء وجدت غرفة ابنتي تماما كما هي عليه دائما، وتساءلت مع نفسي عما اذا كنت في حقيقة الامر في حالة جوال(١٣)، او لم اكن في الواقع حالمة. ولما اعتزمت ان أتحقق من مدى شفافيتي تلك، رحت الطم الفراش والكمه في محاولة مني لاتأكد عما اذا كان ملموسا حقا وكما هو عليه في دنيا اليقظة وهذا ما تأكدت منه. ثم اني رأيت زوجي في الفراش نائما بجنبي، وقد تساءلت: ترى اي شيء يشبه جسم الانسان تماما وهو في حالة الحلم؟ وكيف يمكن ان يكون؟ كل هذا جرى خلال احداث الحلم. وقد رحت اململه ليستيقظ. وكنت اثناء ذلك بالذات اتساءل بجدية تامة عما اذا لم اكن في الحقيقة مستيقظة وفي تمام وعي. وفجأة وجدت نفسي متكورة في الفراش وحدي، وقد وجدت ان زوجي كان قد غادر الفراش منذ ساعة في الاقل وانه كان قد ذهب الى عمله، وكان حرصي هذا نابعا من معرفتي بمواعيد

مـغادرته كل يوم. هذا كله جرى وانا في حالة حلم.

ومن ثم داخلني احـسـاس اشد ما يكون غرابة. اذ ان دفقات من الطاقة والحـيـوية قـد سرت في اوصـالي وانسـابت في ثنايا جـسـمي كله، ثم ولجت ابـواب التـصـعـيـد، وخـلاله انتـقلت الى نوع من انواع الرحلة الداخليـة لا يـدرك مـغـزاها الا اولئك الذين خبروا بانفـسـهـم مـا تحـدثه لهم العـقـاقير المنشطة. والمنبـهـة، كنت في الواقع احس بجـسـمي يتحرك بهذه الطاقة وان كنت اعـرف تمامـا اني كنت نائمـة. فـمن بعـيـد كنت اسـمع وقع طرقـات الـبنائين في الطابق التـحـتـاني (تحت الارض تميـيـزا له عن الطابق الارضي)، وعلى مـسـافـات كنت اقـدر ان اسمع نباح الكلب في حديقة الجيران، وعلى بعـد كان بمقدوري ان اسمع صوت حركة السير البعيد، واحسست بعاطفة جـيـاشـة ازاء جميع البشر، وتعـاطف معهم لعدم قدرتهم على مشاركتهم اياي خبرتي الغـريبـة العـجـيـبـة تلك خـلال تلك اللحظات وكما وصـفت. هذه الاحـداث قـد تمت وانا في حلم الانتـشاء ذاك. في هذه اللحظة دخل زوجي الغـرفـة حـاملا القهوة واني قد استيقظت حقا في هذه اللحظة. الآن عرفت انني كنت في حـالة حلم ورأيت خـلاله مـا رأيت، وكما وصـفت بها في ذلك النظر الى سـاعتي وتقدير الوقت. ان (الرب الخالق) قد هيأ لي حلما لم اسمع به مـوصـوفـا ولا بمـثله من قـبل- انها لخبرة خـارقـة لا يسعني الا ان انعتها بانها حـالة حلم من احلام التصعيد والانتشاء الشفافة- حلم حري بان يفتح آفـاقـاً جـديدة لمزيد من البـحـوث هي بكل مـعنى الكلمة (خارج مجال هذا العـالم). ولقد لاح لي وكأن التاريخ قد بدأ في ذلك الصباح.

لكن (الغـرابة كل الغـرابة)، كما كـانت تقـول (اليس)، جـاءت عندمـا رويـت هـذه الخبرة الى زوجي، اذ فما كـان منه الا ان ترك الغـرفـة لحظات مـعـدودة ليـعود بعدها في الحال، وفي يده ورقة مدون عليها حلمه الخاص به وكـان قـد رآه في تلك الليلة ايضا. قد حصل له قبل حلمي بحوالي ساعات تقـريبـا، وانه رأى فـيـه بانني هزته ليـستيقظ لانه كان نائما في الجهة المغايرة

من الفـراش وانه لاحظ في حلمـه شباكا على الجدار في المكان الغلط، وليس في مكانه المعـهـود، وعندمـا لاحظ هذا التناقض، استيقظ بالفعل من نومه، وقـد دون حـلمـه الذي رآه على قطعـة الورق تلك التي جـاءني بها، خبرات مـن هـذا الـنوع تبـدو انها تأخـذنا من عـالمنا الاعـتيـادي المألوف باحـداثه المحـسـوسـة هذه، فـتنقلنا هذه الخبرات الى آفـاق جديدة تماما حيث تتوفر، من بين مـا تتـوفـر، ادراكـات خـارقـة تتـجاوز مدى الحواس المعروفة. وهنا يجـدّ سـؤال هـو : ايـمـكـن ان يكون الادراك الحسي الخـارق الماورائي(١٤) (ESP)، والذي يتـعـذر الحصول عليه في المختبر، هو ما يرتبط على نحو ما بهذه الحـالات الشـعـورية غير الاعـتيادية؟ وما عسى ان تخبرنا هذه الحالات الشـعـورية عن انفسنا وبما نحن عليه، وعن العالم الذي نعيش فيه، والافاق المرجـوة لحـيـاة ارحب؟ ان بحـثي الحـالي موجه للتنقيب عن اجابات لبعض هذه الاسئلة في الاقل لكن تلك، كما قـالت (اليس)، يجب ان تكون قـصـة اخرى.

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) أحلام اليقظة reverie أو daydreams : هو إستغراق في التفكير قد يكون نافعاً إذا ما أستتلى ما يفيد حياة الفرد، ولكن بشرط الا ينطوي على ما يبعد المرء عن دنيا الواقع....... (المترجم).

(٢) الأناسة وتترجم أحياناً علم الأنسان الحضاري (المترجم).

(٣) فيما أوردته المؤلفة عن سيرورة قبيلة السينوي هذه في تربية أبنائها عظة عميقة من ذلك مثلاً أن القبيلة بفطرتها وبحكم تراكم خبرتها أفادت من الأحلام في تعليم أبنائها كيف يتجنبون مخاوف الكوابيس، كما علمتهم كيف يدمجون في حضارة القبيلة كل جديد يجدّ في حياتهم الواعية كما هي الحال في أحلامهم التي تعكس في الغالب الجوانب اللاشعورية. (المترجم).

(٤) لورد Lord تعني عضواً في مجلس اللوردات في انكلترا، وتعني الخالق سبحانه، وهذا مما حمل المؤلفة على تفسير حلمها بأنه ينبئها بأنفراج فكري . (المترجم).

(٦) علم الاناسة أو الأنسنة والأنثروبولوجيا كلها تعني علم الأنسان الحضاري كما في الهامش (٢). (المترجم).

(٧) المثل العربي المألوف المستمد من القصة المألوفة (المترجم).

(٨) نسبة إلى (بيرلز) والنفساني المهتم بتفسير الأحلام والمؤلفة تشير إليه بأستمرار في ثنايا كتابها هذا، فهو ينتهج في أسلوبه المنهج الجشتالتي في علم النفس .... (المترجم).

(٩) هذه ترجمة لكلمة High وقد آثرت ترجمتها بالتصعيد لأن هذا نمط جديد يبحث أول مرة في مجال الأحلام، والتصعيد يختلف

عن التسامي الذي ينطوي على الجانب الشعوري وعلى الوعي التام. أما التصعيد فيتضمن معنى الأنتشاء الروحي شعورياً ولا شعورياً........ (المترجم) .

(١٠) L.S.D حروف مختصرة من Lysergic Diethylemide ويعني هذا التعبير ثاني أثيل أمين حامض الليسرجيك، وهو عقار يسبب الهلوسة، ولهذا يسمى عقار الهلوسة (المترجم).

(١١) الميسكالين تنتج عنه إهتلاسات غير طبيعية ويترتب عليه تغيير في الأنتباه واضطراب في الحالة الوجدانية......... (المترجم) .

(١٢) الحشيشة Cannabis مخدر يتسبب في إحداث آثار سيكولوجية .... (المترجم).

(١٣) الجوال (بضم الجيم) أو النوام (بضم النون) أو الروبصة، أو السرنمة، كلها تعني المشي أثناء النوم (المترجم).

(١٤) ويطلق عليه علم النفس الميتافيزيقي، أو ما ينجم عنه من ادراكات ميتافيزيقية، ويسمى كذلك الباراسيكولوجي، وهو علم له أسسه العلمية وجوانبه الروحية ..... (المترجم).

ملاحق



الملحق (أ)

اقتراحات لاستذكار الاحلام وتسجيلها

١- احتفظ دائما بجنب فراشك بورقة وقلم- بل ولعل من الافضل ان تحتفظ بمسجل قريبا منك.

٢- تأكد ان ثمة ضوءا او مصباح بطارية يدويا موجود على مقربة منك يمكنك انارته عند الحاجة في حالة تدوين حلمك او تسجيله.

٣- قبل استغراقك في النوم اوح الى نفسك عدة مرات ايحاءا من قبيل التالي مثلا: (ساستيقظ من حلمي في هذه الليلة، ساستيقظ بعد ان ارى حلما)، او اي ايحاء اخر تراه مناسبا وفق الخطوط المذكورة.

٤- لعل الذين لا يستيقظون بعد احلامهم دائمًا، او لا يستذكرون احلامهم باستمرار، وهم بحاجة الى عون اضافي وذلك باستخدام اسلوب ساعة التنبيه. وفي هذه اتبع ما يلي: وقت منبه الشاعة بمقدار ساعتين بعد استسلامك للنوم، ثم مدد هذا التوقيت بمقدار ساعتين بعد كل مرة تستيقظ بها. اجعل هذه العملية تستمر طول الليل باكمله، واعلم انك لا تضمن الاستيقاظ عندما تكون في حالة فترات ال (REM)، وهي (فترات الحركات السريعة للعين) وهي فترات من النوم العميق. ولكنك، على اية حال، ستضمن الاستيقاظ مرة او مرتين خلال الليلة الواحدة، إذا انت اتبعت الاشارات المتقدمة واذا كانت فكرة الاستيقاظ لا تنسجم وما تريد، فعليك ان توقت المنبه على وقت متأخر من وقت نومك، (فبدلا من توقيت المنبه لينبهك بعد ساعتين، وقته لينبهك بعد ٣-٤ ساعات مثلا...)، وذلك لان فترة(REM) هذه تكون اطول كلما اقترب الصباح، وبهذه الطريقة بوسعك ان تضمن حالة استيقاظ واحدة في الاقل، قبل حلول فترة

(REM)وبهذا يأمل المرء ان يستيقظ وفي ذهنه حلم جيد.

٥- اذا ما استيقظت خلال الليل، سواء أكان استيقاظك هذا تلقائيا ام بسبب منبه الساعة، وفي ذهنك حلم ما، فعليك ان تجلس في فراشك بهدوء وسكينة، ثم اسرج الضياء الخافت، اذ انه من الاهمية بمكان ان لا تقلقل نفسك بقوة بقصد جلب الصحوة التامة لنفسك، لان هذا النوع من العمل يمحو ويطمس ذاكرة الحالم ويؤدي الى تشتيت لمحات الحلم، اي ان يمحو ما يكون عالقا لفوره في الذاكرة. اذ ان العنف والقوة الجسمية والفكرية تطغى عليه فتبدد تركيزه. (بعضهم يجدونه من المفيد الجلوس في الفراش واغماض العينين، ومن ثم البدء باستذكار الحلم واستحضاره في الذاكرة رويدا رويدا)

٦- ابدأ حالا بكتابة الحلم او سجله مباشرة على شريط التسجيل، وليكن ذلك باسهاب وباوسع تفصيل، حاول الا تتوانى، والا تتكاسل او تسلم نفسك الى اغفاءة خفيفة، لانك ان فعلت ذلك فان حلمك سيختفي من معالم الذاكرة.

٧- استجمع ما تستطيع استجماعه من الارتباطات والاقترانات التي تطرأ على ذهنك فيمكن ان تأخذ في الأعتبار، مثلا، ارتباط الحلم بما سبقه من احداث ذلك اليوم، حاول نفسك: ما الذي يمكن ان يعنيه الحلم للوهلة الاولى، ويلزمك ان تفتش وتنقّب في ثنايا احداث اليوم السابق، وما عسى ان يكون قد أوضحه، ابحث في تضاعيف أحاسيسك وما هي عليه خلال الحلم وبعده مباشرة، تذكر اي شيء تحسب انه ذو اهمية، ستجد ان هذه الاسس كم هي نافعة ومجدية، عندما تشرع بدراسة الحلم في اليوم التالي، وسترى كم الامر مدهش.

٨- عندما تستيقظ من نومك صباحا وفي ذهنك حلم ما، فلا تقفز رأسا من فراشك، ظنا منك بانك تستطيع التفكير به على مهل خلال النهار وانت متأهب تماما لمزاولة عملك. الغريب في الامر هو انك ستخسر تذكر

الحلم، فعليك، اذن، بتدوين الحلم او تسجيله على شريط التسجيل وانت لما تزل بعد في فراشك، ثم أضف اية ارتباطات مناسبة لها صلة بالموضوع كما مر وصف ذلك انفا.

٩- يفضل ان تعكف على دراسة الحلم مباشرة بعد حدوث الحلم، وذلك باتباع الطريقة التي وصفتها في هذا الكتاب- ويتم ذلك بتمحيص الحقائق الموضوعية اول الامر والتحقق عما اذا كنت قد اغفلت قسما منها خلال فترة اليقظة وثانيا، عامله وكأنه مرآة ترى خلالها نفسك ومواقف حياتك، واخيرا حاول ان تمثله تمثيلا طبقا للاسس والقواعد الجشتالتية، وذلك لكي تكشف عما هنالك من متناقضات مستترة في طوايا شخصيتك، ومن ثم يجديك ان تحاول تحويل المتناقضات تلك الى عناصر متكاملة.

١٠- احتفظ باحلامك مضافا اليها تأويلها وتفسيرها في ملف خاص او في دفتر معد لهذا الغرض، وان تكون مؤرخة على نحو متسلسل ومنظم، نظرا الى ان لسلسلة الاحلام المتتابعة اهمية نافعة في تسليط الضوء على الاحلام المفرحة وفي توضيح ما يطرأ على المرء من تقدم سيكولوجي داخلي.

١١- اذا وجدت ان احلامك ما فتئت تتهرب منك وتتفاداك، او تراوغك، فاتبع طريقة الجشتالت وذلك بتوحية ذاتية اليها مثل لماذا هي تتمنع عليك حسبما هو موصوف في الفصل السابع من هذا الكتاب.

١٢- واذا ما اخفق هذا الاسلوب، فحاول اطلاق الخيال المتضمن في الحياة الواعية عند اليقظة، فتطلق لفكرك العنان للامساك بما يجري فيما تحت سطح العقل الشعوري، اذ ان تحليق الخيال من شأنه استقطاب قوى العقل الواعي، ولكن هذا طبقا لما هو موصوف في الملحق (ب) التالي. اذا واظبت على طريقة التحليق الخيالي هذه، فانك واجد لا ريب ان المنبه لقواك الداخلية سيعيد اليك تدريجيا احلامك المفقودة.



الملحق (ب)
خيالات اليقظة : طريقة لاولئك الذين يجدون صعوبة في استذكار الاحلام

وفر ما يناهز نصف الساعة تقريبا من الوقت خلال ساعات اليقظة للتجربة التالية، وذلك عندما تكون مستقرا والا تتعرض ابان ذلك لاحتمالات من الازعاجات:

استرخ على كرسي او في الفراش ودع عقلك يتجول بحرية تامة ويحلق بخيالاته، واذا كان لديك مسجل، فاعمل على ان تتحدث بافكارك بشكل منتظم ليتم تسجيلها فيه. ابدأ باي شيء يخطر على بالك مهما كان سواء اكان شخصا ام موقفا من مواقف ذلك اليوم- وعندما تخطر لك صورة واضحة او يعن لك خيال سجله بصوتك على المسجل او دونه كتابة على الفور. وغالبا ما تكون اول صورة تطرأ على ذهنك ذات اهمية خاصة فيما يتعلق ببعض الصراعات الجارية في حياتك اليومية: وهنا اقتبس مثالا استقيه من حقائق فريق الدراسة التي اقوم باجراء تجاربي عليه وبين افراده: ها هنا ليز (Liz) تستلقي مسترخية وهي بكامل راحتها، على اريكة الفحص المفروشة فوق ارضية الغرفة، تنطلق تتحدث فتقول: (انا الآن مرة اخرى موجودة في الريف بالقرب من منزل ابوي. آخر مرة كنت فيها هناك كان الوقت خريفا وكان الجو رائقا وكنت اتمشى في الغابة. واني لاتذكر شجرة قائمة هناك جذعها وجذورها اشبه بهيئة رجل هرم تغضنت ملامحه وتجعدت تقاسيمه، الى حد انني كنت على وشك ان اقف لاتحدث اليها).

وعند هذا القدر، فما كان مني الا ان تدخلت فطلبت من (ليز) ان تتوقف عن الاسترسال في تداعي كلامها وتوتره. وان توجه كلامها الى الشجرة مباشرة، فاعتدلت في جلستها وانشأت تقول:

ليز: مسكينة انت ايتها الشجرة الشائخة تبدو عليك حيرة تعريك وانت ساخرة مستنفدة. هل انت اياي تلومين على خطأ اتيته او لذنب اقترفته؟

الشجرة: (وقد غيرت ليز مكانها في الجهة المعاكسة المقابلة لمكانها الذي تحدثت منه قبل لحظات، وجعلت تتحدث بلسان الشجرة)" . حسن، لا اعنيك علي وجه اليقين، وانما اعني الناس الذين هم هناك، فأنت واحدة منهم وتمثلينهم. كان من المألوف ان يكون المكان هنا بين هذه الاشجار هادئا مطمئنا رائقا، لكن الناس في هذه الايام يأتون في صحوة النهار فيفسدون كل شيء. واني لابصر بام عيني ان جمة(١) من بنات جنسي وجميات(٢) من الاشجار قد اختفت فتوارت عن الانتظار، فما الذي طحا(٣) هذا العالم وما الذي دهاه؟

ليز: تكاثر الناس في هذه الدنيا فامسوا اكثر مما كانوا عليه من قبل. عن الحواضر(٤) ارتحلوا وعلى حرمات الريف تجاوزوا واعتدوا، إنهم يبنون لانفسهم منتجعات ليروحوا عن انفسهم فيها وليعيشوا فيها. وهذا بعض ما اودى بحياة خليلاتك اللاتي تذكرين، انهن قد اجتزت اصولهن من فوق الارض ليخلو المكان لمساكن تشاد للبشر من الانام، ولعلك في قابل الايام ستكونين انت المستهدفة مثل غيرك من هذه الآجام.

الشجرة: يا الهي، يا الهي، ما عساي ان افعل، ماذا انا فاعلة؟ لا اريد ان اجتز من على وجه الارض اجتزازا، ها انني قد نموت فوق هذه الارض وعليها انتصبت منذ قرون كما ترين، افلا تقدرين ان تمدي يد العون لي فتساعدين.

ليز: حسن، انني لا ادري، فلولا انك علي هذا الضرب في اعماق الارض راسخة لاقتلعتك وفي مكان اخر غرستك، انك ماثل جميل واصلك في جوف الارض أثيل. فما عليك الا بان تضربي في اغوار هذه التربة بجذورك واصولك (وقفة تأمل صغيرة). وهذه هي المشكلة مع اخرين امثالك، ، فانت بثبات في ابعاد الارض تتجذرين، تحسبا منك لما

تـريدين تأمنين، وتناسـيت انك رويدا رويدا بمكانك تتـشبـثين، فـلا على الحـركـة انت تقـدرين ولا من منبـتك بعـد تتـزحـزحين، وحين يدهمك هذا الخـطر فـانك من مـسـتـقـرك هذا لا تريمين. (وقـفـة تأمل قـصيرة)؛ انك لـتـعـلـمين ان جميع شرائع السماء من هذا قـد حـذرت وانذرت- وها انت في مـفـاوز الارض قـد ارسيت قيمك، لو انك كنت مثلي فابقيت جذورك فوق وجـه الارض سـابحـة او في الاقل على سطحـهـا سـارحـة، لامنت الغـوائل ولتـحـاشـيت العـثـرات عندمـا تستجد الضرورات، حقا انها منك لاحدى الهـنات والزلات، واني لاحـسب ان عليك الآن ان تتلقي نصـيـبك من ذلك مثلما هو الانسان.

نلاحظ في هذه المحـادثة او المحـاورة ان الجـانب المتـحكم المسـيطر (الانا الاعلى او الذات العليا)، يتجلى فيها احكامه على الجانب المستكين (الذات)، المنفـذ المتلقي، وان هذا ليبدو واضحا، وليز ما برحت تتحول من اريكة الى اخرى، تابعت من موقعها في كل من الاريكتين تقول:

الشـجـرة: بيـد اني شجرة ومن احكام طبيعتي ان اضرب بجذوري بعيدا في اغـوار الارض وانك كما اظن تنسين اني علي اية حـال سـامـقـة اتطلع الى العـلا نحـو السماء، واني كـذلك اوفـر عشاشا للطير وملاذا لها من كل اذى ومـن كل نفس، واني اغـذو الحشرات من كل جنس... واني مع هذا وذاك ابدو جد جميلة.

ليـز: اجل، اجل، اننا لكل هذا مدركون، لكن الناس اكثر منك في هذه الحـيـاة اهميـة، ولو اني اطلق لي حق الخيار، لكي اختار بين الايواء والاكساء واطعـام ذوي الحاجة من بني أدم وحواء، وبين الابقاء على ديمومة حياتك، فاني لانزع الى التضحية باستنباتك.

الشـجـرة: لكن الناس لا يسـعهم العيش بفقدي وغيابي، فانا احيل ثاني اكـسـيـد الكربون الى اوكـسـجين لتتنفسوه انتم البشر وبه تحيون. تذكروا ولا تنسـوا مـا حل بكم يوم اقـتطعـتم واجـتـثـتم من قارة افريقية الاشجار، لقد

عـدت عليكم بعـدها سوافي الرمال وزحفت نحوكم عوادي الصحارى.

ليـز: اني من هذا على يقين، واصبـحنا نحن بني الانسان- لناصية العلم الان مـالـكـين، وانـنـا اليـوم نملك القـدرة لصنع ادوات بواسطتـهـا نتنفس الاوكـسجـين، وان الـبـشر فـوق الـقـمـر، عما قـريـب لـسـوف يـصنعـونه (الاوكـسجـين) حـيـث لا شـجـر هـناك يستنبت، بل يجب ان تزولي انت وتختـفـين من هذا الوجـود، وان للانسـان ان يبـقى ويتطور، اذ لا نسـتطيع ارجـاع عقارب الساعة الى الوراء.

الشـجـرة: اني لا احب ان اعـرقل مـا انتم عليـه سـائرون، وما انتم فيه مـتطورون، ومع هذا فـاني لمستـيـقنة من اني لا زلت لي في حـياتكم مكان، طالما انا شجرة نابتة اطاول كرور الزمان.

كـان الجـانب المستكين (الأنا) لا يدافع الا دفاعا فاترا متوانيا، كما يبدو، وهنا سألت ليـز اذا كـان بمـقـدورها ان تؤدي دورا على نحـو انشط وبشكل افـضل. فـقـد سألتـهـا مثلا ماذا بوسعها ان تفعل ازاء تهديد الجانب المسيطر (الانا الاعلى) وعليـهـا ان تقوم بشيء ما، بدلا من مجرد المرافعة عن وجوده، وعندئذ فكرت ليز برهة ثم انشأت تقول:

ليـز: ها انني قـد استذكرت لتوي قصة من ايام حياتي البيتية ابان بواكير طفـولتي الاولى. اتذكـر يوم كنا انا وامي وخـالتي اليـزابيث، واقـفـات امـام النافـذة نطل من خـلالها على جنينة البـيت الخلفـية، وهناك في نهايتها كانت تنتـصب شـجرة عملاقة باسقة جميلة، وكانت خالتي تقول يجب قطعها لانها تحـجب مـا وراءها من منظر ريفي لطيف. لان تلك الشـجـرة كانت احب صـديقة الى نفسي، فقد كنت اتحدث اليها، احتضنها، ابثها كل ما في نفسي من بنات صـدري(٥) فـهي مختزن اسراري، وهي بالنسبة لي بمثابة مواقيت، فـمن لون اوراقـهـا اميـز مـتى يحل الربيع ومتى يحين الخريف، ودائماً كانت محـاطـة بالطير محوما حـواليـهـا. وهي دائماً كـانت هناك لا تريم اراها مـتى أطـللت من النافـذة نحـوها. فكأنها كـانت دائما بانتظاري، فـهي لا تشـبـه

صديقاتي من جنسي اللواتي كن في حركة دائبة بين غدوٍ ورواح. انطلق انا صوب الشجرة محذرة اياها من نوايا خالتي، فتجيبني صديقتي تلك الشجرة تقول: (لا تقلقي ولاقوال الناس لا تأبهي، فان أي انسان يريد ان ينال مني او حاول ان يؤذيني، فسادعو الطبيعة كلها بجميع مخلوقاتها، لتتداعى عليه، وعلى رأسه تؤلب مخبثاتها، ان الاناسي لينسون او يتناوسون ان جذوري ضارية في جوف الارض لوطيدة. وان وشائجي بكل ما فيها لاكيدة، بما في هذا العجماوات والحشرات، الطير تبتني بين اغصاني اكنانها، فهي ستهب الى نجدتي، ان طالني احد بسوء، وان جدت الضرورة، فاستنجد بالشمس والريح والاعاصير، لتقيني شر مهوى الفأس الحاطمة وتطلعا نحو السماء، وفي داخلي تختبيء اسرار كلها تزخر بالخير والنماء، وان هم اجترأوا وحاولوا احتطابي، فانهم بفعلهم هذا، وقبل تدميري اولا، انما يجلبون لانفسهم البوائق)(٦).

لقد بدأ هذا الاسلوب واثبت انه خير اختراق يمكن التوصل من خلاله الي خفايا الفعل وما يكمن فيه هناك من كوامن.

ومما يبهر افراد فريق الدراسة هو ان (ليز) قد عادت بذاكرتها الى بواكير طفولتها لتستكشف قوة الشجرة. وانها في مكان ما، خلال رحلتها عبر مسيرة حياتها، وبخاصة فيما بين مرحلتي الطفولة وسن الرشد، كانت قد افتقدت شيئا ما، يمثل عنصر القوة، وانها راحت الان تستذكر موقف خالتها (اليزابيث) وتتمثله في نفسها، وانها سميت باسم خالتها (٧). وقد فسرت ليز خيالها المشبوب ذاك، والذي ضمنته الحوار المذكور، بانه يقع ضمن حدود الصراع القائم بين الميل الى اندماج الطبيعة له بهجته ومتعته ومسراته، وبين ما هو كائن بالفعل في الحياة الفيزيقية المادية العامة، والتي كانت قد تلذذتها اثناء ايام طفولتها، وما شاب لذة طفولتها تلك وما رافقها من تقاليد صارمة تمسكت بها اسرتها في تنشئة ابنتها، يوم تطلب منها اخضاع نوازع الجسد البريئة لمتطلبات الروح المتسامية التي لا يدرك كنهها

دفعة واحدة ولا سيما بالنسبة للناشئين الاغرار.

فهي- ليز- وان كانت منذ سنين كثيرة مضت قد اعرضت كشحا(٨) من الناحية الشعورية عما تلتزم به الطقوس المعتادة المتزمتة، بيد انها ما برحت تساورها شكوك بشأن طبيعة الانسان البهيمية في الحياة. فهي قد عوضت عما كانت قد جانبت من جوانب متزمتة بما حققته من تقدم علمي وتكنولوجي، ومضت تصر على ان الإنسان يجب ان يطرد في تقدمه والا تكون متطلبات الجسد عوائق تحولِ دون ما يصبو اليه من تطور وتقدم، وكان واضحا خلال فترات خيالها ان الجانب المسيطر عندها كان هو المهيمن المستحوذ، وان الجانب المستكين المنفذ لديها، فمثلا بالشجرة، كان يبدو وكأنه في خطر مريع فظيع، خطر يتهدده بالاقتلاع، ان الخيال عندها قد انطوى على عنصر الحذر والتحذير وعلى رسالة الوجود والكينونة والبقاء، وبعبارة اخرى، فان تأويل الامر هو كالتالي: إذا ما فصمت ليز صلتها بالارض، فان طبيعتها (الحيوانية)، وطبيعتها (الجوهرية)، برمتها ستنقلب عليها فتثور في داخلها وتدمرها. لكنها اذا رسخت اقدامها بقوة لا تزداد قوة ومتعة وجمالا كما الشجرة فحسب، بل انها سترتفع ايضا فوق الارض وتسمق طولا لتلامس باطراف اصابعها مداني السماء.

ان منبهات الخيال، مثلها مثل منبهات الاحلام، تكمن كلها في احداث اليوم الذي يمر به المرء، ففي صباح ذلك اليوم بالذات كانت ليز تقرأ في كتاب هو من احسن كتب الفن توفلر (Alvin Toffler) وهو: صدمة المستقبل Future shock، فهو افضل كتبه مبيعا، وفيه يرسم المؤلف صورة لزمن آت يتطور فيه النوع البشري تطورا سريعا وسيبلغ عصرا له اهميته وتحولاته، ولكن لا علاقات فيه تبقى قائمة ولا مواقف في الحياة تلبث مستقرة، وستبقى الحال علي ذلك المنوال ردحا من الزمن طويلا، وان اطروحته التي يطرحها الفن توفلر في كتابه هي اننا لن نتمكن من ارجاع الزمن الى الوراء، وانه يتعين علينا ان نسير باتجاه الثورة

التكنولوجية، وانه يلزمنا ان نتعلم كيف نواكب الاحوال والظروف الجديدة القادمة، وقد ذكرت ليز ان المؤلف قد احسن مناقشة الحالة وانها احست انها توافقه في ما ذهب أليه من اراء، ومع هذا فقد بقيت ولديها شعور بعدم الراحة واحساس بالضياع يتضح من هذا ان الكتاب قد اثار في داخلها صوت الجانب المتحكم المسيطر (ممثلا بالشجرة) وان احساسها هذا اخذ يتفاعل في ثنايا ذاتها مشحونا بمختلف مشاعر التهديد والوعيد الذي ينتظر العالم، وهذه كلها افكار تضمنها كتاب توفلر. وحينها انطلق الخيال عندها وحلق، لم يكن بوسعه ان يجد في الحياة الطبيعية ما هو انسب من الشجرة رمزا للقوة والثبات والاستقرار، والامر من هذه المثابة انما هو شديد الشبه بالحلم وبما يكتنفه من ظروف تتسبب في تنبيه احداثه، والرسالة، بطبيعة الحال، موجهة الى نفس ليز وليس الى العالم، ولكننا جميعا- نحن بني البشر- لدينا احساس بان عالمنا هذا سيكون امتع ما يمكن ان يكون وسيزدهر، اذا نحن تفادينا الأنغمار في تدميره عن طريق تحطم حياتنا الطبيعية مستقبلا.

ثمة خيالات اخرى افضى بها افراد اخرون من فريق الدراسة ممن كانت لديهم صعوبات في استعادة احلامهم. بما فيها احلام تخص رجال المرور وهم يلصقون اوراق الغرامات على السيارة المخالفة، وما هناك من احلام وما يحصل فيها من شجار بين الابوين، ومع ذكريات عن اعتلاء سطح المنزل والاطلال منه على دار مقابلة، ففي حالة رجل المرور، مثلا، فان الخيال فيه يمثل الجانب المسيطر في الذات العليا الذي يرفض الاستجابة من منطلق مسؤولية الامتثال الى الامر الرادع، فالجانب المسيطر في الحلم يقول انما انا رجل مرور انفذ اوامر سلطة عليا، هذا في حالة الخيال الاول، اما في حالة الخيال الثاني الخاص بالشجار بين الابوين، فانه ينزع الى تبيان الجانب المتحكم المهيمن (الام) وهو يوجه لوما الى الجانب المنفذ (الاب) لضعفه وتراخيه واستخذائه اما الخيال الثالث المتعلق بارتقاء اعلى البيت

والـنظر منه الى البـيت المقـابل، فـانه وان كـان يكشف عما قـد يكون عليـه الانسـان الناشيء المتـحلل من القـيم الضرورية وقـد شرع يطل من على الاسرة الموسرة المرفـهـة القـاطنة في المنزل المقـابل، مع الايقان بهذا كله، فانه سرعان مـا اتضح ان في اللاشـعور هناك كانت نظرة الى تلك الاسرة وما تنعم به من رفـاهة، وهذا باكـمله مجتمعا يمثل توقان الشباب وسعيه للتخلص من سلطة الابوين.

مـهما تكن عليه الخيالات من قوة كاشفة لما هناك من مشاعر كامنة. فانها ليـست في قـوتها تمامـا بمـستوى جودة الاحلام التي تجعلنا على بينة مما هناك من احـاسـيس خـافـية وصراعات مختبئة غير واضحة تظهر عندما ينام المرء، ذلك لان محاذير الشـعـور الواعي ومـراقبـته تسترخي فيذهب العقل منطلقا عبر مسـالك غير ممهدة عادة، في حين ان الخيالات التي تطرأ في الغالب في حـالة اليـقظة، تكون بالضرورة اكثر انتظاما وتماسكا لان العقل الواعي وراء توجيـهـهـا، ورغم هذا وذاك، فـان الخيال البديل له جدواه، وفائدته تتمثل فـيما اذا حـاول الحلم الروغان ليتحاشى الامساك به والتمكن منه، اي عندما يـنسـى او عـلى وشـك ان ينسى. وللخـيـال في مـعظم الاحـيـان تأثير على الشخص الذي لا يستطيع تذكر احلامه، فيكون تأثير الخيال هنا اشبه بتأثير وجـود الـطفل المتـبنى على حـيـاة ام لا تسـتطيع الانجـاب او لم تسـتطع ان تنجب ابدا. بتـعـبير اخـر، ان الخـيـال ينبه ويساعد، بطريقة غامضة، على اسـتـذكـار الاحـلام، ولعل ذلك يتم بسـبب الانتبـاه الزائد المضاف، الذي يوجه اعماق الحياة الداخلية لدى الانسان.

الهوامش

(١) الجـمة (بضم الجيم وتشديد الميم): الكثرة . . . . . (المترجم)

(٢) جميات رسي: من بنات جنسي العـزيزات المقربات (المترجم)

(٣) طحاه: اصابه، دهاه. . . . (المترجم)

(٤) جمع مـفرده حاضرة ويراد بها الحواضر المدن. . . . (المترجم)

(٦) جمع بائقة: ويراد بها الهلاك والشر (المترجم)

(٧) التـنـويـه بـان الاسم (ليـز) هو مختصر او تصـغير للاسم اليـزابيث (المترجم)

(٨) اعـرض كـشحا وضرب كشحا: ترك، وابتعد، وهجر (المترجم)

من آثار المترجم



نبذة عن السيرة العلمية للدكتور الحسماني

١- بعد اتمام الدراسة الابتدائية والمتوسطة التحق بدار المعلمين الابتدائية ببغداد- مدة الدراسة فيها ٣ سنوات.

٢- حصل علي شهادة الثانوية العامة بجهده الذاتي خلال دراسته بدار المعلمين الابتدائية.

٣- حصل علي شهادة الليسانس في اللغة الانجليزية وادابها من دار المعلمين العالية (كلية التربية ببغداد).

٤- حصل على الدبلوم العالي في علم النفس من المملكة المتحدة.

٥- حصل علي الماجستير في علم النفس من المملكة المتحدة.

٦- حصل علي الدكتوراه في علم النفس من المملكة المتحدة.

عمل معلما في التعليم الابتدائي وعمل في الادارة فيه كذلك عمل مدرسا في التعليم الثانوي.

٧- عمل مدرسا لعلم النفس بجامعة بغداد.

٨- عمل مدرسا لعلم النفس بجامعة الرياض (جامعة الملك السعود الآن) في المملكة العربية السعودية، لموافقة جامعة بغداد.

٩- عمل استاذا مساعدا في مادة علم النفس في جامعة الامارات العربية المتحدة، بموافقة من جامعة بغداد.

١٠- عمل رئيسا لقسم علم النفس بجامعة بغداد.

١١- عمل وكيل كلية (نائب عميد) ثم عميدا بالنيابة في جامعة الامارات.

١٢- عمل خبيرا لمفردات علم النفس في المجمع العلمي العراقي.

١٣- حصل علي مرتبة الاستاذية في علم النفس وبقي استاذا لمادة علم

النفس ورئيسا لقسم علم النفس حتى طلب الاحالة على التقاعد بناء على طلبه الشخصي.

١٤- حاليا استاذ متمرس في علم النفس.

١٥- له حوالي (٣٠) كتابا منشورا، تأليفا وترجمة.

١٦- له اكثر من (٢٠) بحثا ميدانيا موسعا.

١٧- له اكثر من (٨٠) بحثا القيت في موتمرات وندوات علمية متخصصة محلية وعالمية.

١٨- له عشرات المقالات العلمية والبحوث المنشورة في المجلات العلمية والصحف.

١٩- له اكثر من (١٠٠) حديث اذاعي سجلها تصب في الميادين العلمية والتربوية والاجتماعية.

٢٠- حضر العديد من المؤتمرات العلمية والمحلية والعالمية، وله فيها اسهامات نالت شهادات تقديرية.

٢١- عضو في عدد من جمعيات علم النفس العالمية.

٢٢- حاصل على عدة شهادات تقديرية من مجالس علمية محلية وعالمية.

٢٣- عمل خبيرا لعلم النفس في المجمع العلمي العراقي.

٢٤- اشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه وعمل ممتحنا لعشرات الطلبة في الدراسات العليا- الماجستير والدكتوراه.

٢٥- خبرة واسعة في مجال الدراسات العليا.

٢٦- اسهم في صياغة حقوق الطفل النفسية العالمية.

من الانجازات العلمية المترجمة / الدكتور الجسماني

اولاً: مبتكرات

Students Altitudes Towards Various
Aspects of Teachers Training
A Psychological study
H. Dcp. Ed. Psych

Psychological Reserich into Progressive
Educational Theory and Practice
M. Ed. psych.

Mc Dougall,s Hormic Theory and
its Influence on subsequent
Psychological Thought.
ph. D

ثانياً:

كتب مؤلفة ومترجمة

- الطفل السوي وبعض انحرافاته: مقدمة عامة في سيكولوجية الطفولة (ترجمة)
- المدخل الى علم النفس الحديث ترجمة

- مأدبة افلاطون في الفلسفة ترجمة

- مقدمة عامة في فلسفة التربية ترجمة
- سيكولوجية الطفولة والمراهقة تأليف
- علم النفس العام تأليف (مع اخرين٩
- علم النفس والتعليم ترجمة
- علم النفس التربوي تأليف
- علم التربية وعلم نفس الطفل ترجمة
- علم النفس وتطبيقاته التربوية والاجتماعية تأليف
- موسوعة نفسية تربوية اجتماعية الجزء الاول تأليف
- موسوعة نفسية تربوية اجتماعية الجزء الثاني تأليف
- موسوعة نفسية تربوية اجتماعية الجزد الثالث تأليف
- اتجاهات الطلبة نحو مختلف جوانب اعدادهم تأليف
دراسة نفسية - ميدانية
- البحث عن الذات دراسة نفسية تحليلية ترجمة
- التربية المتجددة دراسة ميدانية تأليف
- علاجك النفسي بين يديك ترجمة
- مذكرات فتاة مراهقة ترجمة
- دكتور جيكل ومستر هايد: قصة نفسية ترجمة
- النظرية الغرضية النفسية واثرها في تغيير اتجات
علم النفس الحديث الجزء الاول تأليف
- الوراثة والسلوك الجزد الاول تأليف
- الوراثة والسلوك الجزء الثاني تأليف
- الاحلام وقواها الخفية ترجمة
- رسائل نفسية لها قصة ترجمة

ثالثا :
- أفاق جديدة في علم النفس: ترجمة للجزد الثاني
- المجتمع المعافى

رابعاً:
- التفكير الواضح
- علم النفس لكل رجل وامـرأة
- القلق

بحوث ميدانية موسعة

- التكيف النفسي والاجتماعي للشباب: دراسة ميدانية
- دراسة نفسية لظاهرة الخجل عند الشباب.
- دراسة لاتجاهات الطلبة الجامعيين: دراسة نفسية
- تحصيل الشباب ضد الجريمة: دراسة نفسية ميدانية
- بناء اداة القياس دافعية المعوقين نحو العمل.
- دراسة نفسية- اجتماعية تربوية لمشكلات الاطفال من وجهة نظر الاباء والمعلمين.
- دراسة تحليلية للقيم المستنبطة والمستقرأة من عملية تدريب الشباب.
- دراسة ميدانية نفسية- اجتماعية لمعوقي الحرب
- الشخصية العراقية الجديدة كما عبرت عن نفسها خلال الحرب: دراسة تحليلية
- دراسة نفسية ميدانية لكيفية استثمار اوقات الفراغ لدى الطلبة الجامعيين.
- دراسة ميدانية للاطفال المودعين في دور رعاية الدولة
- دراسة ميدانية للتوافق الزواجي والتفكك الاسري.
- دراسة ميدانية لبعض حالات الاجرام
- دراسة نفسية تحليلية لشخصية المتنبي من خلال شعره
- دراسة نفسية ميدانية لميول واتجاهات الطلبة في كلية الاداب.
- دراسة ميدانية لبعض مشكلات الطالب المراهق في الوطن العربي- دراسة نفسية تحليلية
- دراسة نفسية ميدانية لاتجاهات الطلبة حول التخصص في علم النفس والتوجه المهني للتدريس
- دراسة مقارنة في خصائص الشخصية للطلبة الجامعيين المدخنين وغير

المدخنين .

- دراسة القيم ومفاهيمها لدي الطلبة
- دراسة نفسية ميدانية للعلاقة بين البيت والمدرسة واثر ذلك في تنشئة المراهقين .

سادسا :

بحوث تطبيقية وتحليلية نشرت في مجلات متخصصة اجنبية وعربية ومحلية

سابعاً :

بحوث القيت في مؤتمرات وندوات خارج العراق وداخله ، عالمية ومحلية .

ثامنا :

مقالات نفسية وتربوية كثيرة نشرت في الصحافة العربية والعراقية

تاسعاً :

اكثر من (١٢٠) حديثا اذاعيا نفسيا وتربويا واجتماعيا .

95 - 03 - 30 - 05029


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الكتاب

كانت الأحلام على مدى العصور وما زالت تشغل بال الانسان فتثير فيه مختلف الانفعالات سلباً أو إيجاباً، حتى أنها قد أوحت إلى بعض الأنبياء كما أدت إلى اكتشافات واختراعات عديدة. وتتعدد أنواع الأحلام من تحذيرية وتذكيرية وإستبصارية وغيرها لدرجة أنها كرّست لنفسها مكانة خاصة وهامة في حياة الإنسان اليوميّة. فهي جزء من شخصيته وصورة عن حياته الغير ظاهرة للعيان، وهذا ما كشفه علم النفس التحليلي الحديث في دراسات فرويد ويونج وغيرهما، وهذا التحليل يُعوّل كثيراً على الأحلام في اكتشاف باطن الانسان وطريقة تفكيره ومعالجته للأمور. فالأحلام حياة أخرى للإنسان لا ينبغي إغفالها إذ هي رسائل نابعة من الذات وموجّهة إلى الذات، ومرآة يرى من خلالها ما هناك من تناقضات وخوف وتمنيات وأحلام يقظة في شخصيته.

الناشران